



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 02 - أبو القاسم سعد الله -
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ



المجتمع الريفي في الأندلس خلال القرنين

05- 06 هـ / 11- 12 م

Rural society in Andalusia During the centuries

05- 06 AH / 11-12 AD

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط

إشراف الأستاذ الدكتور:

توفيق مزاري عبد الصمد

إعداد الطالب:

عبد العزيز حاج كولة

أعضاء لجنة المناقشة

الصفة	الجامعة	الدرجة العلمية	الأستاذ
رئيسا	جامعة الجزائر 02	أستاذ التعليم العالي	أ.د. الحاج العيفة
مقررا	جامعة المديّة	أستاذ التعليم العالي	أ.د. توفيق مزاري عبد الصمد
عضوا	جامعة الجزائر 02	أستاذ التعليم العالي	أ.د. نور الدين غرداوي
عضوا	جامعة الجزائر 02	أستاذ التعليم العالي	أ.د. موسى هوارى
عضوا	جامعة المديّة	أستاذ محاضر أ	د. عبد الصمد حمزة
عضوا	جامعة المسيلة	أستاذ محاضر أ	د. طارق بن زاوي

السنة الجامعية 1443 - 1444 هـ / 2022 - 2023 م



Ministry of Higher Education and Scientific Research

University of Algiers 02- Abul-Qasim Saadallah-

Faculty of Humanities and Social Sciences

Department of History



**Rural society in Andalusia During the centuries
05-06 AH / 11-12 AD**

**A thesis submitted for obtaining a Doctor of Science degree in
medieval history**

Student preparation:

Abdelaziz Hadjkoulah

Supervised by Prof. Dr:

Toufik Mazari Abdessamad

Discussion committee members

Prof	Degree	University	Characteristic
Pr.Dr. Elhadj Alaifa	Professor of higher education	University of Algiers2	President
Pr.Dr. Toufik Mazari Abdessamad	Professor of higher education	University of Medea	Rapporteur
Pr.Dr. Noureddine Ghardaoui	Professor of higher education	University of Algiers2	Member
Pr.Dr. Moussa Houari	Professor of higher education	University of Algiers2	Member
Dr.Abdessamad Hamza	Professor of conference A	University of Medea	Member
Dr.Tarek Benzaoui	Professor of conference A	University of M'sila	Member

University year:1443-1444 H/2022-2023AD

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرفان:

الحمد لله على ما أنعم وأكرم وتفضل، ثم "من لم يشكر الناس لا يشكر الله"، فالشكر موصول لكل من ساهم في إنجاح هذا العمل وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور توفيق مزارى عبد الصمد الذي أكبر فيه جهده ونصائحه وتوجيهاته القيمة، والشكر لا يكفيه حقه، فأسأل الله التقدير أن يحجزه عني خير الجزاء، كما لا يفوتني أن أذكر الأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث الذي خصني بدراسات قيمة أفادت الموضوع كثيرا، فله مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان، ولا أنسى توجيه كلمات الشكر والتقدير إلى أستاذة اللغة العربية وآدابها شقيقتي الكبرى الأستاذة نعيمة حاج كولة على تجشمها عناء القراءة والتدقيق رغم ارتباطاتها العائلية والمهنية، وفي الأخير أشكر المهندس المعماري فيصل سويدى الذي ساعدني في إنجاز بعض الملاحق رغم ارتباطاته الكثيرة فله مني كل الشكر والعرفان

الإهداء:

إلى من ظلى دعاؤهما ينير لى درب الحياة أبى وأمى رب احفظهما وارحمهما كما ربى نى صغىرا ووفقى لبرهما .

إلى التى صبرت معى وهبات لى ظروف العمل والنجاح رفيقة دربى، زوجتى وأم أولادى "أسية" .

إلى أولادى رائد ومحمد وعائشة رب بارك لى فىهم وأنتهم نباتا حسنا .

إلى إخوتى وأخواتى وكل أفراد العائلة رب احفظهم أجمعين .

إلى كل مجاهد من أجل الجزائر التى حلم بها الشهداء .

إلى كل مخلص لقضيتنا الأولى فلسطين .

أهدي هذا العمل .

عبد العزيز بن حاشور سماج كولة

مقدمة

عرف البحث التاريخي في الآونة الأخيرة قفزة مشهودة، وذلك لما تطرق إليه من مواضيع تعنى بالجوانب الحضارية، لبلاد الغرب الإسلامي عموماً، والتي كانت إلى زمن غير بعيد، من المسكوت عنه أو في هامش التاريخ، وجاءت في الحقيقة هذه الدراسات، رداً على أصحاب الأطروحات من المستشرقين، الذين أرادوا بها النيل من التاريخ الإسلامي، معتبرين إياه تاريخاً للأمرء، بسبب حجم الدراسات التي عنيت بالمجال السياسي، سواء ما تعلق بالصراعات السياسية، أو قيام الدول وسقوطها، والاهتمام بسير الملوك والأمراء وكل ما تعلق بيومياتهم وحياتهم الخاصة، والتي سيطرت على ساحة البحث ردحاً من الزمن .

وعلى خلاف ذلك يرى أصحاب اتجاه جديد، إبراز دور مختلف عناصر المجتمع وأطيافه في الحياة العامة، باعتبارها عناصر فاعلة في حركة التاريخ، لأن التاريخ لم يصنعه الأمراء والحكام والساسة فقط، بل شارك فيه المجتمع كله، فأثر في مختلف ميادين الحياة، كما تأثر بما يحدث حوله من تغيرات، وربما يكون أحياناً موجهاً لكثير من الأحداث التاريخية.

ولكن على الرغم من كثرة الدراسات التي عنيت بالمجتمع الأندلسي، إلا أن القليل منها من اهتم بمجتمعه الريفي، الذي لا يظهر من حياته سوى ما يقوم به الفلاح من أعمال مرتبطة بالنشاط الفلاحي أما حياته الخاصة في أسرته وبين أبنائه، مشاكله وهمومه، ألامه وآماله، علاقاته بجيرانه وغيرها من المظاهر فإن الكثير منها ما يزال طي الكتمان.

* أسباب اختيار الموضوع:

يعتبر هذا الموضوع من المواضيع الجديدة بالبحث، في ظل التوجه الذي تعرفه الدراسات الحديثة، والتي تركز على الجوانب الحضارية، وهو ما يسهم في ردم الثغرات التي تركتها الكتابات والدراسات التقليدية من أجل بناء تاريخ شامل يهتم بكل العناصر الفاعلة فيه كما عبر عنه إبراهيم القادري بوتشيش.

فالمجتمع الريفي وحياة الفلاحين، كان من أهم العناصر الفاعلة في حركة التاريخ، فبالرغم مما كان يقوم به هؤلاء الفلاحون من نشاط فلاحي هام -وهو ما أثنت عليه مختلف المصادر الجغرافية والفلاحية على حد سواء- إلا أن ما يخص وضعهم الاجتماعي وحياتهم اليومية ومختلف الأنشطة التي كانوا يقومون بها، فإن الصمت يكاد يكون مطبقاً عليها، والغموض يلف معظم جوانبها.

فالإشارات التي تخص هذا المجتمع في مختلف المصادر، لا ترد إلا عرضاً، وهذا ما جعل البحث فيها

من الصعوبة بما كان، ومن هنا يحاول هذا العمل جمع هذه الحقائق المتناثرة والمعلومات المتفرقة في دراسة واحدة، هذا الأمر الذي يعتبره الجاحظ من أجل الأعمال وأكثرها فائدة فيذكر: "إن لكل شيء من العلم ونوع من الحكمة، وصنف من الأدب سببا يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتا ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقا، ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار واستنباط الآثار وضم كل جوهر نفيس إلى شكله وتأليف كل نادر من الحكمة إلى أهله بطلت الحكمة وضاع العلم..."¹.

إضافة إلى ذلك، جاءت الدراسة لتحاول البحث عن الحقيقة، في بعض الأقاويل والأطروحات الإستشراقية، ومن سار على نهجهم، والتي كثيرا ما تحاول الطعن في كل ما له علاقة بالإسلام، فتصور العرب تارة على أنهم طبقة أرستقراطية تركزت في المدن الأندلسية، بينما يشكل النصارى غالبية المجتمع الريفي، وتارة أخرى تدعي استحواذ هذا العنصر العربي على الأراضي السهلية والخصبة، بينما تركت للبربر الجبال والأراضي الوعرة.

ومن هؤلاء المستشرقين ليفي برونسسال الذي حاول ترسيخ هذه الأفكار في الكثير من دراساته، منها كتابه الموسوم بـ: "تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية 711-1031م" والتي ورد فيها أن المجتمع الزراعي تشكل من البربر القادمين من المغرب والمستعربين، بينما "كان هؤلاء العرب يتجمعون في المدن الهامة، ويتفادون بقدر الإمكان الأعمال المتواضعة قليلة الشأن"²، وفي موضع آخر يذكر أن العرب أجبروا البربر على الإقامة في المرتفعات مما كان له الأثر الواضح في تدني مستواهم المعيشي ورجوعهم إلى مواطنهم الأصلية في المغرب³. أما مونتغمري واط فيعتبر في دراسته المعنونة بـ: "في تاريخ إسبانيا الإسلامية" أن العرب تميزوا بالاعتداد النفسي ووضعهم الاقتصادي كان أفضل، بينما استقر البربر في الأرياف وتعاطوا العمل الزراعي، وقليل منهم من توجه إلى المدينة وتعاطى مهنا وضيفة⁴. وسار بعض

¹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، تع. وتص الشيخ طاهر الجزائري، ط2، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، 1351هـ، ص 3.

² ليفي برونسسال، تاريخ إسبانيا من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية 711-1031، تر. علي عبد الرؤوف البمي وآخرون، مر. صلاح فضل، د. ط، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002، ج2، ص ص 166، 167.

³ نفسه، ص 165.

⁴ مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، تر. محمد رضا المصري، ط2، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1998، ص ص 63، 64.

الباحثين المشرقين على هذا المنوال فعبد العزيز سالم في دراسته: "تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس" يرجع الأسباب الحقيقية لثورات البربر في الأندلس إلى: "استئثار العرب بالأراضي الخصبة دون البربر، وكان البربر لذلك كله يضمرون السوء للعرب"¹. أما عبد المنعم حمدي فهو الآخر يسير في هذا الاتجاه في دراسته المعنونة بـ: "ثورات البربر في عصر الإمارة الأموية" بالقول: "ولم ينظر عرب الأندلس إلى بربرها نظر الند للند، فقد استبد العرب دونهم بخيرات الأندلس وحرموهم منها"².

وبالرجوع إلى أسباب اختيار الموضوع، فإن فضل الأساتذة في التوجه إلى مثل هذه الدراسات واضح فخلال مرحلة الماجستير تم تناول موضوع: "الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس من خلال النوازل الفقهية في القرنين 05-06هـ / 11-12م"، والذي كان الأستاذ محمد الأمين بلغيث مشرفاً عليه، وإليه يعود الفضل بعد المولى جل وعلا في تحبيب هذا النوع من الدراسات إلى نفوس الطلبة، وبعد دراسة الموضوع، تم التفطن إلى أهمية التركيز على جانب واحد فقط، والذي يُمكن من احتواء المادة التاريخية، وفي نفس الوقت يساعد على تحليلها بشكل أكثر دقة، وتنأى بها عن العموميات والسطحية التي ميزت الدراسة السابقة، وبعد تشاور مع الأستاذ المشرف توفيق مزاري عبد الصمد، الذي نبه إلى أهمية دراسة كل ما تعلق بأرياف بلاد الغرب الإسلامي، فله يعود الفضل بعد الله عز وجل في هذا الاختيار، وتم ضبطه بـ: "المجتمع الريفي في الأندلس خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م".

* الدراسات السابقة:

ضمن التوجهات الجديدة في الكتابة التاريخية، فإن المجتمع الأندلسي قد حظي باهتمام العديد من الباحثين، فظهرت العديد من الدراسات في مختلف الفترات، لكن ما يلاحظ عليها أنها ركزت على مجتمع المدينة، ولم تف المجتمع الريفي حقه، فجاء ذكره عرضاً، أو من خلال جزئيات قليلة، من ذلك ما كتبه إبراهيم القادري بوتشيش في كتابه "مباحث في التاريخ الاجتماعي في مغرب والأندلس في عصر المرابطين" عن فئة المزارعين والرعاة، وجوانب من مشاكلهم، أو ما كان يملكه أصحاب النفوذ في العصر المرابطي من

¹ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، د. ط، بيروت، دار المعارف، د. ت، ص 124.

² حمدي عبد المنعم محمد حسين، ثورات البربر في عصر الإمارة الأندلسية 138-316هـ / 756-928م، د. ط، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ص 3.

عقارات وأراضي فلاحية، وبالرغم من تخصيصه لفصل عن التكوين القبلي في البوادي، إلا أنه غلب عليه الخوض في النظريات الخاصة بالقبيلة والعصبة، وانصب تركيزه على المغرب، باعتبار أن العصبة أكثر ظهوراً فيه من الأندلس.

كما يظهر حضور الفلاح الأندلسي في دراسة أحمد الطاهري "عامة قرطبة في عصر الخلافة"، من خلال ما ذكره في الفصل الأول عن دور العامة في النشاط الفلاحي، لكنه ركز على الجانب الاقتصادي دون غيره من الجوانب، بالرغم من أنه تفتن إلى غياب الدراسات التي تعني بالفلاح ويوميته.

وخصصت عصمت عبد اللطيف دندش فصلاً عن حياة البادية، في دراستها عن الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، لكن يغلب على ما ورد في هذا الفصل السطحية والعموميات، كما أن بعض النصوص التي أوردتها لا تعبر عن حقيقة المجتمع الريفي، ووردت إشارات أخرى عن المجتمع الريفي في دراسة سعيد بنحمادة، المعنونة بـ "الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 7-8هـ / 13-14م"، من خلال الصراع الذي كان قائماً في المجتمع الريفي بسبب الماء، لكن دراسته تتجاوز الفترة الزمنية التي حددتها الدراسة موضوع البحث، والأمر ذاته لدراسة عبد الهادي البياض عن "الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس خلال القرنين 6-7هـ / 12-13م"، والتي أبرز في أحد فصول الدراسة النزاعات التي تنشأ بين المزارعين بسبب ندرة التساقط، لكن الدراسة لم تفصل بين المغرب والأندلس، وهو ما يجعلها ضمن الدراسات غير المتخصصة.

أما الدراسات التي تناولت المجتمع الريفي فهي قليلة، مثل دراسة حسن قرني الموسومة بـ: "المجتمع الريفي في عصر بني أمية 138-422هـ / 756-1031م"، لكن إطارها الزمني يتوقف من حيث تبدأ الدراسة موضوع البحث، وهو ما يجعلهما يشكلان تاريخاً شاملاً عن المجتمع الريفي طيلة خمسة قرون بين 02-06هـ / 08-12م، كما أسهم يوسف نكادي في الكشف عن جوانب من حياة المجتمع الريفي من خلال بعض المقالات، منها "إسهامات البحث الأثري في الكشف عن جوانب من واقع البادية الأندلسي"، ومقال آخر بعنوان "الأسرة في البادية الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري"، وهي أبحاث مهمة خلال القرن الخامس الهجري، ولكنها لا تعدو أن تكون مقالات، بالإضافة إلى ذلك إسهامه في الكشف عن جوانب النشاط الفلاحي وما تبعه من نشاط تجاري على وجه التحديد، في دراسته عن

الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري"، أما ما كتبه محمود حسين هياجنة، في دراسته ضمن متطلبات شهادة الماجستير، بجامعة الأردن سنة 1989م، والتي كانت بعنوان: "الوضع الزراعي في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط دولة المرابطين"، فإنها تدخل ضمن العموميات، التي لم تفرق بين المجتمع الريفي ومجتمع المدينة، كما أن امتدادها الزمني الكبير جعل نتائجها محدودة.

* إشكالية الدراسة:

يعتبر المجتمع أحد أهم العناصر التي تقوم عليها الدول، هذا العنصر الذي قد يكون مصدر قوة لها بما يسهم به في البناء الحضاري، كما يمكن أن يشكل عامل ضعف، ومصدر قلق لها. وعليه فالإشكالية تتمحور حول هذه الفكرة، وتتمثل في: إلى أي مدى تفاعلت عناصر المجتمع الريفي، مع بيئتها ومحيطها الخارجي وأثرت في مختلف جوانب الحياة في أندلس القرنين 05-06هـ / 11-12م؟

ويندرج ضمن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات، يمكن حصرها فيما يلي:

- ما هو المجال الجغرافي والإداري للمجتمع الريفي؟ وما هي خصائصه؟
- هل عرف المجتمع الريفي تنوعاً إثنياً، أم سيطر عليه عنصر واحد فقط؟ وهل ينطبق عليه التقسيم الطبقي؟ وماهي أسسه ومظاهره؟
- ما هي المظاهر التي تميز المجتمع الريفي؟ سواء داخل الأسرة أو خارجها وبين مختلف أفردته؟ أو في مستواه المعيشي؟ وحتى في علاقاته المختلفة؟
- هل انحصر نشاط هذا المجتمع في الفلاحة، من زراعة وتربية للحيوانات، كمصدر رزق؟ أم تعداه إلى الأنشطة الصناعية والتجارية؟

* خطة الدراسة:

للإجابة على الإشكالية المطروحة، تم إعداد خطة تضمنت، مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وتم تذييلها بالملاحق والفهارس المتنوعة، وقد تناولت المقدمة الفكرة العامة للموضوع وإطارها الزمني والمكاني، وأسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة له، أو التي تقاطعت معه، مع إبراز جوانب الاختلاف، كما تضمنت المقدمة الإشكالية المطروحة، وشرحا للخطة المعتمدة، بالإضافة إلى المنهج المتبع، والتعريف بأهم المصادر

والمراجع التي ارتكزت عليها الدراسة، وفي آخر المقدمة تم إبراز الصعوبات والعراقيل المتعلقة بالبحث، والتي كانت سببا في طول مدة الإنجاز.

وفيما يخص المتن، فقد جاء الفصل الأول بعنوان "الريف الأندلسي - المجال والخصائص"، وتم من خلاله ضبط مفهوم الريف في اللغة والاصطلاح، وفيه يبرز أسباب اختيار هذا المصطلح في عنوان المذكرة عكس ما جرت عليه بعض الدراسات التي فضلت استخدام مصطلح البادية، وتضمن المفهوم أيضا مقارنة بين المصطلحين، لإزالة الإشكال عن أسباب تفضيل استخدام المصطلح الأول دون الثاني، وكان لزاما إبراز المجال الريفي في التنظيم الإداري الأندلسي، والذي تضمن عدة وحدات متدرجة أبرزها الدراسة بعد معرفة التنظيم الإداري الذي ميز البلاد خلال فترة الوجود الإسلامي، وختم الفصل بإبراز بعض الخصائص العامة للريف الأندلسي، سواء الطبيعية أو العمرانية والبشرية.

وبحث الفصل الثاني في مكونات المجتمع الريفي، فشمّل بذلك الإثنيات التي تمثلت في العرب والبربر وأهل الذمة، وكان لزاما البحث في تطور هذه العناصر منذ بداية الوجود الإسلامي في الأندلس، ومعرفة التطورات التي عرفها هذا الوجود، لإثبات حضورهم ضمن تشكيلة المجتمع الريفي خلال الفترة مجال الدراسة باعتبار أنها نتاج الفترات السابقة، ثم حاولت الدراسة استقصاء المصادر التاريخية لمعرفة أهم المناطق التي استوطنتها هذه الإثنيات، كما تضمن هذا الفصل دراسة الطبقات المكونة لهذا المجتمع، فتم تقسيمه إلى طبقتين طبقة مالكة للأرض وطبقة عاملة غير مالكة، وقُسمت الطبقة المالكة إلى ملاك كبار ومتوسطين وصغار، وبحث من خلالها مصادر التملك وأوجهها، والمشاكل التي اعترضتها، مشيرا في الوقت ذاته إلى وضعها الاجتماعي، أما الطبقة العاملة، فضمنت الفلاحين والمزارعين والرعاة والعمال الأجراء وكذلك العبيد وحاولت الدراسة، إبراز علاقتهم بأصحاب الملكيات، والمشاكل والصعوبات التي عرفت، مشيرة إلى وضعهم الاجتماعي.

وخصص الفصل الثالث للبحث في المظاهر الاجتماعية للمجتمع الريفي، بداية بالنواة الأولى لأي مجتمع وهي الأسرة، فحاولت الدراسة رسم صورة واضحة عن الأسرة الريفية، انطلاقا من تكوينها ثم مكوناتها لتنتهي إلى العلاقات الأسرية، كما تضمن الفصل دراسة المستوى المعيشي لهذا المجتمع، من خلال إبراز أربعة معايير هي: الغذاء بمعرفة ألوان الطعام وأنواع الفواكه والأشربة، التي عرفها هذا المجتمع، ثم تبين

ما كان يرتديه أفراد هذا المجتمع من لباس في مختلف أجزاء الجسم، ثم التعرف على منازل ومساكن ساكنة الريف الأندلسي سواء في مظهرها الخارجي، وأو أجزائه وتجهيزاته، وفيما يخص المعيار الرابع، فتمثل في الصحة من خلال رصد أهم الأمراض والأوبئة التي انتشرت وسط الساكنة، وأهم الطرق والوسائل المستعملة للتخلص من هذه الأمراض، وفي ختام الفصل حاولت الدراسة، البحث في العلاقات الاجتماعية السائدة بين مختلف أفرادها والتي تجلت في مظاهر التعاون والتضامن، من خلال التعاون في الأعمال الزراعية، أو مختلف سبل الخير التي عرفها كما بحثت في أسباب الخلافات والنزاعات بينهم، سواء تلك المتعلقة بالسقي أو لأسباب أخرى أدت إلى النزاع بين المتجاورين.

وأبرز الفصل الرابع المعنون بـ: "أنشطة المجتمع الريفي الأندلسي"، مختلف الأنشطة التي مارسها سكان المناطق الريفية، بداية بالنشاط الاقتصادي من أجل كسب لقمة العيش، والذي مثل المجال الفلاحي الركيزة الأساسية له، فبحثت الدراسة في طرق استغلال الأراضي الفلاحية والملكيات الزراعية وأهم التقنيات العملية المستخدمة للحصول في الأخير على المحصول الزراعي، كما أبرزت ضمن هذا النشاط، نشاط تربية الحيوانات بإبراز أهم مناطق الرعي، والنظم المنتهجة فيه، ثم أنواع الثروة الحيوانية التي أنتجها، ثم تم التطرق إلى المجال الصناعي بإبراز أهم الأنشطة الصناعية التي عرفها المجتمع الريفي، مثل الصناعة الغذائية والنسيجية وغيرها من الصناعات، أما المجال التجاري في هذا المجتمع فعرفت الدراسة بفضاءات هذا النشاط عند ساكنة الريف وأهم السلع والمعرضات الريفية سواء في الأسواق الداخلية أو الخارجية، وأخيرا بحثت الدراسة في أسعار بعض السلع والمنتجات الريفية. كما تعرضت الأطروحة في هذا الفصل إلى الجانبين الثقافي والديني للمجتمع الريفي في الأندلس، فأبرزت واقع التعليم عند هذا المجتمع، وإسهاماته في الحركة العلمية في ميداني الشعر والأدب والعلوم الشرعية، وفي الجانب الديني عرفت بالمظاهر الدينية عند هذا المجتمع من خلال إبراز عنايته بدور العبادة، وحرصه وعنايته بإحياء الشعائر الدينية، سواء كانت عبادات أو أعياد ومناسبات دينية.

* المنهج المتبع:

إن طبيعة الموضوع التاريخية، تحتم استعمال المنهج التاريخي الاستردادي، الذي يقوم على السرد والوصف، كما لا يغفل التحليل والمقارنة، فبالنسبة للوصف فإن إبراز مختلف المظاهر الاجتماعية، ويوميات

هذا المجتمع وتفاعلاته تستدعي ذلك، أما التحليل فإنه يظهر من خلال محاولة تفسير بعض المظاهر، مثل اختلاف تركز عناصر المجتمع بين المناطق، وتفسير اختلاف المستوى المعيشي بين طبقات المجتمع، ومعرفة أسباب تدهور العلاقات الاجتماعية بين ساكنة الريف، أما فيما يخص المقارنة، فإن مقارنة بعض المظاهر في هذا المجتمع مع نظيره في المدينة، خاصة ما تعلق ببعض العادات والتقاليد، تساعد على الوصول إلى نتائج تخص المجتمع الريفي.

كما استدعت الدراسة، استعمال منهاج بحث أخرى، وإن كان الاعتماد عليها قليلا، مثل المنهج الإحصائي، من خلال عرض وتقديم بعض الإحصاءات التي ذكرتها المصادر - خاصة الجغرافية منها - سواء كانت بالوصف أو رقما عدديا، كإحصاء جملة من القرى والحصون، في الفترة مجال الدراسة باعتبارها مناطق استقرار المجتمع الريفي، أو تقديم المعطيات الوصفية أو الرقمية الخاصة ببعض المنتجات والمحاصيل الزراعية.

ولأن هذا الموضوع يعتبر من المسكوت عنه، فإن كثيرا من جوانبه لم تذكرها المصادر، إلا ما ورد عرضا وقد تم الاعتماد على هذه الإشارات، للخروج باستنتاجات، تم تعميمها على المجتمع الريفي، لأن المظاهر الاجتماعية في البلاد الواحدة، لا تعرف اختلافا كبيرا في الغالب، كاستقراء لمظاهرها.

* عرض لأهم المصادر والمراجع:

* المصادر:

* كتب النوازل والحسبة:

أصبح من المسلمات في هذا العصر، ما لكتب النوازل الفقهية من أهمية في إثراء المعرفة التاريخية، بما تقدمه من مظاهر تخص الجانبين الاجتماعي والاقتصادي، فشددت إليها اهتمام الباحثين، وانكبوا عليها بالدراسة والتحليل، مستخرجين منها خمائر نفيسة، ذلك أن طبيعة هذه المستندات أكسبتها هذه الأهمية فهي من ناحية تتميز بالموضوعية والواقعية، لأن أصحابها لم يصنفوا هذه المؤلفات، تقريبا من عمر أو تزلفا لزيد، بل هي حلول شرعية لنوازل وقعت فعلا في المجتمع، ومن ناحية أخرى يتميز هذا النوع من التصانيف أنه يمس كل فئات المجتمع وشرائحه، مما جعلها تغوص في عمق المجتمع وتُعَيش يومياته، فتنتقل مظاهر عن حياة الفرد ويومياته، سواء داخل أسرته في علاقاته بين مختلف أفراد الأسرة، أو خارجها مع جيرانه، أو في

مكان عمله كما تناولت موضوع الأرض والملكيات الزراعية، والمشاكل التي صحت عملية الانتاج الزراعي والحيواني، وهي من صميم الموضوع الذي تبحث فيه الدراسة، بالإضافة إلى ذلك فإن أهمية هذه النوازل ازدادت، نظرا إلى قيمة أصحابها العلمية، وهو ما يُلمس في ثناء أصحاب التراجم على علو كعبهم في المذهب المالكي.

ومن هنا جاءت أهمية هذه المصنفات في الكشف عن واقع المجتمع الريفي، خاصة أن النازلة كثيرا ما كانت موطنة الزمان والمكان، فتذكر القرية أو الحصن أو الجهة أو الإقليم، وفي بعض الأحيان تذكر مصطلح البادية، كما تذكر سنة وقوع النازلة، أو يمكن التعرف عليه من خلال معرفة الزمن الذي عاش فيه الفقيه، الذي طرأت عليه النازلة.

وقد كان الاعتماد كبيرا على نوازل العصر، في مختلف مراحل الدراسة، فتم استخدام نوازل ابن سهل ت 486هـ / 1093م، التي حظيت باهتمام عديد الباحثين، فحقق محمد عبد الوهاب قطعا منه، قبل أن تحقق ثلاث مرات، وتم الاطلاع على جميعها والاستفادة منها، كما تم الاستفادة من نوازل الشعبي المالقي ت 497هـ / 1104م، وهذان المصنفان يخصان القرن 05هـ / 11م.

كما تم اعتماد مصنفات نوازلية تغطي القرنين 05 - 06هـ / 11 - 12م، مثل فتاوى ابن رشد الجد ت 520هـ / 1126م، والتي حظيت بتحقيقين علميين في إطار الرسائل الجامعية، وقد تم الاعتماد على التحقيق الذي قام به المختار بن الطاهر التليليلي، كما تم الاستفادة من فتاوى ابن الحاج الشهيد ت 529هـ / 1135م بنسختها المخطوطة رصيد الخزانة العامة بالرباط رقم ج 55، قبل الحصول عليها محققة، بسبب ظروف البحث، وهي التي قام بتحقيقها مؤخرا أحمد شعيب اليوسفي ونشرت سنة 2018، كما تم توظيف عدد من نوازل أحمد بن سعيد بن بشتغير ت 516هـ / 1122م، ونوازل القاضي عياض ت 544هـ / 1149م وولده محمد ت 575هـ / 1179م.

وتم الاستعانة ببعض الموسوعات النوازلية، مثل "المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب" لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي ت 914هـ / 1508م و "جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام" لأبي القاسم أحمد المعتل البلوي المعروف بالبرزلي ت 841هـ / 1438م، هذه الموسوعات التي ضمت فتاوى المتقدمين والمتأخرين، فحفظت الكثير من النوازل

التي تخص الفترة المدروسة.

أما كتب الحسبة، فإنها تدعو إلى إصلاح ما فسد من شؤون الحياة، خاصة ما ارتبط بالأسواق من ضروب الغش واحتكار للسلع، ومراقبة للأسعار، ولم تغفل بعضها عن ذكر ما فسد من أخلاق المجتمع فعكست كل هذه المظاهر صورة المجتمع الأندلسي عامة، وتضمنت إشارات هامة عن المجتمع الريفي، مثل أوضاع الأجراء في العمل الزراعي، وبعض مظاهر الفساد التي كانت تصاحب الأعراس، وضروب الغش المنتشرة في المطاحن والأرحاء، وقد تم الاعتماد على كتب الحسبة الخاصة بالفترة المدروسة، أهمها "كتاب رسالة في القضاء والحسبة" لمحمد بن عبدون التجيبي، ورسالة أحمد بن عبد الرؤوف المعنونة بـ: "في آداب الحسبة والمحتسب"، ورسالة أبي عبد الله محمد السقطي الموسومة "كتاب في آداب الحسبة".

* كتب الجغرافية والرحلة:

تعتبر كتب الجغرافية من أهم المصادر المعول عليها، في الدراسات التي تعنى بالجوانب الحضارية خاصة ما تعلق منها بالجانب الاقتصادي، فهي تنقل مشاهدات أصحابها حول المناطق التي زاروها، أو ما تدعى أسماعهم عنها، فتحفل بأوصاف ومعطيات هامة عن المحاصيل الزراعية، والمنتجات الصناعية ومدى حركية النشاط التجاري وازدهاره، وهو ما أمد الدراسة بمعلومات هامة عن حجم الانتاج الزراعي في أرياف البلاد وتوزيعه في مختلف مناطقها، كما أبرز بعض الأنشطة الصناعية والتجارية التي مارسها المجتمع الريفي، وكان هذا النوع من المصنفات الدعامة الرئيسية لمعرفة المجال الريفي في الأندلس.

وقد تم الاستفادة مما أورده جغرافيو الفترة مجال الدراسة، من معطيات في مختلف المجالات الاقتصادية ففرضت كتب كل من : العذري الدلائي ت 478هـ / 1086م المعنونة بـ: "ترصيع لأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك"، وجغرافية أبو عبيد البكري ق 05هـ / 11م "المسالك والممالك"، وكتاب "نزهة الشواق في اختراق الآفاق" للشريف الإدريسي ت 560هـ / 1165م وكتاب "الجغرافية" للزهري ق 6هـ / 12م، وقطعة من كتاب "فرحة الأنفس" لابن غالب المتوفى أواخر القرن 06هـ / 12م، نفسها في هذه الدراسة.

وبالإضافة إلى هذه المصادر، تم الاستفادة مما كتب بعض المتقدمين أو المتأخرين، تخص المجال الريفي لتكوين صورة متكاملة عن التطور الذي عرفته الفترة المدروسة، أو لتغطية بعض جوانب النقص فيها، ومن

هذه الكتب، "صورة الرض" ابن حوقل النصيبي ت 367هـ / 978م، و "معجم البلدان" لشهاب الدين ياقوت الحموي ت 626هـ / 1229م، و "الروض المعطار في خبر الأقطار" لمحمد بن عبد المنعم الحميري ت 727هـ / 1327م.

* كتب الفلاحة:

تشكل هذه المصنفات أهمية قصوى، لمن يبحث في النشاط الفلاحي، إذ تحتوي على معلومات قيمة عن أساليب وتقنيات العمل الزراعي، كما ترصد المخاطر التي تواجه المنتوجات الزراعية، وتعطي توجيهات وطرقا لمعالجتها وصيانتها، وبالرغم من أنها تعنى بالجوانب النظرية للعمل الزراعي، المستقاة من كتب الأوائل أو نتائج التجارب التي قام بها مصنفوها في حقول الأمراء، إلا أنها تضمنت إشارات هامة تخص واقع الفلاحين مثل لجوئهم إلى أنواع من النباتات البرية في أوقات الحاجة، أو بعض الأخطاء التي ارتكبوها في العمل الزراعي وأهمية بعض أنواع الحيوانات في المجتمع الريفي.

وقد تم استقاء هذه المعلومات من كتب الفلاحة، الخاصة بالفترة بالمدرسة، مثل كتب ابن بصال وكتاب أبي الخير الإشبيلي في القرن 05هـ / 11م، وكتاب ابن العوام في القرن 06هـ، كما تم الاعتماد على "تقوم قرطبة" لعريب بن سعيد، في أوقات العمل الزراعي ومواسمه.

ويضاف إلى هذا النوع من المصادر كتب النبات، التي أبرزت بعض العادات الغذائية التي تعتمد على النباتات، وما تشكله على صحة الإنسان، أو ما كان يستعمل منها لمعالجة بعض الأمراض، ومن هذه الكتب كتاب "النشاط والقوة والشفاء في الأغذية" وهو كتاب الأغذية" لأبي مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي ت 557هـ / 1162م، وكتاب ابن وافد الأندلسي ت 460هـ / 1068م، الموسوم بـ "كتاب الأدوية المفردة"

* كتب الأدب:

يتميز هذا النوع من المصنفات بالاهتمام بالجانب الأدبي، فتعني باللفظ والمبنى وتزويق الأسلوب وتنميته، وتحاول أن تبرز ما لأدباء الأندلس وشعرائها، من فضل وتفوق على سائر المناطق الإسلامية، ومن هنا فإنها لم تخل من المبالغات، التي يعسر معها الكشف عن الحقيقة، لكنها مع ذلك قدمت أوصافا لبعض المناطق الريفية، مثل كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني ت 542هـ / 1148م

الذي كان معاصرا لملوك الطوائف، إذ أورد إشارات هامة عن الحالة التي آلت إليها حياة الفلاحين خلال هذا العصر كما مكنت أوصاف بعض الشعراء والكتاب للمناطق الريفية، من رسم جوانب من المظاهر الاجتماعية، كما أفاد كتاب " المغرب في حلى المغرب " لابن سعيد المغربي ت 685هـ/1286م، في إبراز كثير من المظاهر الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الريفي، وهو الذي نقل عن مؤلفين عاصروا الفترة مجال الدراسة، وتبرز أهمية هذا الكتاب في تحديده الدقيق للمناطق الريفية من حصون وقرى، وقد أفاد الدراسة كثيرا في إبراز الشخصيات الثقافية الريفية التي عنيت بمجال الشعر بشكل خاص.

بالإضافة إلى هذه الكتب، تم الاستفادة من كتب الأمثال، التي تعتبر أدبا شعبيا، وتعبّر من خلاله مختلف الطبقات، على مختلف الظواهر التي تشاهدها، بعبارات بسيطة مستعملة لغة عامية ممزوجة بالفصحى ويمكن أن تكون هذه الأمثال متوارثة، أو طارئة على البلاد من مختلف المناطق الإسلامية، لكن شيوعها يعبر عن وجود هذه المظاهر، ووقد حملت هذه الكتب، أوصافا للمجتمع الريفي، في بعض جوانب حياته الاجتماعية والاقتصادية، ومن أهم كتب الأمثال، كتاب أبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزجلي ت 694هـ/1295م الموسوم بـ: " أمثال العوام في الأندلس"، حققه محمد بن شريفة واستخرجه من كتابه " ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام"، و"مجموع ابن عاصم"، وكذا "مجموع اموريסקي الغرناطي" المحققان والمنشوران ضمن كتاب محمد بن شريفة الموسوم بـ " تاريخ الأمثال والأزجال في المغرب والأندلس".

* كتب التاريخ والتراجم:

بالرغم من أن الدراسة تعنى بالجانب الاجتماعي للريف الأندلسي، إلا أنه لا يمكن الاستغناء على كتب التاريخ، لأن هذه الكتب تتضمن إشارات عابرة عن بعض الأزمات التي يتعرض لها المجتمع بين الفينة والأخرى، سواء كانت طبيعية أو سياسية، وما ينجر عنها من عواقب على المجتمع، كما لا يمكن دراسة المجتمع بمعزل عن الأحداث السياسية التي عرفت هذه الفترة، لأن الكثير من المظاهر التي شهدتها هذا المجتمع، يمكن تفسيرها في سياق الأحداث التاريخية التي ضمتها هذه المصنفات.

ومنه كان الاعتماد على مجموعة من كتب التاريخ، منها ما كتبه ابن حزم الظاهري، الذي يعتبر من أشهر المؤرخين في القرن 05هـ/11م، التي تضاهي شهرته في الفقه، ولا شك أن قيمة ما كتبه، تكمن في معاصرته للفترة المدروسة من جانب، ومن جانب آخر إلى قيمة ابن حزم العلمية، ولذلك فإن كتبه تمتاز

بالدقة والتحقيق، ويأتي كتاب " جمهرة أنساب العرب " على رأس هذه الكتب، وقد أفاد هذا الكتاب في تحديد مواطن العرب والبربر في الريف الأندلسي، فهو في تعريفه بهذه الأنساب يذكر موطنها في الأندلس بدقة، كما يذكر بقاءها فيه من عدمه إلى غاية القرن 05هـ / 11م، وكان يستخدم مصطلحات القرية والجهات والأعمال، وهي مصطلحات تشير إلى الريف، وهو ما ساعد على معرفة مواطن هذه العناصر. بالإضافة إلى ذلك فإنه قد تم الاعتماد بصفة أقل على بعض رسائله، التي حققها إحسان عباس، تحت عنوان " رسائل ابن حزم الأندلسي ".

كما تم الاعتماد على بعض كتب المتأخرين عن الفترة المدروسة، والتي كانت لها أهمية بالغة في الحفاظ على الكثير من نصوص مؤرخي الفترة المدروسة، كما أن الإشارات الواردة عندهم بالغة الأهمية فابن عذاري المراكشي، صاحب كتاب " البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب "، ينقل إشارات عن أوضاع الفلاح الأندلسي الصعبة، خاصة في الأيام الصعبة التي تعرفها البلاد، كما يحتوي كتاب " الإحاطة في أخبار غرناطة " للسان الدين ابن الخطيب، إشارات عن إسهام المرأة في العمل الزراعي، ويصرح بنوع الغذاء المنتشر في الأرياف في فصل الشتاء، أما المقرئ التلمساني، صاحب كتاب " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب "، فخصص في كتابه جزءا لجغرافية الأندلس ومدنها فأعانت في تصور النشاط الاقتصادي عند المجتمع الريفي، بالإضافة إلى إشارات تخص الجانب الاجتماعي كما تضمن إشارات عن استقرار القبائل في أرياف البلاد.

أما كتب التراجم، فإن طبيعة هذه المصنفات، تجعلها قادرة على إزاحة الستار عن العديد من الجوانب الاجتماعية، التي تخص الفقهاء والعلماء في الأندلس، فتكشف عن الملكيات الزراعية لهذه الطبقة ووسائل تملكهم لها، كما أنها تكشف عن استقرار بعضهم أرياف الأندلس، ومزاولتهم النشاط الفلاحي وغيرها من النشاطات، فتم الاعتماد على ما كتبه القاضي عياض ت 544 / 1150 في " ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مالك "، أو ما كتبه الحميدي ت 488هـ / 1095م في " جذوة المقتبس " وابن بشكوال ت 578هـ / 1183م في " الصلة ".

* المراجع:

اعتمدت الدراسة على مجموعة من الدراسات والأعمال الحديثة، التي أضاءت الطريق في كثير من

مراحل العمل، ويمكن القول أن الكثير من جزئيات الموضوع وتفصيله، استندت إلى دراسة متخصصة على الأقل، ومن هذه الدراسات:

- دراسة حسين مؤنس المعنونة بـ: " فجر الأندلس"، وهي دراسة قيمة لا غنى للباحثين عنها في معرفة بدايات الوجود الإسلامي وتنظيماتهم الإدارية في الأندلس، وقد أفادت الدراسة في تحديد مجال الريف، في التقسيم الإداري للأندلس، ورغم أن الدراسة تعالج بداية الوجود الإسلامي، إلا أن التقسيم الإداري صالح في كل الفترات حسب صاحب الدراسة، وذلك من خلال تنقيبه في مختلف المصادر الجغرافية، وهذا ما جعل الاعتماد كبيرا عليه في هذه الجزئية، والحقيقة أن كل من كتب عن هذا التقسيم بعد مؤنس، يعتبر عالة عليه مثل عبد الواحد طه ذو النون، وأبو المعاطي زكريا، وحسن قبني وغيرهم.

- دراسة محمد حقي الموسومة بـ: " البربر في الأندلس"، وهي دراسة مهمة تتبع فيها صاحبها تطور هذا العنصر من الفتح إلى غاية نهاية عصر ملوك الطوائف، وقد أفادت الدراسة موضوع البحث، في معرفة أطوار استقرار البربر في الأندلس منذ الفتح إلى القرن 05هـ / 11م، وأماكن استقرارهم، خاصة أنه اعتمد منهجية سهلت الاستفادة منه، فقد بدأ بالجهات والأقاليم-رغم أنه تناوله لها بشكل سطحي- ثم يتناول استيطان هذا العنصر في المدن.

كما استفادت الدراسة في هذا الجزء، من أطروحة دكتوراه بعنوان: " الدور السياسي والإسهام الفكري لسنهاجة في الأندلس من القرن 04هـ إلى غاية نهاية القرن 06هـ / 10-12م" من جامعة وهران سنة 2016-2017، لصاحبها عبد القادر يخلف، ولا شك أن الفائدة كانت كبيرة لموضوع المجتمع الريفي في الأندلس، فيما تعلق بهذه القبيلة، باعتبارها عنصرا هاما في الحياة العامة في الأندلس خلال فترة ملوك الطوائف والمرابطين.

- دراسة ميلود كعواس الموسومة بـ: " نوزل الأسرة بالمغرب الأقصى والأندلس خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م"، وهي تشترك مع الدراسة موضوع البحث في الإطار الزمني والمكاني، وقد استطاع صاحب الدراسة أن يقوم بعملية مسح لنوازل العصر الخاصة بالأسرة، وقد جمع هذه النوازل في الباب الثاني من الدراسة، ورغم ما احتوته من مسائل تهم الأسرة الأندلسية في كل جوانبها، غير أنه لم يفرق بين الأسرة في الريف والأسرة في المدينة، لكنه شكل دليلا لكثير من القضايا المتعلقة بالأسرة والتي ضمتها المذكرة

وبالرغم من الجهد المبذول من طرف صاحب الدراسة، إلا أن نتائجه تبقى قاصرة، لأنه اعتمد في تحليله على ما ذكرته النوازل فقط.

- دراسات يوسف نكادي، حيث ركز في معظمها على القرن الخامس الهجري، فكانت دراسته الأولى بعنوان "الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري"، واعتمد فيها على نصوص مصدرية متنوعة، في الكشف على واقع الزراعة في تلك الفترة، وما صاحبها من نشاطات موازية كالنشاط التجاري، فأفادت بذلك موضوع البحث فيما تعلق بمصادر رزق المجتمع الريفي. أما دراستيه الأخريين، فعبارة عن مقالتين ركز فيهما على الأسرة الريفية، الأولى بعنوان "إسهامات البحث الأثري في الكشف عن جوانب من واقع البادية الأندلسي"، والثانية موسومة بـ: "الأسرة في البادية الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري"، وقد أفادت موضوع البحث في هذا الجانب، خاصة أنه اعتمد فيهما على نتائج الأبحاث الأثرية، التي شملت العديد من المناطق الريفية في الأندلس (إسبانيا اليوم).

- دراسة أبو المعاطي زكريا، المعنونة بـ: "الملكيّات الزراعية وأثرها في بلاد المغرب والأندلس 238 - 488هـ / 852 - 1095"، وهي دراسة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة، سنة 2000م وتضم الدراسة معلومات مهمة عن الحياة الريفية في المنطقة، واعتمد فيها الباحث على عدد هام من النوازل، والتي كانت دليلاً أفادت به دراسة المجتمع الريفي، غير أن ما يعاب على هذه الدراسة، توظيف النصوص النوازلية في بعض الأحيان بشكل غير مناسب، واستخدام نصوص لا تصلح للاستشهاد بها في موضوع الملكيات الزراعية، وتوظيف نصوص أخرى خاصة بالمدن، للاستشهاد بها عن القرى، وغياب الدقة في توظيف المعلومة من النوازل وهذا ما سيؤثر حتماً في قيمة النتائج المتوصل إليها.

الصعوبات والعراقيل:

لم يكن البحث في المجتمع الريفي بالأمر الهين، فأول صعوبة واجهته تمثلت في قلة النصوص المصدرية في بعض جوانب الدراسة، مما حتم الاجتهاد في الاستنتاج لبناء تصور عن هذه الظاهرة أو تلك، مع الالتزام بمنهج البحث التاريخي، وفي بعض الأحيان تظهر نصوص عن منطقة ريفية، بينما تغيب عن باقي المناطق مما فرض تعميم بعض المظاهر على بقية الجهات، أو الاستفادة من نصوص متقدمة أو متأخرة على فترة الدراسة لتغطية هذا النقص، باعتبار أن الظاهرة الاجتماعية، قد تسود في كافة البلاد، مع وجود فروق

بسيطة بين مناطقها كما أن هذه الظاهرة تتوارثها الأجيال، فتدوم لفترات طويلة.

بالإضافة إلى ذلك، فإن بعض النصوص خاصة النوازلية، تتميز بلغتها الفقهية، التي تحول دون فهم النازلة، ومن هنا وجب شرح هذه المصطلحات، مما عرقل نوعاً ما من سير البحث.

ومن الصعوبات المنهجية التي واجهت البحث، عدم القدرة على تحقيق التوازن بين فصول الأطروحة ويتضح البون الواسع في الفصل الرابع، فقلة المادة المتعلقة بالجانب الثقافي والديني عند المجتمع الريفي وعدم بلوغها نصاباً يُمكن من جعلها في فصل مستقل، دفع إلى إدماجها في الفصل الرابع ضمن أنشطة المجتمع الريفي الأندلسي.

وفي الأخير لم يكن هذا العمل أن يكون بهذه الصورة لولا توجيهات ونصائح المشرف الأستاذ الدكتور توفيق مزاري عبد الصمد ، فله جزيل الشكر وعظيم الامتنان على تحشمه عناء القراءة والتصحيح وعلى تشجيعه المتواصل طيلة فترة الإشراف من أجل إتمام العمل، فجزاه الله خير الجزاء وجعل هذا الجهد في ميزان الحسنات.

الفصل الأول

الريف الأندلسي – المجال والخصوصية:-

أولا/ الريف – المصطلح والدلالة-

ثانيا/ الريف الأندلسي في التقسيم الإداري للبلاد

ثالثا/ خصائص الريف الأندلسي

أولاً: الريف – المصطلح والدلالة – :

1- مفهوم الريف

أ- الريف في اللغة:

يذكر ابن منظور أن الريف في اللغة يعني: "الخصب والسعة في المأكل ، والجمع أرياف والريف ما قارب الماء من أرض العرب وغيره، والجمع أرياف وريوف، والريف أرض فيها زرع وخصب، ورافت الماشية رعت الريف، وفي الحديث تفتح الأرياف فيخرج إليها الناس، وهي جمع ريف، وهي كل أرض فيها زرع ونخل"¹، أما الفيروز آبادي فيذكر: "الريف بالكسر أرض فيها زرع وخصب وسعة في المأكل والمشرب وما قارب الماء من أرض العرب أو حيث الخضر والمياه والزرع"².

ويجعل ابن منظور الريف جزءاً من الحضر، فعند شرحه لمعنى الحضر يقول: " والحاضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأنهم حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار"³، فحمل الريف بهذا المعنى دلالتين: الأولى حضرية تعني الاستقرار، ويعتبر الماء من أهم العوامل التي تفسر أسباب اختيار الإنسان الاستقرار في الريف وهذا ما يترجم تجمع المساكن الريفية عادة حول البئر أو ينبوع المائي، أو بجوار الأنهار والجاري المائية الأخرى⁴، وقد أطلقت كلمة ريف في مصر، على الأراضي الخصبة الداخلية الممتدة على ضفتي النيل، أما في المغرب والأندلس فتطلق على الأراضي التي تحف البحر أو المحيط⁵.

والدلالة الثانية زراعية، إذ يعيش أغلب سكان الريف على الزراعة واستثمار التربة، فلا تستقيم

¹ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، بيروت، دار صادر، د. ت، ج 09 ص 128، مادة ريف.

² مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ت 817هـ، القاموس المحيط، تح. محمد نعيم العرقسوسي، ط8، بيروت مؤسسة الرسالة، 2005، ص 815، مادة ريف.

³ ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص197، مادة حضر.

⁴ محمد رابح فيسة، معايير العمران الريفي وتحليلاتها الميدانية في ريف تلمسان- قرى بني سوس نموذجاً-، " الإنسان والمجتمع" العدد 07، ديسمبر 2013، جامعة أبوبكر بلقايد – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية-، ص 194 199.

⁵ أحمد مختار العبادي، الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية- الصناعة والأصناف-، " عالم الفكر"، العدد 01 أبريل- جوان 1980، الكويت، وزارة الإعلام، هامش 02، ص 188.

حياتهم إلا بها ، وقد لجأ الإنسان منذ القدم إلى الأراضي السهلية لما لها من مزايا تسهل الحرث واستخدام العتاد الفلاحي ، ثم استطاع الإنسان بفضل جهوده المتواصلة إلى استيطان الشعاب الضيقة ، وسط الجبال والسفوح الجبلية واستغلالها¹.

ب- الريف في الإصطلاح:

من خلال التعريف اللغوي للريف، يتضح المعنى الإصطلاحي له، فيمكن القول أنه نوع معين من المناظر الخاصة بمنطقة ترابية مفلوحة من قبل الإنسان، أو على الأقل يستعملها للفلاحة أو لتربية المواشي والأنعام بصفة عامة²، ولما كان معاش سكان هذه المناطق على الفلح والزراعة كان الإستقرار فيها والمقام بها أولى، بل إنهم أكثر الناس ارتباطاً بالأرض لأنها محور حياتهم وهؤلاء هم سكان المدر والقرى والجبال³.

ويجعل ابن خلدون كل ما هو خارج الحواضر والمدن، مجالا ريفيا، وذلك لطبيعة النشاط الذي يقوم به أهل الريف، فيقول: "وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولا بد إلى البدو؛ لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك"⁴

ولا بد من الإشارة إلى أن التعابير الخاصة بسكان الريف، لم يكن استعمالها موحدا في جميع الأقاليم الإسلامية ففي العراق يستعمل مصطلح السوادية أو أهل السواد نسبة للفظ السواد⁵، للدلالة على سكان القرى في الريف، أما القروي أو القرياتي فتلك لفظة يستعملها أهل الشام، بينما في بلاد فارس تستعمل

¹ رايح فيسة، المرجع السابق، ص 194، 199

² نفسه، ص 294.

³ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ت808 هـ، مقدمة ابن خلدون، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة ناشرون، 2005 ص130؛ أحمد علي إسماعيل، دراسات في جغرافية المدن، ط4، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1988، ص 16.

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ص 129

⁵ شاع هذا المصطلح بين المسلمين عند انطلاق الفتوحات الإسلامية في عصرها الأول، ويراد به جماعة النخل والشجر، سمي بذلك لخضرته، لأن الخضر عند العرب تقارب السواد، والعرب تقول لكل أخضر أسود، لذلك أطلقوا على العراق الجنوبي "السواد"، لكثافته خضرته حتى السواد بالشجر والنخل. انظر: لسان العرب، المصدر السابق، ج3، ص 225، مادة سود؛ ناجية عبد الله، المعايير المميزة للريف والحضر، "مجلة المجمع العلمي العراقي" المجلد 39- ج2 بغداد، 1988، ص 187.

لفظة رستاقي لنفس الغرض¹.

ومن الألفاظ المرادفة للريف "البادية"، وقد فضل بعض الباحثين استعمال هذا اللفظ في تاريخ الغرب الإسلامي، وهم يقصدون بذلك الريف² فهل يحمل المصطلحان المعنى ذاته؟ أم أنهما يختلفان؟

3- الفرق بين الريف والبادية:

يبدو أن هؤلاء الباحثين قد ساروا على النهج الخلدوني، في مفهومه للبداوة، الذي لا يعني عنده ذلك المفهوم الضيق، الذي يحصرها في سكان القفار، بل هو حالة عامة تشمل المستقرين، وأنصاف الرحل، والرحل مع تفاوت بينهم في المستوى المعيشي، فالمستقرون يسكنون القرى ويعيشون من الزراعة ولكن سكناهم ومعيشتهم بسيطة، وهذا ما يميزهم عن المدن، وإن كانوا أهل مدر ومدامر، وليس البدو حسبهم هم الرحل فقط³.

ولا يمكن أن يتضح الفرق الجوهرى، إلا بتعريف البادية في اللغة، ومحاولة ضبط تعريف لها في الاصطلاح، ففي كتب اللغة البادية مشتقة من فعل بدا، يبدو بدوا، أي ظهر وبرز فالبادية بادية لظهورها وبروزها⁴، وقد جاء معنى الظهور في قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا

¹ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977 ج1، ص 38؛

رابح فيسة، المرجع السابق، ص 295؛ ناجية عبد الله، المرجع السابق، ص 187.

² من أمثلة ذلك: إبراهيم القدري بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي ط1، بيروت، دار الطليعة، 2002، ص ص 32-45، والذي عرف فيه مخطوطة ابن الحاج باعتبارها مصدرا جديدا في تاريخ البادية بالمغرب والأندلس، ونشر الباحث نفس المقال، معتمدا على مصطلح القرية الذي يدل على الريف أكثر من البادية. انظر: إبراهيم القدري بوتشيش، مخطوطة نوازل ابن الحاج مصدر جديد في تاريخ المجال القروي بالمغرب والأندلس في عصر المرابطين، " البادية المغربية عبر التاريخ"، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 77، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1999، ص ص 29-42؛ عبد الهادي البياض، تدبير النزاع بين الفلاحين في بوادي المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، " أعمال ندوة لتاريخ والقانون- التقاسمات المعرفية والاهتمامات المشتركة"، جامعة مولاي إسماعيل مكناس، 2009، ص ص 361-379؛ يوسف نكادي، إسهامات البحث الأثري في الكشف عن جوانب من واقع البادية الأندلسي، " أعمال الورشة الأولى لأيام تاريخ المغرب"، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية إفران، 22-24 نوفمبر 2004، ص ص 21-07.

³ ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 130، 131؛

⁴ ابن منظور، المصدر السابق، ج14، ص 67، مادة البادية؛ أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين تح. مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، د.ط، د. ت، ج8، ص 83.

نُهِوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾¹

ويعرفها ابن منظور بأنها: " اسم للأرض التي لا حضر فيها، والاسم البدو فإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري قيل: قد بدو، ومنها البادية خلاف الحاضرة، والحاضرة هم القوم الذين يحضرون المياه وينزلون عليها، فإذا برد الزمان ظعنوا عن أعداد المياه وبدوا طلبا للقرب من الكلاء، وينسب البادية بدوي، فيقال للموضع التي يتبدى إليها بادية... وقيل للبرية بادية وتبادى تشبه بأهل البادية، والبادوة بفتح الدال وكسر الباء تعني الإقامة في البادية"²

وقد ورد ذكر البادية والبدو في القرآن الكريم في عدة مواضع، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٠﴾﴾³، وعن أهل البدو من الأعراب يقول تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾⁴.

ومنه يمكن القول أن البادية هي الأرض الخالية من البناء وال عمران⁵، والتي تشكل مجالا حيويا للقبائل البادية والظاعنة في حلها وترحالها، مشكلة نمطا من أنماط الحياة المجتمعية، وهي بداية تكيف الفرد والجماعة مع الظروف البيئية الصعبة، مرتكزين على مجموعة من القيم العادات والتقاليد⁶.

ويؤكد هذا المفهوم ما جاء في وصف السلاوي لأهل البادية من المرابطين⁷، إذ يقول: " وفيهم قوم لا

¹ سورة الأنعام، الآية 28

² ابن منظور، المصدر السابق، ج14، ص 67؛ الفراهيدي، المصدر السابق، ص 83.

³ سورة يوسف، الآية 100.

⁴ سورة الأحزاب، الآية 20.

⁵ ناجية عبد الله، المرجع السابق، ص 201.

⁶ سكيئة عمير، ريف المغرب الأوسط في القرنين 05-06هـ/ 11-12م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف إبراهيم بكير بحاز، جامعة قسنطينة 02، 2012-2013، ص06.

⁷ المرابطون: قبائل صنهاجة، أهمها جدالة وملتونة، التي تنتجع الصحراء جنوب المغرب، بيوهم من الشعر والوبر وتنقل بين المناطق على عادة العرب بحثا عن الماء، يعرفون بالملتئين ملازمهم اللثام، أطلق عليهم عبد الله بن ياسين اسم المرابطين، واختلف في سبب ذلك

يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة، وإنما أموالهم الأنعام، وعيشهم اللحم واللبن، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزاً، إلا أن يمر ببلادهم التجار، فيتخفونهم بالخبز والدقيق"¹

وعلى الرغم من أن ابن خلدون لا يفرق بين الريف والبادية، ويجعلهم سواء، ويسمي كل ما هو خارج أسوار المدينة بدواً، إلا أنه لا يجعلهم في صنف واحد، وأساس التفرقة عنده الاستقرار الذي يعتمد على الحرفة" فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلاح كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال... ومن كان معاشه من السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتداد المسارح والمياه لحيواناتهم... وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعناً وأبعد في القفر مجالاً..."².

وربما الأساس الذي اعتمده ابن خلدون في جعل الريف والبادية سواء، هو المستوى المعيشي، الذي يختلف عن سكان المدن، ويشمل الطعام واللباس والسكن، فأهل البدو يقتصرون على الضروري منها "وسائر الأحوال والعوائد، ومقصورون عما فوق ذلك من كمالي أو حاجي ويتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة"³، وإنما كان تفردهم بهذه العوائد، لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية، وانتبأهم عن الأسوار والأبواب⁴.

وعلى كل يمكن القول، أن الريف يختلف عن البادية، في عدة جوانب، فطبيعة النشاط الذي يقوم به أهل الريف المرتكز على الزراعة وتربية الحيوانات، جعلتهم أكثر الناس استقراراً لارتباطهم بالأرض، والتي

بين ملازمتهم الرباط فهو خاص بجدالة لأن الرباط الذي بناه عبد الله بن ياسين كان على أرضهم، وبين ملازمتهم للجهاد والصبر عليه، فكان خاصاً بلمتونة التي كانت القوة التي اعتمد عليها الفقيه ابن ياسين، بعد معارضة جدالة له. انظر: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (608-681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، د. ط، بيروت، دار صادر، د. ت، ج7، ص 128؛ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى - الدولتان المرابطية والمرحدية-، تح. جعفر الناصري ومحمد الناصري، الرباط، دار الكتاب، 1954، ج2، ص 3؛ أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، د. ط، بيروت، دار النهضة العربية، د. ت، ص ص 272-274؛ محمد الأمين بلغيث، الربط في المغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، مذكرة ماجستير، إش. عبد الحميد حاجيات، جامعة الجزائر، 1986-1987، ص 181.

¹ السلاوي، المصدر السابق، ص3

² ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 130-131.

³ نفسه، ص 130.

⁴ نفسه، ص 134.

تشكل عنصرا هاما في الحياة الريفية، ولم يكن هذا الاستقرار متاحا لولا وجود عنصر الماء بأشكاله المختلفة هذا العنصر الهام الذي يحتاجه نشاطهم بصفة خاصة. فظهرت تجمعاتهم السكانية متمثلة في القرى والمداشر، أما البادية فتتعدى فيها المظاهر العمرانية، ويغلب على أهلها الترحال والتنقل، بحثا عن الكأ والماء لحيواناتهم.

وحسب ما تم ذكره فإن مصطلح الريف ينطبق على بلاد الأندلس، أكثر من البادية، وذلك لما دلت عليه النصوص فابن حوقل الذي زار الأندلس في القرن 4هـ / 10م، يصفها بكثرة العمارة فيقول أن الأندلس: " فيها غامر وأكثرها عامر مأهول، ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والأنهار العذبة والرخص والسعة في جميع لأحوال"¹.

وما يدل عل أنها كثرة العمارة " أنه لا يمشي الإنسان فيها فرسخين دون ماء، ولا يمشي ثلاثة فراسخ إلا وجد فيها الخبز والزيت والخوانيت"²، أما ابن سعيد فيصفها بقوله: " وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة أهدقت بها البحار، فأكثر فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمضى سافرت من مدينة إلى مدينة، لا تكاد تنقطع العمارة ما بين قرى ومزارع، والصحاري فيها معدومة"³، وهذا ما جعل الأندلس في عداد المجتمعات المائية، فشكلت الزراعة والأرض فيها قوة الإنتاج الرئيسية⁴.

وقد شاهد يوسف بن تاشفين⁵ ما تتميز به بلاد الأندلس، فقد أمعن التجول في كورة إشبيلية¹

¹ أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، د. ط، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1996، ص 104.

² أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري ت ق 06هـ / 12م، كتاب الجغرافية، تح. محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت، ص 80

³ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، بيروت، دار صادر 1988، ج 1، ص 205.

⁴ إبراهيم القدري بوتشيش، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث حتى ظهور الخلافة (250-316هـ)، د. ط، الرباط، مطابع منشورات عكاظ، د. ت، ص 72.

⁵ يوسف بن تاشفين : أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الممتوني ، مؤسس الدولة المرابطية وأميرها الأول، بنى مراكش العاصمة سنة 465هـ / 1073م، أنقذ الأندلس من السقوط في موقعة الزلاقة 479هـ / 1086م، نشأ في شطف العيش وحشونته، فلم تغره الحضارة والمدنية، فكانت سيرته حسنة وتنتشر العدل في عهده. لمزيد الترجمة انظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ص 112 وما بعدها؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح. سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط 1، الرباط، دار الرشاد الحديثة، 1979، ص 24 وما بعدها؛ ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ

وراقه غناها، وجذبتة خصوبة أرضها، ففيها الرساتيق على مسافة عشرين فرسخا، عامرة بالضياء، كلها تين وعنب وزيتون، فأعجب بها وهو الذي قضى مرحلة طويلة من حياته في صحراء قاحلة²، فاستصغر مملكته أمامها، وأسّر لبعض ثقاته: "كنت أظن أني قد ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة إلى تحصيلها"³

وبما أن الأندلس كثيرة العمارة، قد يختلط على البعض التمييز بين الريف والمدينة منها خاصة أن كليهما حضر⁴، فما هي المعايير التي تميز العمران الريفي؟

4- معايير تمييز الريف:

يعتبر الماء والأرض الزراعية، شرطان أساسيان لتمييز الريف، وذلك حسب ما أكده علماء اللغة فتكونت التجمعات الريفية، وتميزت عن غيرها من المجتمعات بمجموعة من الخصائص اعتبرها علماء الاجتماع معايير يمكن من خلالها تمييز الريف.

يأتي في مقدمة هذه المعايير، المعيار الوظيفي، ويقصد به الخدمات الإدارية والاجتماعية والعلمية والدينية، فقد اختصت المدن بمؤسسات دينية ودنيوية، تميزها عن الأرياف، كالمساجد الجامعة والحمامات

مدينة فاس، د. ط، الرباط، صور للطباعة والوراقة، 1972، ص ص 136 - 138؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ط15، بيروت، دار العلم للملايين، 2002، ج8، ص 222.

¹ إشبيلية : مدينة كبيرة بالأندلس ، تقع غربي قرطبة بينهما ثمانون ميلا 128 كم، تبعد عن مدريد 542 كم، وعن غرناطة غربا 220 كم، أخذت مكانة قرطبة وأصبحت مركز الحكم في عصري المرابطين والموحدين، سقطت بأيدي النصارى سنة 646هـ / 1248م. انظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح. إحسان عباس، ط2، بيروت، مكتبة لبنان، 1984، ص ص 58 - 60؛ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 195؛ توفيق محمد علي الحجاج، صفحات من تاريخ المدن الأندلسية، ط1، عمان، دار الضياء، 2005، ص 95.

² سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ط1، بيروت دار النهضة العربية، 1985، ص114.

³ أبو محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شر. صلاح الدين الهواري، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 2006، ص 103.

⁴ يشمل مصطلح الحضر كلا من الريف والمدينة، ذلك لأن سكان الريف مستقرون مثل سكان المدن، بل إن سكان الريف أكثر ارتباطا بالأرض، ومع ذلك فقد غلب على استعمال مصطلح الحضر على سكان المدينة، وهذا غير صحيح، لأن الحضارة بمعناها الواسع هي نتيجة الاستقرار، ولذلك يلاحظ أن المصدر اللغوي في كثير من اللغات الأوروبية واحد، وتستخدم CULTURE بمعنى زراعة وحضارة في آن واحد. أنظر: علي إسماعيل، المرجع السابق، ص 16.

والأسواق والصنائع والحرف المختلفة، بالإضافة إلى أنها مقر لصاحب السلطان أومن يمثله¹، أما الأرياف فإن هذه المؤسسات تقل وتكتفي بما لديها من مرافق ومواد لتلبية حاجيات السكان هناك، خاصة المناطق البعيدة عن مراكز المدن².

ويتضح هذا المعيار بشكل جلي، في طبيعة النشاط الاقتصادي الممارس، إذ يعتمد سكان المنطقة الريفية، في معيشتهم على استثمار واستغلال التربة، ومنه تعتبر الزراعة، الأساس الاقتصادي الأكبر لسكان هذه المناطق، وهي القاسم المشترك الذي تنسجم وتتجانس فيه حياتهم بدرجة معقولة، وتختلف عن حياة مجتمع المدينة³، الذي اختص بالصنائع، لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار، ولهذا لا توجد إلا في الحضر، حسب التعبير الخلدوني⁴، ولا يمكن أن تقوم لهذه الصنائع قائمة، إلا بما تمدده الأرياف بالمنتجات والمواد التي تحتاج إليها، ولذا اعتبر الريف خلفية للمدينة⁵.

ويؤثر المعيار الوظيفي بشكل مباشر على معيار الحجم والشكل، ويقصد بهذا المعيار، حجم المنازل من العمران، ونحوها في الرقعة الجغرافية، إذ تختلف المدينة عن الريف، في مظهرها وشكلها الخارجي، فبينما توجد بالمدينة منطقة مركزية، تتركز فيها الحياة والنشاط، وهي النواة ممثلة في القلب التجاري، وعادة ما تكون في المدينة ميادين وساحات، وتكون مبانيها أكثر ارتفاعا من مباني القرية⁶، تتميز البيئة الريفية بالبساطة الشديدة، وسيادة المناظر الطبيعية والبداية، والارتباط الوثيق بالأرض، والفلاحة وتربية المواشي كما أنها تتميز بأنها من صنع الطبيعة بدرجة أكبر من البيئة المدنية، التي تعتبر من صنع الإنسان إلى حد كبير⁷.

وبالرجوع إلى المصادر خاصة الجغرافية منها، يتضح أن هناك نوعين من العمران الريفي: نوع صغير

¹ العبادي، الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، ص 128.

² ناجية عبد الله، المرجع السابق، ص 192.

³ رايح فيسة، المرجع السابق، ص 296.

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ص 130، ص 415.

⁵ رايح فيسة، المرجع السابق، ص 296.

⁶ علي إسماعيل، المرجع السابق، ص 28؛ ناجية عبد الله، المرجع السابق، ص 190.

⁷ رايح فيسة، المرجع السابق، ص 296.

الحجم، وآخر كبير، وأن معيار الحجم بينهما يتوقف على عدد المنازل في كل منهما، وكذا اتساع خطتها بوجود المرافق الاجتماعية، مثل الحمامات والفنادق، التي لا تتوفر إلا في المدن، ما جعلها مدعاة لتشبيهها بالمدينة¹.

وقد حدث في بلاد الأندلس، أن تطورت بعض القرى، فتحوّلت إلى مدن، والعكس حدث لبعض المدن، فمدينة قرطمة من أعمال رية²، تدهور عمرانها زمن ابن غالب القرن 12هـ/ 12م، وأصبحت في عداد المناطق الريفية، أما قرية بزليانة³ فقد تطورت واتسعت خطتها، وتزايدت مرافقها فأصبحت مدينة في عهد ابن سعيد⁴.

ويعتبر المعيار الاجتماعي من أهم المعايير التي يمكن تمييز الريف من خلالها، ويسمى هذا المعيار أحيانا بالنظرية السلوكية أو الاجتماعية، ويأخذ به علماء الاجتماع، إذ يفسرون التجمع الريفي على أنه "عقل وجسم وعادات وتقاليد"، فهم يهتمون بطريقة الحياة التي تميز السكان في المناطق الريفية⁵.

وقد سبقت الإشارة إلى أن سكان الريف، يتميزون بالبساطة في المستوى المعيشي من مأكّل وملبس ومسكن، وأنهم يكتفون بالضروري من العيش، ويستغنون عما فوقها من حاجي وكماي، يضاف إلى ذلك الخصال التي يتميز بها سكان الريف، فمن ذلك أنهم أقرب إلى الخير من أهل المدن "فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق، بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير، فهم أقرب إلى الفطرة الأولى، وأبعد ما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة المذمومة وقبحها"⁶.

¹ ناجية عبد الله، المرجع السابق، ص 192؛ حسن قرني، المجتمع الريفي في الأندلس في عصر بني أمية 138-422هـ/ 756-1031م، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، د. ت، ص 36. سيأتي في ثنايا هذه الدراسة أوصاف لمختلف المناطق الريفية، والتي يظهر فيها الاختلاف في الحجم.

² رية: كورة واسعة بالأندلس تتصل بالجزيرة الخضراء، تقع قبلي قرطبة. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص 116؛ الحميري، المصدر السابق، ص ص 279، 280.

³ بزليانة، قرية على ساحل البحر، قريبة من مالقة، تبعد عنها ثمانية أميال حوال 13 كم. انظر الحميري، المصدر السابق، ص 92.

⁴ محمد بن أيوب بن غالب الأندلسي، تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، نش. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج 2، ج 1، ماي 1955، ص 295؛ ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، تح. شوقي ضيف، ط 4، القاهرة، دار المعارف، 1993، ج 1، ص 444.

⁵ راجع فيسة، المرجع السابق، ص 297.

⁶ ابن خلدون، المصدر السابق، ص 132.

وسكان الريف أقرب إلى الشجاعة من أهل المدن، فبيئتهم التي لا تحميها الأسوار والأبواب والحاميات، وتجنبهم العدوان المحتمل، جعلتهم يعتمدون على أنفسهم في الدفاع عن ديارهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السلاح، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، فصار لهم البأس خلقا، والشجاعة سجية¹.

وسكان الريف في دفاعهم عن ديارهم وأنفسهم، يضطرون إلى التكتل والاحتماء بالجماعة وهي ما يعبر عنه بالعصبية، التي تعتبر أداة لحماية مصالح الفرد والمجتمع عامة، وتقوم العصبية عادة على رابطة الدم والنسب، فالفرد بطبيعته مدفوع إلى نصرته قريبه في الدم والدفاع عنه: "وما جعل الله في قلوب عباده، من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقربائهم، موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم"²، وتكون العصبية أقوى بين الأفراد الذين يجمعهم نسب قريب، بينما تخف بالنسبة للأفراد الذين يجمعهم نسب عام، فالفرد في القبيلة، أشد ارتباطا بإخوته من أب واحد، من بني العم الأقربين³.

أما رابطة النسب ليست مجرد الانتماء إلى جد مشترك حسب ابن خلدون، وإنما تنشأ بين الأفراد لطول المعاشرة فتتولد العصبية عندهم: "للأنفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها، أو قريها، أو نسبها بوجه من وجوه النسب"⁴، وبذلك تصبح العصبية رابطة اجتماعية، يشعر الفرد من خلالها أنه جزء لا يتجزأ من العصبية التي ينتمي إليها، فيجسد في الوقت ذاته هذا الانتماء بفنائها كليا، فيفقد شخصيته ويتقمص شخصية العصبية⁵.

ويمكن القول في الأخير، أن البادية والريف مصطلحان مترادفان، يعبران عن كل ما هو خارج المدينة ولكن مصطلح الريف أكثر دقة للتعبير عن هذه الحياة في بلاد الأندلس، لما تميزت به من خصائص تدل

¹ ابن خلدون، المصدر السابق، ص 134.

² نفسه، ص 136.

³ إبراهيم القدري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة، د.ت، ص 223، 224.

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ص 138.

⁵ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 224.

عليه ، فما موقع الريف الأندلسي في التقسيم الإداري للبلاد؟

ثانيا: الريف الأندلسي في التقسيم الإداري للبلاد:

1- التنظيم الإداري للأندلس:

يقر بعض الباحثين في التاريخ الأندلسي بعصوبة البحث في مثل هذه المواضيع، لأن المصادر لم توله كثير الاهتمام، كما أن البيانات الرسمية عن ولايات الدولة الإسلامية نادرة فيها، رغم أن بعضهم كان من عمال الدولة وكتابها، ورجال الدواوين، أمثال ابن حيان وأحمد بن محمد الرازي، ولعل مرؤ هذا الصمت يعود إلى أن التقسيم الإداري في الأندلس، والجبليات التي تقرر على النواحي، لم تكن بالنسبة للأمراء وكتابهم، مسألة تستوقف الاهتمام، فالعرب حينما دخلوا البلاد وجدوا فيها نظاما إداريا جاريا صالحا فجزوا عليه، دون الحاجة إلى إعادة التخطيط والتنظيم¹، بل لم يحدث أحد من الولاة والأمراء والخلفاء تغييرا على التقسيم الإداري للبلاد، فصاحب أول تاريخ للأندلس أحمد بن محمد الرازي لم يشر إلى ذلك، وفي كلامه أن هذا التقسيم ثابت منذ زمن طويل².

وحتى في العصور اللاحقة أيام ملوك الطوائف أو المرابطين والموحدين، خلال القرنين 05-06هـ/ 11-12م، لم يسمع بتقسيم إداري للأندلس، أو إطلاق أسماء جديدة على وحدات إدارية جديدة، إذ لم يذكر أحد ممن عاصر المرحلة، أو من جاء بعدهم، عن حدوث تغيير في التقسيم الإداري، ومنه فالمعتمد على الإشارات الواردة في المصادر المختلفة خاصة الجغرافية منها، دون الاهتمام بالفترة التي أرخت لها³.

يرجع التقسيم الإداري للأندلس إلى العصر الروماني، فهم أول من قسم شبه جزيرة إيبيريا إلى أقسام إدارية، ثم تطور هذا التقسيم شيئا فشيئا تبعا لاتساع سيطرتهم على البلاد، ثم جاء بعدهم القوط وساروا على نفس التنظيم، ولم يحدثوا أي تغيير فيه⁴، ومن أهم التقسيمات التي قام بها الرومان في إسبانيا، التقسيم

¹ حسين مؤنس، فجر الأندلس - دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح إلى قيام الدولة الأموية 711-756م-، ط1، بيروت، العصر الحديث- دار المنهل، 2002، ص 553.

² نفسه، ص 574.

³ حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط2، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986، ص 259، مؤنس، فجر الأندلس، ص ص 555، 556.

⁴ أشرف يعقوب أحمد اشتيوي، الأندلس في عصر الولاة 91-138هـ/ 711-756م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إش هشام أبو رميلة، نابلس، جامعة النجاح الوطنية، 2004، ص 65.

الذي حدث سنة 206 ق.م، والذي بموجبه قسمت البلاد إلى قسمين: إسبانيا القصوى وإسبانيا الدنيا وكان هذا التقسيم أساسا لكل التقسيمات التي عرفت البلاد في الفترة الرومانية¹.

وفي عهد قسطنطين (ت337م)، حدث تقسيم جديد يعرف بتقسيم دقلديانوس، أو قسمة قسطنطين، وبموجبه أصبحت إسبانيا ديقونية – أي عملا كبيرا بالمصطلح العربي- تابعة لمديرية الغاليتين ضمن القسم الغربي من الدولة الرومانية²، وقسمت البلاد بموجبه ، إلى ست ولايات، وهي: نربونة³ وبراقرة⁴، وطركونة⁵، وطليلة⁶، وماردة⁷، وإشبيلية⁸.

وكانت كل من هذه المدن أيام الرومان، قاعدة لقسم إداري كبير، تضم عددا من الديقونيات حسب قسمة قسطنطين، والديقونية مدينة لها حوز أو زمام، ولم يدخل القوط بعد الرومان أي تغيير على هذا التنظيم، ودخلت بهذا الشكل في التنظيم الإداري للمسلمين، فبقيت مدنا لها أحواز⁹

ويلاحظ أنه لم يتبع هذه الولايات في العصر الإسلامي سوى أربع ولايات، هي: طركونة وماردة

¹ مؤنس، فجر الأندلس، ص 557؛ اشتيوي، المرجع السابق، ص 65.

² مؤنس، فجر الأندلس، ص 557.

³ نربونة: أو أربونة تقع في طرف ثغر الأندلس، مما يلي بلاد الإفرنج، تبعد عن قرطبة 1000 ميل. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 110، الحميري، المصدر السابق، ص 24.

⁴ براقرة : مدينة تقع غرب الأندلس في الوسط، إحدى قواعد الروم ودور مملكتهم، لكنها خربت في العصر الإسلامي. لنظر: الحميري، المصدر السابق، ص 169.

⁵ طركونة: مدينة من أعمال طرطوشة، تقع على البحر الشامي (المتوسط)، تقع بين طرطوشة وبرشلونة، وتفصلها عن الأخيرة 100 كم. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 32؛ الحميري، المصدر السابق، ص392؛ الحاج، المرجع السابق، ص 163.

⁶ طليلطة: مدينة كبيرة غربي ثغر الروم، ومركز بلاد الأندلس تطل على مشارف المدن الأندلسية الشمالية، تتميز بقوة حصانتها لوعورة أراضيها وجبالها وحصونها المنيعه، عاصمة ملك بني ذي النون خلال عصر ملوك الطوائف، سقطت في أيدي النصارى سنة 478هـ/ 1085م. تبعد حاليا عن مدريد ب 75 كم جنوبا. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص ص 39، 40؛ الحميري، المصدر السابق، ص ص 393-395؛ الحاج، المرجع السابق، ص 69.

⁷ ماردة: مدينة تقع جوفي قرطبة إلى الغرب، تبعد عن بطليوس ب 40 كم، اتخذها ملوك الروم عاصمة لهم، قبل أن ينتقل القوط إل طليلطة. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج5، ص ص 38، 39؛ الحميري، المصدر السابق، ص ص 518، 519، الحاج، المرجع السابق، ص 137.

⁸ اشتيوي، المرجع السابق، ص ص 65، 66.

⁹ Lévi provençal, *histoire du l' Espagne musulmane*, Paris, 1953, t3, p 48.

وإشبيلية وطليطلة، وقد استبدل المسلمون إشبيلية بقرطبة¹، وطركونة بسرقسطة²، كما تحول مركز الثقل إلى الجنوب، وفي حوض الوادي الكبير وجنوبه، وما يوازيه في شرقي الأندلس وغربها، فتزاحم الناس هناك وتزايد العمران، وازدهرت المدن القائمة، ونمت قرى وتمدن³

وما يميز التقسيم الإداري لبلاد الأندلس، أنه يعتمد على المدينة كأساس له، فالمدينة تتبعها أقسام واسعة وأحواز شاسعة، ومدن كبيرة وقرى وحصون عديدة، وقد أشارت إلى ذلك كتب الجغرافية، فابن حوقل يذكر عن الأندلس: "وفيها مدن يزيد بعضها على بعض في المحل والجباية والارتفاع، والولاية والقضاة والمخلفين على رفع الأخبار... وليس بها مدينة معمورة ذات رستاق فسيح إلى كورة، فيها ضياع عداد وأكرة وسعة وماشية وسائمة وعدة وعتاد وكراع"⁴، ويصفها آخر: "بأنها بلدان عريضة كثيرة المدن، خصبة واسعة، ومدينتها العظمى قرطبة"⁵، ومدينة تطيلة في شرقي قرطبة تتبعها مدينة قلهرة، ومن مدنها أيضا بقرية بينهما إحدى عشر فرسخا⁶، ومدينة لاردة⁷: "لها من المدن مدينة قرين، ومدينة بلخير، ومدينة إفراغة"⁸.

ومنه فالمدينة في الأندلس قسم إداري، تتبعها مدن وأقاليم وقرى، وهذا التقسيم يختلف عما هو

¹ قرطبة: مدينة عظيمة بالأندلس، تقع بين أحواز جيان في الشرق، وأحواز إشبيلية في الغرب، عاصمة الأمويين، تعرضت للتخريب أيام الفتنة القرطبية، فقدت مركزها خلال عصر ملوك الطوائف، سقطت سنة 633هـ/ 1236م، تبعد عن عاصمة إسبانيا مدريد 400 كم. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 324؛ الحميري، المصدر السابق، ص ص 456-459؛ الحجاج، المرجع السابق، ص 25.

² مؤنس، فجر الأندلس، ص 584.

سرقسطة: مدينة أندلسية، قاعدة الثغر الأعلى، تقع شمال شرقي البلاد، كانت عاصمة دولة بني هود في عصر الطوائف، سقطت في أيدي النصارى سنة 512هـ/ 1119م. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج3، ص ص 212، 213؛ الحميري، المصدر السابق، ص 317.

³ مؤنس، فجر الأندلس، ص 571. تؤكد إحدى الدراسات التي اعتمدت على الأبحاث الأثرية، أن هذه المناطق تميزت بالكثافة السكانية الكبيرة. انظر: Pierre Guichard, *Paysans d' al- Andalus XI^e - XIV^e*, histoire des Espagnols, Paris, Armand Colin, 1985, p 129.

⁴ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 111.

⁵ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي ت 346هـ، مسالك الممالك، بيروت، دار صادر، 2004، ص 41.

⁶ الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 33؛ ج4، ص 393؛ ج1، ص 473.

⁷ لاردة: مدينة مشهورة بالأندلس، تقع شرقي قرطبة، منحرفة إلى الجوف، تبعد عن برشلونة ب 150 كم غربها. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 07؛ الحجاج، المرجع السابق، ص 162.

⁸ ابن غالب، المصدر السابق، ص 286.

معمول به في المشرق، فالمدينة هناك مدينة ولا زيادة لها خطتها وأرياضها، وهي تابعة للكورة التي تقع فيه¹ فهل يعني ذلك أن الأندلس لم تعرف نظام الكور؟

اختلط على معظم الجغرافيين المشاركة الأمر بين الكورة والمدينة، بسبب التشابه الذي وجدوه بين نظام الكور المعمول به عندهم، وبين نظام المدن في الأندلس، فالكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة، أو مدينة أو نهر يجمع اسمها²، والمدينة حوز واسع فيه أقاليم ومدن أخرى وقرى، ولذلك ركزوا على ذكر المدن أكثر من الكور، فاليقوي لم يسم في الأندلس إلا كورتي تدمير³ وبلنسية⁴، ويسمي الكورة بلدة، في حين ذكر تسعة عشر مدينة⁵، أما الإصطخري فذكر أربع كور و ثلاثين مدينة⁶، وابن حوقل يذكر مدن الأندلس، ولم يذكر سوى ثلاث كور⁷.

ويبدو أن نظام الكور كان من التغيرات التي أحدثتها المسلمون في بلاد الأندلس، ويظهر أن هذا المصطلح قد ورد لأول مرة، في عصر الوالي أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي (125-130هـ/ 743-747م)⁸، عندما فرق الجند الشامي الذي دخل مع بلج بن بشر القشيري⁹، من دار الإمارة في قرطبة، وأنزلهم بالكور على مثل منازلهم التي كانت في كور شامهم، ففعل ذلك باختيار الجند الشامي، فنزلوا في

¹ مؤنس، فجر الأندلس، ص 582.

² الحموي، المصدر السابق، ج 1، ص 36، 37.

³ تدمير: كورة تقع شرقي قرطبة، تتصل بأحواز جيان، سميت باسم ملكها، الذي صالح عبد العزيز بن موسى بن نصير عند فتحها. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 19؛ الحميري، المصدر السابق، ص 131، 132.

⁴ بلنسية : مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس، تقع في شرقها، على مقربة من البحر المتوسط، تبعد عن عاصمة إسبانيا مدريد بـ 490 كم. انظر: الحميري، المصدر السابق، ص 95؛ الحجاج، المرجع السابق، ص 95.

⁵ أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ت 284هـ، البلدان، حوا. محمد أمين ضناوي ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002، ص 192-195.

⁶ الإصطخري، المصدر السابق، ص 41، ص 44.

⁷ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 106، ص 10، 111.

⁸ أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي: أمير الأندلس، عينه والي إفريقية حنظلة بن صفوان، أفرط في التعصب لقومه من اليمانية، فدخل في حرب مع المضرية، إلى أن قتل في إحدى الوقائع بينهما. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ط 15، بيروت، دار العلم للملايين، 2002، ج 2، ص 175.

⁹ بلج بن بشر القشيري : قائد شامي أرسله الخليفة الأموي على رأس جيش، إلى بلاد المغرب، لإخماد ثورات الخوارج بها، لكنه فشل مما اضطره الأمر، إلى الانتقال إلى الأندلس. انظر: الزركلي، المرجع السابق، ج 2، ص 73.

كور إلبيرة¹، وجيان²، وباجة³، وتدمير، ورية⁴، وشذونة⁵، وإشبيلية⁶.

ومع تزايد العمران واستقرار الأوضاع في عصر الإمارة، ظهرت أسماء كور جديدة مثل كورة مورور⁷ ولبلبة⁸، ثم نمت مدن جديدة، وأنشئت مدن وحصون وقلاع وقرى أخرى، فزادت أعداد الكور، مثل مرسية⁹ التي بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة 216هـ/831م¹⁰، حتى صارت قاعدة كورة تدمير¹¹ وجدد الخليفة عبد الرحمن الناصر (277-350هـ/890-961م)¹² مدينة طليبة، وكبرت وأصبح لها

¹ إلبيرة: كورة في الأندلس، بين القبلية الشرق من قرطبة، بينها وبين غرناطة 6 أميال حوالي (10كم)، خربت في القرن 05هـ/11م خربت وانتقل أهلها إلى غرناطة. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 244؛ الحميري، المصدر السابق، ص 28.

² جيان: مدينة أندلسية لها كورة واسعة، شرقي قرطبة، بينهما 17 فرسخا حوالي (80كم). الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 195.

³ باجة: مدينة أندلسية تقع غرب البلاد، تبعد عن قرطبة 100 فرسخ (حوالي 480كم)، وهي شرقي لشبونة عاصمة البرتغال حاليا. انظر: الحميري، المصدر السابق، ص 75؛ الحاج، المرجع السابق، ص 114.

⁴ رية: كورة واسعة بالأندلس، متصلة بالجزيرة الخضراء، إلى القبلي من قرطبة. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 116؛ الحميري، المصدر السابق، 279.

⁵ شذونة: مدينة أندلسية، تتصل نواحيها بنواحي مورور، وهي منحرفة عنها إلى الغرب مائلة إلى القبلية. الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 329.

⁶ أبو عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب 713 - 776هـ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح. محمد عبد الله عنان، ط1، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1974، ج1، ص 103؛ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. ج. س كولان وليفي برزفسال، ط2، بيروت، دار الثقافة، 1980، ج2، ص 33.

⁷ مورور، يسميها الحموي موزور، وهي تقع بين القبلية والمغرب من قرطبة. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 222؛ الحميري، المصدر السابق، ص 564.

⁸ ابن عذاري، المصدر السابق، ص 49، ص 53.

لبلبة: قصبه كورة بالأندلس، غرب إشبيلية، تبعد عنها 42 ميلا (حوالي 67كم). الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 10.

⁹ مرسية: مدينة مستحدثة في العهد الإسلامي، تقع على وادي شقورة ويشقها من الوسط. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 107؛ الحاج، المرجع السابق، ص 106.

¹⁰ عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الأموي (176-238هـ/792-852م): رابع أمراء بني أمية في الأندلس، بويع بالإمارة بعد وفاة والده سنة 206هـ/822م، دام حكمه 31 سنة، عرفت بالسكون والعافية، له عدة أعمال وإنجازات حضارية. الزركلي، المرجع السابق، ج3، ص 305.

¹¹ الحميري، المصدر السابق، ص 539.

¹² عبد الرحمن الناصر: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الأموي، بويع بالإمارة بعد وفاة جده سنة 300هـ/913م، أعلن نفسه خليفة سنة 316هـ/928م ولقب نفسه بالناصر، حكم الأندلس أكثر من 50 سنة، له عدة منجزات حضارية منها بناء مدينة الزهراء، وله عدة فتوحات. الزركلي، المرجع السابق، ج3، ص 324.

حصون ونواح عديدة¹، وعمرت مالقة وكبرت وأصبح لها رساتيق²، أما بطليوس فكانت قرية صغيرة، ثم عمرت واتسعت وأصبح لها عمل واسع، وولاهها الناصر عماله وصارت مركز كورة³، ومع ترسخ سلطة الخلافة الأموية في الأندلس ارتفع عدد الكور إلى ثلاثين كورة⁴.

وتنسب الكورة إلى حاضرتها، مثل كورة إشبيلية وكورة إستجة⁵، وكورة جيان وكورة ماردة، وهناك كور لا تنسب إلى حاضرتها، ولها حاضرة وقاعدة أخرى مثل إلبيرة وقصبتها قسطليلية، وكورة مورور وقصبتها قلب، وكورة شذونة وحاضرتها شريش⁶، وكورة قبرة⁷ وحاضرتها بيانة⁸.

ولئن أدخل المسلمون نظام الكور إلى بلاد الأندلس، فإنه اقتصر على مناطق الجنوب وفي حوض الوادي الكبير وجنوبه، وما يوازيه في شرقي الأندلس وغربها، باعتبارها مركز الثقل خلال العهد الإسلامي أما مناطق الثغور الشمالية والغربية، الواقعة في نهر إبرة، وما بين نهر إبرة وتاجة، وفي حوض تاجة، ثم ما بين المجرى الأدنى لوادي آنة وساحل المحيط، فقد اعتبرت السياج الذي يحمي الأندلس، وحافظت على نظام

¹ الحموي، المصدر السابق، ج4، ص ص 37، 38. ومدينة طليبة مدينة ثغرية، في أقصى الثغور من أعمال طليطلة، وهي حاجز بين أرض المسلمين وأرض الإفرنج. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص37؛ الحميري، المصدر السابق، ص395.

² الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 43. تقع مدينة مالقة على البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 43؛ الحميري، المصدر السابق، ص ص 517، 518؛ الحاج، المرجع السابق، ص 110.

³ الحميري، المصدر السابق، ص93؛ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 447. وبطليوس مدينة كبيرة، مستحدثة في العصر الإسلامي، تقع غربي قرطبة، وهي حاليا مدينة حدودية مع البرتغال. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 447؛ الحميري، المصدر السابق، ص93، الحاج، المرجع السابق، ص78.

⁴ ابن حيان القرطبي، المقتبس، نشر وتح. ب. شالميتا وف. كورنطي وآخرون، مدريد، المعهد الإسباني العربي للثقافة، 1979، ج5، ص ص 253-254.

⁵ إستجة: تقع على الضفة اليسرى من وادي شنييل، أحد فروع الوادي الكبير، تبعد عن إشبيلية 80 كم، وعن قرطبة 60 كم. الحاج، المرجع السابق، ص158.

⁶ شريش: مدينة تقع على مقربة من مصب وادي لكّة في بحر الظلمات (المحيط الأطلسي). الحاج، المرجع السابق، ص 151.

⁷ قبرة: مدينة أندلسية وإليها تنسب الكورة، تتصل أعمال بأعمال قرطبة من قبلها، بينها وبين قرطبة 30 ميلا (حوالي 48 كم). انظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 305؛ الحميري، المصدر السابق، ص 435.

⁸ ابن غالب، المصدر السابق، ص ص 283، 284، ص ص 292-295؛ الحميري، المصدر السابق، ص 183، ص 469؛ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 244، ص518، ج4، ص 348.

المدن الموروثة من العهد الروماني¹.

فكانت مدن: طرطوشة²، طركونة، لاردة بريطانية³، وشقة⁴، تطيلة، سرقسطة، مدينة سالم شنتبرية⁵، قورية⁶، قلمرية⁷، شنترين⁸، أشبونة⁹، طليطلة، فريش¹⁰، قلعة رباح¹¹، أكشبونة، أقساما إدارية عوملت معاملة خاصة، روعي فيها ما تتعرض له من أخطار خارجية من نصارى الشمال، وهذا ما يضمن السيطرة عليها¹².

وما يمكن قوله أن أساس التنظيم الإداري في بلاد الأندلس، اعتمد على المدينة في بداية الوجود الإسلامي، ثم ما لبث أن دخلت عليه تعديلات، تشبه ما هو موجود في المشرق، وإن مست بعض هذه التغييرات المصطلحات، كإدخال مصطلح الكورة على بعض مناطق الأندلس دون البعض الآخر، نظرا للظروف التي تعرفها البلاد والتغيرات التي طرأت عليها. وأيا كان الأمر، فما موضع الريف في هذا التقسيم؟

¹ مؤنس، فجر الأندلس، ص582؛ ورده العابد، القيادة العسكرية في الثغرين الأدنى والأعلى بالأندلس في القرن الخامس هجري حتى الربع الأول من القرن السادس هجري (ق 11-12م)، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف. إبراهيم بكير بحاز، جامعة محمود منتوري قسنطينة، (2007-2008م)، ص18.

² طرطوشة : مدينة أندلسية ، تقع شرقي بنسبة وقرطبة، بينها وبين بنسبة 110 ميل (حوالي 176 كم) وهي على نهر إيبرو، على مقربة من مصبه في البحر المتوسط. سقطت في أيدي النصارى سنة 543هـ / 1149م انظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص30؛ الحميري، المصدر السابق، ص391؛ الحجاج، المرجع السابق، ص104.

³ بريطانية: مدينة كبيرة بالأندلس، تقع شرقي البلاد، يتصل عملها بعمل لاردة، وهي ثغرية كانت سدا بين المسلمين والروم. الحموي، المصدر السابق، ج1، ص371.

⁴ وشقة: مدينة أندلسية تقع شرقي مدينة سرقسطة، تبعد عنها 50 ميلا (حوالي 80 كم). الحميري، المصدر السابق، ص612.

⁵ شنتبرية: مدينة كبيرة بالأندلس تقع شرقي قرطبة بينهما 80 فرسخا (حوالي 384 كم)، تتصل أحواضا بأحواض مدينة سالم. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج3، ص366.

⁶ قورية : مدينة أندلسية قريبة من ماردة ومن أعمالها. الحموي، المصدر السابق، ج4، ص412؛ الحميري، المصدر السابق، ص485

⁷ قلمرية: مدينة أندلسية تقع في الغرب، قريبة من شنترين، وهي في بلاد البرتغال. الحميري، المصدر السابق، ص471.

⁸ مدينة أندلسية تقع في الغرب، على مصب نهر تاجه في البحر المحيط، وتتصل أعمالها بأعمال باجة. الحموي، المصدر السابق، ج3، ص367.

⁹ أشبونة، وهي لشبونة، قريبة من شنترين، ومن البحر المحيط. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج1، ص195.

¹⁰ فريش : مدينة بالأندلس، تقع غربي فحس البلوط، وغربي قرطبة. انظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص259؛ الحميري، المصدر السابق، ص440.

¹¹ قلعة رباح، مدينة محدثة منذ عصر الأمويين، تقع بين قرطبة وطليلة. انظر: الحميري، المصدر السابق، ص469.

¹² زكريا أبو المعاطي محمد العباسي، الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (238-488هـ / 852-1095م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف. طاهر راغب حسين، جامعة القاهرة، 2000، ص319.

وما هي أقسامه؟

2- مواطن الريف الأندلسي وأقسامه:

شكلت أحواز المدن مناطق ريفية في الأندلس¹، وهي حسب التعبير الخلدوني، كل ما هو خارج أسوار المدينة، وقد اختلفت هذه الأحواز في المساحة والانتساع والشكل، والقرب والبعد عن المدينة، مرتبة في تنظيم دقيق، مقسمة إلى وحدات تتبعها وحدات أصغر منها، من الأقاليم إلى الأجزاء فالحصون والقرى والجبال، والمجاشر والضيعات والمنيات.

أ- الأقاليم والأجزاء:

قسمت الكورة أو المدينة في الأندلس ، إلى مدن ونواح، لكل منها حوز يسمى إقليمًا²، فشكلت الأقاليم بذلك أكبر الوحدات الإدارية في الريف الأندلسي³، وقد ورد مفهوم الإقليم لدى الأندلسيين عند الحموي، إذ يذكر أنهم: "يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليمًا، وربما لا يعرف هذا الإصطلاح إلا خواصهم فإذا قال الأندلسي أنا من إقليم كذا فإنما يعني بلدة أو رستاقا بعينه"⁴، وقد ورد عند الإدريسي، ما يدل على أن الإقليم يحمل دلالة زراعية، فيقول عن الفندون أنه: "إقليم قليلا ما يوجد مثاله في طيب الأرض وجودة نمو الزرع فيه"⁵

ويتبع الإقليم المدينة، إذ يصرح صاحب وصف جديد لقرطبة، في حديثه عن أقاليم قرطبة، أنها تضم 15 إقليمًا "كل إقليم منها يحتوي على حصون وقرى وبروج كثيرة"⁶، فإذا تم الجمع بين ما ذكره الحموي وبين ما أشار إليه العذري، يتضح أن الإقليم كل قرية كبيرة أو بلدة تضم عددا من القرى والأحواز.

¹ علاوة عمارة، مدريد الإسلامية من هن خلال دراسة غربية جديدة " مجلة الآداب والعلوم الإنسانية"، العدد 12، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2011، ص 138.

² مؤنس، فجر الأندلس، ص 592.

³ قرني، المرجع السابق، ص 301.

⁴ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 26.

⁵ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي ق06هـ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، د.ط، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت، ج2، ص 599.

⁶ مؤلف مجهول، وصف جديد لقرطبة، تح. حسين مؤنس، مدريد، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1965-1966، مج 13، ص179.

ويلاحظ من نص العذري، أن الأقاليم كانت محددة تحديدا دقيقا، فهو يذكر أقاليم قرطبة وما تحويه من قرى بالجملة، وما يؤديه كل إقليم من جبايات، وما عليه من صنوف هذه الجبايات¹، ولهذا السبب كان تنظيمه دقيقا، فالسلطة كانت تنظر إليه باعتباره وحدة مالية وليست إدارية فقط².

وتختلف الأقاليم في الأندلس من حيث العدد بين مدينة وأخرى، فالعذري يحصي عددا من أقاليم بعض مدن الأندلس: "فقرطبة لها خمسة عشر إقليما، ولإشبيلية اثني عشر إقليما، ولكورة تدمير سبعة عشر إقليما، ولبلسية عشرة أقاليم، ولبلبة ثمانية أقاليم، أما سرقسطة فتسعة أقاليم، وإلبيرة خمسة عشر إقليما والجزيرة الخضراء ثلاثة أقاليم"³.

أما ابن غالب فيشير إلى كثرة أقاليم بعض المدن بعدة أوصاف: "فمدينة طرطوشة لها أقاليم متسعة...ولسرقسطة من الأقاليم عدة... ولطليطلة ستة أقاليم...أما فريش فخمسة أقاليم... وكورة ماردة لها أقاليم عدة... ولكورة باجة أقاليم منها القصر وأورش... ولمدينة أكشبونة عدة أقاليم... وكورة لبلة لها ثمانية أقاليم..."⁴، ويذكر الحميري أن كورة جيان لها أقاليم كثيرة⁵، أما ابن الخطيب فيحصى ثلاثة وثلاثون إقليما لمدينة غرناطة⁶، أما كورة رية فتضم ثلاثين إقليما كما يذكر الحموي⁷.

وأدت الظروف السياسية التي مرت بها الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف (422- 484هـ/ 1031- 1091م)⁸ إلى تقلص أقاليم بعض المدن، وتوسع أخرى، بسبب سياسة التوسع التي اتبعتها

¹ أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تح. عبد العزيز الأهواني، مدريد، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، د. ت، ص 124- 127.

² مؤنس، فجر الأندلس، ص 596؛ قرني، المرجع السابق، ص 302.

³ العذري، المصدر السابق، ص 10، 11؛ ص 20؛ ص 24، 25؛ ص 90؛ ص 109؛ ص 111؛ ص 120؛ ص 124.

⁴ ابن غالب، المصدر السابق، ص 286- 291.

⁵ الحميري، المصدر السابق، ص 183، 184.

⁶ أبو عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب 713- 776هـ، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، تح. محمد مسعود جبران، ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2009، ص 51.

⁷ الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 116.

⁸ عصر ملوك الطوائف (422- 484هـ/ 1031- 1091م): عصر الإنقسام والفرقة، حيث ضاعت فيه الوحدة السياسية، بعد سقوط الخلافة الأموية سنة 422هـ/ 1031م، وانقسمت إلى إمارات طائفية، أهمها بنوعباد في إشبيلية، وبنو هود في سرقسطة، وبنو جهور في قرطبة، وبنو زيري في غرناطة، وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو صمادح في المرية، وبنو ذي النون في الطليطلة، وتميزت العلاقة

بعض الممالك، ففي عهد مملكة بني عباد (414-484هـ / 1023-1069م) أقوى ممالك الطوائف ازدادت الأقاليم التابعة لإشبيلية، فقد اتسعت الأراضي التابعة لها، فامتدت في الغرب ثلاثين ميلا واختلطت أحوازها بأحواز كورة لبلة، وتأخذ في الجوف مع إقليم قطرشانة خمسون ميلا، وتختلط أحوازها بأحواز كورة شذونة، وتأخذ في الشرق أربعين ميلا، وتختلط أحوازها بأحواز قرطبة¹

وبالرجوع إلى أسماء الأقاليم الواردة في المصادر الجغرافية، يلاحظ أن بعضها احتفظت بأسمائها القديمة، أي أنها ليست عربية، مثل أقاليم أندة، وشليئة، وأولهيل، وشليئة، ويشرب، قطانية في بلنسية، أو أقاليم قنتش، وشلون، وقتندة في سرسقطه، وطيبالية، وبالش، وموره، شنتجالية، وإلش في تدمير²، وهو ما يؤكد أن العرب الفاتحين احتفظوا بنفس التقسيم الذي وجدوه سائدا في بلاد الأندلس.

ومع توافد الهجرات من العرب والبربر في الفترات اللاحقة، واستقرارهم في مختلف مناطق البلاد، عربت بعض الأقاليم، فنسبت إلى قبائل العرب و البربر، أو لنوعية النباتات المشتهرة بها، مثل أقاليم كنانة، وزناتة والقمح في بلنسية، وإقليم البصل في إشبيلية³، ويحتمل أن تزايد أعدادهم، أدى إلى ضرورة إيجاد أقاليم جديدة، تستوعب هذا العدد، كإقليم القواسم التابع لمدينة بني سالم، فقد كان إقليما واسعا نسب إلى أولئك القوم⁴.

بينهم بالحروب المستمرة، الأمر الذي استغله ألفونسو وبدأ حروب الاسترداد، فسقطت طليطلة سنة 478هـ / 1086م، ولولا دخول المرابطين لضاعت الأندلس مبكرا. انظر: ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج3؛ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الملقب بعزالدين ابن الأثير ت 630هـ ، الكامل في التاريخ، تح. أبو الفدا عبدالله القاضي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987، ج8، ص ص107-112؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، د. ط، بيروت، دار الفكر، 2000، ج4، ص ص200-210؛ أحمد بن عبد الوهاب النويري ت 733هـ / 1321م، تاريخ المغرب الإسلامي من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تح. مصطفى أبو ضيف أحمد، د. ط، الرباط، دار النشر المغربية، د.ت، ص ص146-172؛ شريفة محمد دحماني، العلاقات السياسية بين الطوائف الأندلسية والبربرية في عصر ملوك الطوائف 5هـ/11م، د.ط، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2006، ص ص88-95.

¹ فلتينا سليمان عفانة، مملكة إشبيلية زمن بني عباد وعلاقاتهم الداخلية والخارجية (414-484هـ / 1023-1069م)، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف هشام أبو رميلة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2002، ص 22.

² العذري، المصدر السابق، ص 10، ص 20، ص 24.

³ نفسه، ص 20، ص 109.

⁴ مؤنس، فجر الأندلس ، ص596. بيت بني القاسم هم أحفاد عبد الملك بن قطن الفهري، عامل الأندلس على عهد الولاة، ووكان بنو القاسم قد انتزوا بمدينة الفنت أيام الطوائف، ولا يزال إلى اليوم بلد صغير قرب الفنت يسمى بني قاسم Beni Càsin انظر: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص 259.

ومن التغيرات التي أحدثتها العرب على الأقاليم في الأندلس، أنهم أطلقوا على بعضها لفظ الجزء الذي يدل عندهم أن الإبل تجزأ فيه بالكلا أيام الربيع فلا ترد الماء¹، و تقوم الأجزاء مقام الأقاليم، وقد ورد ذلك عند العذري، إذ لم يفرد للأجزاء بابا بل جعلها ضمن الأقاليم، فيذكر ضمن أقاليم بلنسية: " جزء الساحل، جزء قلبيرة، جزء الجزيرة، جزء البيضاء وغلنار، جزء الأسناد، جزء فحص شاطبة، جزء بركانية جزء مدينة التراب، جزء مصمودة، جزء بني غتيل، جزء قسطانية، جزء فقيرة، جزء مسل، جزء مريبطر"².

ويلاحظ أن معظم هذه الأجزاء تنسب إلى مدن، فإذا تم إضافة ما ذكره الحموي سابقا، يمكن القول أن الأجزاء هي أحواز المدن، التي تكثر فيها الأراضي المخصصة للرعي، وليس بالضرورة أن تكون خاصة بالمناطق الرعوية التي استقرت بها بطون العرب بكثرة مثل إشبيلية، وبلنسية وقلعة أيوب، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين³، فقد وردت أسماء أجزاء للبربر، مثل جزء مصمودة في بلنسية، وجزء البربر في الجزيرة الخضراء.⁴

وإذا كانت الأقاليم مناطق ريفية خاصة بالأراضي الزراعية، وفرضت عليها أنواع الجبايات، حسب ما يغله كل إقليم، فإن الأجزاء تحل محل الأقاليم في المناطق الرعوية، وينطبق عليها حكم أرض العشب والكلا في التشريع الإسلامي، فلا تكون مملوكة لأحد، وإنما مشاعا للجماعة كلها، ولا يجنى عليها المال، وهي تشبه ما كان عليه الحال بالنسبة للمراعي المشاع، التي كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي⁵.

ومنه يمكن القول أن الأقاليم وحدات إدارية كبيرة، وجدها العرب عند دخولهم للبلاد وعملوا بها واستحدثوا أقاليم جديدة، وفقا لمتطلباتهم الديمغرافية، وأحدثوا عليها بعض التغيرات، فأطلقوا اسم الجزء على المناطق الريفية التي تكثر بها أراضي الرعي، وهي تقابل الإقليم في المناطق الزراعية، ولهذا فالتقسيم كان زراعيا بحتا، وتتبع هذه الأقاليم والأجزاء المدن، وتشكل مناطق الريف الأندلسي، وهي تضم أقساما صغيرة تتمثل في القرى والحصون والقلاع.

¹ الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 132.

² العذري، المصدر السابق، ص 20.

³ مؤنس، فجر الأندلس، ص 599؛ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 329.

⁴ العذري، المصدر السابق، ص 20، ص 120.

⁵ مؤنس، فجر الأندلس، ص 599؛ قرني، المرجع السابق، ص 315.

ب- القرى والحصون:

تحمل القرية دلالة زراعية، إذ جاء في بعض المصادر أنها تدل على الأراضي الفلاحية ، فيذكر المقرئ عن الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد أنه أهدى الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر سنة 324هـ/ 938م قريتين في أرياف قرطبة وجيان¹، ويذكر الخشني هذا المفهوم في حديثه، عن نصيح أحد المتظلمين إليه من اغتصاب أرضه قوله: " الغالب في القرية هو الغالب عندي"²، أما ابن حزم فذكر في رسائله أن أراضي الأندلس لم تخمس ولم تقسم بقوله: " ثم دخل البربر والأفارقة فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة"³

وتعتبر القرية النواة السكنية في المجال الريفي، وهي متميزة بوظائفها الاجتماعية والاقتصادية، غير أنها تختلف عن المدن- كما سبقت الإشارة إلى ذلك- في كونها تفتقر إلى مؤسسات إدارية وإلى سلطة سياسية هامة⁴، ولم تسم القرية إلا لاجتماع الناس فيها، و هي الوحدة الاجتماعية لمجتمع ريف المدينة⁵، وقد عرفها بعضهم ، أنها ذلك التجمع السكاني العمراني الأكثر بساطة وبدائية وسكونية في المجتمع، وتتألف من مجموعة من السكان يعملون بشكل أساسي في الزراعة وتربية المواشي، وتفتقر القرية إلى التنظيم، وجملة من الخدمات والميزات التي لا تتوفر إلا في المدينة⁶.

ولما كانت القرية الموطن الرئيسي للمزارعين، فقد انتشرت في جميع أنحاء البلاد الأندلسية بشكل كبير حيث يصفها ابن شباط بقوله: " لا يتزود أحد فيها ماء حيث سلك، ولأية قصد، لكثرة أنهارها وعيونها

¹ المقرئ ، المصدر السابق ، ص 359؛ شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح. وت. مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1940، ج2، ص ص 263، 264.

² الخشني القروي 661هـ/ 971م، قضاة قرطبة، تح. إبراهيم الأبياري، ط2، القاهرة- بيروت، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، 1989، ص 147.

³ ابن حزم الظاهري (384- 456هـ)، رسائل ابن حزم الأندلسي، تح. إحسان عباس، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987، ج3، ص 175.

⁴ نوال بلمداني، نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 04-05 هـ/ 10-11م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف. فاطمة بلهوارى، جامعة وهران، 2013- 2014، ص 172.

⁵ ناجية عبد الله، المرجع السابق، ص 188.

⁶ فيسة، المرجع السابق، ص 295.

وآبارها، وربما لقي فيها المسافرين في اليوم الواحد أربع مدين، ومن المعقل والقرى والحصون ما لا يحصى¹ ولعل من كثرة انتشار القرى في الأندلس أن المسافر لا يخشى أن تنقطع به السبل فيها، إذ أن الإنسان لا يمشي فيها فرسخين دون ماء، ولا يمشي ثلاثة فراسخ إلا وجد الخبز والزيت في الحوانيت على طول سفره² وأينما سار يجد الحوانيت في الفلوات والشعاري والأودية ورؤوس الجبال، لبيع الخبز والفواكه والجن واللحم والحوت، وغير ذلك من ضروب الأطعمة³.

ويصف اليعقوبي، انتشار القرى في أحواز قرطبة فيقول: "يسير في ستة أيام في هذا الموضع، في قرى متصلة وعمارات ومروج وأودية وأنهار وعيون ومزارع"⁴، ويذكر ابن حوقل أن بين مدينة قرطبة، وكورة رية أربعة أيام، وفي كل ليلة ينزل بقرية أهلة، والطريق من كورة رية، إلى قلعة رباح على قرى ذات عمارة⁵.

ولم يقتصر انتشار القرى على السهول، بل شملت كذلك الجبال، وقد أشارت المصادر إلى ذلك فغرناطة تشتمل على خمسة جبال وسهل فسيح، يشبه غوطة دمشق حيث تتخلله الجداول، وتتراحم فيه القرى والجنات⁶، أما إقليم الشرف فهو جبل شريف البقعة، تربته خصبة، قائم الخضرة، فيه ثمانية آلاف قرية كانت تابعة لإشبيلية⁷.

وجبل شقورة من أعمال جيان، رغم أنه جبل شاهق⁸، إلا أنه متصل العمارة والسكنى، فيه من القرى والمعقل والحصون المانعة، ثلاثمائة قرية، وثلاث وثلاثون حصنا⁹، وفي أسفل جبل شلير (جبل الثلج)

¹ محمد بن علي بن الشباط التوزري، وصف الأندلس - قطعة من كتاب صلة السمط وسمة المرط لابن الشباط -، نش. أحمد مختار

العبادي، مدريد، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1967-1968، ج14، ص 100.

² الزهري، المصدر السابق، ص 80.

³ المقرئ، نفح الطيب، ص 226.

⁴ اليعقوبي، المصدر السابق، ص 192.

⁵ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 111.

⁶ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص148. ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص ص45، 46؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 99.

⁷ الحميري، المصدر السابق، ص ص339، 340؛ الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص 337.

⁸ وصفه أحدهم بقوله:

جعلته مرقاة إلى السحب

عال كأن الجن إذا مردت

انظر: ابن سعيد، المصدر السابق، ج 2، ص 65.

⁹ الزهري، المصدر السابق، ص 98.

معمور بالسكنى المتصل بعضه ببعض، والسكنى فيه مسيرة ستة أيام¹، وطليطلة تحيط بها سبع أجبل عامرة².

وقد ذكرت بعض المصادر أسماء لقرى بعض المناطق في الأندلس، كما أحصت عددا منها، فقرطبة تضم خمسة عشر إقليما يحتوي على ألف وتسع وسبعين قرية³، وعرفت القرى في إشبيلية تزايداً، فكانت في البداية ثمانية آلاف قرية، ثم ازدادت وأصبحت اثنا عشر ألف قرية، وعندما أصبحت إشبيلية مملكة مستقلة في عهد ملوك الطوائف، بلغ عدد قراها حوالي اثني وعشرين ألف قرية⁴.

وكان لماردة ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية كلها متصلة بعضها ببعض بالغروسات والأشجار والزيتون والعنب وسائر الفواكه⁵، وجيان لها على ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية⁶، ومرسية قراها متصلة لمسافة ستين ميلاً⁷، وعلى طول شاطئ الوادي الكبير، توجد اثني عشر ألف قرية⁸.

وبلغت بعض القرى في اتساعها مبلغ المدن، حتى شبهها بعضهم بها، فقرية نارحة من أعمال مالقة قرية كبيرة تضاهي المدن⁹، وقرية همدان قرية كبيرة من قرى غرناطة¹⁰، ويمكن أن يتحول هذا النوع إلى مدينة فقرية بزيانة، تطورت واتسعت خططها، وتزايدت مرافقها، فأصبحت مدينة في عهد ابن سعيد، كما يمكن للمدينة أن تتحول إلى قرية، بسبب ما يلحقها من تدهور عمراني، مثل مدينة قرطمة من أعمال رية، فقد تدهور عمرانها في زمن ابن غالب حتى أضحت في عداد الريف¹¹، وطليطلة بلدة صغيرة، أو قرية فيها

¹ الزهري، المصدر السابق، ص ص 93، 94.

² الإصطخري، المصدر السابق، ص 42.

³ العذري، المصدر السابق، ص ص 124 - 127.

⁴ عفانة، المرجع السابق، ص 28.

⁵ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 57.

⁶ الحميري، المصدر السابق، ص 183؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 568.

⁷ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تح. وتر. لويس مولينا، د. ط، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد ميغيل أسين، 1983، ج 1، ص 76.

⁸ سيف الإسلام أحمد السمان، الأوضاع البيئية في الأندلس - المظاهر العمرانية والبيئة الاقتصادية منذ الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية عصر ملوك الطوائف (92-484هـ / 711-1091م)، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2018، ص 274.

⁹ المقرئ، نفح الطيب، ص 178.

¹⁰ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 2، ص 127.

¹¹ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص 444؛ ابن غالب، المصدر السابق، ص 295.

حصن، كانت مدينة وقد خربت مع الأيام، أو أنها تطورت إلى مدينة، تقع إلى الشمال الغربي من إشبيلية¹. ومنه يمكن القول، أن القرية شكلت مناطق الاستقرار الرئيسية للمجتمع الريفي في الأندلس، وارتبطت ارتباطا كبيرا بالمناطق الزراعية، سواء كانت سهلية أم جبلية، فانتشرت في بلاد انتشارا كبيرا شد إليه أوصاف الجغرافيين، سواء من حيث العدد أو الحجم، فبلغ بعضها منتهاها العمراني حتى شبهت بالمدن. بالإضافة إلى القرية التي تحمل دلالة زراعية، وكانت مستقر المزارعين وموطنهم الرئيسي، فإن أهل الأندلس أطلقوا على المناطق الزراعية الأهلة بالسكان أيضا، سواء كانت في السهول أو في الجبال، مصطلح الفحص²، وقد دلت المصادر على أهميتها، ففحص شنقيرة في مرسية، "لا يعرف في الأرض مثله، يتفرع فيه من أصل الحبة ثلاثمائة أصل"³، وفحص البيرة كان أطيب البقاع نفعة وأكرم الأرضين تربة⁴، وفحص البلوط عبارة عن كورة واسعة خصبة⁵. ولما كان انتشار القرى في السهول والجبال - كما تم ذكره - دل ذلك على أن الفحوص، كانت تضم عددا من القرى، وبالتالي فإن هذا المصطلح يوحي باستقرار المجتمع الريفي فيه.

وإلى جانب القرى، شكلت الحصون مراكز عمرانية في الأندلس، ارتبطت بالمجتمع الريفي، فقد كانت جزءا مشكلا للأقاليم، وارتبط ذكرها بالقرى عند ذكر الأقاليم، فقرطبة تضم خمس عشرة إقليما "كل إقليم منها يحتوي على حصون وقرى وبروج كثيرة"⁶، وكانت تقام هذه الحصون عادة وسط الأراضي الزراعية لحماية الفلاحين والمزارعين أيام الفتن والثورات والغارات النصرانية ويظهر ذلك من شارة في إحدى المصادر أن جلاء الفلاحين عن ضياعهم وأطرافهم إلى قاعدتهم⁷. وقد فسر أحدهم اتخاذ الحصون بشكل كبير في

¹ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 76؛ سحر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ بطليوس وغرب الأندلس في العصر الإسلامي، د. ط، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، د.ت، ص 279.

² الحموي، المصدر السابق، ج 4، ص 136.

³ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 76.

⁴ الحميري، المصدر السابق، ص 45، 46.

⁵ الإصطخري، المصدر السابق، ص 43.

⁶ مؤلف مجهول، وصف جديد لقرطبة، ص 179.

⁷ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 280؛ السمان، المرجع السابق، ص 68.

الأندلس، إلى طبيعة المجتمع المشكل من عناصر متعددة، ميزها التناقض والصراع بينها¹.

كما أن الدافع للإكثار من اتخاذ هذه الحصون، تخزين غلال المدن والقرى القريبة منها، فقد تم بناء حصن أشتريش لغلال مدينة سالم، وبنيت حصون مجريط وربنة وفراطة لإمداد طليطلة بالغذاء²، وشجعت الدولة الأموية الإستيطان في الحصون، خاصة في المناطق الثغرية، بأن يصرف للمقيم فيها ديناران، ويمنح له منزل ومحرت³، فيفهم من هذا أن سكان الحصون يشتغلون في الزراعة أيام الاستقرار والأمن، ويحقق لهم الأمن أيام الحروب، بالتحصن داخل أسواره، كما يقوم الجنود الذين تشحنهم الدولة فيه بالدفاع عن الأهالي، مثل حصن بني فراطة في مدينة الفرج، وحصون البيرة⁴.

أو يكون الحصن منيعا ويزداد مناعة بفضل الطبيعة، مثل حصن قطرون في كورة رية، الذي وصف بأنه حصن حصين، قد أحاط به واد شتوي ذو مهاو عظيمة، لا يديني منها ولا يتعلق بها، وبين أسفل الوادي والمهاوي حواليه عمائر واسعة وكروم وأفاف وأشجار متصلة، ومسارح للمواشي عظيمة، تظل فيها سوام أهل الحصن راتعة لا تلحقها مخافة⁵، وحصن برشانة على مجتمع نهرين، وهو من أمنع الحصون مكانا⁶، وحصن بنشكلة بالقرب من طركونة، منيع يقع على ضفة البحر⁷.

وعلى هذا الأساس فإن الحصون انتشرت في الأندلس، وقد وصفت المصادر الجغرافية هذا الانتشار فوصفت جيان وبلنسية وطرطوشة ولاردة، وبريطانية وأشقة وإلبيرة وشتبرية، بأن لها حصون كثيرة⁸ وتوزعت في كامل البلاد الأندلسية، خاصة في المناطق الثغرية في الشمال، وفي المناطق البحرية في الشرق والغرب، كما انتشرت في الجبال والسهول وعلى طول الأودية والأنهار، فجبل شقورة من أعمال جيان، فيه

¹ قرني، المرجع السابق، ص 309.

² أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 825.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 7.

⁴ اتبعت الدولة الأموية هذه السياسة، ويمكن أن يكون لها أثر في الفترة المدروسة. انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 163.

⁵ ابن حيان القرطبي: المقتبس، تح. ب شالميتا وآخرون، الرباط- مدريد، كلية الآداب- المعهد العربي الإسباني للثقافة، 1979، ج5، ص 223.

⁶ الحميري، المصدر السابق، ص 88.

⁷ نفسه، ص 104.

⁸ ابن غالب، المصدر السابق، ص ص 284-287.

من القرى والمعازل والحصون المانعة، ثلاثمائة قرية، وثلاث وثلاثون حصناً¹.

ويبدو أن بعض الحصون كانت تتميز بالاتساع، فقد أشارت بعض النوازل الفقهية، أن كثرة الحروب خلال عصر ملوك الطوائف (422-484هـ / 1031-1091م)، اضطرت أهل القرى إلى ترك قراهم فقد انتقل أهل خمسة عشر قرية إلى حصن في أعلى القرى²، وأشارت نازلة أخرى أن عددا من القرى أجلتهم الفتن إلى حصن واحد فسكنوا، وصار أهل كل قرية إلى ناحية الحصن³.

وقد يتزايد العمران في الحصن، فيضم منشآت مدنية، كالحمامات والأسواق والأسوار، فيصبح أوثق بنيانا وأكثر عمارة⁴، فيشبه بعضهم بالمدينة، فحصن قيشاطة كالمدينة، بينه وبين شوذر اثني عشر ميلا وفي قيشاطة أسواق وريض عامر وحمام وفنادق⁵، ولاتساع بعض الحصون، يصبح لها حوز فتتبعها قرى فمن ذلك حصن كركى "من أعمال أوريث بالأندلس له ولاية وقرى"⁶، وتحولت بعض الحصون بعد أن زاد اتساعها، فتصبح "قلعة مدينة"، أي حصنا كبيرا ومدينة كبيرة أيضا، ومثال ذلك قلعة أيوب وقلعة رباح⁷.

ويقترن بالحصن مصطلح الأبراج، التي انتشرت في الأندلس بشكل كبير، حتى يصعب على الإنسان إحصاؤها من كثرتها⁸، ويصف الحميري كثرتها في أرياف مدينة لاردة بقوله: "لا تخلو ضيعة منها أن يكون بها برج أو سرداب يتمتع فيه العامرون بها من العدو"⁹. وإن كانت هذه الأبراج تؤدي نفس الوظيفة الدفاعية للحصون، إلا أنها تختلف عليها في الحجم والاتساع، فالأبراج عبارة عن معازل لا تزيد عن أن تكون مواضع محصنة يلجأ إليها الفلاحون إذا داهمهم خطر¹⁰، وربما هذا ما يفسر انتشارها الكبير مقارنة بالحصون، وربما

¹ الزهري، المصدر السابق، ص 98.

² أبو الوليد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي 520هـ/1126م، فتاوى ابن رشد، تح وتو. المختار بن الطاهر التليلي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987، ج2، ص 784.

³ محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم بن الحاج التجيبي ت 529هـ/1135م، نوازل ابن الحاج، رصيد الخزانة العامة بالرباط، رقم ج 55، و 255.

⁴ الحميري، المصدر السابق، ص 88؛ العذري، المصدر السابق، ص ص 55، 56.

⁵ الحميري، المصدر السابق، ص 488.

⁶ الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 454.

⁷ مؤنس، فجر الأندلس، ص 601.

⁸ المقري، المصدر السابق، ج2، ص 226.

⁹ الحميري، المصدر السابق، ص 507.

¹⁰ مؤنس، فجر الأندلس، ص 601.

بلغت في بعض المناطق ضعف عدد الحصون، فصاحب وصف جديد لقرطبة، يذكر أن عدد الحصون بقرطبة بلغ 148 حصناً، بينما بلغ عدد الأبراج بها 294 برجاً¹.

ويمكن القول في الأخير أن المناطق الريفية في الأندلس، تكاد لا تخلو من حصون وأبراج، توفر الحماية والأمن للمزارعين والفلاحين أيام الفتن والحروب، فكانت مواطن استقرار للمجتمع الريفي خلال الأيام العصيبة التي تعرفها الأندلس.

ج- الضياع والمنيات:

تحمل الضيعة دلالة زراعية، فهي تدل على العقار، والأرض المغلة، وهي عند أهل الحضرة مال الرجل من النخل والكرم والأرض²، وجمعها ضياع، وهي تعني أيضاً المنازل، وقد سميت ضياعاً لأنه إذا ترك تعهدتها وعمارتها تضيع³، ولما كانت على هذه الصفة، فإنها تقع في الغالب خارج أسوار المدينة، إذ هي دار ريفية تحيط بها مساحة محدودة، يعتمرها صاحبها ويتعهد بها بنفسه أو من ينوب عنه⁴.

وقد عرفت الأندلس نظام الضياع منذ القدم، إذ وجده المسلمون عند دخولهم إلى البلاد، فقد حالف أبناء غيطشة طارق بن زياد على ثلاثة آلاف ضيعة كانت لأبيهم، سميت بعد ذلك صفايا الملوك⁵ وفرق أرتباس على العرب الوافدين عدداً من ضياع أجداده⁶.

وحافظ المسلمون على هذا النظام، فقد دلت النصوص على انتشاره، ففي فتاوى ابن رشد أن رجلاً كان يعمر ضيعة، ويقوم عليها، ويؤدي عليها الخراج للسلطان⁷، وفي نازلة أخرى أن رجلاً من أملاكه ضيعة في ريف إشبيلية، ورثها عن سلفه منذ سبعين عاماً، يتصرف فيها بالعمارة والبنيان والاستغلال⁸، وتطوع

¹ مؤلف مجهول، وصف جديد لقرطبة، ص ص 180، 181.

² ابن منظور، المصدر السابق، ج 8، ص 230.

³ نفسه.

⁴ مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص 561؛ قري، المرجع السابق، ص 312.

⁵ أبو بكر ابن القوطية 367هـ/977م، تاريخ افتتاح الأندلس، تح. إبراهيم الأبياري، ط 2، القاهرة- بيروت، دار الكتاب، 1989، ص 30.

⁶ نفسه، ص ص 57، 58.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص ص 333، 334.

⁸ نفسه، ص 345.

رجل لابنه المتزوج خمس ما تغله ضيعته¹.

وتشبه المنيات الضياع، من حيث الشكل ، إذ تكون محدودة المساحة، كما أنها تقع خارج أسوار المدينة، لكنها تختلف عنها في كونها حديقة واسعة توجد بها دور فخمة، تحيط بها البساتين²، تكون في الغالب ملكا للطبقة الخاصة والمترفة في المجتمع، تشبه نمط الفيلات في العصر الروماني، يتردد عليها أصحابها في أوقات معينة، بحثا عن الراحة والنزهة³.

ولما كانت هذه المنيات أماكن لطلب الراحة والنزهة، فقد عمل أصحابها على أن تكون في أجي حلة وقد وصفت بعض المصادر جمالها، فيصف العذري منية المعتصم بن صمادح، بقوله: " بنى بخارج مدينة المرية بستانا وقصورا متقنة البنيان، غريبة الصناعة، وجلب إليها من جميع الثمار الغربية وغيرها، ففيها من كل شيء غريب، مثل الموز الكثير، وقصب السكر، وأنواع سائر الثمرات، مما لا يقدر على صفته، وفي وسطه بحيرة عظيمة عليها محالس مفتحة مفروشة بالرخام الأبيض، ويسمى ذلك البستان بالصمادحية، وهو قريب من المدينة جدا"⁴.

وكان للوزير أبي بكر بن عبد العزيز، الذي استبد بالحكم في بلنسية بين 456-478هـ / 1063-1085م، منية وصفها ابن خاقان بقوله: " وهي من أبداع منازل الدنيا، وقد مدت أمداحها الأفياء، وأهوت إليها أزهارها العرف والرياء، والنهر قد غص بمائه، والروض قد خص بمثل أنجم سمائه"⁵، ومن أشهر المنيات في عصر ملوك الطوائف، ما بناه أبو الحسن يحيى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، فقد شيد سنة 445هـ / 1063م منية تفنن في اتقانها، وأنفق عليها أموالا طائلة، فشدت إليها كل من زارها وفصلوا في

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 812.

² أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي المعروف بابن خاقان ت 529 / 1135م ، مطمح الأنفس ومسرح التأس في ملح أهل الأندلس، تح. محمد علي شوابكه، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1983، ص217.

³ أبو مروان ابن حيان القرطبي 377-469هـ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تح. عبد الرحمن علي حجي، د. ط، بيروت، دار الثقافة، د. ت، ص ص 106، 107؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص 605.

⁴ العذري، المصدر السابق، ص 85.

⁵ أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن عبد الله القيسي الإشبيلي المعروف بابن خاقان ت 529 / 1135م ، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح وت. حسين يوسف خريوش، ط1، عمان، مكتبة المنار، 1989، ص ص 949، 950.

وصفها¹.

وفي القرن 06هـ/12م، شيد بعض أمراء الموحدين مثل هذه القصور، واتخذوها أماكن للراحة والنزهة والإقامة فيها للاستشفاء وطلب العلاج، مثل الأمير الموحيدي أبو يوسف يعقوب المنصور، فقد بنى قصر الفرج لهذا الغرض بناء على نصيحة أحد أطبائه، وعنه يقول ابن أبي أصيبعة: "وهو موضع بناه قريبا من إشبيلية، على ميلين منها، صحيح الهواء، بحيث بقيت الحنطة فيه ثمانين سنة لم تتغير لصحته، وكان أبو بكر بن زهر هو الذي أشار على المنصور أن يبنيه في ذلك الموضع، ويقوم فيه بعض الأوقات"²

ولم يكن امتلاك المنيات والقصور الريفية خاصا بالحكام فقط، بل شاركهم في ذلك الأغنياء والأعيان، فيذكر المقرئ أن أبا جعفر أحمد بن عباس، وزير زهير الصقلي ملك المرية، كان له برج بنواحي المرية يخلو فيه بنفسه، وكتب هذا الوزير في رده على أحدهم تساءل عن سبب خلوه بنفسه في برجه قائلا:

أصنع فيه كل ما أشتهي وحاسدي خارجه في هوان³

وهذا ما يفسر الانتشار الواسع لهذه المنيات، وقد أكد العذري ذلك، فذكر عن المرية خلال عصر ملوك الطوائف أنها كثيرة المنيات فقد اتصل بالصمادية بساتين كثيرة تقرب من صفتها، فيها منتزهات لا يعلم مثلها في جميع المنتزهات⁴، وفي غرناطة انتشرت المنيات والجنات حتى بلغت في عصر ابن الخطيب ق8هـ/14م زهاء المائة، وقد ذكر أن إحدى هذه المنيات، كانت ملكا لأحد خدام باديس بن حبوس الصنهاجي الذي ملك غرناطة بين 428-467هـ/ 1036-1074م⁵.

وقد تلتف بالمنية منازل المزارعين مشكلة قرية حولها، فتنسب إليها، مثل منية نصر التي بناها الإمام

¹ من هذه الأوصاف انظر: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح. إحسان عباس، ط1، بيروت، دار الثقافة، 1979، ج4، ص ص 132، 134، ص 355.

² موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، د.ط، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت، ص 523.

³ المقرئ، نفح الطيب، ج3، ص ص 535، 536.

⁴ العذري، المصدر السابق، ص85.

⁵ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 117؛ محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط3، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1966، ص23، محمد عبد الله الحماد، التخطيط العمراني لمدينة الأندلس الإسلامية، " ندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات"، ط1، الرياض، مكتبة عبد العزيز العامة، 1996، ص162.

عبد الله بن محمد، وصفها الحميري بأنها قرية قريبة من قرطبة موفية على النهر وهي في شرقيها، وتعرف بأرحاء الحناء¹.

ويمكن القول في الأخير أن الضياع والمنيات أصغر الوحدات والأقسام التي تعبر عن المجال الريفي في الأندلس، وإذا كانت الضياع منتشرة بين مختلف فئات المجتمع، فإن المنيات كانت خاصة لفئة بغرض النزهة والراحة.

ثالثا: خصائص الريف الأندلسي:

تمكن دراسة خصائص المجال، من تفسير بعض الظواهر التي عرفها المجتمع في هذا المجال، لأن الانسان ابن بيئته، فيحاول أن يتأقلم معه، ويسخر ما يوفره هذا المجال لإشباع رغباته، فيحدث بذلك تأثير وتأثر.

1- الخصائص الطبيعية:

امتزجت عناصر الطبيعة من مناخ، وتضاريس وتربة، في تكوين وتشكيل مجال طبيعي للريف الأندلسي، ميزته خصائص عديدة، ربما انفردت بها عن المجال الحضري.

أ- تداخل عناصر الطبيعة وتأثيراتها:

تشبه الأندلس شكل المثلث²، رأسه إلى الجنوب إذ تشكل المسافة بين بحر الزقاق وبحر الظلمات أربعون ميلا، وقاعدته في الشمال، وتتمثل في جبال البرتات التي تفصل البلاد عن بلاد الغال أو الأرض القديمة، ويحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث، فجنوبيها يحيط به البحر الشامي، وجوبيها يحيط به البحر المظلم، وشمالها بحر الإنقليشيين من الروم³.

ويتميز سطح الأندلس بالتنوع، فتشكل هضبة الميسيتا نصف مساحة الأندلس، ويبلغ متوسط ارتفاعها 1935 قدما (560 م) ، ولا تنخفض عن 700 قدم (213م)، إلا في جزئها الجنوبي

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 548.

² ابو عبيد البكري (ت487هـ/1094م)، المسالك والممالك، تح. وتق. أندريا فان ليوفن وأندري فيري، د. ط، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص 893.

³ الحميري، المصدر السابق، ص 32، 33؛ المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص 128.

الغربي¹، وتحيط بالهضبة سلاسل جبلية عديدة، أهمها جبال كنتابرية (Cantabria) في الشمال وفي الشمال الشرقي جبال سرقسطة وسلسلة جبال شلير (سييرا نيفادا – جبل الثلج) التي تفصل الجنوب والجنوب الشرقي عن وسط الأندلس²، وتتخلل الهضبة سلسلة جبال طليطلة المعروفة بجبال الشارات (سيرامورينا – Sierra Morena) وجبل شقوره وتمتد هذه الجبال بالإضافة إلى جبال أخرى من الشرق إلى الغرب³.

ولما كانت أغلب مساحة أرض الأندلس تشغلها هضبة الميسيتا والسلاسل الجبلية، فإن السهول شكلت نسبة قليلة من البلاد، إذ تنتشر سهول ضيقة على السواحل مثل سهول بلنسية ومرسية والمرية والسهول الساحلية الجنوبية⁴، لكن أهم السهول تلك التي تتخلل المرتفعات والهضاب، وتنتشر في المنخفضات والأودية والأنهار، وتتفاوت في السعة والطول مثل منخفض الوادي الكبير، ووادي يانة وغيرها⁵.

ولقد تأثر المناخ بالعاملين السابقين، فقد ساعد الموقع على هبوب الرياح المحملة بالأمطار على البلاد، من الغرب والشرق، وتفتن الرازي إلى ذلك فقسم الأندلس إلى قسمين: "أندلس غربي وأندلس شرقي، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي، وتمطر بالرياح الغربية... والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى، وتجري أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالرياح الشرقية"⁶.

أما السطح فيظهر تأثيره في الكتل الجبلية التي تميز الأندلس، إذ يكثر التساقط على المناطق الجبلية الواقعة في الشمال والشمال الغربي من الأندلس ولاسيما جبال البرتات اذ تهب عليها رياح بحرية جنوبية

¹ ج. س. كولان، الأندلس، "كتب دائرة المعارف الإسلامية"، ط1، بيروت- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، 1980، ص 62؛ محمد عبده حتاملة، إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمون، د. ط، عمان، وزارة الثقافة، 1996 ص 27، 28.

² البكري، المصدر السابق، ص 895؛ حتاملة، المرجع السابق، ص 28؛ كولان، المرجع السابق، ص 62.

³ عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن السادس هجري، ط1، القاهرة، دار الشروق، 1983 ص 52؛ حتاملة، المرجع السابق، ص 28.

⁴ حتاملة، المرجع السابق، ص 52.

⁵ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 52؛ حتاملة، المرجع السابق، ص 52.

⁶ المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 131.

وجنوبية غربية محملة بالرطوبة¹، أما المناطق الواقعة جنوب هذه الجبال فهي في ظل المطر فتميزت بالتساقط القليل، وعرفت الميسيتا بعدها عن المؤثرات البحرية، بالإضافة إلى تطويقها بمجموعة من السلاسل الجبلية وهذا ما أثر على كمية التساقط فيها الذي يمتاز بالقلة إذ لا تتعدى 400 ملم سنوياً، أما المناطق الواقعة في سواحل البحر الرومي (الأبيض المتوسط) في الجنوب والجنوب الشرقي، فيسودها مناخ البحر الأبيض المتوسط، المعروف بتساقطه المتوسط غير المنتظم في الشتاء وجفافه في الصيف².

ولا شك أن لهذه العوامل دور في استقرار السكان، وفي توجيه نشاطهم، فأغلب بلاد الأندلس بما يشكل ثلثي المساحة تتميز بقلّة الأمطار وعدم انتظامها، إذ تقل عن 600 ملم سنوياً ما عدا المناطق الجبلية، وقد شملت هذه المساحة جميع هضبة الميسيتا، وحوض الوادي الكبير، وحوض نهر إيبرو، وسواحل البحر الأبيض المتوسط³. وهذا ما سوف يحدث مشاكل بين السكان في الأرياف بسبب الحاجة الماسة إلى المياه في مختلف شؤون حياتهم خاصة نشاطهم الفلاحي.

ومن تأثيرات هذه العوامل على البلاد الأندلسية، وخاصة المناطق الريفية، هو التغيرات التي تطرأ على درجات الحرارة بسبب وقوعها على المرتفعات، أو بعدها عن المؤثرات المائية التي تلطف الجو، فيكون بذلك الشتاء في هذه المناطق شديد البرودة، فمن ذلك قرية فينانة، التي يصفها ابن الخطيب بالبرد الكثير⁴ وتزداد هذه البرودة في المناطق التي تقع في المرتفعات أو في سفوحها⁵.

¹ حتملة، المرجع السابق، ص 66.

² نفسه، ص ص 69، 70.

³ نفسه، ص 67.

⁴ لسان الدين بن الخطيب السلماني 713-776هـ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح. محمد كمال شبانة، د. ط، القاهرة،

مكتبة الثقافة الديني، 2002، ص 113.

⁵ يظهر ذلك في وصف أحد الشعراء لجبل شلير (جبل الثلج) :

يجل لنا ترك الصلاة بأرضكم	وشرب الحميا وهو شيء محرم
فرارا إلى نار جهنم فإنها	أخف علينا من شلير وأرحم
أقول ولا أنحي على ما أقوله	كما قال قبلي شاعر متقدم
فإن كان شربي مدخلي في جهنم	في مثل هذا اليوم طابت جهنم

انظر: الحميري، المصدر السابق، ص 343؛ الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص 360.

ب- نوعية التربة:

تتمتاز الأندلس عموماً بخصوبة أراضيها، فقد وصفها كتب الجغرافيا بجملة من الأوصاف، فيذكر الرازي أن الأندلس: "كرمة البقعة، بطبع الخلقة، طيبة التربة، مخصبة القاعة"¹، أما المقري فيذكر: "أن بأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا، ما لا يوجد مجموعته غالباً في غيرها"² ويصفها الحميري بأنها: "بقعة كريمة طيبة التربة"³.

هذه الخاصية ميزت عدة مناطق في ريف الأندلس، فمناطق إشبيلية لها النظر والواسع والفوائد الجمّة والغلات الكثيرة، أهمها إقليم الشرف أشرف بقعة وأكرم تربة، وهو عظيم المساحة، جليل في كثرة فوائده⁴ وإقليم الفندون التابع لمدينة مرسية، طوله ستة أيام وعرضه يومان، قليلاً ما يوجد مثله في طيب الأرض وجودة نمو الزرع فيه، حتى أن زرعه يثمر بسقي مطرة واحدة⁵.

وتعتبر سهول قرطبة من أكثر المناطق خصوبة، وأوفرها إنتاجاً في الأندلس، فيصفها المقري بالحرث العظيم⁶، وأرياف قلعة أيوب كثيرة الخصب⁷، ولمدينة قلعة رباح قرى ونواح، أرضها كريمة، تطيب مزارعها ويتركو طعامها⁸، وباجة في نهاية الخصب والرخاء⁹.

وتعد المناطق الريفية لشنترين، من أخصب الأراضي، ذلك أن نهرها (نهر تاجة)، يفيض على بطحائها كفيض نيل مصر، فأصبحت أرضها غاية من الكرم والطيب، وإقليم صقلب فيها من أطيب بقاع الأرض إذ تنتج فيها الحبة مائة وأكثر¹⁰.

¹ المقري، المصدر السابق، ج1، ص 140.

² نفسه، ص 197.

³ الحميري، المصدر السابق، ص 32.

⁴ ابن الشباط، المصدر السابق، ص 111.

⁵ المقري، المصدر السابق، ج1، ص 168، 169؛ العذري، المصدر السابق، ص 02؛ الحميري، المصدر السابق، ص 462.

⁶ المقري، المصدر السابق، ج1، ص 154.

⁷ الحميري، المصدر السابق، ص 469؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 553، 554.

⁸ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي المعروف بابن الخراط ت 581هـ، اختصار اقتباس الأنوار، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1999، ص 88.

⁹ الإدريسي، المصدر السابق، ص 571.

¹⁰ الحميري، المصدر السابق، ص 346؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 417.

وقد أسهم تنوع السطح واختلاف كمية التساقط في البلاد واختلاف درجات الحرارة، إلى وجود تنوع في التربة بين مختلف المناطق الريفية، فتربة إقليم الشرف حمراء اللون، وهي من أجود أنواع التربة، فقد أشاد ابن العوام بها بقوله: "الأرض الطيبة هي الأرض الجامعة للحرارة والرطوبة، فالسواد في الأرض دليل الحرارة وكذلك الحمرة أيضا... والأرض الحمراء نهاية في الطيب إذا كانت منتفشة، والشجر يوجد فيها".¹

وتنتشر الأراضي السبخة في بعض المناطق الريفية لمدينة دانية، فقد ذكر العذري أن حواليتها سبخة² وهي الأراضي التي ترتفع فيها نسبة الأملاح، وترتفع معها نسبة المياه الجوفية، وهي أراضي تختص بزراعة البقول والنخيل³، ويبدو أن الأراضي المحيطة بمدينة دانية قد اكتسبت خاصيتها بسبب قربها من السواحل⁴ كما يمكن أن ينتشر هذا النوع في مناطق بعيدة عن الساحل، فقد اعتبرتها كتب الفلاحة من الآفات التي تصيب التربة، وهو ما جعلها من بين أسوأ أنواع التربة، ويرجع سبب ذلك إلى ارتفاع درجة الحرارة وتأخر دخول فصل الشتاء⁵

أما المناطق الريفية المنتشرة في الجبال، فتسودها تربة حصوية، باردة وباسية، وهي من أدنى أصناف التربة، فقد وصفها ابن حجاج بقوله: "تربتها أقل طيبا كثيرا، وذلك لأن ما أحرقت الشمس منها، ولطفت من أجزائها حدرته الأمطار، فتصوب إلى الحضيض، فهزلت لذلك"⁶، ومن بين المناطق التي عرفت بهذا النوع من التربة، المرية، وبعض مناطقها الريفية، فقد "استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة، وأحجار أولية، وكأنا غرملت أرضها من التراب"⁷.

ومنه يمكن القول أنه رغم إشادة المصادر، خاصة الجغرافية منها بخصوبة الأراضي في الأندلس، إلا أنها

¹ أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي ت 580هـ/1184، الفلاحة الأندلسية، تح. أنور أبو سويلم و سمير الدروبي وآخرون، ط1، عمان، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 2012، ج1، ص327، ص330.

² العذري، المصدر السابق، ص19.

³ ابن العوام، المصدر السابق، ص ص 343، 344.

⁴ العذري، المصدر السابق، ص19.

⁵ إبراهيم القادري بوتشيش وعبد الهادي بياض، التربة آفات تقنيات معالجتها وتدابير استغلالها في ضوء الأدبيات الفلاحية الأندلسية (القرن 05هـ/11م) "الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط" ندوة علمية لمؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، إ.ش. حسن حافظ علوي، الرباط، منشورات عكاظ، 2011، ص224.

⁶ ابن العوام، المصدر السابق، ص ص 337، 338.

⁷ المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص163.

تفاوتت في جودتها بين المناطق الريفية، بسبب تنوع العوامل الطبيعية الداخلة عليها، وهو ما يفسر ربما التنوع في المحاصيل من جهة، ومن جهة ثانية ضعف الإنتاج في بعض المناطق.

3- جمال الطبيعة:

اشتهرت أرياف الأندلس بجمالها، وطبيعتها الساحرة، ويظهر ذلك في أوصاف الجغرافيين لها، وتغني الشعراء بها، وتفاخر أهل الأندلس ببلدانهم، فأندرش تتميز برياضها الجميلة، إذ يصفها ابن سعيد بقوله: "قطعة من جنات النعيم، ذات ثغر بسام، وخد رقيم"¹، ويصف ابن الخطيب قرية شلوبانية شرق المنكب بأنها: "حصانة معقل، ومرقب متوغل، وغاية طائر، وممتنع ثائر، ومتمتزه زائر، تركب بدنها الجداول المرفوعة وتخرق جهاتها المذانب المفردة والمشفوعة، ففي المصيف تلعب بالعقل الحصيف، وفي الخريف تسفر عن الخصب والريف"².

وزاد في جمال المناطق الريفية وقوعها على ضفاف الأنهار، فقد وصف أحدهم المناطق الواقعة على نهر أندرش بقوله³:

خليني في نهر أندرش	كي أروي عنده عطشي
مد منه معصم نضـر	في بسط بأرياض وشي
عندما أبصرت بهجته	حرت من فكر ومن دهش

وكثيرا ما شكل اختراق الأنهار للرياض والمروج، مجالا خصبا لمواضيع الشعراء في الأندلس، فوادي الطلح يشق إقليم الشرف بإشبيلية، مشكلا منظرا طبيعيا وصفه أحدهم بقوله⁴:

والنهر ما بين الرياض تخـاله سيفاً تعلق في نجاد أخضرا

¹ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص235.

² ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 97.

³ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 97.

⁴ إبراهيم بن سهل الإشبيلي الأندلسي ت 649هـ / 1251م، ديوان ابن سهل، تح. يسرى عبد الغني عبد الله، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ص ص 36، 37؛ فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط1، القاهرة، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، 2007، ص 133. انظر أيضا: المقرئ، نفح الطيب، 1، ص 691.

وجرت في صفحته الصبا فحسبتها
وكأنه إذا لاح ناصع فضة
والطير قد قامت به خطبـاًؤه
لم تتخذ إلا الأراكة منبراً

ولشريط منتزهات ومروج على ضفاف نهر وادي لكّة، ومن منتزهاتها الجانة ومرج السندسية، وعلى
النهر لشريط أيضاً " بساتين ومناظر ملاح"¹، ويزداد المجال الريفي جمالا في فصل الربيع، حينما يكتسي
حلة خضراء، وفي وصفه يقول شاعر²:

الأرض قد لبست رداء أخضرا
هاجت فخلت الزهر كافورا بها
وكأن سوسنها يصفح وردها
والطل ينثر في رباها جوهرا

وفي أزجال الأندلسيين ما يدل على إعجابهم بالريف في فصل الربيع، فيصف أحد الرجالين البساتين
في فصل الربيع بطيورها وثمارها وأزهارها ونسيمها بقوله³:

ثلاث أشيا فالبساتين
النسيم والخضر والطير
قم ترى النسيم يولول
والثمار تنثر جواهر

ولا شك أن جمال هذه المناطق، وما توفره من هدوء ولطافة هواء، جذبت إليها سكان المدن من
مختلف الفئات للنزهة والترفيه، خاصة أيام المواسم، فقد اعتبر الأندلسيون فصل الربيع من أيام النزهة والفرجة

¹ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص 302.

² ابن سهل الإشبيلي، المصدر السابق، ص 36.

³ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 2، ص 203.

عندهم¹، فيخرج أهل المدن إلى القرى والأرياف بنسائهم وأولادهم، ويحتفلون بذلك عدة أيام وينفقون ويبدرون، فمن ذلك أن أهل المرية يخرجون إلى عين الحمة بحصن الحمة في هذا الفصل بنسائهم وأولادهم للاحتفال في المطاعم، والتوسع في الإنفاق².

وكانت منية نصر القريبة من قرطبة، مقصد أهل الراحة والترفيه، إذ يعرف الركن الشرقي مما يلي القبلة من المنية بالركين، ويوجد بين النهر وبين هذا الركن موضع يرتاده "النبذيون وينتجعه الظرفاء، فلا يكاد يخلو منهم، يتفيئون ظله، ويعومون في نغيره لاشتهاره وبرده"³، وكان أعيان إشبيلية كثيرا ما يتفرجون في قلعة جابر لحسنها في المروج والمياه، وكثرة الطير⁴.

وعرف الوادي الكبير في إقليم الشرف، إقبالا كبيرا من سكان إشبيلية، وعقدت فيه مجالس اللهو والشراب، فقد ذكره المقرئ بقوله: "وقد سعد هذا الوادي بكون لا يخل من مسره، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناه عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤدي السكر إلى شر وعريضة"⁵، ويذكر ابن سعيد عن هذا الوادي أنه: "ميدان لهوهم ومضحكاتهم وتنديهم"⁶، ويصفه المقرئ في موضع آخر أنه: "كان يضاهي دجلة والفرات والنيل، تسير فيه القوارب للنزهة، تحت ظلال الثمار وتغريد الأطيوار أربعة وعشرين ميلا"⁷، وقد كان المعتمد بن عباد كثيرا ما يتردد على وادي الطلح الذي يشق الشرف متنزها هو ورميكيته، وأولي أنسه ومسرته⁸.

وواادي المرية طوله أربعون ميلا في مثلها كلها بساتين بحجة، وجنات نضرة، وأنهار مطردة، وطيور

¹ يظهر ذلك في وصف الشعراء لهذه الأيام، فمن ذلك يصف أحدهم الرياض في هذا الفصل باقول:

وكأنما تلك الرياض عرائس ملبوسهن معصفر ومزعفر
أو كالقياح لبسن موشي الحللى فلهن في وشي اللباس تبخر

انظر: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي ت 599هـ، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، د.ط، دار الكاتب العربي، 1967، ص 520.

² الحميري، المصدر السابق، ص 80؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 566.

³ الحميري، المصدر السابق، ص 548.

⁴ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص 291.

⁵ المقرئ، المصدر السابق، ج 3، ص 212.

⁶ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص 287.

⁷ المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 208.

⁸ نفسه، ص 691.

مغررة"¹، ومما لا شك فيه أنه استقطب سكان المرية للنزهة والترويح عن النفس، جريا على عادة أهل الأندلس في طلب هذه المناطق.

ومنه يمكن القول أن تداخل عناصر الطبيعة في الأندلس، أسهمت في تميز المجال الطبيعي للريف الأندلسي بخصائص طبيعية متعددة، فمن جهة تنوعت التربة بين مختلف المناطق الريفية، وتراوحت بين الجيد والرديء، ومن جهة ثانية تميزت البيئة الريفية بالجمال والعذرية، وهو ما دلت عليه النصوص، وأكدت عادات سكان المدن، الذين فضلوا هذه المناطق بحثا عن الهدوء والراحة والنزهة.

2- الخصائص العمرانية والبشرية:

سبقت الإشارة في الحديث عن معايير تمييز الريف عن المدينة، إلى تفرد الريف بصفة عامة بخصائص عمرانية وبشرية ، فإلى أي مدى ينطبق ذلك مع الواقع الأندلسي؟

أ- الخصائص العمرانية:

يعتبر العمران من المسائل الهامة التي يعنى بها الباحث عن المجال الريفي، إذ هو نتاج تفاعل الفرد بما توفره بيئته من امكانيات بسيطة ، وتمكن من تفسير بعض الظواهر الاجتماعية الخاصة بهذا المجال.

- تنظيم العمران الريفي الأندلسي:

عرفت بعض القرى في الأندلس باتساعها وكبر حجمها- كما تمت الإشارة إليه سابقا-، وبلغ من اتساع حجمها أن شبهت بالمدن، فمن ذلك يذكر الحميري أن "بزليانة قرية على ساحل البحر قريبة من مالقة، وهي قرية تشبه المدينة"²، ويصف ابن سعيد قرية نارجة وهي من أعمال مالقة، بأنها كبيرة تضاهي المدن³، ويذكر الإدريسي أن قرية عذرة مدينة صغيرة⁴.

ورغم هذا الاتساع، إلا أنه يلاحظ انعدام كلي للأسوار، التي تحصن القرى وتحميها من هجمات

¹ المقري، المصدر السابق، ج1، ص 163.

² الحميري، المصدر السابق، ص 92.

³ المقري، المصدر السابق، ج1، ص 178.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق ، ص 564.

النصارى¹، فيصرح الإدريسي بذلك في وصفه لقرية عذرة في الساحل الشرقي للأندلس بالقرب من المرية بقوله: "قرية عذرة مدينة صغيرة لا سور لها"، ويفهم من ذلك أن المدن امتازت بالأسوار، وهذه القرية تشبه المدينة لكنها ليست مسورة، وفي إشارة ابن عذاري عن المناطق الريفية لطليطلة على انعدام الأسوار فيها بقوله: "فذهبت أكثر أموال أهل طليطلة بتكرار الغارات عليهم، وفشت جوائهم، وجلا كثير من أهل ضياعه وأطرافه إلى قاعدتهم"². ويستثنى من هذا المدن التي خربت وأصبحت في عداد القرى، من ذلك قرية طلياطة، التي كانت مدينة ثم خربت، فتوصف بأنها: "عجبية الشكل رائعة البناء من بنيان الإشبان، وبها حمامات عجبية وأسواق حسنة وسور حصين"³

وبسبب انعدام هذه الأسوار، شيدت الحصون وسط الأراضي الزراعية لحماية المجتمع الريفي من الغارات النصرانية، وكذلك أيام الاضطرابات والفتن السياسية، ولذلك ارتبط ذكر الحصون بالقرى – كما ذكر سابقا-، وقد يشيد هذا الحصن وسط مجموعة من القرى، وهو ما يفهم من نص ابن عذاري السابق وكذلك ما أورده الإدريسي عن حصن بكيران بقوله: "حصن بكيران منيع عامر كالمدينة، وله سوق مشهودة، وحوله العمارات متصلة"⁴.

وتصرح نازلة عند ابن الحاج بذلك، إذ تذكر أن أهل الأندلس فروا إلى الحصون من قراهم، هربا من الفتن، فيتجمع مجموعة من القرى في حصن واحد، ويقيم أهل كل قرية إلى ناحية من الحصن⁵، وتؤكد نازلة في شرق الأندلس ذلك، إذ أن أربعة عشر قرية أجلتهم الفتنة إلى حصن في أعلى القرى المذكورة⁶، وفحص ماشجيكان التابع لمدينة لاردة تكثر فيه الضياع والمزارع والمراعي، ولا تخلو ضيعة منها أن يكون بها سرداب

¹ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 218. وقد أخطأت دندش حينما اعتقدت أن القرى الكبيرة محاطة بالأسوار، وقد اعتمدت على ما المقري في وصف ابن سعيد للأندلس، بقوله: "ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسور استعدادا للعدو"، وهذا الوصف صريح يقصد به أسوار المدن. انظر: المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 205؛ عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحيدين عصر الطوائف الثاني 510-546هـ/1116-1151م، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، ص 298.

² ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج 3، ص 280.

³ محمد عبده حتملة، موسوعة الأندلس والمغرب العربي الديار الأندلسية، ط 1، الجزائر، دار المدار الثقافية، 2009، ج 3، ص 287.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 557.

⁵ ابن الحاج، المصدر السابق، و 121، 122.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 784.

أو برج، يتمتع فيه أهلها من الأعداء¹.

وتختلف القرى في عدد الدور المشكلة لها، ففي منطقة من شرق الأندلس، تجمع قروي ضم أربعة عشر قرية، ضم إحداها اثنا عشرة داراً، بينما ضمت أخرى ثلاثون داراً²، ويمكن أن تتزايد أعداد الدور المشكلة للقرية، بسبب تزايد السكان بها، فقد أشارت نازلة أن رجلاً في قرية، له جنان اقتطع منها عراساً وباعها وبنيت دوراً³.

ورغم اختلاف عدد الدور من قرية إلى أخرى، إلا أنها في الغالب تتشابه في لونها الأبيض الذي صبغت به، وامتزجت باللون الأخضر الذي يميز طبيعتها، فبدت في غاية الحسن والجمال، وفي ذلك يقول ابن سعيد: "وما اختصت به -الأندلس- أن قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لثلاً تنبو العيون عنها"⁴، وقد وصف أحد الشعراء هذا المنظر بقوله⁵:

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالذّر بين زبرجد مكنون

ومن مظاهر التنظيم العمراني في الريف الأندلسي، أن القرى تشكلت أحياناً من حارتان⁶ أو مجموعة حارات كل حارة تسمى باسم قاطنيها الذين قد تربطهم علاقة الدم والقربة، ففي إحدى النوازل ورد فيها عقد إثبات ملكية جاء فيها: "يشهد من تسمى في هذا الكتاب أنهم يعرفون العقار الذي لأم ناجية المعروفة بهتي ابنة محمد بن فرج بحارة يونس المعروفة ببني سالم، من قرية مريانة الغافقي من إقليم الشرف في كورة إشبيلية"⁷، وتؤكد نازلة وردت ابن رشد أن القرية مقسمة إلى حارات "كل حارة منها منسوبة إلى قوم

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 507.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 784.

³ نفسه، ج 3، ص 1575.

⁴ المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 205. ويقارن ابن سعيد في نفس الموضع بين قرى الأندلس وقرى مصر التي يصفها بأنها تكدر العين ويضيق منها الصدر.

⁵ نفسه.

⁶ الحميري، المصدر السابق، ص 394.

⁷ ابن الحاج، المصدر السابق، و 7-9.

معروفة لهم ولآبائهم"¹، ويبدو أن هذا التنظيم مما أدخله المسلمون على البلاد، فقد ظهر منذ البدايات الأولى لاستقرارهم².

ومنه يمكن القول أن الحصن شكل تنظيمًا دفاعيًا للمجتمع الريفي في الأندلس، وأن القرية سواء كانت صغيرة الحجم أم كبيرة، فإنها تشكلت من حارات تعرف حسب قاطنيها في كثير من الأحيان، ولا يعلم إن كان تنظيم هذه الحارات خاضع لتخطيط مسبق فتتظم في شكل هندسي منسق، أم أنه عفوي مما يجعل هندستها بشكل فوضوي، وذلك لشح المعلومات التاريخية³، لكن الأكيد أن القرى كبيرة الحجم على الأقل تميزت بوجود المرافق العامة فيها مما جعلها مدعاة لأن توصف بالمدن.

– مرافق الريف الأندلسي:

يشبه البعض قرى الأندلس بالمدن لنظافتها وأناقاة بيوتها، واعتناء أهلها بها⁴، لكن ما احتوت عليه القرية من مرافق لا توجد إلا في المدينة، جعلت بعض المصادر تشبهاها بالمدن⁵، وقد صرح المقرئ أن بعض هذه القرى، تشمل على عدة مرافق، فقد ذكر أن كل قرية من قرى إشبيلية أسواق وديار حسنة وحمامات وغيرها من المرافق⁶.

ويأتي في مقدمة هذه المرافق المسجد، فقد توفرت كل قرية على مسجد واحد على الأقل، وهو ما يبدو جلياً في الأحباس التي وجهها أصحابها لهذا المرفق، فمن ذلك أن رجلاً أخرج أرضاً ليبنى فيها مسجد وبالقرب منه أخرج آخر بقعة ثانية لبناء مسجد، فباع الأول أرضه وبنى بها المسجد في الثانية⁷، وتشير نازلة

¹ أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي ت 914هـ، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخ. محمد بن شريفة وآخرون، د. ط، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981، ج 10، ص 331.

² ابن القوطية، المصدر السابق، ص 53.

³ يذكر الباحث رابع فيسة "أن معظم القرى الأندلسية كانت تتبع نظاماً عمرانياً منظماً وفق التعاليم الدينية والأحكام الفقهية" وهو حكم بالغ الأهمية لكنه لا يستند فيه إلى دليل، بل لم يفرق بين القرية والمدينة، واكتفى بذكر تنظيم المدن. انظر: محمد رابع فيسة، إحصاء جملة من قرى بلاد الأندلس من خلال مصادر وكتب التاريخ الإسلامي " مجلة الإنسان والمجتمع " العدد 09، ديسمبر 2014، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، ص 83.

⁴ Provençal, op.cit, p413.

⁵ الحميري، المصدر السابق، ص 92، الإدريسي، المصدر السابق، ص 541، ص 565.

⁶ المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 159.

⁷ ابن الحاج، المصدر السابق، و 141.

أن فلاحا في مرضه أوصى بزيت زيتون لمسجد سماه ليس في القرية غيره¹، وقد تتوفر القرية الواحدة على مجموعة من المساجد، ففي نازلة أن قرية بنيت فيها مساجد أخرى، غير المسجد الذي كان فيها².

وتحتاج المساجد إلى صيانة دائمة بسبب ما تتعرض له من مخاطر طبيعية وغيرها، أو ربما يعود السبب إلى بساطة المواد المستخدمة في بنائها، فتذكر نازلة عند ابن سهل عن قوم من قرى شتى أن عندهم مساجد خربة³. فكانت أحباس المجتمع الريفي في بعض الأحيان موجهة لها، بغرض تجديدها، وترميم ما خرب منها.

وقد تشترك مجموعة من القرى في المسجد الجامع، الذي تقام فيه صلاة الجمعة، فتذكر نازلة أن أربعة عشر قرية يجمعها مسجد جامع واحد في القرية التي تتوسط هذا التجمع القروي⁴ ويلاحظ في هذه المسألة أن المنفعة العامة لجميع القرى قد فرضت على سكان هذه القرى اختيار موضع المسجد.

وشكلت الطرق مرافق مهمة في القرى والمناطق الريفية، وفيها طرق عامة أو رئيسية يسلكها عموم المسلمين وجميع السكان وتسمى بالمحجة العامة⁵، وطرق لا ينتفع بها إلا مجموعة خاصة من المسلمين، وتقع في الأرزقة وبين الفدادين والبساتين⁶. ويلاحظ على بعض المحجات العامة أنها كانت في الأماكن التي لا ينتفع بها، وبشكل فوضوي وبقيت على حالتها الطبيعية من تراب، فتوجد طريق في بطن الوادي⁷، وطريق آخر أسفل الجنان، وبقرى خندق للماء⁸.

ودلت الأضرار التي لحقت بهذه الطرق، نتيجة تساقط الأمطار على هشاشتها، فقد ذكرت نازلة أن

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 399.

² نفسه، ص 399.

³ أبو الأصغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي ت 486هـ، الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تج. نورة محمد عبد العزيز التويجري، ط1، د. د. ن، 1995، ج2، ص 734.

⁴ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 784.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 41؛ أبو مطرف عبد الرحمان بن القاسم الشعبي المالقي ت 497هـ/1104م، الأحكام، تج. محمد صادق الحلوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص ص 211، 212.

⁶ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 71. انظر الملحق رقم 01 بعنوان "الطريق مرفق عام في الريف الأندلسي".

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 1220، 1221.

⁸ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 41.

محجة تضررت بسبب المياه التي غمرتها، وأدت هذه المياه إلى انجراف التربة¹، كما لحقت هذه الطرق أضراراً بسبب العامل البشري، فقد ضيق طريق بسبب بناء رجل حائطاً لجنته²، واقتطع رجل من محجة المسلمين وضمه إلى جنانة بمنية المغيرة في ريف قرطبة³، وحاول أهل الفتوى والقضاة، الحفاظ على هذه الطرق لما فيها منفعة للسالكين لها، وعموم سكان المناطق الريفية⁴.

ومن المظاهر العمرانية التي حفلت بها المناطق الريفية، وكانت محل إشادة المصادر، الحمامات فلا تكاد تخلو قرية من حمام، قد ذكرت بعض هذه المصادر أن قرى الشرف عامرة أهلة بالحمامات⁵، وقرية بزليانة وقرية عذرة بهما الحمام والفنادق⁶، وقرية طلياطة بها حمامات عجيبة⁷، وفي نازلة وردت عند ابن رشد أن رجلاً تعدى على قطعة أرض محبسة على موتى المسلمين، وبنى فيها حماماً استغله لنفسه مدة من عشر سنوات⁸.

ولا يعلم في الحقيقة شكل هذه الحمامات، ولا طريقة بنائها أو المواد المستخدمة في ذلك، لكن يعتقد أنها كانت بسيطة، لما جبل عليه أهل الريف من اكتفائهم بالضروري في العيش، واستغنائهم عن الكمالي كما يعبر عنه ابن خلدون – وهو ما سبقت الإشارة إليه–، رغم ما أشارت إليه إحدى الدراسات من أن حمامات المزارعين تزينها الصور والمناظر الجميلة، التي تبعث السرور إلى نفوس روادها⁹، وهي إشارة لا يمكن الركون إليها لغياب النصوص التي تدعمها.

أما فيما يخص ما ذكره البعض عن الصورة التي تزين حماماً في إقليم طالق، مستندين على النص الذي

¹ الشعبي، المصدر السابق، ص 211، 212.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 1220، 1221.

³ أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي ت 486هـ، الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى تح. نورة محمد عبد العزيز التويجري، ط 1، 1995، ج 2، ص 778، ص 794.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج 9، ص 41؛ الشعبي، المصدر السابق، ص 211، 212؛ ابن سهل، المصدر السابق، ج 2، ص 778.

⁵ المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 159.

⁶ الحميري، المصدر السابق، ص 92؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 564.

⁷ حتاملة، موسوعة الأندلس والمغرب العربي، ص 287.

⁸ ابن رشد، المصدر السابق، ج 3، ص 1391.

⁹ حسين شبيب هياجنة محمود، الوضع الزراعي في الأندلس منذ الفتح حتى سقوط دولة المرابطين، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشر. محمد عبده حتاملة، الجامعة الأردنية، 1989، ص 287.

نقله المقرئ¹، فلا يقصد به منطقة ريفية، لأن الحميري هو الذي نقل الوصف كاملاً فيصرح أن طالقة مدينة بالأندلس بالقرب من إشبيلية، ومن آثارها العجيبة صورة المرأة التي فتنت العوام فعطلتهم عن أشغالهم².

وأشارت المصادر إلى وجود الفنادق في المناطق الريفية، والتي غالباً ما ارتبط ذكرها بذكر الحمامات دون أن تشير هذه المصادر إلى شكلها العمراني ولا إلى تنظيمها، لكن يمكن الاستئناس بنازلة متأخرة عن فترة الدراسة، تعود إلى القرن 08هـ / 14م، مفادها أن قرية فيها فندق لرجلين، يحده من جهاته الأربع جنان وطريق، وليس فيه علو، وإنما فيه بيوت وسقائف للدواب³.

وما يمكن قوله من خلال هذه النازلة، أن الفندق في المناطق الريفية قد يكون ملكاً لشخص واحد كما يمكن أن يكون مشتركاً بين رجلين، وتميزت هذه الفنادق بالبساطة فلا تعدو أن تكون عبارة عن بيوت يقضي فيها المسافرون ليلهم، وسقائف تربط فيها دوابهم، كما أنها ليست عالية البناء، أي أنها ذات طابق أرضي فقط، وموقعها المتوسط للجنان قد يجعلها مقصداً لطالبي النزهة والراحة.

كما أشارت المصادر إلى وجود مرافق أخرى في الريف الأندلسي، فمن ذلك المقابر، ففي كل قرية أو منطقة ريفية مقبرة لدفن موتى المسلمين، ويظهر ذلك من أحباس السكان على موتاهم، فتذكر نازلة أن رجلاً خصص قطيعاً من فدان للمقبرة في قرية السقائين بغربي حاضرة قرطبة⁴، وحبس رجل أرضاً لدفن موتى المسلمين⁵.

كما انتشرت في بعض أرياف الأندلس، العيون الطبيعية، وهي مرافق هامة زودت هذه المناطق بما تحتاجه للشرب، واستفادت منها في أغراض أخرى، فمن ذلك أن قرية تارة من قرى لورقة فيها "عين تخرج من حجر صلد"⁶، وفي قرية قنبرشة القريبة من طليطلة فيها عينا ماء، إذا نضبت إحداها جرت الأخرى

¹ قرني، المرجع السابق، ص 309. أما عن النص الذي استند عليه انظر: المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 158.

² الحميري، المصدر السابق، ص ص 381، 382.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 134.

⁴ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 103.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج 3، ص 1391.

⁶ العذري، المصدر السابق، ص 03؛ الحميري، المصدر السابق، ص 513.

هذا دأبهما¹، وفي كورة تدمير عين ماء في غاية الطيب والخفة².

وفي الأخير يمكن القول، أن المناطق الريفية عرفت انتشار العديد من المرافق، فبالإضافة إلى الدور والمنازل، والمساجد والمقابر، عرفت القرى الكبيرة انتشار مرافق أخرى كالحمامات والفنادق والعيون، وما يمكن تأكيده هو بساطة هذه المرافق في عمراتها من حيث الشكل والمواد المستخدمة فيها.

ب- الخصائص البشرية:

- العصبية القبلية:

تم الإشارة سابقا إلى أن العصبية تنتشر في الأرياف وتختفي في المدن، وتكون هذه العصبية بمثابة الحصن الذي يحمي أفراد القبيلة من أي عدوان يداهمهم، أو أي خطر يلحق بهم، كما تكون عوناً وسنداً لهم في مواجهة مشاكل الحياة ومصاعبها.

ولئن كانت هذه البنية القبلية في بلاد الغرب الإسلامي، تختلف بين عدوتيهما، فهي أقل ثباتاً في بلاد الأندلس³، التي ذكر ابن خلدون، بأنها ليست بدائر عصائب ولا قبائل، ويعلل ذلك بازدهام القبائل واختلاطها ببعض، في الأرياف على البلد والطيب والمراعي الحصينة، فكثر الاختلاط وتداخلت الأنساب مما أدى إلى فسادها⁴، يضاف إلى ذلك اختلاط المسلمين في الأندلس مع العجم، الذين يختلفون عن العرب في المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم⁵.

وقد جاء في رسالة المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين، ما يؤكد هذا الأمر، فيذكر: "إنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة من صنيعنا، فصرنا منها شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر فقل ناصرنا، وكثر شامتنا"⁶، ويرجع المقري ذلك إلى سياسة

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 394.

² العذري، المصدر السابق، ص 02.

³ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 218.

⁴ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 139.

⁵ نفسه.

⁶ مؤلف مجهول ق8هـ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح. سهيل زكار و عبد القادر زمامة، ط1، الرباط، دار الرشاد

الحديثة، 1979، ص ص45، 46.

المنصور بن أبي عامر الذي فرق قبائل العرب بقصد "تشتيتهم وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاء... فانحسرت مادة الفتنة والاعتزاء بالأندلس"¹.

وهذا لا يعني ذلك اختفاء العصبية تماما، إذ يفهم ذلك من كلام ابن خلدون، فتداخل الأنساب يفهم منه أن القرية الواحدة تضم مجموعة من القبائل، عكس ما كانت عليه في السابق، أين كانت القبيلة الواحدة يجمعها مكان واحد، وقد دلت النصوص النوازلية على هذا التداخل، فنازلة القرية المقسمة إلى حارات: "كل حارة منسوبة إلى قوم معروفة لهم ولآبائهم"²، فيها إشارة إلى التنظيم القبلي السائد في القرى الأندلسية، وعبارة "قوم" تدل على القبيلة³، وأشارت نازلة أخرى إلى حارة يونس المعروفة ببني سالم، من قرية مريانة الغافقي من إقليم الشرف في كورة إشبيلية⁴.

كما وردت إشارات في بعض المصادر، تفيد بقاء النظام القبلي في بعض المناطق، فقد أشار المقري إلى انتشار بني القليعي من الأزد بقرية صالحة على طريق مالقة، ويصف هذا الانتشار بالكثرة⁵، أما ابن بسام فيشير إلى مصطلح القبيلة، عند ذكره ابن حزم فيقول: "ومن أبناء هذه القبيلة، وشعراء هذه البيعة الأصيلة، ابن عمه أبو الوليد محمد بن حزم"⁶، وفي هذا دلالة ربما على بقاء رواسب العصبية القبلية في البلاد.

ومنه يمكن القول أن العصبية القبلية في الريف الأندلسي، إن لم تفسد وتتلأشى فإنها اختلطت وقلت حدتها وشوكتها، وحلت محلها رابطة اجتماعية جديدة، أو اندماج اجتماعي جعل من القرية كالعائلة الواحدة، ويعود السبب في ذلك إلى أن هذا الاختلاط مع طول المعاشرة، نتج عنه تشكل رابطة أسرية بين سكانها، عن طريق المصاهرة والتزواج، وهو ما عرفت به الأرياف المنتشرة حول البحر الأبيض المتوسط

¹ المقري، المصدر السابق، ج1، ص 293.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص ص 331، 332.

³ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 231.

⁴ ابن الحاج، المصدر السابق، و 7-9.

⁵ المقري، المصدر السابق، ج1، ص ص 293، 294.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص 598.

خاصة ببلاد الأندلس والمغرب¹.

– أوصاف السكان:

أسهمت البيئة القاسية والصعبة التي يعيش فيها سكان الريف في الأندلس، في تشكل طبائع وصفات ميزتهم عن سكان المدن، مما جعلهم في بعض الأحيان محل سخرية وانتقاد، فمن ذلك أنهم أبعد الناس عن النعيم والترف، ويظهر ذلك في سخرية الشاعر نزهون القلاعية بالشاعر الأعمى المخزومي من حصن المدور من أعمال قرطبة كونه لا يعرف في مجالس النعيم شيئاً، لأنه نشأ في الريف بين التيوس والبقر².

وقد جاء في أمثال العامة ما يدل على هذه النظرة، فمن ذلك: "دلال شوذر يفرق بين البائع والمشتري"³، وهي عكس مهمة الدلال لأنه يجمع بين البائع والمشتري ولو بالكذب⁴، وكأنه يراد به أن الدلال بهذه القرية من كورة جيان، لا يحسن الاشتغال بالتجارة، فأصبح مثلاً بين العامة، وبسبب سذاجة بعض أهل القرى والبوادي وقعوا في حبالل المحتالين، وسماسة التجارة، وقد أوردت كتب الحسبة بعض هذه الحيل⁵.

ووصفت بعض المناطق الريفية بالجهل وغلبة البداوة عليهم، فابن سعيد يصف أهل حصن العقبين "

¹ محمد رابح فيسة، الأقسام المعمارية للمنزل الريفي البربري من خلال دراسة بعض النماذج من قرى بني سوس في تلمسان، " مجلة كان التاريخية"، العدد 28، جوان 2015، www.kanhistorique.org.

² وقد هجته في أبيات شعرية لاذعة، ومما جاء فيه:

قل للوضع مقـ	يتلى إلى حين يحشـ
من المدور أنشـ	ت والخرأ منه أعطـ
حيث البداوة أمسـ	في مشيها تتبختـ

انظر: المقري، المصدر السابق، ج1، ص 192.

³ أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجال القرطبي (617-694هـ)، أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، تح. محمد بن شريفة، د. ط، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، د. ت، ج2، ص 211؛ محمد بن شريفة، تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب بحوث ونصوص، د. ط، الرباط، منشورات وزارة الثقافة، 2006، ج2، ص 189.

⁴ بن شريفة المرجع السابق، ص 189.

⁵ دندش، المرجع السابق، ص 311.

بالجهل الكثير، وأن البداوة غلبت عليهم ، وبعدت عنهم آداب الحضارة"¹، وأهل حصن المدور مطبوعون على الجفاء والبداوة². وربما يرجع السبب في ذلك إلى " تفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي"³، إلا من شذ منهم كأهل برشانة حصن من حصون المرية، فأهلها أولو عداوة لأخلاق البداوة⁴.

وإلى جانب صفة البداوة وبعدهم عن الحضارة، بسبب العامل السابق، اكتسب بعضهم صفة الجفاء للغريب ونظروا إليه بنظرة الريبة والشك، وشعروا اتجاهه بشعور عدائي، بسبب قساوة عيشهم، فهم في صراع دائم مع الطبيعة، ودفاع ومغالبة لتأمين ضروريات العيش⁵، وتتجلى هذه الصفة في كثير من المناطق الريفية فأهالي حصن المدور فيهم جفاء للغريب في كل حالة، وهم مطبوعون على هذا الجفاء⁶، وبلغ ببعض المناطق من الجفاء للغريب حدا كبيرا، فحصن شبالش: " وطن عدم إدامه، وبيت ظهر اهتداهم وفقدت به حيل التعيش وأسبابه، ومحل لا يقيم به إلا أربابه"⁷.

وقد يفسر الأمر على أنه حرص واحتياط أكثر منه جفاء، فقد صرح بذلك والد ابن سعيد ردا على تعجب ابنه من تصرف من كانوا في ضيافته في إحدى القرى بقوله: " هذه مروءات أهل الأندلس وهذا احتياطهم، أعطاك الكساء وفضلك على نفسه، ثم فكر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفا من انفصالك به وهو نائم، وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل"⁸.

ولئن أسهمت طبيعة المجال الذي يعيش فيه سكان الريف، في تكون هذه الطبائع والصفات، فإنها بالمقابل أكسبتهم الشجاعة والجلد والحزم، وقد وردت إشارات عديدة في المصادر عن ذلك، فحصن غافق من أعمال قرطبة: " في أهله نجدة وحزم، وجلادة وعزم، وكثيرا ما تسري إليهم سرايا الروم فيستنقذون منهم

¹ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص 186.

² نفسه، ج1، ص 227.

³ ابن خلدون، المصدر السابق، ص 134.

⁴ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 106.

⁵ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 134؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص 186؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 225.

⁶ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 227.

⁷ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص ص 111، 112.

⁸ المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص 224.

غنائهم ويخرجونهم من أرضهم، والروم تعلم بأسهم وبسالتهم، فيجتنبونهم¹ وحصن المدور فيهم شجاعة² ويمتاز أهل قرية بطروش من أعمال فحص البلوط، بالجلادة والحزم على مكافحة الأعداء³.

ويعرف أهل البوادي عموماً بالكرم والجود، وقد تميز سكان الريف الأندلسي بهذه الصفة، فالإدريسي يقول عن سكان المناطق الريفية لشلب: "وأهل هذه البلاد غاية في الكرم، لا يجاريهم فيه أحد"⁴، وأهل برشانة في أيديهم نداوة⁵، وذكر ابن بشكوال أن أحد العلماء، كان يقيم في قرية من قرى الأندلس يستقبل في داره ما يزيد على أربعين طالب علم، يدرسون عنده مدة ثلاثة شهور، ويكرمهم طول فترة مقامهم عنده⁶، وقد عبر أحد الريفيين عن فرحته بمقدم ضيوف له بقوله⁷:

أخذي كذا بركاب الضيف أنزله ألد عندي من الإسفنج بالعسل
أو من رغائف كانون مُلْهُوَجَةٍ أو رائب بقري جيد العمــــل
أو خوار عجول في مسارحها أو من ركوب الحمير الفره في الكفل

ويتضح من خلال هذه الأبيات أن قدوم الضيف عند هذا الرجل، خير له من ملذات الدنيا، كما يبدو أن الطعام الذي كان يقدم للضيوف مما يعمل في الريف كالرغائف والإسفنج والرائب البقري، وغيرها وقد ذكر أحدهم الدجاج والبيض والشراب، وهي ضيافة معلومة في الأرياف الأندلسية⁸، وبالغ أحدهم في الكرم، فيقدم ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت، أو ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد⁹.

وبالرغم من أن الغالب في سكان الريف الكرم والجود، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود بعض المناطق

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 426، 427؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 580

² ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص 227.

³ الحميري، المصدر السابق، ص 93؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 580.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 543.

⁵ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 106.

⁶ أبو القاسم بن بشكوال، الصلة، تح. إبراهيم الأبياري، ط1، بيروت- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، 1989، ج1، ص 72.

⁷ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 677.

⁸ دندش، المرجع السابق، ص 301.

⁹ ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 73.

التي عرفت بالبخل، وهذا ما أشار إليه ابن سعيد في وصفه لزيارة رفقة والده إلى إحدى القرى الأندلسية¹ وهذا البخل قد يفسر بالحرص والاحتياط والتدبير في المعاش، خوفا من تقلب الزمان وتغير الأحوال، وذل السؤال².

هذا ولا يعني أن الريف لا يعرف سكانه إلا بأحسن الصفات، فقد ذكر ابن الخطيب عن انتشار الفسق والمجون بين أهالي برشانة³، لكن الغالب على صفات المجتمع الريفي في الأندلس الخير، لأنهم أقرب إلى الفطرة الأولى، حسب التفسير الخلدوني لصفات البداوة⁴.

وعليه فإن صفات المجتمع الريفي في الأندلس، تحكمت فيها البيئة التي يعيش فيها، فعرف في بعض المناطق بالبداوة المتفشية فيه، كما عرف بالجفاء للغريب لشدة حرصه وتحززه منه، والشجاعة سجية فيه، أما الكرم فهو غالب على هذا المجتمع، ومما تجود به بيئته.

ويمكن القول في خلاصة هذا الفصل أن مصطلح الريف يعبر عن المجال الذي يشغله المجتمع خارج أسوار المدينة، وهو أكثر تعبيرا ودلالة في الأندلس من البادية، لأن طبيعة البلاد جعلت سكانه أكثر استقرارا، وقد عبرت عن هذا الريف عدة وحدات أكبرها الإقليم والجزء الذي يعبر كل منهما عن المناطق الريفية الزراعية والرعية، ويتبعان المدن ويضمّان أعدادا من القرى والحصون والقلاع.

وكانت القرى مناطق الاستقرار الرئيسية للمجتمع الريفي، فانتشرت في البلاد بشكل كبير، واختلفت في الحجم، فضم بعضها تجمعات سكانية قليلة، بينما شبت أخرى بالمدن لكبر حجمها، واشتملت التجمعات القروية على الحصون والأبراج، التي وفرت الحماية للمزارعين والفلاحين، وكانت مواطن استقرارهم خاصة في أيام الحروب والفتن التي تعرفها البلاد.

أما المنيات والضيعات، فهي أصغر الوحدات والأقسام المعبرة عن الريف الأندلسي، وعرفت انتشارا كبيرا في البلاد، وبينما كانت المنيات أملاكا اتخذها الخاصة من المجتمع للترفيه والنزهة، انتشرت الضياع بين مختلف شرائح المجتمع.

¹ المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 224.

² قرني، المرجع السابق، ص 240.

³ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 106.

⁴ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 132.

وتتميز الريف الأندلسي بمجموعة من الخصائص الطبيعية العمرانية والبشرية، فتداخل عناصر الطبيعة من مناخ وتضاريس، تميز المجال الطبيعي للريف الأندلسي بتنوع التربة بين مختلف مناطقه، واتصفت بيئته بالجمال والعذرية فكانت ملاذ سكان المدن للبحث عن الهدوء والراحة والنزهة.

وفي جانبها العمراني اختلفت أحجام القرى بناء على اختلاف الدور المشكلة لها، والمرافق الموجودة فيها فالصغيرة ضمت عددا قليلا من الدور ولم تزد عن المساجد الصغيرة والمقابر، بينما القرى الكبيرة احتوت على عدد أكبر من الدور، بالإضافة إلى المساجد الجامعة والحمامات والفنادق، لكنها لم تكن تضاهي مرافق المدينة في الحجم و لا حتى في المواد المستخدمة فيها.

أما الخصائص البشرية فيلاحظ قلة العصبية القبلية في أرياف الأندلس، التي حلت محلها رابطة اجتماعية جديدة تمثلت في القرية، حيث تشكلت رابطة أسرية جديدة داخل القرية الواحدة بين مختلف العناصر المشكلة لها بسبب المصاهرة. واتصف بعض سكان القرى الأندلسية بالبداءة المتفشية فيهم، في حين قلت عند البعض الآخر، وقد أسهمت البيئة بشكل كبير في تشكل هذه الطبائع.

الفصل الثاني

مكونات المجتمع الريفي الأندلسي:

أولاً/ عناصر المجتمع الريفي وإثنياته.

ثانياً/ طبقات المجتمع الريفي.

أولاً: عناصر المجتمع الريفي وإثنياته:

1- العرب:

أ- هجرات العرب إلى الأندلس:

عرفت بلاد الأندلس توافد العنصر العربي منذ بداية الفتح الإسلامي، واستمر لفترات لاحقة، بأعداد كبيرة على شكل طوابع، وقد كانت هجراتهم بشكل كبير إلى غاية منتصف القرن 02هـ / 08م، ثم بدأت تتناقص في الفترات التي تلتها لكنها لم تتوقف.

وأول طالعة مهمة عرفتها الأندلس كانت بقيادة موسى بن نصير سنة 93هـ / 712م، التي اختلفت المصادر حول عددها، فيذكر ابن عذاري عشرة آلاف مقاتل¹، بينما صاحب أخبار مجموعة يجعلها في ثمانية عشر ألف مقاتل²، ويزيد صاحب تاريخ الأندلس على ذلك ألفي مقاتل³، ورغم هذا الاختلاف والفارق الكبير، إلا أنها توحى بكثرة عدد هذه الطالعة، وهو ما عبر عنه ابن القوطية بالحشد الكبير⁴.

وتفيد المصادر أن العنصر الغالب في هذه الطالعة كان من العرب، فيذكر أحدهم أن موسى بن نصير: "كان معه بنوه عبد العزيز وعبد الأعلى ومروان ووجوه من قريش وأشراف العرب والبربر"⁵، ويذكر آخر أن الطالعة ضمت عناصر: "من قريش والعرب ووجوه من الناس"⁶، ويؤكد آخر ذلك بالقول أنها ضمت: "وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر"⁷، هذا بالإضافة إلى المقاتلين العرب الذين ضمهم جيش طارق بن زياد والذين بلغوا حسب بعض المصادر ألفا مقاتل⁸، وما يهم في هذه الأرقام أن دخول العرب إلى الأندلس في بداية الفتح كان كبيراً.

¹ ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص 13.

² مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تح. إبراهيم الأبياري، ط2، بيروت- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، 1989، ص 24.

³ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، تح. عبد القادر بويابة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2007، ص 155.

⁴ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 35.

⁵ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص 155.

⁶ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، تح. لويس مولينا، د. ط، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية والوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، د.ت، ص 24.

⁷ المراكشي، المصدر السابق، ص 16.

⁸ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص 153.

وشهدت البلاد طالعة ثانية أقل شأنًا من الأولى، بقيادة الوالي الحر بن عبد الرحمان الثقفي سنة 97هـ/ 716م في أربعمئة رجل من وجوه إفريقية¹، ويرجح مؤنس أن تكون هذه الطالعة من النخبة العربية الممتازة، كما أن أغلبهم من اليمنية لأن معظم عرب إفريقية منهم².

لكن الهجرة الأهم بعد طالعة الفتح، هي التي كانت بقيادة بلج بن بشر القشيري القيسي سنة 123هـ/ 741م، حيث كان على رأس عشرة آلاف فارس ألفان من الموالي وثمانية آلاف من العرب³ وكان أغلبهم من القيسية، ومنذ ذلك الوقت دخلت البلاد في فتن، كان سببها رفض الطلائع الأولى من العرب المعروفين بالبلديين، مشاركة الوافدين الجدد المعروفين بالشاميين في البلاد⁴.

وما زاد في لهيب هذه الفتنة، العصبية القبلية والعداء القديم بين اليمنية والقيسية، والتي أطالت في أمد هذا الصراع، رغم محاولات الخلافة الأموية في دمشق القضاء عليها، مثل تولية أبي الخطار بن ضرار الكلبي سنة 125هـ/ 743م، الذي حاول جاهدا أن يطفى نار الفتنة⁵، لكنه نسف جهوده بسبب عصبية فاشتعلت البلاد من جديد⁶. ولم تتوقف الفتنة إلا بدخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، الذي قضى حياته في البلاد 137-172هـ/ 756-788م، وهو في حرب لاسترجاع الأمن المفقود منها⁷.

وما يهم في هذه الفتن والحروب التي عرفتها البلاد منذ الربع الأول من القرن 02هـ/ 08م، أنها قد حصدت العديد من الأرواح في صفوف العرب، فأسهمت في تناقص أعدادهم في البلاد، وتكفي الإشارة إلى أن عبد الرحمن الداخل قضى على عدد هائل في ثورة أحد اليمنيين في باجة سنة 146هـ/ 763م

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ص 25؛ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص 44.

² مؤنس، فجر الأندلس، ص 400.

³ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 40.

⁴ نفسه، ص 42؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ص 31؛ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص 55؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص 401.

⁵ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 49؛ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 44، 45؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ص 34؛ المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 237.

⁶ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 56-59؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ص 34؛ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 237، 238؛ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 45.

⁷ خالد الصوفي، تاريخ العرب في إسبانيا- نهاية الخلافة الأموية في الأندلس-، ط 1، دمشق، مكتبة دار الشرق، 1963، ص 12

قدرتها المصادر بين ستة آلاف وعشرة وآلاف¹، وفي السنة ذاتها قضى على ثلاثين ألفاً في ثورة قادها أحد اليمينية بإشبيلية².

كما أنه لم يسمع في عصر الخلافة الأموية عن هجرات كبيرة للعنصر العربي، خاصة بعد السياسة التي طبقها الخلفاء الأمويون، بإقصاء دورهم السياسي والإداري، بسبب ما أحدثوه من فتن وحروب فيعرف عن عبد الرحمان الناصر (300-350هـ / 912-961م) اعتماده على الصقلية والإكثار منهم في خدمته في الجيش والإدارة³، كما أن المنصور بن أبي عامر، اعتمد نفس الأسلوب واتخذ من البربر والصقلية أداة لكسر شوكة العرب⁴.

ولا يعني هذا الكلام أن نسبة العرب في بلاد الأندلس كانت قليلة، فقد قدر مؤنس أعداد العرب بعد عشرين سنة من دخولهم الأندلس بثلاثمائة ألف عربي، دون حساب من انضم أو انتسب إليهم من مواليهم⁵، ومرد ذلك إلى أن العرب عندما دخلوا الأندلس، اتخذوا نساء وأكثروا في ذلك، وزاد نسلهم وهو ما عرف به العرب من الخاصة والعامة في الأندلس⁶. وهذا ما يعني بالضرورة أن أعداد العناصر ذات الأصل العربي في البلاد، كانت تقدر بالملايين خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م.

ويفسر بوتشيش تركز العنصر العربي في بلاد الأندلس - والتي وصفها بالهامة-، بخصوبة وثراء الأراضي الأندلسية، التي شدد إليها أنظارهم، فضلاً عن تشابه بيئتها مع البيئة العربية في المشرق⁷، ولهذا لم تتوقف الهجرة إلى بلاد الأندلس، فقد أشار ابن حزم، إلى هجرة حدثت سنة 406هـ / 1014م، قام بها أحد أحفاد عقبة بن أبي معيط، رفقة ولديه، واستقر بها⁸. وهو ما يدعو إلى القول أن الهجرة الفردية من

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ص 53؛ مجهول، تاريخ الأندلس، ص 165؛ مجهول، أخبار مجموعة، ص 94؛ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص 99.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ص 51.

³ مصطفى شاكر، الأندلس في التاريخ، د. ط، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1990، ص 45.

⁴ سالم، المرجع السابق، ص 331.

⁵ مؤنس، فجر الأندلس، ص 409.

⁶ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص 38، ج 2، ص 10؛ قري، المرجع السابق، ص 186، مؤنس، فجر الأندلس، ص 409.

⁷ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 36.

⁸ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي 384-456هـ، جمهرة أنساب العرب، تح وت. عبد السلام محمد هارون، ط 5، القاهرة، دار المعارف، 1982، ص 115.

المشرق إلى بلاد الأندلس لم تتوقف خلال الوجود الإسلامي بها.

وفي عصر ملوك الطوائف وعقب سقوط طليطلة سنة 479هـ / 1086م، فكر أهالي قرطبة في الاستنجاد بالقبائل المالكية المستقرة بإفريقية، إذ يذكر ابن الأثير أن مشايخ قرطبة اجتمعوا بالقاضي عبد الله بن أدهم، واقترحوا عليه طلب النجدة من عرب إفريقية، فقال: " نخاف إذا وصلوا إلينا يخربون بلادنا كما فعلوا بإفريقية ويتركون الإفرنج ويبدؤون بكم، والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا"¹، ولا يعني ذلك أن أفراداً من هذه القبائل لم تدخل الأندلس، فقد أشار ابن أبي زرع إلى مشاركتهم في جيوش المرابطين فقد أشار ابن القطان أن ممن سقطوا في معركة إقليش 501هـ / 1108م من المسلمين " جماعة من الأعيان والعربان"² وما يؤكد مشاركة العرب في هذه المعركة، الرسالة التي بعث بها بعض رؤساء الغرب في الأندلس إلى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين في فتح إقليش والتي ورد فيها لأول مرة لفظ العرب في القتال في الأندلس خلال هذا العصر³.

وبما أن هذا اللفظ قد زال في بلاد الأندلس كما تم ذكره سابقاً⁴، فيبدو أن المراد به عرب إفريقية جازوا مع المرابطين إلى الأندلس بغرض الجهاد، وكان هؤلاء العرب كذلك من جملة الجنود الذين شاركوا مع تاشفين بن علي في غزوته ضد الروم سنة 530هـ / 1136م⁵، ويبدو أن الحضور العربي في هذه الفترة كان محدوداً ومبادرات فردية، كما أن السلطة المرابطية لم تكن لهم سياسة منظمة للاستفادة من طاقاتهم القتالية⁶.

¹ ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 446. ويبدو أن رأي هذا الفقيه لم تكن مجردة من مصلحة شخصية، لأن القاضي ابن الأدهم كان على علم كسائر فقهاء الأندلس، بتقريب المرابطين وتعظيمهم لهم. انظر: أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، د. ط، تونس، الدار العربية للكتاب، 1997، ج2، ص 79.

² أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي ابن القطان المراكشي ق7هـ، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح. محمود علي مكّي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 66.

³ حسين مؤنس، الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة 512هـ / 1118 مع أربع وثائق جديدة، د. ط، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1991، ص 41.

⁴ انظر الفصل الأول، ويلاحظ أيضاً أن أهل الأندلس أصبحوا ينتسبون إلى مدتهم ومناطقهم، أو إلى وظائفهم وليس إلى أنسابهم فيقال الباجي والغرناطي والبلنسي والطرطوشي وغيرها.

⁵ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. إحسان عباس، ط3، بيروت، دار الثقافة، 1983 ج4، ص 94.

⁶ عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص96.

أما في عصر الموحدين فقد عملت هذه الدولة، على الاستفادة من قدرات العرب القتالية لمجابهة الخطر النصراني، ولذلك ستعرف هجراتهم إلى بلاد الأندلس تطورا ملحوظا، ففي سنة 555هـ / 1160م طلب عبد المؤمن بن علي سلطان الموحدين من العرب، تعبئة عشرة آلاف فارس، للمشاركة معه في الجهاد في الأندلس فأجابوه لذلك¹، لكن صاحب البيذق يجعلهم أربعة عشر ألفا²، وقد أشار ابن صاحب الصلاة إلى كثرتهم فذكر أن عبد المؤمن بن علي: "استاق في أتباعه من العرب بني رياح وبني جشيم وبني عدي من بني هلال وقبائلهم ما يضيق بهم الفضاء، على عدد الذباب وعدد الحصى"³، وهي إشارة مهمة إلى الأعداد الهائلة التي وصلت الأندلس، وأسماء هذه القبائل.

واستفاد يوسف بن عبد المؤمن بن علي من قبائل العرب، فقد عزم سنة 566هـ / 1171م على الغزو في الأندلس، فاستنفر العرب وحرصهم على الجهاد، فجاءته أربعة آلاف فارس من إفريقية، وألف من تلمسان⁴، وذكر ابن أبي زرع أن أبا سرحان مسعود بن سلطان الرياحي جاء الخليفة سنة 577هـ / 1181م بجيش عظيم⁵، وقد أشارت إحدى الرسائل الموحدية المؤرخة سنة 576هـ / 1180م الموجهة إلى طلبة وأعيان ومشايخ قرطبة، أن هدف من إرسال هذه القبائل هو محاربة الروم، وقد ذكرت الرسالة أنه قد تم ترحيلهم جميعهم بأنفسهم وأهليهم وأولادهم⁶.

كما عرفت الحروب التي خاضها الموحدون في الأندلس في أواخر القرن 06هـ / 12م، مشاركة قبائل العرب من بني هلال ففي سنة 579هـ / 1183م جاءت الخليفة الموحي حشود من العرب متصدرة

¹ ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، صص 431، 432.

² أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، د. ط، الرباط، دار المنصورة للطباعة والوراقة، 1971، ص 81.

³ عبد الملك بن صاحب الصلاة ت 594هـ / 1198م، المن بالإمامة- تاريخ المغرب والأندلس في عصر الموحدين-، تح. عبد الهادي التازي، ط3، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص 90.

⁴ نفسه، ص 331.

⁵ ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، د. ط، الرباط، صور للطباعة والوراقة، 1972، ص 212.

⁶ مجموع رسائل موحدية من إنشاء الدولة المؤمونية، نش. ليفي بروفنسال، الرباط، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، 1941، ص 149-157.

الجوازاات إلى الأندلس¹، وعندما سقطت شلب سنة 586هـ/ 1190م في أيدي النصارى سير المنصور أبو يوسف يعقوب الموحيدي حملة لاسترجاع المدينة، وفيهم جمع كبير من العرب²، وفي وقعة الأرك المشهودة سنة 591 هـ/ 1194م أدت قبائل العرب دورا كبيرا في الانتصار المحقق، فكانت أول القبائل التي جازت إلى الأندلس³، وشهدت لها بعض المصادر بدورهم البارز في المعركة⁴.

وفي الأخير يمكن القول أن الهجرات العربية إلى بلاد الأندلس، كانت كبيرة في المراحل الأولى للوجود الإسلامي، ثم توقفت ولم تبق سوى مبادرات فردية، لكن الضرورة الحربية وحاجة البلاد إلى من يخلصها من الخطر النصارى، دعت إلى الاستنجد بالقبائل العربية المتواجدة في إفريقيا، خاصة منذ منتصف القرن السادس الهجرس الثاني عشر ميلادي، في عصر الموحيدين، التي كانت بأعداد كبيرة، فأضيفت إلى العناصر القديمة من العرب، فما هي مناطق استقرارهم في الريف الأندلسي؟

ب- مناطق الاستقرار العربي في الريف الأندلسي:

إن الكلام عن استقرار العناصر العربية في بلاد الأندلس عموما وفي أريافها خصوصا، خلال فترة الدراسة، صعب جدا لغياب المصادر التاريخية، التي تتحدث عن الوجود العربي في المنطقة، رغم أن ابن حزم من رجال القرن 05هـ/ 11م صنف كتابا خاصا بأنساب العرب، سماه بـ "جمهرة أنساب العرب" وضمه أسماء بعض القبائل العربية التي دخلت الأندلس، ومناطق استقرارها إلى الزمن الذي عاش فيه.

و يمكن استنتاج أهم مناطق الاستقرار العربي من خلال بعض الإشارات المتناثرة في المصادر المختلفة كما يمكن أن يكون استقرار بعض القبائل، أو بعض الجماعات قد دام إلى غاية نهاية الوجود الإسلامي بالمنطقة التي استقروا بها أول الأمر، على عادة العرب في تمسكهم بمناطقهم وأراضيهم، ويتضح ذلك من قول المقرئ: "فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الاسلام بالأندلس وتنام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جرائم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم، إلى أن كان من

¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 213.

² نفسه، ص 219.

³ نفسه، ص ص 221، 222.

⁴ نفسه، ص ص 226 - 228.

أمرهم ما كان"¹.

وقد أكد ابن الخطيب هذه الحقيقة، في حديثه عن تفريق الوالي أبي الخطار، جند الشام على كور الأندلس، فكان من نصيب إلبيرة جند دمشق، بقوله: "ونزلت بهذه الكورة الإلبيرية من أعلام العرب، الذين بها إلى هذا العهد بيوتهم جملة من القبائل... إلى كثيرين"²

وبالرجوع إلى هذا الاستقرار، فقد تحكمت فيه مجموعة من العوامل، يأتي في مقدمتها الفتح الإسلامي للمنطقة، فقد انتشر العرب على طول الخط بين الجزيرة الخضراء وطليطلة، ثم إلى سرقسطة عبر إشبيلية وماردة وبطليوس. فملأت القبائل العربية سهول ووديان الوادي الكبير، ووادي شنييل ونهر تاجة وحوض إبرو الأوسط³.

وأسهمت الظروف التي مرت بها الأندلس بعد الفتح الإسلامي، في توزيع القبائل في مختلف مناطق البلاد، فقد قام الوالي أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي عند قدومه سنة 125هـ / 743م بتوزيع جند الشام على كور الأندلس من أجل الحد من عصبيتهم القبلية، فأنزل كل فريق بالمنطقة المشابهة لبلده، فأنزل أهل دمشق إلبيرة، وأهل الأردن رية، وأهل فلسطين شذونة، وأهل حمص إشبيلية، وأهل قنسرين جيان، أما أهل مصر فأنزلهم بجانة وتدمير⁴.

ويشير مؤنس إلى أن أواخر عصر الولاة وبداية عصر الدولة الأموية، عرف تحرك قبائل عربية من حوض الوادي الكبير إلى شرق الأندلس، فاستقرت في نواحي بلنسية وتدمير (مرسية) ولقنت والمرية ومالقة، وبلغت جماعات منهم إلى برشلونة ممتدة على طول الشريط الساحلي الشرقي⁵، ولكن الباحث لم يعط تفسيراً لهذه الحركة، التي ربما يكون العرب قد اضطروا إليها، بسبب ما عرفت به هذه الفترة من اضطراب سياسي.

¹ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 290.

² ابن الخطيب، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، ص 49، 50.

³ مؤنس، فجر الأندلس، ص 413.

⁴ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 44؛ ابن الخطيب، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، ص 49؛ ابن عذاري، المصدر

السابق، ج2، ص 33؛ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 237.

⁵ مؤنس، فجر الأندلس، ص 413.

وما يهم في هذا الأمر، أن العرب لم يختاروا أماكن استقرارهم، وأنهم انتشروا في جميع أنحاء الأندلس وهو ما يدحض قول الذين زعموا، أن العرب استأثروا بالمناطق الخصبة¹، وبالمقابل فإن استقرارهم كان ضعيفا في مناطق أخرى مشتهرة بغنى أراضيها وخصوبة تربتها، مثل أحواض آنة وتاجة وشقورة، وشقر والوادي الأبيض، وهذا ما دعا ببعض الباحثين إلى القول أن توزيع المسلمين في مناطق استقرارهم في الأندلس، أنه توزيع متعادل الكفتين بين العرب والبربر، ولم يكن مرتبا مسبقا.²

وقد انتشر العنصر العربي بشكل كبير في المناطق الجنوبية من الأندلس، ففي أرياف إشبيلية تنتشر عناصر من لحم القحطانية، فيذكر ابن حزم أن منهم ثوبة بن عدي بن الحارث استوطن قرية آش بالشرف عقبه بها إلى زمانه، وانتقل أحد أولاده إلى قرية لبص في إقليم البصل، وخلف عقبا ما زالوا إلى زمانه³ وتنسب قرية إلى بني بحر وهم فخذ من لحم، تقع شرقي إشبيلية تسمى قرية البحرين⁴.

واستقرت بقرية قرشانة من الشرف عناصر من غطفان القيسية⁵، ولكثرة انتشار الأنصار في إحدى القرى الإشبيلية، سميت بقرية شوش الأنصار، وفيها خاصة من عقب الصحابي النعمان بن بشير⁶، كما انتشر بالقرية ذاتها من الأوس⁷، وبمريانة الغافقي بالقرب من إشبيلية على الوادي الكبير وجدت عناصر عدنانية يقال لهم بنوعك وهم عدنانيون، اشتهرت منهم عدة عناصر في العهود السابقة، لكن خلال القرن الذي عاش فيه ابن حزم (5هـ / 11م)، لم يكن لهذا العنصر حضورا يذكر في البلاد⁸، وفي إشارة إلى انتشار عدد كبير من القحطانية من بني هوزن وحراز من أحفاد سعد بن عوف، في بعض أرياف إشبيلية، يذكر ابن حزم: "ودار بني هوزن بالأندلس: القريتان المذكورتان بهما بإشبيلية"⁹، ويؤكد ابن غالب أن منزل بني

¹ بروفنسال، المرجع السابق، ص 167، 168، وات، المرجع السابق، ص 64، سالم، المرجع السابق، ص 124.

² مؤنس، فجر الأندلس، ص 412؛ عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2004، ص 260.

³ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 423.

⁴ نفسه، ص 425.

⁵ نفسه، ص 249.

⁶ نفسه، ص 364، 365.

⁷ نفسه، ص 343.

⁸ نفسه، ص 329.

⁹ نفسه، ص 434.

هوزن في الشرف بإشبيلية¹. وتعرف بين إشبيلية والجزيرة الخضراء قلعة خولان، لكثرة انتشار هذا العنصر الذي ينتمي إلى كهلان القحطانيين²، ومن القيسية بني غطفان بنو صخر الذين ينتشرون في نواحي قرمونة³.

وفي أرياف البيرة انتشر العرب بشكل كبير، ودل على ذلك أن العذري أورد خمسة أقاليم تنسب إلى قبائل عربية، هي: إقليم ربع اليمن، إقليم قنب قيس، إقليم تيبيل بني أوس، إقليم همدان، إقليم تيبيل بني هود⁴، ويذكر ابن حزم موضعين من البيرة تنتشر فيهما، قبائل من بني أسد العدنانية، قد تكونان قرنتان فيذكر: "ودارهم بالأندلس: البراجلة والبشرة من كورة البيرة"⁵، ويعبر عنه ابن غالب بأن إقليما مشهورا باسمهم جوفي مدينة وادي آش التابعة للبيرة⁶، وفي البراجلة أيضا ينتشر القيسية من بني نمير بن عامر وبني مرة⁷، ودار بني قشير القيسية التي ينتسب إليها والي الأندلس بلج بن بشير في جهات البيرة⁸، وسكنت في مناطق البيرة عناصر قحطانية منهم بنو نجيح من خولان التي تنتسب إليها الوالي السمع بن مالك الخولاني، وبنو خشين القضاعيين⁹.

وتنتشر قبائل من الأزد القحطانية في قرية صالحة التابعة لغرناطة على طريق مالقة، خاصة من بني القليعي الذين يكثرون بها¹⁰، كما تنتشر قبائل همدان القحطانية في ناحية غرناطة، فمنازلهم مشهور على ستة أميال من المدينة¹¹، وقد سماها ابن سعيد قرية همدان وذكر بأنها قرية كبيرة في نطاق غرناطة¹، وفي قرية

¹ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 297.

² نفسه، ص 295.

³ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 250.

⁴ العذري، المصدر السابق، ص 90.

⁵ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 196.

⁶ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 292؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 537.

⁷ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 254، ص 280. والبراجلة مشتقة من كلمة لاتينية تعني منطقة غير محددة من الأرض، وهي تقع على سفوح جبال الثلج بالقرب من البيرة، وتتميز بنشاطها الزراعي الملحوظ، ما يعني أنها منطقة ريفية. انظر: ذنون طه، المرجع السابق، ص 226.

⁸ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 290.

⁹ نفسه، ص 418، ص 455.

¹⁰ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 292، 293.

¹¹ نفسه، ص 295.

ملاحظة جنوبي غرناطة تنتشر عناصر من غافق القحطانية التي ينتسب إليها عبد الرحمن الغافقي وإلى الأندلس الذي استشهد في معركة بلاط الشهداء²، وتنتشر عناصر من العدنانية من كعب بن عامر في قرية طغزر شمال غرب غرناطة³.

وفي أرياف قرطبة يوجد حضور للعنصر العربي، ففي شمالها ينتشر عدد كبير من قضاة يقال لهم بنو بلي القحطانيون، حتى أصبح ذلك الموضع معروفا باسمهم، وقد وصفهم ابن حزم أنهم: "هنالك إلى اليوم أنسابهم، ولا يتكلمون اللاتينية، لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم، ويقرون الضيف"⁴، وفي الريض الشرقي لقرطبة فحس يسمى مطرف، سكنه عناصر من البيت الأموي، انقرض جلهم خلال عصر ابن حزم ولم يبق منهم إلا العدد القليل⁵، وبين قرطبة وإشبيلية حصن مراد، الذي ينسب إلى قبيلة مراد العربية إحدى قبائل الأوس⁶، وفي إختيانة من عمل قبرة استقر بنو خبيب وبنو قطنين البيازون من الخزرج⁷.

وفي ألس من أعمال تدمير، تنتشر حواليها قبائل من مضر⁸، كما تنتشر قبائل من هذيل المضرية في جهات أريولة من كورة تدمير⁹، وتنتشر قبائل غافق في أرياف شقورة، إذ أن أكثر جهاتها ينتسبون إلى غافق¹⁰.

وعلى بعد ثلاثة أميال من جوفي بلنسية تنتشر منازل قبائل بكر بن هوزان المضريين¹¹، وفي وادي بجانة ينتشر من حمير القحطانية عدد من قبائلها¹²، وينتشر بنو سراج القضاعيين -القحطانيين- في أرش

¹ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص 127.

² خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط1، طرابلس، دار الكتب الوطنية، 2000، ص ص 68، 69.

³ ذنون طه، المرجع السابق، ص 226.

⁴ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 443.

⁵ نفسه، ص 98.

⁶ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 295.

⁷ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 363.

⁸ نفسه، ص 240.

⁹ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 291.

¹⁰ نفسه، ص 293.

¹¹ نفسه، ص 291.

¹² ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 436.

اليمن من عمل بجانة، وهو إقليم واسع على الساحل¹.

وتنتشر في أرياف سرقسطة قبائل من الخزرج، ففي قرية يقال لها قريلان ينتشر عقب سعد بن عبادة بن الصامت الصحابي الجليل، من ولده سعيد²، كما ينتشر بهذه القرية عناصر من العدنانيين، منهم عقب كثير لعامر بن وهب من بني عبد الدار بن قصي³، ودار التجيبين القحطانيين بالأندلس سرقسطة⁴، وبها أيضا عدد من بني فوراثش من بني عذرة من قضاة⁵.

وعرفت أرياف جيان استقرار أعداد من العرب، ففي وادي عبد الله تنتشر قبائل عدنانية من بني أسد بن خزيمه، ويوصف هذا الاستقرار بالكثرة، كما كان لهم بقية إلى زمن ابن حزم⁶، وفي قرية شوذر من عمل جيان تستقر عناصر من القيسية من بني ضباب بن كلاب بن ربيعة، ومنهم الصميل بن حاتم، وله بهذه القرية عقب⁷، وفي أحواز أرجونة التي تقع في الشمال الغربي من جيان قرية تعرف بقرية الخزرج لوجود نسل من الخزرج ينتسبون إلى سعد بن عبادة الصحابي الجليل⁸، ويعرف أحفاده فيها ببني النصر واشتهر منهم أواخر الدولة الموحدية محمد بن يوسف بن نصر⁹.

وفي طليطلة، عرفت بعض المناطق الريفية تركزا عربيا كبيرا حتى نسبت إليها، فقرية الزبارقة نسبت إلى الزبرقان من تميم من ولد عدنان، الذي استقر عقبه فيها، ولما غلبت النصارى على القرية، انتقلوا إلى طليطلة، ومحلتهم بها تسمى بحومة العرب¹⁰، وقد تعني كلمة حومة حصنا كبيرا حسب ما ذكره العذري في جغرافيته¹¹، وينتشر عدد من كنانة العدنانية في أرياف طليطلة، فقد وصف المقرئ تركزهم في الأندلس

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 79.

² ابن حزم، جمهرة أنساب، ص 365.

³ نفسه، ص ص 126، 127.

⁴ نفسه، ص 430.

⁵ نفسه، ص 450.

⁶ نفسه، ص 192.

⁷ نفسه، ص 287.

⁸ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 2، ص ص 92، 93.

⁹ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 447.

¹⁰ ابن حزم، جمهرة أنساب، ص ص 218، 219.

¹¹ العذري، المصدر السابق، ص ص 7، 8؛ ذنون طه، المرجع السابق، ص 211.

بالكثير، وجلهم في طليطلة وأعمالها¹، ومصطلح أعمالها فيه دلالة على انتشارهم خارج المدينة، فرمما يكون منها أربافها، ويبدو أن الأنصار قد كثروا في إحدى نواحي طليطلة، فقد كان لهم جزء بناحيتهما²، وفي قلعة رياح غربي طليطلة أجزاء خاصة بالعرب منها جزء البكرين وجزء اللحميين³، وقرب طليطلة قرية الغافقيين التي ينتشر فيها بنو غافق⁴، وربما اشتق اسمها من هذا العنصر لغلته فيها.

وينسب إلى بني رعين الحميريين القحطانيين فحص من عمل رية⁵، وفي لنجش من عمل رية استقر عدد من أحفاد الوليد بن عبد الملك الأموي⁶، ودار بني النمر بن قاسط من بني أسد بن ربيعة بن نزار العدنانية، في حصن وضاح من عمل رية⁷.

وفي الجهة الغربية من الأندلس يلاحظ تواجد ضعيف للعنصر العربي، فمن ذلك بنو مطروح العدنانيون الذين اشتهروا في قرطبة، وبقي منهم عدد قليل استقروا في أونية في لبلة⁸، وفي الموسطة من عمل لبلة قوم من بني بكر القيسيين وهم بنو سلول⁹، ويبدو أن هؤلاء البكرين كانوا أكثر العرب انتشارا في هذه المناطق، حتى وصفهم ابن غالب بأنهم أصحاب السيادة في أونية وشلطيش¹⁰.

لكن تعتبر شلب ومناطقها الريفية، من أهم المراكز التي استقر بها العرب في غرب الأندلس، فأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها، وقد حافظوا على لغتهم العربية الصريحة¹¹، "وقل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ولا يعاني الأدب، ولو مررت بفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما

¹ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 291.

² نفسه، ص 293.

³ الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 23.

⁴ السامرائي وآخرون، المرجع السابق، ص 69؛ ذنون طه، المرجع السابق، ص 194.

⁵ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 433.

⁶ نفسه، ص 89.

⁷ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 302.

⁸ نفسه، ص 321.

⁹ نفسه، ص 272.

¹⁰ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 292.

¹¹ الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص 543؛ الحميري، المصدر السابق، ص 342.

اقترحت عليه، وأي معنى طلبت منه"¹.

وإذا كانت بعض المنازل في الأندلس معروفة بانتشار عنصر من العرب، فهذا لا يعني أنه محصور فيها، فقد توزعت بعض البيوت العربية في مناطق عديدة من الأندلس، فبنو عذرة القحطانيون ينتشرون في دلاية، ولهم أعداد في جيان، ومناطق الثغر الأعلى²، وانتشر بنو عك العدنانيون في الجوف شمال قرطبة ولهم منطقة معروفة باسمهم³، ولهم انتشار أيضا في ريف إشبيلية كما تم ذكره سابقا. وينتشر بنو قشير القيسيون في جيان، بالإضافة إلى استقرارهم في إلبيرة⁴.

ويصرح ابن حزم عن توزع العناصر العربية بين مختلف المناطق بقوله عن بني خولان من بني كهلان القحطانيون منهم آل جحاف، وبنو مفوز، وبنو منخل: "وهم بيوت متفرقة بالأندلس، وليست لهم دار جامعة"⁵ وينتشر اللخميون القحطانيون في شذونة والجزيرة وإشبيلية، منهم آل عباد، وآل نمارة⁶، ودار بنو جذام القحطانيون في تدمير وشذونة والجزيرة وإشبيلية⁷، ودار التجيين القحطانيين سرقسطة، ودروقة وقلعة أيوب⁸.

أما قبائل العرب التي استقدمتها الدولة الموحدية إلى بلاد الأندلس من أجل الغزو، وهو ما تمت الإشارة إليه سابقا، فيلاحظ أنه قد تم توزيعهم على البلاد، فيذكر المراكشي: "أن عبد المؤمن بن علي لما أراد العودة إلى مراكش رتبهم في الأندلس، فجعل بعضهم في نواحي قرطبة، وبعضهم في نواحي إشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها، فهم باقون إلى وقتنا هذا- وهو 621هـ- وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كبير، وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا هنالك، فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة

¹ الحموي، المصدر السابق، ج3، ص ص 357، 358.

² ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 450.

³ نفسه، ص 328.

⁴ نفسه، ص 290.

⁵ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 419.

⁶ نفسه، ص 424.

⁷ نفسه، ص 421.

⁸ نفسه، ص 430.

ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجال¹.

ويبدو أن مهمة هؤلاء العرب بقيت منحصرة في الدفاع عن البلاد من الخطر النصراني، وهو ما يفهم من ذكر المراكشي عددهم وحالهم بخمسة آلاف فارس، كما أكدته إحدى الرسائل الموحدية، بعد أن ذكرت انتقالهم بأهليهم وأولادهم، رجاء أن يختم عملهم بالرباط في هذه الجزيرة²، لكن المناطق التي أوردتها المراكشي لا تشير إلى المناطق الحدودية، فقد ذكر قرطبة وإشبيلية على وجه التحديد، وهو ما يعني أن هذه القبائل قد اندمجت في الحياة الأندلسية، ثم أن بعض عناصرها تكون قد استوطنت الريف، وهو ما عبر عنه بالنواحي والأعمال.

وخلاصة القول أن العنصر العربي الذي استقر منذ الفتح، توزع في جميع بلاد الأندلس، واستقرت عناصر مهمة منه في أرياف الأندلس مع تفاوت في جهات البلاد، إذ يقل في الجهة الغربية منها بينما يتركز بشكل واضح في جنوبها وشرقها مع وجود غلبة للقحطانيين³، إذ عرفت أرياف إشبيلية وقرطبة وسرقسطة تفوقا قحطانيا، بينما تفوق العدنانيون في أرياف جيان وكانوا أكثر حضورا في غرب البلاد من نظرائهم القحطانيين، في حين شهدت أرياف غرناطة وتدمير (مرسية) ورية وطليلة توازنا بين العنصرين. وإذا كانت هذه حال العرب، فما هي وضعية البربر في الريف الأندلسي؟

2- البربر:

أ- الهجرات البربرية إلى الأندلس:

عرفت بلاد الأندلس توافد البربر إليها عبر فترات ومراحل مختلفة، وبحكم العامل الجغرافي، فقد كانت هذه الهجرات بشكل متواصل، كما كانت الضرورة عاملا مهما في هذا التواصل. وأول هجرة بربرية عرفت بها البلاد كان مع بداية الفتح الإسلامي للمنطقة، فقد ضم الجيش الأول الداخل إلى الأندلس بقيادة طارق

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص 167. يؤكد هذا الإجراء ما ذهب إليه أحد الباحثين، بأن السلطة الموحدية أرادت أن تضرب عصفورين بحجر واحد، تستفيد منهم في حركتها ضد النصارى من جهة، وتتخلص من وجودهم في المغرب لما يسببه لها من مشاكل. انظر: أحمد موسى، المرجع السابق، ص 96.

² مجموع رسائل موحدية، ص 155.

³ لا شك أن ذلك نتج عن تعداد القحطانيين الكبير في بلاد الأندلس، والذي تفوقوا به على العدنانيين عموما، فالمقري يقول عن القحطانيين أنهم: "الأكثر في الأندلس". انظر: المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 293.

بن زياد، عددا كبيرا منهم ، حيث أكدت كثير من المصادر أن عدد ما اجتمع لطارق بن زياد في الأندلس اثنا عشرة ألف مقاتل¹، ويتكون هذا الجيش حسب أحدهم من : " عشرة آلاف من البربر وألفين من العرب"² ، وإن كان بعضهم يقلل من عدد العرب في هذا الجيش³، وبعضهم ينفي أن يكون ضمن هذا الجيش عرب⁴، ولكن ما يهم في الأمر أن غالبية هذا الجيش كان من البربر.

وقد ازداد عدد البربر في الأيام الأولى من الفتح، فإذا تم التسليم بأن الفاتحين الأوائل يكونوا قد أخذوا معهم أسرهم وأبناءهم؟ أو تم استدعاؤهم للالتحاق بهم فيما بعد⁵، يضاف إليهم الأعداد الكبيرة التي هاجرت، بعد أن بلغهم انتصارات المسلمين في الأندلس، والغنائم التي سبوها، فيمموها وجوهم نحو الأندلس، وقد عبر عن هذه الهجرة المقري بالقول: " فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق"⁶، هذا دون نسيان العدد الذي ضمه جيش موسى بن نصير⁷ يتضح أن البربر شكلوا نسبة هامة في الأندلس في بداية أمرهم، وربما تفوقوا على العرب.

وما يؤكد ذلك أن البربر بسبب قوة عددهم في البلاد، فرضوا سيطرتهم السياسية عليها، إذ يذكر ابن القوطية أن المسلمين في البلاد بعد مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة 98هـ / 717م: " مكثوا سنين لا يجمعهم وال، إلا أن البربر قدموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي، ابن أخت موسى بن نصير"⁸. وشهدت ثورتهم على الوالي عبد الملك بن قطن سنة 124هـ / 742م، على كثرة هذه الجموع " جموع لا

¹ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 17؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 6؛ المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 231، 232.

² مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص 153.

³ يذكر هذه النسبة المقري نقلا عن ابن بشكوال. انظر: المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 231.

⁴ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 06.

⁵ Pierre GUICHARD , Structures Sociales<< Orientales>> et -<<Occidentales >>

Dans l'Espagne Musulmane. Mouton, Paris, 1977, pp 137, 138

الأندلس دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (92هـ / 711م - 422هـ / 1031م)، ط 1، الرباط، شركة النشر والتوزيع المدارس، 2001، ص 35.

⁶ المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 259.

⁷ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي ت 488هـ، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، ص 04. المراكشي، المصدر السابق، ص 17.

⁸ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 37.

يحصيها غير رازقها"¹ والتي كانت سببا في تغيير موقف عبد الملك بن قطن من العرب المحاصرين في إفريقية فأذن لهم بالدخول إلى الأندلس فيما عرف بطالعة بلج بن بشير القشيري- المذكورة سابقا-، فأسهمت في انخراط البربر².

وقد قام البربر خلال العصر الأموي بعدة ثورات أبرزت قوة عددهم ومدى تأثيرهم على الساحة السياسية في الأندلس³، ويبدو أن عبد الرحمن الداخل أدرك هذه الحقيقة، فعمل على استمالتهم، عملا بنصيحة أحد أصحابه، فقد: "أشار عليه باصطناع البربر واتخاذ العبيد، ليستعين بهم على العرب"⁴ وهو ما يظهر جليا في الثورة التي قام بها أحد البربر في شرق البلاد سنة 150هـ/ 727م، ولم يستطع القضاء عليها إلا بعد استعمال أحد زعماء البربر على شنت برية، فعلق ابن عذاري عن هذا الإجراء بقوله: "فكان في ذلك الراحة منه، وتفرقت بفعله كلمة البربر"⁵.

وعلى خلاف ما قام به عبد الرحمن الداخل، فإن عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/ 912-961م) أدرك أن عامل القرب الجغرافي للأندلس من موطن البربر الأصلي، ساهم في زيادة عددهم وازدياد قوتهم، فعمل على الحد من ذلك وأبعد البربر عنه، محيطا نفسه بالحذر منهم وهو ما لخصه ابن حيان بالقول عن أهم محاور هذه السياسة اتجاه البربر: "منطويا على الحذر من بوادهم معتقدا قلاهم، والازورار عنهم، مقتصرًا على من أظهر مكاتبته منه وموالاته على بعد واحتراس من كيادهم، مطيبا لهم بالإهداء والرغد، غير مستدع لهم إلى العبور عليه، ولا مستكثرًا منهم بالإمداد لهم، مقتنعا برجال أندلسه وصنائع سلفه، غانيا بهم عمن سواهم، لا يستخدم من البرابر إلا أراذلهم وعبدانهم من أشابتهم وأخلاطهم، موقعا عليهم اسم الطنجيين، مقتصرًا بهم على أدنى الملاحق، قاصرا على أقل الرواتب، مصرفا لهم في أشق الخدمة"⁶. ولا يعني ذلك أن الهجرة من بلاد المغرب إلى بلاد الأندلس قد توقفت، ولكن سياسة الدولة في

¹ المقري، نفح الطيب، ج3، ص 21؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 43.

² مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 44.

³ عن هذه الثورات انظر: عبد المنعم حمدي، المرجع السابق.

⁴ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 60.

⁵ ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 54، 55.

⁶ أبو مروان حيان بن خلف بن حيان الأندلسي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شر. صلاح الدين الهواري، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 2006، ص 147، 148.

الاستعانة بهم والاستكثار منهم هي التي توقفت.

لكن سرعان ما تغيرت هذه السياسة في عهد خليفته الحكم الثاني المستنصر بالله (350-366هـ/ 961-976م)، الذي استعان بالبربر واصطنعهم في الجيش، فكون قوة بربرية ضمت سبعمائة فارس من خيرة الشجعان، يتقدمهم بنو برزال الذين استقدمهم من العدو¹.

ولا شك أن أوضح صورة لاجتلاب البربر من العدو واستخدامهم في الجيش، خلال عصر الخلافة الأموية، ما قام به المنصور بن أبي عامر في صراعه ضد أعدائه للسيطرة على حكم البلاد فاستعمل جندا من بني برزال بطانته²، واستقدم من المغرب جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي مع ستمائة من المقاتلين البربر ليتقوى بهم على خصومه، وكانت هذه أول دفعة من البربر تقدم إلى الأندلس في عهد المنصور ابن أبي عامر سنة 367هـ/ 987م³، ثم توالى قبائل البربر على الأندلس خلال عهده، بسبب ما رأوا من كرمه، وحسن صنيعه بهم: "يجيء الرجل بلباس الخلق على الأعرج، فيبدل بلباس الخز الطرازي وغيره ويركب الجواد العتيق، ويسكن قصرا لم يتصور له في منامه مثله، حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس"⁴.

ولا شك أن هذا الكرم جعل قبائل البربر تزداد عدادا خلال الفترة، وقد تعددت القبائل البربرية التي هاجرت إلى الأندلس في هذا العصر، فيعدد ابن خلدون أسماءها بالقول: "فاستدعى أهل العدو من رجال زناتة والبرابرة، فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن، وبني برزال ومكناسة وغيرهم، وقدم رجال البرابرة زناتة، وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر"⁵.

ويؤكد المؤرخ ذاته أهمية الدور الذي قامت به قبائل البربر خاصة صنهاجة، في العصر العامري

¹ ابن حيان، المصدر السابق، شر. صلاح الدين الهواري، ص ص 149، 150؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثاني الخلافة الأموية والدولة العامرية -، ط 4، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1997، ص 501.

² عنان، دولة الإسلام، ص 526.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص ص 278، 279؛ عبد العزيز فيلاي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ط 2، القاهرة، دار الفجر لنشر والتوزيع، 1999، ص ص 226، 227؛ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ص 228، 229.

⁴ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 279.

⁵ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص 189.

"واتخذهم بطانة لدولته، وأوليائه على ما يرومه من قهر الدولة والتغلب على الخلافة ونظمهم في طبقات زناتة وسائر رجالات البربر... واستغلظ أمر صنهاجة بالأندلس واستفحلت إمارتهم، وحملوا دولة المنصور بن أبي عامر وولديه المظفر والناصر من بعده على كاهلهم"¹.

ومن كثرة اصطناع المنصور من البربر، ضاقت بهم قرطبة، فيصف ابن خاقان ذلك بالقول: "وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا عنهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور الذي أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا، ملأها وحشا وذئابا، وأعراها من الأمان برهة من الزمان"²، ولا شك أن ابن خاقان يحمل البربر مسؤولية الأحداث التي شهدتها البلاد في نهاية القرن الرابع الهجري، ومطلع القرن الخامس الهجري، فيما اصطلاح عليه بالفتنة البربرية³، والتي امتدت (399-422هـ / 1008-1031م)، عرفت البلاد خلالها معارك وحروبا أهلية بين مختلف العناصر في قرطبة والأندلس كلها، وسادت الفوضى كل البلاد، وانتهت بتمزق الأندلس إلى إمارات مستقلة، فيما يعرف بعصر ملوك الطوائف⁴.

ولئن كان البربر المعول الأساسي في هذه الفتنة، إلا أنهم لم يكونوا السبب المباشر فيها⁵، و في الوقت ذاته أظهروا مرة أخرى، أنهم قوة مؤثرة بسبب كثرة أعدادهم، وهو ما أسهم في ترجيح الكفة في كثير من

¹ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 238.

² ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص 389؛ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص ص 405، 406.

³ يستعمل هذا المصطلح العديد من المؤرخين إما تحميلا للبربر مسؤوليتها، أو جريا على ما شاع بين الناس، بينما حمل بعضهم الآخر مسؤولية هذه الفتنة إلى أحد أفراد البيت الأموي وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر. انظر: ابن حيان، المصدر السابق، شر. صلاح الدين الهواري، ص147؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 102؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (595-658هـ / 1199-1260م)، الحلة السيرة، تح. حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1985، ج2، ص 05؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تح. عبد السلام الهراس، د. ط، بيروت، دار الفكر، 1995، ج2، ص 38، ج4، ص166؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 103، ص 156؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 76.

⁴ عن أطوار هذه الفتنة ومراحلها انظر: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص ص 642-677؛ فيلاي، المرجع السابق، ص ص 252-272؛ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ص 253، 254؛ فراد محمد أرزقي، القوى المغربية في الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف القرن الخامس الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي، د. ط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص ص 21-25.

⁵ نسيم حسبلاوي، المجتمع في الأندلس من خلال كتب النوازل بين القرنين 04 و 07هـ / 10 و 13م، (أطروحة دكتوراه غير منشورة)، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، 2015-2016، ص ص 44، 45.

المعارك خلال تلك الفتنة، ومن جهة أخرى أبرزت هذه الفتنة هشاشة التنظيم الاجتماعي.¹

هذه الهشاشة التي تأكدت خلال عصر ملوك الطوائف، من خلال تأسيس إمارات طائفية منذ إعلان إنهاء رسم الخلافة سنة 422هـ/1031م، وامتدت زهاء سبعين سنة قضتها جميعا في سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة، والخصومات والحروب الأهلية الانتحارية، وكادت يتنازعا وتفرقها وتنافسها أن تقضي على الوجود الإسلامي مبكرا، لولا تدخل بربر المغرب ممثلا في دولة المرابطين.²

وقد عرف عصر المرابطين في الأندلس توافد جماعات البربر إلى البلاد بشكل لم يسبق له مثيل حيث شهدت دخولهم بأعداد ضخمة وعلى امتداد فترة الوجود المرابطي، حتى شكل هذا العنصر غالبية السكان، حسب تقدير بوتشيش.³

وبالرجوع إلى زمن هذه الهجرات لم يكن في نية يوسف بن تاشفين في عبوره الأول سنة 479هـ/1086م، والثاني سنة 781هـ/1088م، البقاء والاستقرار في الأندلس، بل بغرض الجهاد تلبية لاستغاثة ملوك الطوائف، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، لتخليص الأندلس من حركة الاسترداد المسيحي التي استفحلت، خاصة بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085⁴، لكن المراكشي يكشف عن مراسلة يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد: "يستأذنه في رجال من صلحاء أصحابهم، رغبا في الرباط في الأندلس، ومجاهدة العدو والكون ببعض الأماكن المصاحبة للروم إلى أن يموتوا... فأذن لهم"⁵، وهو ما يدعوه إلى القول أن بداية استقرار عناصر البربر في البلاد سبقت العبور الثالث ليوسف بن تاشفين، وممهدا له

¹ وهو عكس ما عبرت عنه بعض الدراسات باندماج الطوائف في مجتمع متوازن. انظر: بروفنسال، المرجع السابق، ص؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص 435؛ بيار غيثار، التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين من بداية القرن 8 م إلى بداية القرن 13م، <<الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس>>، تر. مصطفى الرقي، تحر. سلمى خضراء الجيوسي، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1996، ج2، ص 974.

² عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 277؛ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ص 253-263؛ محمد أرزقي، المرجع السابق، ص ص 25-34.

³ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 36.

⁴ الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس، كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تح. علي عمر، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2006، ص ص 129-141؛ ابن بسلام، المصدر السابق، ج4، ص ص 166-169؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ص ص 98، 99؛ المراكشي، المصدر السابق، ص ص 97-101؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ص 146-153.

⁵ المراكشي، المصدر السابق، ص 103.

الدخول إلى الأندلس والقضاء على ملوك الطوائف فاتحا الباب أمام تدفق البربر إلى عدوة الأندلس.

وقد بدأت هجرات الاستقرار الفعلية للبربر، منذ العبور الثالث لأمير المرابطين سنة 484هـ/ 1091م، فقد جاز إلى الأندلس مع يوسف بن تاشفين بغرض خلع ملوك الطوائف، جيش كبير مكون من أربع فرق عسكرية¹، ومع مرور الوقت تكونت طائفة مهمة من المرابطين في البلاد، فيذكر ابن عذاري أن أمير قرطبة وغرناطة الأمير مزديلي، لم يجد عناء في تعبئة جيش لغزو طليطلة سنة 507هـ/ 1113م، فأمدّه سير بن أبي بكر اللمتوني والي إشبيلية: "بعسكر ضخّم من المرابطين والحشم وغيرهم، وانضم إليهم عسكر قرطبة وغرناطة ولة من العدو ولفيف من المطوعة خيلا ورجلا فعظم الجيش، وأمّ به الأمير مزديلي أرض طليطلة فدوخها واكتسح به أوديتها وأبلغ في نكايتها"².

ولم تتوقف هجرات البربر طيلة هذا العصر، ففي إحدى جوازات علي بن يوسف بن تاشفين التي كانت سنة 515هـ/ 1121م وإثر ثورة أهالي قرطبة على المرابطين، قدم هذا الأمير إلى الأندلس في جيش حفيل لم يجتمع مثله للمرابطين قبله، من صنهاجة وزناتة، والمصامدة وأخلاط من البربر³، أما ابن عذاري فيشير إلى هجرة عظيمة إلى الأندلس سنة 535هـ/ 1140م "ففيها انجلى أهل المغرب انجلاء عظيما إلى الأندلس"⁴، ويبدو أن الأحداث السياسية والمعارك العسكرية التي عرفت بها بلاد المغرب، قد تسببت في هذه الهجرة، فقد كان الموحدون يحرزون انتصارات على المرابطين، وبدأت ملامح السقوط تلوح في الأفق، ولا يستبعد أن يكون أكثر المهاجرين من قبائل المرابطين أو المواليين لهم، هروبا من سيوف الموحدين⁵.

وبعد دخول الموحدين إلى الأندلس، وقيام دولتهم بها سنة 555هـ/ 1160م تعزز العنصر البربري في البلاد، ففي إشارة المراكشي ما يوحى بذلك، فقد جمع عبد المؤمن بن علي جموعا عظيمة وعبر بها إلى

¹ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ص 72، 37.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص 56.

³ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 86.

⁴ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص 98.

⁵ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 35؛ حاج عبد القادر بخلف، الدور السياسي والإسهام الفكري لصنهاجة في الأندلس من القرن 04هـ إلى غاية نهاية القرن 06هـ/ 10-12م، (مذكّرة دكتوراه غير منشورة)، إشراف عبد القادر بوباية، جامعة وهران 01، 2016-2017، ص 74.

الأندلس¹. أما صاحب الحلل فيشير إلى أنه أرسل وهو في مقامه في جبل الفتح، ثمانية عشر ألفا من جنوده للغزو إلى أرض العدو²، هذا وقد سبق دخوله إلى الأندلس دخول جيوشه إلى البلاد لمحاربة المرابطين هناك³.

وقد تمت الإشارة سابقا إلى جهاد الموحدين في بلاد الأندلس ومدى استفادتهم من الطاقات الحربية لقبائل بني هلال وبني سليم⁴، ولا شك أن الجيوش المشاركة في هذه الأعمال لم تكن مشكلة من العرب وحدهم، بل ضمت أعدادا كبيرة من قبائل البربر المختلفة خاصة الموحدين، ويكفي للدلالة على ذلك ما ذكره السلاوي من أن يوسف بن عبد المؤمن عبر إلى الأندلس سنة 567هـ / 1171م في جيش قوامه مائة ألف من العرب والموحدين⁵. وفي وقعة الأرك المشهورة سنة 591هـ / 1195م، يتحدث ابن أبي زرع عن القبائل التي جازت إلى بلاد الأندلس، فيذكر قبائل زناتة والمصامدة وغمارة⁶.

وصفوة القول إن البربر دخلوا إلى بلاد الأندلس فرادى وزرافات، منذ بداية الفتح الإسلامي للبلاد وقد كان تيار الهجرة هذا متواليا ولم ينقطع في مختلف الفترات، وإن كان عاملا الجغرافيا والسياسة أسهما في انتقال البربر إلى العدو الأندلسية، وزيادة عددهم بها. فما هي مواطن استقرارهم بالريف الأندلسي؟

ب- مواطن البربر في ريف الأندلس:

لا يزال الجدل واسعا بين الباحثين حول مسألة استقرار البربر في بلاد الأندلس، فبينما يرى مجموعة منهم ويتقدمهم المستشرقون أن البربر تعرضوا للظلم من قبل العرب، وأنهم أُخرجوا من المناطق الخصبة إلى المناطق الجبلية، يرى آخرون أن التقسيم لم يخضع لمقياس ولا معيار، وإنما جاء عفوا دون تخطيط مسبق، بل

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص 156. ويصف السلاوي بهذه الجموع بـ: "جيش كثيف من الموحدين"، انظر: السلاوي، المصدر السابق، ص 126.

² مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 155.

³ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 312؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 148.

⁴ يمكن الرجوع إلى العنصر الخاص بالمهجرات العربية إلى بلاد الأندلس - عصر الموحدين -

⁵ السلاوي، المصدر السابق، ص 134.

⁶ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 222.

ذهبوا إلى حد القول أن الميزان كان معتدلاً كفتاه، بين العنصر العربي والعنصر البربري¹.

ولمحاولة استجلاء هذه القضية لا بد من معرفة العوامل التي أثرت في هذا الاستقرار منذ قدومهم إلى بلاد الأندلس، لأن استقرار البربر في الفترة مجال الدراسة، ترسخ عبر مراحل هجراتهم التي وصفت بأنها لم تنقطع، وأهم عامل ربما ركزت عليه تلك الآراء هو العامل السياسي، حيث ذكرت أن البربر الفاتحين تعرضوا للطرد من قبل العناصر العربية، لكن يفهم من إشارة في الأخبار المجموعة، أن الطرد لم يكن عنوة، بل يرجع إلى سداجة البربر وقلة خبرتهم في التعامل مع الأراضي المفتوحة، فيذكر أن طارق بن زياد كان همه فتح البلاد ففرق جيشه لمختلف المناطق، وسار إلى طليطلة²، ولم يترك إلا مجموعة قليلة من المسلمين مع يهود تلك المدن التي فتحها³، ما يعني أن البربر لم يقتصروا الأرض المفتوحة، واكتفوا بما هو محمول، وعند دخول موسى بن نصير مع طالعته العربية العارفة بشؤون الفتح وقانون تقسيم الأراضي، استغلت الفراغ الذي تركه البربر واستوطنوا تلك الأراضي، وبهذه الطريقة يبدو أن العرب استوطنوا تلك الأراضي دون غيرهم من البربر⁴، ثم إن استراتيجية موسى بن نصير فرضت على البربر الاستقرار في المناطق الشمالية لطليطلة، وكذا غرب الأندلس المعروف بالثغر الأدنى، وتنبع هذه الاستراتيجية من حرص هذا القائد على حماية المناطق

¹ عن مختلف هذه الآراء انظر: حقي، المرجع السابق، ص 61-65؛ حسبلاوي، المرجع السابق، ص 54، 55؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص 428، 429؛ ذنون طه، المرجع السابق، ص 260؛ شاكر، المرجع السابق، ص 28؛ برونسال، المرجع السابق، ص 164-169؛ وات، المرجع السابق، ص 64، 65؛ السامرائي وآخرون، المرجع السابق، ص 80؛ يخلف، المرجع السابق، ص 74، 75؛ محمد أرزقي، المرجع السابق، ص 9؛ عمر بوخاري، البربر في الأندلس في عهد الطوائف خلال القرن 05هـ/ 11م، (أطروحة دكتوراه غير منشورة)، إشراف نصر الدين بن داود، جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان- 2014-2015، ص 29-31؛ Guichard, Structures Provençal, op.cit, t1, p 88 ; Sociales, p225.

² مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 19، 20.

³ نفسه، ص 22.

⁴ وتزداد هذه المسألة رسوخاً بالنظر إلى الشكوك التي تحوم حول تقسيم الأراضي المفتوحة في الأندلس بين المشاركين، فقد عبر أبو النصر الداودي - وهو فقيه مالكي متضلع في مثل هـ المسائل - عن ذلك القول: "أما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة، وأنها لم تخمس ولم تقسم غير أن كل قوم وثبوا على طائفة منها بغير إقطاع إمام"، أما ابن حزم - فهو الآخر فقيه مؤرخ محقق في المسائل - فيقول: "هذا مع ما لم نزل نسمع سماع استفاضة موجبة للعم الضروري، أن بلاد الأندلس لم تخمس ولم تقسم... لكن نفذ الحكم فيها أن لكل يد ما أخذت...". انظر: أبو جعفر أحمد بن نصر الدودي المالكي ت402هـ/ 1011م، كتاب الأموال، تح ودر ومق. رضا محمد سالم شحاته، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2008، ص79؛ ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، ص 175.

المفتوحة من ردود فعل القوط المعتصمين في الشمال والشمال الغربي¹. وما يؤكد هذا الأمر أن المصادر لم تتحدث عن ردود فعل من البربر على هذا الإجراء، وما يشجع على هذا القول أن البربر كانوا حديثي عهد بالإسلام، ما جعلهم يتميزون بالحماسة ولذلك لم يكن همهم سوى فتح البلاد والإسهام في نشر الإسلام شأنهم في ذلك شأن العرب .

وهكذا يمكن القول أن النواة الأولى لاستقرار البربر في الأندلس، تشكلت في شمال البلاد وغربها ونتيجة الفوضى السياسية التي تميزت بها البلاد خلال عصر الولاة، كانت المناطق المذكورة أماكن آمنة لجأ إليها البربر عند الضرورة، وهذا ما ذكره المقرئ عند قيامهم بالثورة سنة 123هـ / 740م بقوله: " فقتلهم العرب بأقطار الأندلس، حتى ألحقوا فلهم بالثغور، وخفوا عن العيون"².

ويرجح كذلك اعتصامهم بالمناطق الجنوبية لوجود إخوانهم هناك، ولعامل القرب من العدو الذي يُسهّل لهم الجواز عند الضرورة، وما يؤكد ذلك أنه في مطلع القرن 05هـ / 11م عند اضطرام نار الفتنة والتي وقف فيها بربر قرطبة القادمين في عهد المنصور إلى جانب سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين، ضد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدي، ومكّنوه من الخلافة سنة 403هـ / 1012م، طلبوا منه منحهم بعض البلاد التي تكون لهم أماناً وحصوناً يعصمون بها نساءهم وأبناءهم، من سكان قرطبة الحاقدين عليهم³، فما كان من سليمان إلا أن استجاب لهم " وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية... فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد البيرة، وأعطى مغراوة جوفي البلاد، ومنذر بن يحيى سرقسطة، وبني برزال وبني يفرن جيان وذواتها والمغاربة وبني دمر وأزداجة شذونة ومورور... والقاسم بن حمود على أصيلا والجزيرة الخضراء"⁴. والمتتبع لمواقع المناطق المذكورة يجد أن أكثرها يقع في جنوب الأندلس، ويبدو أن زعماء البربر كانت لهم حرية اختيارها

¹ حقي، المرجع السابق، ص 64، 65.

² المقرئ، نفح الطيب، ج4، ص 20؛ يؤكد مؤلف مجهول هذه المطاردة بالقول: " فركب أهل الشام ولبسوا السلاح، ثم فرقوا الجيوش في أرض الأندلس، فقتلوا البربر حتى أطفئوا جمرهم". انظر: أخبار مجموعة، ص 44.

³ ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية أو الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تح. ليفي برونفسال، ط2، بيروت، دار المكشوف، 1956، ص 228.

⁴ نفسه، ص 119.

ولم تفرض عليهم خاصة أن هؤلاء الزعماء كانوا غالبين على أمر الخليفة سليمان المستعين¹.

ومكن الاستقرار الكبير في هذه المناطق البربر من تأسيس إمارات قوية، استطاعت الصمود إلى غاية الدخول المرابطي، في ظل النزاعات والحروب التي ميزت عصر ملوك الطوائف، في حين أن بعض الإمارات عرفت بضعفها وقلة اتساعها، واعتمدت في استمرارها على بعض الإمارات البربرية الأخرى²، والسبب في ذلك ربما يعود إلى ضعف تواجد البربر بها.

لكن في ظل السيطرة المرابطية والموحدية للأندلس انتشر البربر من قبائل الدولتين وجيوشهما في جميع أنحاء البلاد، واستقر معظمهم في المدن³، فمن ذلك أن البربر المهاجرين من المغرب الأقصى استقروا في قرطبة وغرناطة، فعن سكان هذه الأخيرة يذكر ابن الخطيب: "إن فيهم من البربر والمهاجرة كثير"⁴ واجتمعت مجموعات مصمودية في ماردة وقرطبة والجزيرة الخضراء⁵، واستقرت جماعات من المرابطين والموحدين، خاصة زناتة وصنهاجة في لقنت وبلنسية⁶. وفي سنة 570هـ/ قام السلطان الموحي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بإسكان قبائل الموحدين مدن الأندلس وثغوره: "فأسكن العرب وزناتة بلنسية، وأسكن صنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسية، وأسكن في لورقة أهل تينملل، وأسكن في المرية وبرشانة كومية"⁷.

ومنه يمكن القول أن العامل السياسي الذي حصر تواجد البربر في مناطق معينة من البلاد منذ الفتح الإسلامي إلى غاية عصر ملوك الطوائف، هو العامل نفسه الذي سمح لهم بالانتشار في أنحاء البلاد في ظل حكم المرابطين والموحدين، لكن يلاحظ أن المهاجرين في هذه الفترة اتخذوا المدن مقرا لهم، فماذا عن القبائل السباقة في الهجرة؟

تجمع الكثير من الدراسات على أن البربر اتخذوا الجبال مستقرا لهم ، منذ بداية تواجدهم في

¹ ابن الخطيب، الأعلام، ص 119.

² محمد أرزقي، المرجع السابق، ص ص 25، 26.

³ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 36.

⁴ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 134؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 36.

⁵ يخلف، المرجع السابق، ص 86؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 36.

⁶ يخلف، المرجع السابق، ص 82.

⁷ البيذق، المصدر السابق، ص 89؛ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 85؛ حسبلاوي، المرجع السابق، ص 92.

الأندلس معللين ذلك بتشابه هذه البيئة مع بيئتهم التي خرجوا منها¹، ولا شك أن هذا الأمر لا يتعارض مع ما تم ذكره عن عدم معارضة البربر لإجراء موسى بن نصير بجعلهم في شمال وغرب الأندلس، وهي مناطق تسودها الجبال وهضبة المسيتا، وقد تم التعرف سابقا على أن الجبال من مجالات الريف²، ولا يعني هذا الكلام البتة أن البربر قد كان استقرارهم في الريف دون المدينة، فصاحب بيوتات فاس يتحدث عن استقرار البربر بين الريف والمدينة في الأندلس بقوله: "وأما البربر فمن كان من أهل الحاضرة استقر في المدن ومن كان من البادية استقر في القرى"³.

ومن خلال المهن التي احترفتها مجموعات من البربر، والتي ارتبطت بالنشاط الفلاحي مثل زراعة القمح، وغراسة الأشجار المثمرة خاصة أشجار الزيتون، وتربية الحيوانات وما تعلق بها من إنتاج سمن وصوف وعسل، وهي أعمال اشتهرت بها هذه القبائل في مواطنها الأصلية، ولا يتسع لها مجال إلا الأرياف فكانت بذلك موطن هذه القبائل⁴.

ويمكن معرفة مناطق استيطان البربر في الريف الأندلسي، من خلال الإشارات الواردة في المصادر وقد ترد هذه الإشارات أحيانا بشكل عام فتذكر مصطلح "البربر"، وفي أحيان أخرى ترد أسماء بعض القبائل، والمناطق الريفية التي استقرت فيها.

فكانت أرياف قرطبة من المناطق التي شهدت استقرار البربر، منذ البدايات الأولى للوجود الإسلامي مثل فحص البلوط الذي يسكنه البربر⁵، وهي إشارة فيها دلالة على استقرارهم الكبير فيه، ويبدو أن طبيعة هذا الفحص الذي هو عبارة عن جبال تتخللها سهول، وغناها بالمواد الطبيعية كالبلوط، والزيتون والزئبق

¹ محمد أرزقي، المرجع السابق، ص 9؛ يخلف، المرجع السابق، ص 74، 75؛ بوخاري، المرجع السابق، ص 30؛ Provençal, op.cit, t1, p 88 ; Guichard, Structures Sociales, p225.

² عن مجال الريف الأندلسي، يراجع الفصل السابق، في العنصر المتعلق بالريف الأندلسي في التقسيم الإداري.

³ إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، د. ط، الرباط، دار المنصورة للطباعة والنشر، 1972، ص 25.

⁴ ابن الأحمر، المصدر السابق، ص 24؛ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 129؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 35؛ دندش، المرجع السابق، ص 305؛ محمد أرزقي، المرجع السابق، ص 9؛ قربي، المرجع السابق، ص 199. يذكر موريس لومبار أن إسبانيا استفادت من أسلوب البربر فب تربية الغنم، وإدخال سلالات جديدة إلى البلاد، واشتهرت بعض السلالات من الحيوانات بأسمائها البربرية مثل جنيت أي زناتة وهو نوع من الخيول. انظر: موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول من القرن 02 إلى القرن 05هـ (8-11م)، تر وت. إسماعيل العربي، ط3، الرباط، منشورات دار الآفاق الجديدة، 1990، ص 123.

⁵ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 492.

هي التي كانت السبب وراء هذا الاستقرار الكبير للبربر، حتى أن جبال البرانس الواقعة فيه أخذت الاسم عن فرع البربر البرانس¹، ويوجد في هذا الفحص عناصر من ولهاصة، وعناصر من مصمودة ومكناسة² وعرفت فيه حصون بأسماء بربرية مثل مسطاسة وصدفورة وكزنة³، ولهذا يعتقد أن تكون فيه غالبية من هذه القبائل.

ويذكر الإدريسي أن حصني بلاي ومنترك يسكنهما البربر من أيام الأمويين⁴، ويورد في إشارة أخرى أن قلعة شنت فيلة معقل البربر من قديم الزمان⁵، منهم بنو الليث الزناتيين⁶، ولا شك أن إشارة الإدريسي فيه دلالة على تمسك البربر بمناطقهم، رغم ما عرفته البلاد منذ البداية إلى غاية عصر هذا الجغرافي (القرن 12هـ/12م). كما أن حصن المدور فيه عناصر بربرية مهمة⁷، ومن كثرة انتشار قبيلة لواتة الزناتية في أحد حصون قرطبة، حتى نسب إليها⁸، ويعد حصن أشونة من منازل البربر منذ الفتح، فقد سكنته عناصر من مصمودة وصنهاجة، منهم بنو عبد الوهاب، الذين كان لهم ثروة وعدد⁹، وفي قرية شقندة الواقعة على الضفة اليسرى من الوادي الكبير، استقر عدد من الكتامين منهم بنو مشرف¹⁰.

وفي أرياف شرق الأندلس المعروفة بسكانها العرب، يوجد به عناصر بربرية، منها سهلة بنو رزين التي تقع إلى الجنوب من طرطوشة¹¹، وهي منطقة توصف بأنها: "ليس في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته

¹ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 492؛ حقي، المرجع السابق، ص72؛ يخلف، المرجع السابق، ص 83؛ ذنون طه، المرجع السابق، ص 265.

² ابن الخطيب، الأعلام، ص 182؛ حقي، المرجع السابق، ص 72.

³ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 496؛ الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 126؛ قربي، المرجع السابق، ص 196؛ حقي، المرجع السابق، ص 72.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 572.

⁵ نفسه، ص 573.

⁶ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 499.

⁷ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 45.

⁸ الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 24.

⁹ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 502.

¹⁰ الحميري، المصدر السابق، ص 349؛ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 69؛ ذنون طه، المرجع السابق، ص 265.

¹¹ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 499؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 185؛ يخلف، المرجع السابق، ص 75.

المنسوبة إلى بني رزين¹ وقد اشتهرت بهذا الاسم لكثرة انتشار أسرة بني رزين البربرية، ولا شك أنها تحمل دلالة مهمة، تدحض فكرة انحصار وجود البربر في الجبال دون السهول.

وفي إحدى قرى دانية تسمى بيران يقطن بها عناصر من نفزة البربرية²، وفي قرية ألبونت من أعمال بلنسية سكنتها عناصر من زواوة الكتاميين منهم بنو القاسم³، كما اشتهرت عدة مواضع في شرق الأندلس بأسمائها البربرية، ويعود ذلك ربما لغلبة هذا العنصر على بقية العناصر المستقرة فيه، ففي أحواز طرطوشة موضع يعرف بمغراوة⁴، وفي أحواز بلنسية جزء مصمودة⁵، وحملت عدة مواضع وقرى في شرق الأندلس أسماء قبائل بربرية مثل: مكناسة وزناتة وصنهاجة⁶، وموضع أوربة بين شاطبة ودانية⁷.

ويبدو أن استقرار زناتة وصنهاجة في هذه المنطقة كان بكثرة خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م، أي مع دخول المرابطين والموحدين إلى الأندلس، خاصة أن هذه القبائل إضافة إلى المصامدة، كانت من أهم القبائل التي شاركت في عمليات الغزو والجهاد في الأندلس خلال هذه الفترة⁸، وقد أكد غيثار ذلك فقد وجد ضمن وثائق القرن 07هـ / 13م اسم الصنهاجيين ضمن تاج أرغون وبرشلونة في عدة مواضع من شرق الأندلس في لقنت وبلنسية ومرسية⁹.

ويقل البربر في أرياف الثغر الأعلى، فالإشارات الدالة على وجوده قليلة جدا، من ذلك أن أحواز سرقسطة تقطنها عناصر من قبيلة زواغة الزناتية¹⁰، وانتشر البربر حول حصن ورشة التابع لسرقسطة¹¹، وفي

¹ ابن بسام، المصدر السابق، ج3، ص 110، 111؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 182.

² الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 524.

³ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 501؛ محمد عبده حتمالة، موسوعة الأندلس والمغرب، ص 325.

⁴ زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، د. ط، بيروت، دار صادر، د. ت، ص 544.

⁵ العذري، المصدر السابق، ص 20.

⁶ ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص 95؛ البكري، المصدر السابق، ص 897؛ Guichard, Structures

Sociales, pp 122؛ يخلف، المرجع السابق، ص 82؛ حقي، المرجع السابق، ص 76.

⁷ المراكشي، المصدر السابق، ص 261.

⁸ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 86؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 164؛ يخلف، المرجع السابق، ص 82.

⁹ Guichard, Structures Sociales, p 280.

¹⁰ العذري، المصدر السابق، ص 26.

¹¹ حقي، المرجع السابق، ص 67.

إحدى نواحي هذه المدينة موضع يعرف بزناطة¹، وربما انتشر عدد كبير من مكناسة في إحدى حصون لاردة على نهر إيبرو حتى عرف باسمه²، واختارت مجموعة من قبيلة زناطة الاستقرار في بعض نواحي طركونة³.

أما بالنسبة لمناطق الجنوب، فإن الإشارات التاريخية التي تدل على استقرار البربر في أريافها كثيرة مقارنة بالمناطق السابقة، والسبب في ذلك أن هذه المنطقة يتركز فيها عنصر البربر كما تم ذكره سابقا. ففي قرية ببلكونة من أعمال جيان استقرت عناصر من صنهاجة⁴ وبلغ من كثرة تعداد بنو دراج الصنهاجيون في إحدى القرى التابعة لأعمال جيان، أن سميت بقسطلة دراج⁵، وأطلق اسم صنهاجة على موضع من أحواز جيان، ربما لكثرة هذا العنصر به خاصة بعد استقرار آل زيري بالكورة منذ القرن 05هـ / 11م، ثم ازداد بعد دخول المرابطين إلى بلاد الأندلس⁶، وتسمى إحدى قرى إشبيلية باسم قبيلة مغيلة البربرية⁷.

وفي كورة إلبيرة توجد إشارة إلى وجود عناصر بربرية في بقرديرة وأشبرغرة، من بينهم بنو المهلب الكتامين الذين ربما شكلوا أغلبية السكان في هذا الحصن، خاصة أنهم تركزوا بشكل كبير في هذه الكورة⁸ كما توجد بها مواضع تشتهر بأسمائها البربرية، منها موضع مكناسة بوادي آش⁹، وقرية ذكوان من قرى مالقة¹⁰، وتتميز رندة بطبيعتها الجبلية فاخترها البربر، منهم بنو يفرن الذين استقروا بحصن رندة¹¹،

¹ الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 151.

² حقي، المرجع السابق، ص 67.

³ حتاملة، موسوعة الأندلس والمغرب العربي، ص 1018.

⁴ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 502؛ ذنون طه، المرجع السابق، ص 267.

⁵ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 501؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص 60.

⁶ حقي، المرجع السابق، ص 82.

⁷ العذري، المصدر السابق، ص 113؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 315.

⁸ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 501؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 137.

⁹ ابن بلقين، المصدر السابق، ص 146.

¹⁰ أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، أعلام مالقة، ط1، بيروت- الرباط، دار الغرب الإسلامي- دار الأمان، 1999، ص 160، ص 353؛ يرجح حقي أنها منسوبة إلى أسرة بربرية تسمى بني ذكوان في قرطبة، لكنه لم يثبت هذا القول بالأدلة، خاصة أن في بعض التراجم لها، لا تذكر إن كانت بربرية أم لا، واكتفت بالقول أنها من الأسر العلمية في قرطبة المشهورة بالفقه وتداول القضاء بينها. انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص 129؛ حقي، المرجع السابق، ص 87.

¹¹ الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 73؛ عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 124، 125؛ حتاملة، موسوعة الديار الأندلسية، ص 325.

ويسمى العذري أحد المناطق التابعة للجزيرة الخضراء بجزء البربر¹، وإقليم لماية في رية الذي يتميز بطبيعته الجبلية اتخذته قبيلة لماية البترية فنسب إليها²، وقلة كزولة في قادم، نسبة إلى قبيلة جزولة البربرية، التي قد تكون استوطنتها خلال العهد المرابطي³.

وفي أرياف غرب البلاد تعرف العديد من المناطق الريفية باستقرار البربر فيها، فيشير ابن خلدون إلى حصون خاصة بالبربر بالقرب من بطليوس⁴، وحول مدينة يابرة بجمعات خاصة بالبربر⁵، وعناصر من نفزة تقطن على ضفة وادي آنة، وحصن مدلين القريب من ماردة سكنه البربر وكانت السيطرة فيه لبني فرفرين فقد كانت لهم ثروة وعدد⁶، وعرفت مناطق ريفية عديدة بأسماء قبائل بربرية، فقصر بني وارداسن يبعد عن شلب بخمسة مراحل⁷، وحصون مكناسة وهوارة ونفزة على طريق واحد من قرطبة باتجاه ماردة إلى الغرب⁸ ولا شك أن التركيز الكبير لهذه القبائل في هذه المناطق، هو الذي فرض هذه النسبة إليهم، ويبدو أن المناطق البربرية الريفية المذكورة في المصادر أقل مما هو موجود فعلا، لأن امتداد استقرار البربر في هذه المناطق كان واسعا فيذكر الإصطخري أن نفزة ومكناسة "من بلاد الجلالقة إلى مدينة قرطبة"⁹، بينما يذكر ابن حزم أن ماردة وقورية وأجدانية تقطنها جماعات مصمودية¹⁰، وهذه المناطق كلها تقع على طول الطريق التي ذكرها الإصطخري.

وتعرف منطقة الشمال كذلك بالاستقرار الكبير للبربر، فانتشر البربر في أحواز مدينة طليطلة¹¹ ووجدت عناصر بربرية في ترجيلة وحصن سكيان من أعمال طليطلة¹²، وحملت بعض المناطق أسماء بربرية

¹ العذري، المصدر السابق، ص 120.

² ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 496؛ الحميري، المصدر السابق، ص 511.

³ ذنون طه، المرجع السابق، ص 261؛ حقي، المرجع السابق، ص 80؛ بخلف، المرجع السابق، ص 80، 81.

⁴ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 4، ص 172.

⁵ ابن حيان القرطبي، المقتبس، تح. ب. شالميتا، ج 5، ص 96.

⁶ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 500.

⁷ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 110؛ حقي، المرجع السابق، ص 80.

⁸ الإصطخري، المصدر السابق، ص 45، 46.

⁹ نفسه، ص 44.

¹⁰ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 501.

¹¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 83.

¹² نفسه، ص 116؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 259.

ما يدل على انتشارها الكبير فيها، منها بنو برنس قرب أبيلا¹، ومكادة قرب طليطلة²، وقصر مضى نسبة إلى بني مضى الأسرة المصمودية، ومنزل رزين بضواحي المدينة³

وصفوة القول فإن البربر توزعوا في جميع أنحاء البلاد، وإن كان استقرارهم في المناطق الريفية لجنوب البلاد أكثر من غيرها، ولعل العوامل التاريخية أسهمت في هذا التوزيع، وعرفت بعض المواضع باستقرار كثيف لقبيلة معينة حتى اشتهرت بها، ولم تجتمع القبيلة الواحدة في منطقة واحدة، بل توزعت في أماكن عديدة من البلاد، وربما يفسر هذا بهجراتهم التي كانت على مراحل منذ بداية الفتح، إلى غاية الفترة مجال الدراسة.

3- أهل الذمة:

أبرز الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، اختلاط المسلمين مع أصحاب البلاد المفتوحة من أهل الكتاب، فأصبحوا في عهد دولة الإسلام رعايا يعرفون بأهل الذمة، والذمة هي العهد والأمان والضمان والحرمة والحق، وسمي أهل الذمة ذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم، وسمي المعاهد ذميا لأنه أعطي الأمان على ذمة الجزية التي تؤخذ منه⁴، وقد ورد ذكر هذه الأقلية في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾⁵.

وهذا العهد يتطلب الوفاء مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾⁶، وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من التعرض لهذه الفئة، فمنها أنه قال: "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة

¹ حقي، المرجع السابق، ص 70.

² ابن سعيد، المصدر السابق، ج 2، ص 45؛ الحموي، المصدر السابق، ج 5، ص 279؛ حقي، المرجع السابق، ص 70.

³ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 499؛ حقي، المرجع السابق، ص 70.

⁴ ابن منظور، المصدر السابق، مادة ذمم، ج 12، ص 221.

⁵ سورة التوبة، الآية 29.

⁶ سورة النحل، الآية 91.

وإن ريجها توجد من مسيرة أربعين عاما"¹، ولذلك بينت كتب النظم السياسية أحكامهم، سواء ما تعلق بحقوقهم وواجباتهم، وشروط أملت عليها ذمتهم²، وأهل الذمة في الأندلس هم النصارى واليهود، فهل استوطنوا الريف الأندلسي؟

أ- النصارى:

تطلق المصادر العربية على هذا العنصر عدة تسميات منها: العجم³، ووصفهم ابن القوطية بأهل الذمة من العجم، تمييزاً لهم عن المحاربين منهم⁴، ثم أصبح في الفترة بحال الدراسة لفظ العجم دالاً عن نصارى الشمال فقط⁵. وورد خلال الفترة المدروسة في زمن المرابطين مصطلح الروم البلديين والروم المعاهدين⁶، لكن يبدو أن مصطلح النصارى المعاهدون كان شائعاً في هذه الفترة، فقد وردت في بعض الكتب التي أرخت لها، وأكدته النوازل الفقهية⁷، لكن على مستوى الرعية أبرزت هذه النوازل خلال القرنين 05 و 06 هـ / 11 و 12 م، أن المجتمع الأندلسي استعمل مصطلح نصارى و نصرائي، في مختلف القضايا التي أهمته في تعامله مع المعاهدين النصارى، ففي نازلة حدثت سنة 444 هـ / 1052 م، أن رجلاً نصرانيا سب الله تعالى، وهو ما أوجب عليه القتل⁸، وفي نازلة عند ابن رشد حول جواز بيع أصول الكروم إلى النصارى على أنهم يعصرونها خمرًا⁹. وقد يكون استعمال هذا المصطلح مجرداً من كلمة المعاهدين

¹ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ت 272 هـ، سنن ابن ماجه، تع. محمد ناصر الدين الألباني، ط 1، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، د. ت، ص 456؛ وفي المعنى ذاته جاءت أحاديث أخرى. انظر: سليمان أبو داوود بن الأشعث 275 هـ، سنن أبي داوود، تع. محمد ناصر الدين الألباني، ط 2، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 2007، ص 488؛ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ت 279 هـ، سنن الترمذي، تع. أحمد زهوية، ط 1، بيروت، دار الكتاب العربي، 2005، ص 422.

² أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ت 450 هـ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تع. أحمد مبارك البغدادي، ط 1، الكويت، مكتبة دار ابن قتيبة، 1989، ص ص 181 - 186.

³ أبو مروان بن حيان القرطبي 377 - 469 هـ، المقتبس، تع. عبد الرحمن علي حجي، ص 64.

⁴ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 44.

⁵ ابن بلقين، المصدر السابق، ص 120؛ مؤنس، الثغر الأعلى، ص 41؛ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 102.

⁶ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص ص 39، 40.

⁷ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 90، ص 92، ص ص 97، 98؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج 3، ص 1521؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 59؛

⁸ الشعبي، المصدر السابق، ص 327.

⁹ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص ص 1081، 1082.

اختصاراً على اعتبار أن الذميين هم من يعيشون بين ظهرائي المسلمين دون غيرهم ولا يحتاج الأمر مزيد بيان.¹

وقد شكل النصارى في الأندلس في بداية الوجود الإسلامي أغلبية السكان، فقد أشار أحد الباحثين أن عددهم بلغ ستة ملايين نسمة²، بينما انحصرت أعداد المسلمين في المحاربين الذين دخلوا البلاد بغرض الفتح، ثم بدأت أعدادهم تزداد على حساب النصارى، حتى بلغت مليونين وثمانمائة سنة 288هـ/ 900م، لترتفع الأعداد إلى خمسة ملايين وست مائة ألف في نهاية القرن 11هـ/ 11م³. أما النصارى فقد انخفضت أعدادهم حتى أصبحوا يشكلون نصف تعداد السكان قبل منتصف القرن 10هـ/ 10م⁴.

ورغم أن هذه الأرقام ليست سوى اجتهادات ارتكزت على معلومات قليلة، وافتراضات وتخمينات لا يركن إليها المرء، إلا أنها تبرز انخفاض عدد النصارى مع مرور الزمن وتقادم الإسلام في المنطقة، فما هي أسباب ذلك؟

لا شك أن دخول أعداد كبيرة منهم في الإسلام أسهم بشكل كبير في هذا الانخفاض، فقد أشارت

¹ وقد ورد هذا اللفظ أيضاً في مذكرات الأمير عبد الله بلقين. انظر: ابن بلقين، المصدر السابق، ص 119. أما ما اصطلح عليه اسم " المستعربون"، فإنه ورغم دلالة العربية، إلا أن المصادر الإسلامية لم تشر إليه، فقد أطلقت المصادر الغربية منذ القرن 11هـ/ 11م، للدلالة على المسيحيين المتشبهين بالعرب في لغتهم وثقافتهم، ويعيشون في الممالك المسيحية خاصة بعد سقوط طليطلة 478هـ/ 1085م، وقد كان الداعي لاعتهم بهذا الاسم، البحث عن شيء يميزهم عن بقية النصارى المهاجرين من الشمال إلى هذه المدينة. وقد دلت الوثائق القشتالية الواردة في القرنين 05- 06هـ/ 11- 12م، على شيوع استعمال هذا المصطلح في طليطلة، ومنه يمكن القول أنه خارج عن مجال الدراسة، فلا حاجة لاستعماله. انظر: ميكيل دي إيبارزا، المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس المسلمة، الحضارة العربية في الأندلس، تحر. سلمى خضراء الجيوسي، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ص 234؛ الأمير شكيب أرسلان، التحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ط1، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1936، ج1، ص 364، 365؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص 461- 463؛ محي الدين صفى الدين، المستعربون ودورهم في تاريخ الأندلس 138- 483هـ/ 755- 1090م، (مذكرة ماجستير غير منشورة)، إشراف. عبد القادر بوبايا، جامعة وهران السانية، 2007- 2008، ص 24.

² مارغريتا لوبيز غوميز، المستعربون نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس " الحضارة العربية في الأندلس" تحر. سلمى خضراء الجيوسي، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ج1، ص 273.

³ عبد القادر عثمان محمد جاد الرب، المستعربون في عصر ملوك الطوائف بالأندلس 403- 486هـ/ 1012- 1093م " مجلة التاريخ العربي" العدد 25، الرباط، جمعية المؤرخين المغاربة، 2003، ص 260.

⁴ دي إيبارزا، المرجع السابق، ص 250.

بعض الدراسات أن انتشار الإسلام في البلاد كان كبيراً قبل نهاية القرن 03هـ / 09م¹، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب، خاصة أن الجماعات الأولى التي دخلت الإسلام تشكلت من الطبقة الدنيا في المجتمع القوطي الذين كانوا أكثر عدداً من الطبقات الأخرى، فكان إقبالهم على اعتناق الإسلام بمثابة الخلاص لهم من حالة البؤس التي عرفوها قبل ذلك².

يضاف إلى ذلك ما اشتهر به المسلمون من الوفاء بالعهود واحترام الأقليات، فرغم ما امتلكوه من وسائل السيطرة والقوة، إلا أنهم لم يتعرضوا إلى ملكياتهم ولم يتعدوا على أموالهم ولم ينتزعوا أراضيهم، وتجد المسلم يطلب ممن اشتهر منهم باتساع ملكياته مَنَحَهُ ضيعة من ضياعه يهبها له أو يشاركه فيها³، فلا شك أن هذه الخصال جذبت إليها عدداً من هؤلاء النصارى، خاصة أن التعامل والتجاور كان سمة بارزة بين المسلمين وغيرهم من الأقليات في مختلف فترات الوجود الإسلامي، وهو ما دلت عليه النصوص النوازلية⁴.

ويبدو أن إقبال النصارى على اعتناق الإسلام لم يكن منحصرًا في القرون الأولى من الوجود الإسلامي، فقد استمر حتى الفترة بحال الدراسة، ولو بأعداد قليلة تكاد لا تذكر، وهو ما يظهر في ارتياب السلطة القائمة خلال عصر المرابطين من إعلان جماعة من النصارى المعاهدين في إشبيلية إسلامهم، مما دفع بها إلى السؤال عن أمر إجلائهم من الأندلس، مخافة النفاق وإحداث الضرر للمسلمين⁵، ولو كان إسلام النصارى جماعات خلال العصر لما أدى إلى هذا الارتياب، وفي الوقت ذاته قد يفهم أن إسلامهم نادر وبشكل فردي.

وقد مكن الإسلام معتنقه من أهل الذمة التخلص من الالتزامات المفروضة عليه خاصة ما تعلق منها بالجزية⁶، بينما فضلت مجموعة أخرى منهم الهجرة إلى المناطق الشمالية منذ بدايات الوجود الإسلامي في

¹ مؤنس، فجر الإسلام، ص 460؛ دي إيبالزا، المرجع السابق، ص 255

² العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 50؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص 465.

³ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 59، 60.

⁴ عبد العزيز حاج كولة، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس من خلال النوازل الفقهية في القرنين 05-06هـ / 11-

12م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر 02 بوزريعة، 2009-2010، ص 57-

61؛ حسبلاوي، المرجع السابق، ص 133، 134؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، 27.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 62.

⁶ إن المتصفح لمسائل أهل الذمة عموماً، يجد أنهم لم يلتزموا بما فرضه عليهم الشرع، ودلت عليه كتب النظم الساسية، ويلاحظ ذلك حتى عصر المرابطين، المتحامل عليه من الطرف المتعصبين من المستشرقين، ولذلك وجه ابن عبدون في رسالته الدعوة لتغيير الوضع القائم.

الأندلس بصورة سرية، واعتبرت كشكل من أشكال رد فعل المتمسكين بهويتهم أمام المد الجارف للثقافة الإسلامية، وفراراً بدينهم مخافة أن يؤثر فيهم الدين الجديد، كما أثر في غيرهم¹.

وكثيراً ما حدثت هذه الهجرة خلال الفترة مجال الدراسة، ففي عام 476هـ / 1083م استقبل أحد الأديرة في أراغون مجموعة من العبيد الذين فروا من أراضي الأندلس، والتزم بتوفير حاجياتهم الغذائية لهم وللمنحدرين من أصلهم، كما أن ألفونسو السادس ملك قشتالة، استقطب في نهاية القرن 05هـ / 11م مجموعة من النصارى المعاهدين من مختلف مناطق الأندلس²، ويبدو أن الحالة هذه قد استمرت خلال القرن 06هـ / 12م، فقد أشارت نازلة إلى اكتشاف جنود المرابطين، محاولة فرار إلى بلاد الحرب قام بها مجموعة من النصارى المعاهدين، وانتهت العملية بنجاح بعضهم وفشل البعض الآخر، وقد أفتى الفقيه بأنهم أولى بأن يجلوا عن ديار المسلمين لما ظهر من أمرهم³، ولا شك أن هذه الفتوى قد عبرت عن المشاكل التي قد تحدث للمسلمين من قبل المعاهدين الراغبين في الهجرة إلى بني ملتهم.

وشهد القرن 06هـ / 12م أضخم عملية تهجير لنصارى الأندلس، فإثر حملة ألفونسو المحارب الطويلة سنة 519هـ / 1125م إلى جنوب البلاد، مستهدفاً غرناطة بطلب من معاهدتها الذين بعثوا له لائحة تضم اثنا عشر ألف اسم⁴، غادرت معه أعداد منهم فكانوا يتسللون إلى محله من كل طريق ويعززونه ويقوون صفوفه أينما توجه ويدلونه على عورات المسلمين⁵، وبالتالي كانت أعدادهم كبيرة، وكانوا من معاهدة غرناطة وغيرهم، وقد قام بتوطينهم في المناطق التي استردها حديثاً⁶، ومن جهة ثانية فقد تعرض

انظر: محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي، رسالة ابن عبدون ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسنة والمحتسب، تح. ليفي بوفنسال، د. ط، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص 48، ص 51؛ حاج كولة، المرجع السابق، ص 59، 60.

¹ جاد الرب، المرجع السابق، ص 256.

² نفسه، ص 265.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 62، 63.

⁴ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 91.

⁵ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 110؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 92؛ محمود علي مكي، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين " صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1959-1960، مج 7-8، ص 125.

⁶ دي إيبالزا، المرجع السابق، ص 256؛ لوبيز غوميز، المرجع السابق، ص 276.

بقية المعاهدين إلى عقوبة التغريب¹ من الأندلس إلى بلاد العدو، بسبب الأضرار التي لحقت المسلمين جراء هذا التواطؤ، وشمل هذا التغريب كل النصارى المعاهدين في الأندلس، فقد دلت على ذلك المصادر المختلفة، إذ استفتى علي بن يوسف عن نصارى إشبيلية المبعدون إلى مكناسة، في رسالة بعث بها إلى الفقيه ابن ورد سنة 521هـ / 1127م²، كما أن صاحب الحلل يصرح أن أمير المرابطين: "نفذ عهده إلى جميع بلاد الأندلس بإزعاج المعاهدين، إلى ناحية مكناسة وسلا وغيرها من بلاد العدو"³، وهو الذي وعد في إحدى رسائله بتطبيق وصية الفقيه أبو الوليد بن رشد الجد ت 520هـ / 1126م، بترحيل النصارى المعاهدين عن الأندلس⁴.

ويبدو أن التغريب أصبح العقوبة التي تطال كل من يسبب ضررا بالمسلمين خلال هذا القرن فالبيدق يشير إلى تغريب مماثل لكنه ليس بنفس الحجم، حدث خلال العصر الموحيدي، وذلك سنة 564هـ / 1169م، حينما غرّب جرندة الجليقي بعد الظفر به مع جماعة من أصحابه، وكان عددهم ثلاثمائة وخمسين شابا نصرانيا، إلى السوس ودرعة في بلاد العدو⁵.

ومنه يمكن الاستنتاج أن القرنين 05-06هـ / 11-12م قلت فيه أعداد النصارى المعاهدين في البلاد بشكل ملفت للانتباه، بسبب العاملين المذكورين، لكن تعتبر الهجرة بنوعيتها القسرية والطوعية الأهم خاصة بعد نشاط حركة الاسترداد وسقوط المدن بدءا بطليطلة سنة 478هـ / 1085م. لكن هل شمل هذا التهجير النصارى المستقرون في ريف البلاد؟

يبدو أن النصارى المعاهدين اختاروا التجمع خارج المدن الكبرى، وفضلوا الاستقرار في المناطق الريفية يتعاطون العمل الزراعي منذ بداية الوجود الإسلامي في البلاد، وقد أشار صاحب بيوتات فاس الكبرى بأنهم كانوا يمارسون النشاط الفلاحي بشتى أنواعه، من حرث وغرس وتربية الحيوانات واختص منهم من

¹ يطلق عليها بوتشيش محنة بمعنى الابتلاء، وهو مصطلح لا يليق استعماله في هذا الموضوع، لأنه يعبر عن حالة من الظلم تعرض لها هؤلاء، بينما، تدل المصادر التاريخية على تواطئهم، وهو ما يعني نقضا لدمتهم، ولذلك أفتى الفقهاء بهذه العقوبة تأديبا لهم وزجرا لبقية أهل الذمة من التواطؤ على بلاد الإسلام والمسلمين. انظر: بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 78.

² الوشيري، المصدر السابق، ج 8، ص 57، 58.

³ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 90، 91.

⁴ مكّي، المرجع السابق، ص 127، ص 167.

⁵ البيدق، المصدر السابق، ص 89؛ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 107.

يقطن في القرى الساحلية إضافة إلى ذلك بصيد الأسماك وخاصة الحوت والسردين¹.

ويؤكد ابن الخطيب هذه الحقيقة، فعندما أنزل الوالي أبو الخطار الشاميين في كورة إلبيرة (غرناطة) يقول: " وأقطعهم ثلث أموال المعاهدين، فاستمر سكانهم في غمار الروم، يعالجون فلاحه الأرض وعمران القرى".²، وقد لاحظ ابن حوقل عند زيارته للأندلس في القرن 10هـ / 10م أهمية أعداد النصارى المعاهدين في أرياف الأندلس، إذ يذكر: "والأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن، وهم على دين النصرانية روم، وربما عصوا في بعض الأوقات، ولجأ قوم منهم إلى حصن، فطال جهادهم، لأنهم في غاية العتو والتمرد، وإذا خلعوا ربة الطاعة، صعب ردهم إلا باستئصالهم"³، ويبدو أن هذه الكثرة هي التي شجعتهم على التمرد والعصيان.

وخلال الفترة مجال الدراسة يلاحظ كذلك تواجد كثيف للنصارى في الأرياف، فقد أشار الأمير عبد الله بن بلقين، أن غالبية النصارى كانت تعيش في قريتين هما ربيانة وجطرون⁴، وأوضحت الحملة التي قام بها ألفونسو المحارب على غرناطة، استقرارهم في معظم أرياف الأندلس، فقد استطاع أن يجند أعدادا كبيرة منهم، وكانوا يكثرون سواده، ويدلون على الطريق وينبهون على المراكب التي تضر المسلمين وتنفعه⁵، بينما كان البعض الآخر منهم يدعمونه بالأقوات لجنده والعلف للخيول⁶، وربما هذا ما يفسر طول أمد هذه الحملة.

وما يؤكد استقرارهم في أرياف الأندلس، طبيعة عملهم القائم على النشاط الزراعي، فقد اختاروا الاشتغال به في مواطنهم الجديدة التي غربوا فيها في بلاد العدو، وإسهامهم الكبير في إعطاء دفعة للإنتاج الزراعي بها⁷، كما أن ألفونسو كان يهدف من حملته على غرناطة تهجير المعاهدين، لتعمير المناطق المسيحية

¹ ابن الأحمر، المصدر السابق، ص 20.

² ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص ص 107، 108.

³ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 106؛ أرسلان، المرجع السابق، ص 47.

⁴ ابن بلقين، المصدر السابق، ص 119.

⁵ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 92؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 72؛ دي إيبالزا، المرجع السابق، ص ص 246، 247.

⁶ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص 71.

⁷ إبراهيم القدري بوتشيش، المرابطون وسياسة التسامح مع النصارى " دراسات أندلسية" العدد 11، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر، 1994، ص 26، بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 92

الشمالية، خاصة تلك التي استردها حديثا مثل طليطلة وسرقسطة سنة 512هـ / 1117م، والاستفادة من خبرتهم في المجال الزراعي، وإلى ذلك أشار ابن عذاري بالقول عن معاهدة غرناطة: "حمل جملة من رعيتهما المعاهدة لعمارة أرض طليطلة"¹، وحسب بعض الدراسات فإن ممالك الشمال بفضل هؤلاء المهاجرين، وقفت على التطور الذي بلغه المسلمون في المجال الفلاحي، واستفادت منهم في تطوير نظمها الفلاحية².

وتأسيسا على هذا يمكن القول أن النصارى استوطنوا الريف الأندلسي، منذ بداية الوجود الإسلامي إلى غاية الفترة مجال الدراسة، ونتيجة هجرتهم وتهجيرهم في مختلف المراحل خاصة في القرن 12هـ / 12م، فإن أعدادهم انخفضت بلا ريب في المناطق الريفية التي استقروا فيها. فما هي أهم المناطق التي استقروا بها؟ انتشر النصارى في مناطق عديدة من الريف، ورغم صعوبة الكشف عنها لغياب المعلومات إلا أن بعض الإشارات الواردة في المصادر، يمكن أن تعطي صورة عن هذا الاستقرار، يمكن الخروج ببعض النتائج حوله. ويبدو أن بعض المناطق الريفية اختصت بعنصر النصارى فقط دون غيرهم، فعن كورة رية في جنوب البلاد يذكر ابن حيان أسماء بعض الحصون التي يتضح من أسمائها أنها أعجمية، مثل حصن بمارش وشتت بيطر وشذلية، ثم يؤكد ذلك بالقول: "حصون تلك الناحية مختصة للنصارى على قدم الأيام"³، ويذكر الحميري أن حصن ببشتر، من أعمال رية جنوبي الأندلس "كان قاعدة العجم، كثير الديارات والكنائس والدواميس، ولهذا الحصن قرى كثيرة، وحصون خطيرة"⁴، لكن هذا الحصن هدمه الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر⁵، ورغم ذلك يستفاد من النص أن القرى المنتشرة حوله، إما أنها خاصة بالنصارى أو تسكنها أغلبية منهم، باعتبار أن الحصن ملجأ القرويين أيام الحروب والفتن.

وفي عصر الموحدين يشير ابن صاحب الصلاة إلى وجود حصن أهل بالنصارى فقط، هو حصن لبسة قرب مدينة وادي آش في طريق غرناطة، إذ يذكر أن أمير الموحدين أبا عبد الله بن أبي إبراهيم إسماعيل بن أبي يعقوب يوسف نازل هذا الحصن أثناء ولايته على غرناطة وفتحها في اليوم الذي نازله فيه

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص 36؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 75؛ لوبيز غوميز، المرجع السابق، ص 276.

² جاد الرب، المرجع السابق، ص 266.

³ ابن حيان، المقتبس، تح. شالميتا، ج5، ص 223.

⁴ الحميري، الروض، ص 79؛ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 333.

⁵ ابن حيان، المقتبس، تح. شالميتا، ج5، ص 223.

واستسلم له جميع النصارى الذين داخل الحصن، وذلك في سنة 562هـ / 1166م¹.

كما اختصت بعض القرى بالعنصر النصراني فقط، ففي طليطلة قرية عين الديك، تسمى بقرية وادي المستعربين²، ولا شك أن هذه التسمية أطلقت عليها بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ / 1085م لاختصاصها بهذا الصنف من النصارى دون غيرهم، و قد بقيت متداولة فترة من الزمن، فوردت في الوثائق النصرانية في القرن 07هـ / 13م³، وعرفت قرية فنيانة القريبة من وادي آش باستقرار النصارى المعاهدين فهي عامرة بهم دون غيرهم⁴، ومن أعمال وبدة قرية بنتيج النصرانية⁵، وجاء عند ابن بسام وصف أحدهم لقرية، يدل على اختصاصها بالنصارى فقط فقال: "قرية آنة كلها حانة، دار البطاريق، وملعب الكأس والإبريق، سائمتها الخنازير، وحياضها المعاصير، ومياهاها الأنبد والخمور"⁶، وذكر ابن بلقين أن قريتي ريبة وخطرون التابعتان لغرناطة رعيتهما نصارى⁷.

ولكن السؤال المطروح: هل تجمع النصارى في هذه المناطق بمحض إرادتهم؟ أم وراء ذلك فاعل مستتر؟ يجيب أحد الباحثين على ذلك بأن توطين النصارى في أحياء وقرى خاصة بهم، سياسة انتهجتها السلطة الإسلامية منذ عهد الخلافة الأموية، واستمرت خلال الفترة مجال الدراسة من أجل ضبط تحركاتهم وتحصيل الجزية⁸، لكن غاب عليها أن مهمة جمع الجزية أوكلت إلى النصارى أنفسهم، وهو ما أشار إليه ابن الخطيب، بقوله: "وكان يرأسهم أشياخ من أهل دينهم أول حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة على رؤوسهم"⁹، فلا يحتاج الأمر إذن إلى تجميعهم في مناطق محددة، أما مسألة ضبط تحركاتهم فقد أثبتت حملة ألفونسو المحارب سنة 519هـ / 1125م، وحالات الفرار التي قامت بها هذه الجماعات إلى بلاد الحرب في مختلف الفترات، صعوبة ذلك الأمر.

¹ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 220.

² مؤنس، فجر الأندلس، ص 463.

³ لوبيز غوميز، المرجع السابق، ص 269.

⁴ الحميري، المصدر السابق، ص 441.

⁵ نفسه، ص 607.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص 681.

⁷ ابن بلقين، المصدر السابق، ص 119.

⁸ جاد الرب، المرجع السابق، ص 273.

⁹ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 107.

ويعني ذلك أن مسألة اختيارهم التجمع طوعا قد تكون الأقرب إلى الصواب لعدة أسباب، فمنها أنها تستطيع من خلال هذه التجمعات المسيحية، أن تحافظ على قسم كبير من هويتها التقليدية، رغم اعتناق بعضهم الإسلام، وقد رجعت إلى مسيحيتها بعد سقوط طليطلة والجزء الشرقي من الأندلس¹، وهو ما يمكن اعتباره نوعا من أنواع المقاومة أمام انتشار الإسلام بين هؤلاء النصارى، كما أن الاستيطان الخاص بعنصر معين، لم يكن خاصا بهم فقط، فقد تم التعرف سابقا على اختصاص بعض المناطق الريفية بالعرب فقط دون غيرهم، وكذلك الحال بالنسبة للبربر، إضافة إلى ذلك كله فقد وردت إشارات تدل على تجاور المسلمين مع النصارى في عدة مناطق ريفية.

وأول إشارة إلى التجاور تم ذكرها سابقا في نص ابن الخطيب عن كورة إلبيرة المجندة بالشاميين، كما وردت إشارات تفيد بهذا التجاور، مثل قرية أونبة التي استقر فيها من المسلمين العرب، وبها كنيسة كبيرة معظمة عند النصارى يزعمون أن أحد الحواريين مدفون بها²، وفي إحدى ضواحي إشبيلية توجد كنيسة الماء التي تبعد عنها فرسخين³، مع العلم أن تركز المسلمين خاصة من العنصر العربي كبير في هذه الأرياف وهو ما يوحي بوجود قرى مختلطة بها. ودلت بعض أسماء قرى غرناطة، الواردة عند ابن الخطيب على أعجميتها التي تكون قد تسمت بها لغلبة النصارى بها، أو ما يدل على وجودهم، ومثاله قرية منشال وهي كلمة إسبانية تعني الدير⁴.

وكثيرا ما يدل وجود الكنائس والأديرة على وجود المعاهدين في تلك المنطقة، وقد وردت إشارات عنها، ففي بعض الوثائق النصرانية بقي الأساقفة يمارسون نشاطاتهم في أديرتهم التي ظلت موجودة في مختلف الفترات وإلى غاية القرن 12هـ/ 12م في جبال قرطبة، وجبال مالقة، وفي غرناطة⁵، وشكلت هذه المؤسسات الدينية المسيحية، أهمية قصوى في بقاء هذا العنصر على دينه، بل وإضافة عناصر جديدة⁶.

وفي الأخير يمكن القول أن النصارى المعاهدين استوطنوا الريف، رغبة منهم في ممارسة النشاط

¹ دي إيبالزا، المرجع السابق، ص 252.

² الحميري، المصدر السابق، ص 63.

³ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 89.

⁴ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 132، هامش 3؛ وعن أسماء هذه القرى ص ص 125 - 132.

⁵ دي إيبالزا، المرجع السابق، 244.

⁶ نفسه، ص 243.

الفلاحين، ودل هذا الاستقرار على سماحة المسلمين معهم، فلم يجبروهم على ترك أراضيهم وأوطانهم ولذلك شكلوا نسبة مهمة من تعدادهم، لكنه تناقص بسبب الحالة التي عرفت بها البلاد مع ازدياد نشاط حركة الاسترداد المسيحي وما انعكس عنها بداية من القرن 11هـ/ 11م.

ب- اليهود:

استوطن اليهود الأندلس خلال العهد الروماني، وأغلب الظن أن يكون خلال القرن الأول للميلاد وتعرضوا خلال حكم القوط إلى أنواع شتى من الإذلال والتعسف، فقد اعتبر إذلالهم فضيلة بسبب أخلاقهم التي عرفوا بها، وأكروها في فترات عديدة على التخلي عن دينهم¹، وهو ما يبرر موقفهم من الفتح الإسلامي للبلاد، فقد دلوهم على عورات البلاد، واستعان بهم طارق بن زياد لحراسة المدن المفتوحة².

وفي عهد الإسلام تمتع اليهود بحرية كبيرة يمارسون شعائهم في بيعهم دون مضايقات، ووفرت لهم الدولة الإسلامية الحماية التي أمر بها الإسلام، فبلغوا شأنًا كبيرًا ومكانة عالية، تجلت في المناصب التي تولوها بعضهم خلال مختلف الفترات التاريخية للحكم الإسلامي، فتجد فيهم الوزير والسفير وصاحب الشرطة وطبيب البلاط ومنهم المسؤول على تحصيل الجزية والضرائب³، بل لقد أصبح يوسف بن النغيلة الوزير في الدولة الزيرية في غرناطة صاحب الأمر والنهي فيها في عهد باديس بن حبوس بن ماكسن (429-467هـ/ 1037-1084م)⁴، ولم يكن لهؤلاء اليهود الوصول إلى هذه المناصب لولا تمكنهم من الثقافة العربية⁵، كما أنهم كانوا لا يشكلون خطراً على النظام القائم لذلك تم الاعتماد عليهم، وإلى ذلك يشير ابن

¹ ريموند شايנדلين، اليهود في إسبانيا المسلمة، "الحضارة العربية في الأندلس"، تحر. سلمى خضراء الجيوسي، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ج1، ص102؛ فوزي عبد العزيز هشام، يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي 92-897هـ/ 711-1492م، "دراسات أندلسية"، العدد 15، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1996، ص ص 96، 97؛ مريم قاسم الطويل، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر 403-483هـ/ 1012-1090م، ط1، بيروت-الرباط: دار الكتب العلمية- مكتب الوحدة العربية، 1994، ص 250.

² مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 22.

³ ابن الكردبوس، الاكتفا بتاريخ الخلفاء، تح. صالح بن عبد الله الغامدي، ط1، الرياض، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 2008، ج2، ص 1231؛ شايנדلين، المرجع السابق، ص ص 205، 204.

⁴ ابن بلقين، المصدر السابق، ص 59؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص 256.

⁵ شايנדلين، المرجع السابق، ص 308.

بلقين عن أسباب تولية جده باديس وزيراً يهودياً بالقول: "لأن هذا اليهودي ذمي، لا تشره نفسه إلى ولاية ولا هو أندلسي، فينتقي منه إدخال داخله مع غير جنسه من السلاطين"¹.

ولم تكن مملكة غرناطة في عهد ملوك الطوائف المتفردة في الاعتماد على اليهود بل شمل الكثير من هذه الممالك، بل وحتى في عصر الدولة المرابطية -الموصوفة عند البعض بالتعصب الديني- تولى عدداً من اليهود بعض المناصب، فقد ذكر ابن عذاري أن والي غرناطة في أيام علي بن يوسف بن تاشفين: "كان له كاتب يهودي الأعراق والأخلاق ييغض الناس ويغضونه، أشأم قسمة على نفسه ورئيسه ومن اتصل به"² وقد كان الاعتماد على اليهود في عهد المرابطين في جباية الضرائب لضمان تحصيلها، ولعلمهم أن أمثال هؤلاء يخشون عاقبة التلاعب بها أو التفريط في أداء الواجب، ويبدو أنهم قد كثروا في أواخر أيام هذه الدولة، وهو ما يلاحظ في الخطاب الذي وجهه تاشفين بن علي، إلى الفقهاء والقضاة عند اعتلائه العرش يطلب منهم الحد منهم بالقول: "وكذلك نؤكد عليكم أتم التأكيد أمر أهل الذمة، ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين لأنه فساد الدين"³.

ومما لا شك فيه أن هذه الحرية عكر صفوها بعض الأحداث، خلال الفترة مجال الدراسة والتي كانت في كثير من الأحيان نتيجة التجاوزات التي قام بها هؤلاء اليهود، فخلال عصر ملوك الطوائف تعرض يهود غرناطة إلى النكبة، حيث ثار العامة عليهم سنة 459هـ / 1066م ونهبت دورهم وقتل منهم بين الثلاثة والأربعة آلاف⁴، فقد سيطر اليهود في عهد هذا الوزير وأبيه من قبله على معظم الوظائف المهمة في غرناطة، وظلموا المسلمين ظلماً شديداً⁵، وفي قرطبة في عصر المرابطين حدثت ثورة من العامة سنة (529هـ / 1134م)، وعنها يقول ابن عذاري مينا سببها: "وثارت العامة أيضاً بقرطبة في هذه السنة، في رجب على اليهود -لعنهم الله- بسبب قتل وجد بين أظهرهم، ففتحت منازلهم، وانتهبت أموالهم، وقتل

¹ ابن بلقين، المصدر السابق، ص 48.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص 77.

³ حسين مؤنس، نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين "مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية" العدد 3، مدريد، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1955، ص 113.

⁴ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، 231؛ ابن بسام، المصدر السابق، ج 3، 769.

⁵ ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص 766، 767، ج 2، ص 562؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 2، ص 114؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 4، ص 206؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 264؛ المقري، نفع الطيب، ج 4، ص 322.

نفر منهم"¹، وقول ابن قطان عن الحدث نفسه "وقتل يهودي مسلماً، فاستطال المسلمون على اليهود، فنهبت أموالهم، وهدمت ديارهم وذلك بقرطبة"².

ومن المؤكد أن أعدادهم في أرياف الأندلس لم تكن تضاهي أعداد النصارى، فقد كانوا يفضلون العيش في المدن، ومن دلائل ذلك أن مدينة بجانة كانت من مناطق استقرار اليهود، فلما تدهور حالها في بداية القرن 11م/ 1105هـ، وأصبحت قرية صغيرة اختفت منها الطائفة اليهودية، مفضلين مدينة المرية العامرة والقرية منها³، كما أن بعض المدن نسبت إلى اليهود، مثل مدينة غرناطة التي تعرف بمدينة اليهود، وهي الحال ذاتها لمدينة طركونة وأليسانة⁴، واتخذوا أحياء خاصة بهم بعيداً عن التجمعات الأخرى أطلق عليها اسم الجماعة والتي تعني بالعبرية القاهال⁵.

وقد تعود أسباب تفضيلهم هذا الشكل من الاستقرار، إلى الرغبة في حماية مجتمعهم اليهودي من الانصهار التام داخل المجتمع الإسلامي في الأندلس، الذي أثر فيهم تأثيراً كبيراً، لكنهم ظلوا محافظين على طقوسهم وشعائهم وكثير من عاداتهم وتقاليدهم⁶، كما أنهم يفضلون النشاط التجاري الذي يزدهر في المدن، فمن ذلك اتخاذهم مدينة اليسانة كمركز لهم لأهميتها التجارية، فهي قريبة نسبياً من ميناء المرية⁷ وشكلت المدن السابقة محطات في طرق تجارة العبور⁸.

ويفضل اليهود الاستقرار في المناطق المحصنة والمسورة، لشعورهم بالأمن داخلها أكثر من غيرها وهو ما توفره المدن، ويكفي للدلالة على ذلك وصف مدينة اليهود اليسانة، فيقول الإدريسي عنها:

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص 93.

² ابن القطان، المصدر السابق، ص 243.

³ البكري، المصدر السابق، ص 726؛ ياقوت، المصدر السابق، ج1، ص339؛ الحميري، الروض، ص80، 537، العذري،

المصدر السابق، ص 82؛ خالد يونس عبد العزيز الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس 92-897هـ/

1492-711م، د. ط، غزة، مطبعة ومكتبة دار الأرقم، 2011، ص 125.

⁴ الحميري، المصدر السابق، ص 45؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 571.

⁵ بروفنسال، المرجع السابق، ص 197؛ الخالدي، المرجع السابق، ص 86.

⁶ الخالدي، المرجع السابق، ص 86. وفي هذا الإطار حرص أحبارهم على منع كل أمر يكشف أسرار بيوتهم سواء من الطائفة اليهودية

أو من غيرهم، ولا شك أن هذا السلوك يعتبر من مظاهر التأثير الإسلامي عليهم. انظر: نفسه، ص 88، 89.

⁷ بروفنسال، المرجع السابق، ص 197.

⁸ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 95.

"والمدينة مدينة متحصنة بسور حصين، ويطوف بها من كل ناحية حفير عميق القعر والسروب، وفائض مياهها قد ملأ ذلك الحفير. واليهود يسكنون بجوفي المدينة ... ولليهود بها حذر وتحصن ممن قصدهم"¹ ويقول عنها صاحب الحلل: "مدينة أليسانة، وهي مدينة منيعة سورها من أعظم الأسوار، انفرد بسكانها اليهود"². ولا شك أن هذا السبب نابع من طبيعتهم، فهم أكثر الناس حرصا على الحياة كما أخبر الله تعالى عنهم³

وإذا شكّل تجمعهم في أحياء خاصة بهم قاعدة في بلاد الأندلس، فقد شذ عنها حالات أبرزتها كتب النوازل، فمن ذلك أن رجلا يملك دارا بقرطبة بحومة مسجد صواب، تلاصق دارا أخرى موقوفة على شنوغة اليهودي⁴، وفي فتاوى ابن رشد أن يهوديا اشترى دارا وجاره مسلم وبينهما بئر مشتركة، ولما سئل حكم ابن رشد عن حكم البئر، أفتى أن لا حرج في استسقاء اليهودي منها⁵، ولعل في هذه النازلة دليل على روح التسامح التي عاش فيها اليهود خلال الفترة مجال الدراسة، وتحدث نازلة عن يهودي سكن دارا في درب ليس فيه إلا المسلمون، وأذى الجيران بشرب الخمر⁶، ويذكر الإدريسي عن اليسانة أنها مدينة اليهود، بما رضى يسكنه المسلمون وبعض اليهود⁷. ولكن هل يمكن القول أنه انعدم استقرارهم في أرياف الأندلس؟

تندر الإشارات الدالة على استقرار اليهود في الريف الأندلسي، بل حتى بعض الدراسات التي تناولت الريف في الفترات التي تسبق الفترة مجال الدراسة، لا تشير إلى اليهود كعنصر من العناصر المشكلة لهذا

¹ الإدريسي، المصدر السابق، ص 571.

² مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 80.

³ قال في سورة البقرة من الآية 90: ﴿يَتَسَامَا أَشْتَرُوا بِذَنبِهِمْ أَنْ يَكْفُورُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهِمْ أَنَّ يُتَزَلَّ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَآءُ وَبَغْضٍ عَلَى عَظْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، وقال في سورة الحشر من الآية 14: ﴿لَا يُقْتَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

⁴ أبو الأصبع عيسى بن عبد الله بن سهل ت 486هـ / 1093م، ديوان الأحكام الكبرى، تح. المحامي رشيد النعيمي، د. ط، د. ن، 1997، ج2، ص 948.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 605. 606.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 437.

⁷ الإدريسي، المصدر السابق، ص 571.

المجتمع، مقتصرة على ذكر النصارى¹، وهو ما يدل على صعوبة الكشف عن ذلك، ولكن يمكن الخروج ببعض النتائج من خلال ما ورد في بعض المصادر، خاصة النوازلية منها.

تشير بعض نوازل العصر إلى ملكية اليهود للأراضي الفلاحية، فمن ذلك أن رجلاً مسلماً اشترى جناناً من يهوديين، وامتلكها مدة من عشرة أعوام وتصرف فيها كما شاء، ثم قام عليه يهودي بوثيقة تجبيس البائع له الجنان قبل تاريخ البيع، ولم يقدر اليهودي على استرجاع تلك الجنان بسبب مخالفته للشرع الإسلامي، حسب فتوى الفقهاء²، بينما استطاع أحد اليهود أن يسترجع نصف قطعة أرض من حبس أجبره أهل النفوذ من المسلمين على بيعه، فأفتى ابن سهل بوجوب رد الملك لصاحبه ونقض البيع³، وتشير نفس النازلة أن الأرض محبسة على ابنته البكر القاصر، وعلى من يولد له من أعقابها وأعقابهم، فإن لم يكن له ولد رجع إلى ابنته وأعقابها، فإذا انقضوا رجع إلى مساكين المسلمين⁴.

ويبدو أن معظم ملكيات اليهود الزراعية حيزت لهم عن طريق الشراء، خاصة أن الفقه الإسلامي لم يمنعهم من امتلاكها، ولا شك أن اشتغال قسم كبير من اليهود في النشاط التجاري على وجه الخصوص، جعل بعضهم أغنياء، ومكنهم من شراء الأراضي، خاصة أن ملكيات المسلمين انقسمت وتفتتت مع مرور الزمن نتيجة اقتسام الورثة لهذه الأملاك، فظهرت الاستغلاليات الصغيرة، وهو ما مكن اليهود من شراء الأراضي⁵.

وقد تعاطى اليهود العمل الزراعي ويتضح ذلك خلال أسئلة اليهود إلى أحبارهم في القرنين 03-04هـ / 09-10م⁶، ومنها أن يهودياً اقترض مالاً وعندما عجز عن تسديده اتفق مع المقرض أن يسقط

¹ قرني، المرجع السابق، ص 203، 204.

² أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي، وثائق في أحكام أهل الذمة في الأندلس مستخرجة من ديوان الأحكام الكبرى، تح. محمد عبد الوهاب خلاف، مر. وتق. محمود علي مكي ومصطفى كامل إسماعيل، د. ط، القاهرة، المطبعة العربية الحديثة، 1980، ص 65، 66؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 438.

³ ابن سهل، وثائق في أحكام أهل الذمة، ص 27.

⁴ نفسه.

⁵ الخالدي، المرجع السابق، ص 373.

⁶ وردت هذه الأسئلة عند الخالدي، والتي نقلها عن آشور إلياهو اليهودي ذو الأصول الأندلسية، والذي كتب دراسة بعنوان "the jews of moslem spain" اعتمد فيها على مؤلفات فقهية يهودية تشبه كتيب النوازل الفقهية الإسلامية، كتبها أحبار يهود الأندلس في عصور مختلفة. انظر: الخالدي، المرجع السابق، ص 22، ص 374، 375. وترد إشارة في دراسة مسعود كواقي،

عنه الدين مقابل العمل في كرومه، وفي سؤال آخر أن يهوديا عجز عن تسديد دينه ليهودي آخر فقدّم إليه مزرعة الكروم التي يمتلكها كرهن، إلى أن يسدّد دينه من محصولها، وفي سؤال آخر طالبوا فيه بالسماح لهم بتقليص كرومهم في أيام عيد الفصح بأيديهم أو بأيدي عمالٍ من غير اليهود، وذلك لأن هذه الأيام التي يمنع فيها العمل تعدّ أنسب أوقات لتقليص الكروم في الأندلس، وقد أفتى لهم الأحبار بجواز ذلك، ورغم أن هذه الأسئلة بعيدة عن الإطار الزمني إلا أنه يستفاد منها، أن الأراضي التي امتلكها اليهود كانت بغرض القيام بالنشاط الفلاحي، الذي تختص به المناطق الريفية.

ونقل أرسلان في الحلل السندسية بعضا من الوثائق الخاصة باليهود المؤرخة في القرنين 06-07هـ/ 12-13م والتي تثبت تعاطيهم العمل الزراعي، واستقرارهم في بعض قرى طليطلة، منها: "اشترى أبو إسحاق بن نحيمس اليهودي من جميلة بنت فرج زوجة البليوشي البناء، جميع حصّتها، وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجال بحومة قرية جليكس من قرى مدينة طليطلة..."¹، ومنها: "اشترى مرتين الأرجيد يامن بن يوسف بن يعيش اليهودي جميع الثلاثة جبال الكروم المتصلة التي له بمطيلة..."²، وبالرغم من أن هذه الوثائق تخص اليهود في طليطلة النصرانية، فإن استقرارهم بهذه المناطق قد يكون منذ الفترة الإسلامية. كما استقرّوا في بعض أرياف جيان، من ذلك قريتي شوذر ومرتش، إذ يفهم ذلك من نداء الإستغاثة التي بعث بها أحدهم في منتصف القرن 07هـ/ 13م، لتخليص جيان وأعمالها من الخطر النصراني وتسلط اليهود. حيث يقول:

وشوذرُ ثمَّ مرتش لو تـراها ونار الكفر يضرّمها اليهوُدُ³

ويبدو أن بعض اليهود استقروا في حصن ألبونت التابع لغرناطة، فالبكري ذكر أن هذا الحصن ينتشر

إلى تعاطي اليهود في الأندلس العمل الزراعي، أثناء مقارنته يهود المغرب بيهود الأندلس، واستنتج أن اليهود في الأندلس أكثر تعاطيا لهذا النشاط، من يهود المغرب. انظر: مسعود كواقي، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، ط2، الجزائر، دار هومة، 2009، ص 129.

¹ أرسلان، المرجع السابق، ص 367.

² نفسه، ص 371.

³ حسين اليعقوبي، قصائد غير منشورة في الاستصراخ والإصراخ، "دراسات أندلسية"، العدد 05، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1990، ص 80.

به الحجر اليهودي¹، وهي إشارة تحمل دلالة على استقرار اليهود بالمنطقة واستخدام حجر معين لأغراضهم الطبية، فنسب إليهم، وفي بيانة القرية من قرطبة استقر عدد من اليهود، ويبدو ذلك من قول ابن سعيد أنها مدينة اليهود²، لكن أغلب الظن أنه حصن كبير في منطقة ريفية، ويتضح ذلك من وصف الإدريسي لها فهو يقول: "وبيانة حصن كبير في أعلى كدية تراب قد حفت بها أشجار الزيتون الكثيرة، ولها مزارع الحنطة والشعير"³، وهذا ما يعطي انطباعاً أن اليهود إن كان لهم استقرار في الريف الأندلسي، فإنه انحصر في الحصون، للأسباب المذكورة سابقاً.

ويبدو أنه كان لهم حضور في الريف الأندلسي، عن طريق النشاط التجاري، فقد حذر ابن عبدون من التعامل مع أصناف، وكان منهم اليهود في بعض السلع التي ينتجها الريف بالقول: "لا يشتري منه - أي اليهودي - بيض ولا دجاج ولا لبن ولا غير ذلك، ولكن يتبايعونه بينهم"⁴، ويفهم من هذا أن اليهودي قد يكون قاطناً بالريف ومنتجاً لها، أو أنه يقوم بجولات في الريف للحصول على هذه السلع للمتجارة بها، وتؤكد إحدى النوازل أن اليهود اشتغلوا بالمعاملة بالدين في القرى يستظهرون برسوم شرعية بديون على أناس وتواريخ الرسوم بعيدة التاريخ، قد تصل إلى ثلاثين سنة، وهو ما جرّ العديد من المشاكل بينهم⁵.

وفي الأخير يمكن القول أن اليهود كانوا أقل الإثنيات حضوراً في الريف الأندلسي، وأنه ربما ارتبطوا بالحصون، وعبرت ملكياتهم الزراعية على القيام بنشاط زراعي، كما أنهم لم يغفلوا عن النشاط التجاري.

وصفوة القول فإن الريف الأندلسي، عرف تواجد أجناس متعددة، وقد شكل فيه العنصر المسلم من عرب وبربر أغلبية في الفترة مجال الدراسة، أما أهل الذمة فقد شكلوا أقلية تمتعت بحقوقها الكاملة فامتلكوا الأراضي ومارسوا النشاط الفلاحي، وإن كان حضور النصارى أقوى بسبب نسبتهم المرتفعة في عموم البلاد.

¹ البكري، المصدر السابق، ص 897.

² ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص 105.

³ الإدريسي، المصدر السابق، ص 571.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 50.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج 5، ص ص 245، 246؛ عمر بنميرة، جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية، دراسات أندلسية "العدد 14"، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1995، ص 66.

ثانيا/ طبقات المجتمع الريفي:

يعتبر التفاضل والتفاوت سنة كونية في المجتمعات، وتختلف معاييرها حسب طبيعة هذه المجتمعات، ولما كانت الحياة الريفية قائمة على النشاط الزراعي أضحت ملكية الأراضي الفلاحية التي يقوم عليها هذا النشاط، محددا هاما انقسم بفضلها المجتمع الريفي إلى طبقة تملك، وأخرى ليس لها إلا جهدها للمشاركة في هذا النشاط.

1- طبقة الملاك:

عرفت الملكيات في الأندلس تفاوتاً في الحجم، وقد عبرت عنه بعض المصادر بمصطلحات متعددة مثل: الجنة أو الجنات أو الجنان، والضيعة والعروة والبحيرة، والروض أو الرياض، والقرية والبستان، والحقل والقاعة، والفناء والفدان، والدمنة والأرض البيضاء¹، وهي مصطلحات تحمل دلالات تمكن من التفريق بين حجم الملكيات إلى ملكيات كبيرة، وأخرى صغيرة.

أ- طبقة الملاك الكبار:

تمثلت هذه الطبقة في الأسرة الحاكمة وحاشيتها، وكبار الدولة من الوزراء والموظفين، والفقهاء والقضاة، كما امتلكت بعض البيوتات الكبرى وبعض الموسرين والأغنياء، الأراضي الواسعة، وبفضل ما درته هذه العقارات من ثروات هائلة، تبوأَت هذه الطبقة هرم المجتمع الأندلسي².

أما بالنسبة للطبقة الحاكمة، فقد كانت أكثر ثراء، ففي عصر ملوك الطوائف امتلك هؤلاء الملوك الأراضي الواسعة، فيذكر الأمير عبد الله بن بلقين أن بلقين حاكم غرناطة أعطى أخاه عبد الله وادي آش طعمة³، كما كان لصاحب مرسية أملاك واسعة، حتى صار نصف بلده ضيعة له، ومثله فعل مبارك ومظفر

¹ محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع- أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 06 إلى القرن 09هـ/ 12- 15م، د. ط، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999، ص 399.

² بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 120.

³ ابن بلقين، المصدر السابق، ص 55.

الفتيان العامريان، فقد امتلكوا قرى واسعة¹. أما صاحب المرية المعتصم بن صمادح فقد كان يمثل قمة الثراء والملكية².

وقد كان بنو عباد ملوك إشبيلية أكثر ملوك الطوائف امتلاكاً للأراضي الواسعة، فهم يملكون ثلث إشبيلية قبل أن يصير لهم الملك³، وازدادت أملاكهم اتساعاً بعهدده، بسبب انتصارهم في حروبهم ضد جيرانهم من ملوك الطوائف، وقد صرح ابن عذاري أن المعتضد بن عباد (433-461هـ/1041-1068م) "فرغ إلى حرب الأمراء الأصاغر بالغرب ... فأتيح له من الظفر عليهم ما حاز أملاكهم وضمها جملة إلى عمله"⁴، وبنفس الطريقة آلت أملاك علي بن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية، إلى ابن هود صاحب سرقسطة بعد استسلام ابن مجاهد سنة 468هـ/1075م⁵.

كما اعتمد هؤلاء الملوك أسلوب الغصب والتعدي على أملاك الغير، فقد ضغط بعض ملوك الطوائف على أصحاب القرى والضياع حتى تخلوا عن أراضيهم وقراهم، مثلما فعل مبارك ومظفر الفتيان العامريان، مع أصحاب ضياع وقرى بلنسية، فقد أكلوا النبات وارتدوا الجلود، ثم اضطروا في نهاية المطاف إلى الهجرة والتخلي عن أراضيهم، بسبب سياسة الفتيان⁶، وكذلك فعل بنو صمادح وبنو الأفضس وبنو رزين، وغيرهم من ملوك الطوائف مما أدى إلى توسع ملكياتهم⁷، وطالت حالات التعدي بعض البيوتات الكبرى في البلاد، مثلما حدث لأسرة ابن زهر في عهد بني عباد، فقد أخرج محمد بن مروان بن زهر

¹ ابن بسام، المصدر السابق، ج3، ص 19؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 162؛ صلاح خالص، إشبيلية في القرن الخامس الهجري - دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها 414-461هـ-، د.ط، بيروت، دار الثقافة، 1965، ص 42؛ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 18.

² مريم قاسم الطويل، مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح 442-484هـ/1051-1091م، ط1، الرباط- بيروت، مكتبة الوحدة العربية- دار الكتب العلمية، 1994، ص 81.

³ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص 37.

⁴ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 213.

⁵ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 222؛ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 147.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج3، ص 19؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 162.

⁷ ابن بسام، المصدر السابق، ج3، ص 20؛ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 18.

واستصفت أمواله التي وصفت بالاتساع وكثرة غلاتها¹، وهو نفس المصير الذي تعرض له سعيد بن سهل الشرفي، الذي نكبه ابن عباد واستصفى أمواله²، ويبدو أن هذه المصادرات كانت تهدف إلى الحد من نفوذهم خشية منافستهم على السلطة، ومن جهة ثانية توسيع رقعة نفوذهم المادي، فلم يسلم من هذه العملية حتى بعض الملاك الصغار.³

ولم تسلم أملاك بيت مال المسلمين من التعدي، فيذكر أحدهم: "فلم تزل أموال الأخماس بالأندلس معمورة لبيت مال المسلمين، مدة الأمراء فيها ثم في دولة الأئمة من بني أمية تعمر بأسمائهم أيضا، إلى أن ثار الرؤساء في كل جهة"⁴، حتى لم يبق منها إلا القليل التافه حسب تعبير ابن حزم⁵، ونقلت نوازل العصر من هذه الحالات سواء من الحكام أو حاشيتهم، فقد أشارت نازلة أن بني عباد باعوا أملاك بيت مال المسلمين⁶، والتي يبدو أنها كانت ذا شأن وهو ما تدل عليه ثورة قرطبة على المرابطين سنة 515هـ/ 1121م، بسبب محاولتهم استرجاع هذه الأملاك، واستصدار فتوى تبيح لهم ذلك⁷.

وفي عصر المرابطين آلت ملكيات هؤلاء الملوك إلى بيت مال المسلمين، فقد اعتبروا من ناوئهم

¹ عياض بن موسى بن عياض السبتي القاضي ت 544هـ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مالک، تح. محمد سعيد أعراب، ط2، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1983، ج8، ص29؛ الوئشريسي، المصدر السابق، ج5، ص55، 56.

² القاضي عياض، المصدر السابق، ص44.

³ نفسه، ص29؛ خالص، المرجع السابق، ص43؛ بولعراس، المرجع السابق، ص62.

⁴ محمد الغساني الأندلسي، رحلة الوزير في افتكاك الأسير 1690-1691م، تق. نوري الجراح، ط1، أبوظبي- بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002، ص141.

⁵ ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، ج3، ص176.

⁶ ابن الحاج، المصدر السابق، و 50، 51؛ الوئشريسي، المصدر السابق، ج9، ص613. وسيتم إيراد أمثلة عن تناول كبار الموظفين من الدولة على أملاك بيت المسلمين في الصفحات القادمة.

⁷ أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي ت 841هـ/ 1438م، فتاوى البرزلي المسماة جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تح. محمد الحبيب الهيلة، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002، ج3، ص52؛ الوئشريسي، المصدر السابق، ج9، ص613. صرح البرزلي نقلا عن ابن الحاج أن استصدار الفتوى هو السبب في قيام العامة على المرابطين في قرطبة، وما يؤكد صحة ذلك ما ذكره صاحب القرطاس من أن الأمير علي بن يوسف قد عزل ابن رشد من منصبه قاضيا للجماعة في هذه السنة، وهو أحد الفقهاء الذين أصدروا هذه الفتوى، ما يعني أنه قد تم التضحية به تسكينا لقلوب العامة، رغم ما أورده من تبريرات لهذا العزل، أما ما ذكره ابن الأثير عن سبب هذه الثورة في امساك أحد عبيد المرابطين بيد امرأة في يوم عيد الأضحى، قد يكون القطرة التي أفاضت الكأس. انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص187، 188؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص164.

وصد عن دعوتهم كافرا، وجب قتاله، كما اعتبروا ماله غنيمة وفيئا¹، ولكن هذه الأراضي قد تقلصت بسبب سياسة الإقطاع والهبات التي انتهجتها الدولة لصالح أمراء البيت اللمتوني، أو الداعمين لسلطانهم سواء كانوا من الجند أو العلماء أو غيرهم²، ويبدو أن هؤلاء الأمراء كانوا أول المستفيدين من هذه الإقطاعات، فقد عرف على الأمير يوسف بن تاشفين اتباعه هذه السياسة في بلاد المغرب، وهو ما يدعو إلى القول أنه يكون قد طبق هذه السياسة في بلاد الأندلس³.

وقد كان لكبار موظفي الدولة حظوة ومكانة خلال هذا العصر وقد عبر عن ذلك أحدهم بالقول: "من جمع بلاغة وخطا، لم يخش في دولة الأفاضل خطأ"⁴، وتعكس هذه الحظوة العقارات والمساحات الشاسعة التي امتلكوها، ففي مملكة غرناطة وقع ابن بلقين إلتراما لوزيره، وقاضيه أبي عبد الله بن الحسن الجذامي: "أن يجري من الترفع والإكرام له إلى أقصى غاية، وأن يحمل على الجراية في جميع أملاكه بالكور المذكورة، حاضرتها وباديتها الموروثة منها، والمكتسبة القديمة الاكتساب والحديثة، وما ابتاع الخليفة الحمودي العالي رحمه الله وغيره... كلفة على كل حال"⁵، وخاطب الوزير أبو عامر بن شهيد صاحب بلنسية، يذكره بوعده الوزير عباس بصرف ضيعة له بجهة تدمير حالت الفتن دونها، واضطراب الأحوال عن مطالعتها⁶.

ولم تسلم أملاك بيت مال المسلمين من تطاول بعض الوزراء، وهو ما تشير إليه نازلة ابن السقاء ت 455هـ/ 1063م، والذي كان وزيرا في دولة ابن جهور، حيث تذكر نازلة أن ابن السقاء قبل تولي المنصب لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئا، وعندما توفي خلف تركة واسعة، وتبين أنها من أموال المسلمين، فأفتى الفقهاء أن جميع ما تركة للمسلمين⁷. ويمكن أن لا تكون هذه الحالة الوحيدة التي عرفها

¹ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 132.

² محمود إسماعيل، سوسيولوجية الفكر الإسلامي - طور الإنهيار -، ط1، بيروت - القاهرة، الانتشار العربي - سينا للنشر، 2000، ج6، ص126، ص 129.

³ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 135.

⁴ نفسه، ص 140.

⁵ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 433.

⁶ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 24.

⁷ أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي الأندلسي، وثيقة في اغتصاب بن السقاء قيم دولة ابن جهور لأموال بيت مال المسلمين في قرطبة مستخرجة من مخطوطة الأحكام الكبرى، تح. محمد عبد الوهاب خلاف، "مجلة أوراق"، العدد 05 و 06، المعهد العربي الإسباني للثقافة، 1982 - 1983، ص ص 101، 102.

العصر، بسبب تفشي حالات الظلم والتعدي على الأملاك من قبل أصحاب الجاه والسلطان.

وأشارت نازلة إلى وجود بعض هذه الحالات في عصر المرابطين فقد انتزى سعيد بن أحمد زيفل بحصن شقورة أيام ولايته عليه " واستولى عليه وعلى جميع جهاته، أعواما كثيرة يجبي جميع فوائد ذلك البلد ويضرب الضرائب على الرعايا، ويضم إلى نفسه جميع ما كان في تلك الجهات لبيت مال المسلمين وإلى أن ظهر ذلك المال ونما وكسب منه بحيان وغيرها أصولا ورباعا وأموالا، ولا يعلمون له قبل قيامه في الحصن المذكور مالا ولا حالا يفي بما اكتسبه ولا بعضه"¹

أما الجند فقد كانوا يمثلون ساعد الدولة الذي تضرب به وبه تشتد، ولذلك حظوا باهتمام السلطة فيذكر ابن خلدون: " فيكون أرباب السيوف حينئذ أوسع جاها، وأسنى إقطاعا"² وهو ما يظهر جليا في سياسة الإقطاع الواسعة التي انتهجها سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين بالله الذي منح قبائل البربر إقطاعات واسعة، بحثا عن الدعم والسند، حتى استفحلت هذه الظاهرة خلال الربع الأول من القرن 11م / 1105م.³

وقد عرف على دولة المرابطين هذه السياسة، فقد ذكر صاحب الحلل ذلك بالقول: " ومن ظهرت نجدته وإعانتته وشجاعته، أكرموا بولاية موضع ينتفع به."⁴، وقد دلت نازلة وردت عند ابن الحاج على ذلك، فذكرت أن أحد رؤساء الجيش يملك رباعا وضياعا وأحولا ظاهرة وإماء⁵.

أما الفقهاء فقد كانت مكانتهم محفوظة في نفوس أهل الأندلس عامة، ويظهر في قول المقرئ: " وللفقه عندهم رونق ووجاهة... وسمعة الفقيه عندهم جليلة"⁶، واعتبرتهم السلطة الرسمية حلفاء لها لإضفاء

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص ص288، 289.

² ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص264؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 136

³ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 113؛ يوسف نكادي، الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، ط1، الرباط، مطبعة جسور، 2000، ص ص 156، 157.

⁴ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 82. ويفسر هذا الاهتمام لأن مداخيل الدولة قائمة على ما تدره الحروب من الأسلاب والغنائم، وهو ما يسمى باقتصاد المغازي. انظر: بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 136.

⁵ ابن الحاج، المصدر السابق، و 120.

⁶ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 221.

الشرعية على حكمها، ولتنفيذ مشاريعها وسياساتها، ولذلك نالوا حظهم من العقارات والأموال الواسعة¹ فقد عرف أبو مروان الطنبلي ت 457هـ / 1064م، بانسدال الستر عليه وسعة ريعه²، وكان أبو عبد الله محمد بن أصبغ بن المناصف قاضي قرطبة أيام علي بن يوسف بن تاشفين، يملك مساحات شاسعة من الأرض تحرث بشمانمائة زوج في كل عام³، وبلغت أملاك القاضي أبو عبد الله محمد بن الحسن الجذامي النباهي ت 463هـ / 1070م في مالقة وغيرها من الكثرة بحيث ناهزت أملاك بني عباد في إشبيلية، وربما زادت عنها⁴، ويعرف القاضي أبا بكر بن حازم ت 496هـ / 1103م، بأن له أموالاً عريضة في بياضة وهو الذي تولى قضاءها⁵، وفي وصف ابن خاقان لإحدى ضياع قاضي غرناطة أبو الحسن علي بن أضحى ت 540هـ / 1145م ما يدل على أنه حاز على عقارات وضياع كثيرة⁶، كما كان للقاضي عياض ت 544هـ / 1149م، أملاكاً في مالقة عندما تولى بها القضاء أيام المرابطين⁷.

ويبدو أن هذه الأملاك الواسعة التي حازها الفقهاء عرضتهم للنقد والسخرية واتهمتهم باستغلال مناصبهم لزيادة ثروتهم، عن طريق الإستيلاء والغصب، خاصة الأراضي التي هجرها أصحابها⁸، مما دفع بعضهم إلى التصريح بممتلكاته عند توليه المنصب، كما فعل محمد بن الحسن النباهي ت 463هـ /

¹ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 143. عبد الله بن بية، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، ط1، بيروت-الرياض، دار ابن حزم- دار الأندلس الخضراء، 2000، ص 33؛ محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 129. وقد عبر ابن حزم عن امتعاضه من صحة السلطان واعتبرها من أعظم البلايا على الإنسان لما فيها من ضياع دينه، إذا ما عجز عن معارضة السلطان في سياسته، ورده عن مظالمه. انظر: ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، ج4، ص 76.

² ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 537.

³ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 163.

⁴ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ط5، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1983، ص 92.

⁵ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص 72.

⁶ ابن خاقان، المصدر السابق، ص 513، ص 648، 649.

⁷ النباهي، المصدر السابق، ص 101؛ حسين مؤنس، شيوخ العصر في الأندلس، ط2، القاهرة، دار الرشاد، 1997، ص 101؛ عبد الباقي السيد عبد الهادي، الظاهرية والمالكية وأثرهما في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2014، ص 63.

⁸ المراكشي، المصدر السابق، ص 130، 131؛ أنور محمود زناتي، دور الفقهاء في الأندلس علمياً - سياسياً - اقتصادياً- اجتماعياً- ثقافياً (448 - 541هـ / 1056 - 1147م)، د. ط، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2016، ص 216-217.

1070م ، حينما تولى قضاء مالقة سنة 445هـ/ 1053م، حيث اشترط أن يكون له يومان في الأسبوع يتفقد فيها أملاكه، وينظر في مصالحه¹، وحاول بعضهم أن يبرر هذه الأملاك بأن رواتبهم كانت مرتفعة في الأندلس، حتى يتسنى للقاضي الاستغناء عن الناس وصيانة كرامته، وبفضلها استطاع الفقهاء اقتناء هذه الأملاك²، وعلى كل فإنه يستفاد من ذلك أن حالات الشبهة في تملك الأراضي قد كثرت خلال هذا العصر، ولم يسلم منها أحد، خاصة أن البلاد عرفت خلاله حالة من الفوضى في فترات الانتقال من عصر إلى آخر، فكثر حالات التعدي والاستيلاء.

ويبدو أن هذه الفترات مكنت بعض العائلات والأغنياء من زيادة أملاكهم بواسطة الاقتناء لزهة الناس في أملاكهم، وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بحالة الأسواق³، أو نتيجة تراكم رؤوس الأموال في أيدي بعض منهم بسبب نشاطهم التجاري، فدفعهم إلى استثمار جزء منها ابتياع العقارات والقيام وبالنشاط الفلاحي، أو أن هذه الثروة تكونت لهم بطول الزمن⁴، فقد كانت أسرة ابن حزم الظاهري من كبار ملاك الأراضي منذ العصر الأموي، وقد امتلكت قرية بكاملها هي قرية منت ليشم من أعمال بلبة، ثم آلت إلى ابن حزم بما فيها من أراضي ودور والتي رحل إليها في آخر أيامه، وبها توفي سنة 456هـ/ 1063م، ثم آلت هذه الأملاك إلى ابنه أبي رافع الفضل بن علي بن أحمد بن حزم، الذي أصبح وزيراً للمعتمد بن عباد وكان مقدماً على وزرائه، فحافظ بفضل هذه المكانة على ملك أبيه، وزاد في اتساعه⁵.

وعُرفت أسرة ابن زهر في إشبيلية في عصر بني عباد بأملاكهم الواسعة، فقد وصفت بالاتساع وكثرة غلاتها، وقد تعرضت كما تمت الإشارة سابقاً إلى النكبة من طرف بني عباد، وفي عهد آخر ملوكهم المعتمد بن عباد صرف لهذه الأسرة الشهيرة بعض الضياع المغصوبة⁶، وفي مالقة اشتهرت أسرة القاضي النباهي باتساع الأملاك، وقد وصفت بسعة الحال وكثرة المال والماشية والحرث⁷، كما عرفت أسرة بني مدرك

¹ النباهي، المصدر السابق، ص 90.

² زناقي، المرجع السابق، ص 254.

³ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 381.

⁴ نفسه؛ أحمد الطاهري، عامة قرطبة دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، ط2، الرباط، مطبعة الخليج العربي، 2018، ص 82.

⁵ ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص 329، 330؛ السيد عبد الهادي، المرجع السابق، ص 71.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص 220؛ المقرئ، نفح الطيب، ج3، ص 432.

⁷ النباهي، المصدر السابق، ص 114.

بسعة عقاراتها في ميورقة، إذ يذكر ابن الأبار في ترجمته للفقهاء إدريس بن مدرك ت 595هـ / 1198م أنه " كانت له ولسلفه أصالة، وما زالت أملاكهم بأيديهم من فتح ميورقة"¹، وكان لأسرة بني منظور في إشبيلية أملاك واسعة، قدرها ابن صاحب الصلاة بثمانمائة مرجع.²

وأشارت بعض المصادر إلى الأملاك الواسعة التي كانت لبعض الأغنياء والموسيرين من المجتمع الأندلسي ففي نص مهم لابن بسام يصف أملاك أحدهم، ويشير إلى مزاجته النشاط بين التجارة والفلاحة رغبة في تنمية أمواله وزيادتها، فيصف أحدهم بالقول: "أخذ بأوفر حظ في الفلاحة، وضرب بأعلى سهم وأفوز قدح في التجارة... فكم زوج من عوامل بقر مسومة بالاحتراث لسنام الأرضين، محمولة على عتاة الجبابرة، إلى عدتها من بساتين ودكاكين، ومنازل مغلّة"³

أما كتب النوازل فقد أظهرت انتشار ملكيات هذه الفئة واتساعها، فمن ذلك أن رجلا كان يملك قرية تلاصقها فدانين غلبت عليها الشعراء⁴، ورجل حبس على ابنه قرية كانت تحدها جبال وتتصل بها من كل ناحية أملاك أخرى للمحبس⁵، وساق أحد الأفراد لزوجته في كتاب صداقها نصف قرية من قراه⁶ وتصدق آخر على ابنه الكبير بأرض وحديقة أعناب ودور وجزء من سد أرحاء على نهر⁷، ويذكر ابن الحاج ملك المدعو محمد بن أحمد، فقد كان له ثلث الأراضي الواقعة بقرية منت أنيانة، وكانت تتشكل من حقول ومسارح وولائج على ضفتي وادي آش والوادي الكبير.⁸

ومنه يمكن القول أن طبقة الملاك الكبار في الريف الأندلسي، شملت أفراد الأسرة الحاكمة وأعوانها وبعض العلماء والقضاة، وقد حامت حولها الكثير من الشكوك والشبهات حول طريقة التملك، بينما يلاحظ أن البيوتات الشهيرة وبعض الأغنياء والموسيرين، كانوا أكثر شرعية في أملاكهم، بسبب اكتسابها عن

¹ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص 164.

² ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 374، 375.

³ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 591.

⁴ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 193، 194؛ ابن الحاج، المصدر السابق، و 215.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص 152.

⁶ ابن الحاج، المصدر السابق، و 4، 5.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 885.

⁸ ابن الحاج، المصدر السابق، و 52.

طريق الميراث أو الاقتناء، لكن هل يعني أن هؤلاء الملاك قد استقروا في الريف الأندلسي؟

لا شك أن الملاك الكبار من أفراد السلطة الحاكمة وحاشيتهم، وكبار موظفي الدولة وقادة الجند وغيرهم من القضاة وبعض الفقهاء، لم تكن تسمح لهم مسؤولياتهم بالإشراف المباشر على هذه الأملاك¹ فأوكلوا أمر تسييرها لوكيل يسمى وكيل الضياع، والذي كانت مهمته الإشراف على هذه الأملاك بداية من استغلالها، وانتهاء بجمع غلاتها، والإشراف على المزارعين وكل ما تحتويه هذه الأملاك من دواب ودور وغيرها²، فقد أشار ابن بسام في رسالة بعث بها أحد الوزراء للمعتمد بن عباد بالقول: "... وبينما أنت في ذلك يستأذن عليك وكيلك في ضياع الإنزال، فتأذن له في الدخول ثم تستفهمه متى أقبل، وإلى أي شيء عمل، وكم جمع وما زرع"³، ولا شك أن هذه الأملاك، جهزت بما يلزم من مزارعين وأدوات وآلات ودواب، وبذور جيدة بما يضمن لهم دخلا كبيرا⁴.

بينما كان بعضهم الآخر يتردد من حين لآخر لتفقد ضياعه، فقد كان للقاضي محمد بن الحسن النبھاني ت463هـ/ 1070م، يومان في الأسبوع يتفقد فيها أملاكه، وينظر في مصالحه⁵، وتؤكد ذلك نازلة وردت عند ابن سهل فقد طلب قاضي قرطبة شخصا في أمر، فأخبره ولده أن أباه غائب عن قرطبة لتفقد ضيعته⁶.

وإلى جانب الفائدة المادية لهذه الضياع بالنسبة لهؤلاء الملاك، كانت لها فائدة نفسية، فقد اتخذها هؤلاء مكانا للنزهة والترويح عن النفس، والابتعاد عن صخب المدينة، ويصف الفتح بن خاقان ضيعة للقاضي أبي الحسن بن أضحى: "حملنا إلى إحدى ضياعه، بقرب من حضرة غرناطة، فحللنا قرية على ضفة نهر أحسن ما شاذ مهر(متنزه في نيسابور)، تشقها جداول كالصلال، ولا ترمقها الشمس من تكائف

¹ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص189. سيتم الحديث عن المزارعين وأوضاعهم وعلاقتهم بالملاك، باعتبارهم فئة مختلفة ومتميزة في المجتمع الريفي الأندلسي.

² عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تح. حسين مؤنس، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1997، ص 527. انظر الملحق رقم 02 "وكالة تفويض تسيير ضيعة"

³ ابن بسام، المصدر السابق، ج3، ص 308.

⁴ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 151.

⁵ النبھاني، المصدر السابق، ص 90.

⁶ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج1، ص 471.

الظلال، ومعنا جملة من أعيانها، فأحضرنا من أنواع الطعام، وأرانا من فرط الإكرام والإنعام ما لا يطاق ويجد، ويقصر عن بعض العد¹. وكان القاضي أبو عبد الله محمد بن الحسن النباهي ت 463هـ/ 1070م، كثيرا ما يتردد على ضيعة له بإحدى قرى قرطبة مع مجموعة أصحابه بغرض النزهة²، وكذلك كان حال أمراء الموحدين، فقد اتخذ بني عبد المؤمن العديد من البساتين، بمدينة جبل طارق، جلبوا إليها الماء من سفح الجبل، وفي سنة 592هـ/ 1195م أمر المنصور أبو يوسف يعقوب الموحدي بإقامة بستان له بحصن الفرج، عند جبل الشرف بإشبيلية³، وكثيرا ما اقترنت هذه النزهة بالحديث عن المتعة، واحتساء الخمر ونظم الشعر والتغزل بالغلما، خاصة في عصر ملوك الطوائف⁴.

وخلاصة القول أن طبقة الملاك الكبار لم يكن اتصالها بالريف، إلا بغرض النزهة أو تحصيل ربح أملاكها بها، فكيف كان حال صغار الملاك والمتوسطين منهم؟

ب- طبقة صغار الملاك والمتوسطين:

شهدت بعض الدراسات بشيوع طبقة من الملاك الصغار والمتوسطين في بلاد الأندلس، منذ بداية القرن 04هـ/ 10م⁵، ودل على ذلك كتب النوازل الفقهية، التي احتفظت بالكثير من الصور المتعلقة بها مثل مسائل البيع والشراء، والميراث والهبة والصدقة، وما أفرزته من مشاكل، وما تعرضت له هذه الملكيات من حالات التعدي والغصب.

وعبرت البساتين والجنان وبعض الأفدنة على هذه الملكيات، وقد عبرت نازلة ببياسة حدثت قبل 444هـ/ 1052م عن شيوع هذه الملكيات، فتذكر أن لرجل كرم وسط كروم لأناس شتى متلاصقة⁶، وقد حازها أصحابها، بعدة أوجه، فمن ذلك البيع والشراء، وشهدت النوازل على شيوع هذا الأسلوب في

¹ ابن خاقان، قلائد العقيان، ص 513، ص ص 648، 649.

² النباهي، المصدر السابق، ص 93.

³ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 374؛ الحميري، المصدر السابق، ص 382؛ أبو مصطفى كمال السيد، تاريخ الأندلس الاقتصادي، د. ط، القاهرة، مركز الإسكندرية للكتاب، د. ت، ص 152؛ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 196.

⁴ ابن خاقان، قلائد العقيان، ج 1، ص ص 202، 203؛ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 149.

⁵ قرني، المرجع السابق، ص 329.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج 9، ص 33.

التملك، وسط هذه الطبقة¹، كما حيزت بعض هذه الأملاك عن طريقة الصدقة، فقد تصدق رجل على ابنه ببعض أرضه وأملاكه في إحدى القرى الأندلسية²، وفي قرية أخرى تصدق رجل على ابنه دارا مع جنان وحيوان ومال³، وفي قرية لقنيانة تصدقت امرأة على زوجها ببعض أرضها⁴، واشترط رجل على ابنه الذي تصدق عليه بأرض في قرية، أن تكون لأختيه جزء مما يخرج من تلك الأرض لسد نفقاتهما⁵.

وقد يشترك بعض أفراد هذه الطبقة في ملكية قطعة أرض، يتعاونون فيها رغبة منهم في تحقيق أفضل النتائج⁶، وتتم هذه الشراكة إما بالميراث أو الشراء، وفي كتب النوازل أمثلة عديدة عن هذه الأملاك، في معرض معالجتها للمشاكل التي تحدث بسبب تعدي أحد الشريكين على نصيب الآخر، فمن ذلك أن رجلا باع بستانا بينه وبين ابنتيه، ثم قامت إحدى البنيتين وزعمت أنها كانت في حجر أبيها حين عقد البيع، وأن البيع كان من نصيبه لا من نصيبهما⁷، وكان بين رجلين كرم، فلما حان طيب ثمرته، أراد أحدهما بيع نصيب، بينما أراد الآخر أكل نصيبه⁸، وباع رجل حصة له في كرم بثمان إلى أجل⁹، وفي نازلة عرضت على فقهاء قرطبة سنة 457هـ/1064م، أن شريكين باعا جنة لهما في ريف قرطبة لرجل، ثم قامت بينهما مشاكل، بسبب ظهور عيب قدس في هذه الجنة¹⁰، وفي حال افتراق الشريكين يقسم الملك بينهما وأدى ذلك في بعض الأحيان إلى مشاكل بينهما بسبب هذه القسمة¹¹.

ورغم أن النصوص التي تثبت تملك أفراد هذه الطبقة للأراضي بالطرق القانونية كثيرة، إلا أن ذلك لم

¹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 581؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج5، ص 204، ج7، ص 224، ج9، ص 69.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 834.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 159.

⁴ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 238، 239. ووردت نازلة أخرى تشبهها في موضع آخر مفادها، أن رجلا تصدق على ابنته بدار وحنان في قرية بالأندلس. انظر: نفسه، ج2، ص 684.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص 148.

⁶ الطاهري، المرجع السابق، ص 98.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص 113.

⁸ نفسه، ص 168.

⁹ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 165، 166.

¹⁰ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 428، 429.

¹¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 118، ص 123، 124.

يمنع من وجود حالات، استعمل فيها بعض الأشخاص طرقا مشبوهة للتملك، خاصة في الأيام التي تعرف فيها البلاد اضطرابا أمنيا وفوضى سياسية، فقد أشارت نازلة أن رجلا اضطرتة الفتنة، إلى مغادرة جنة له في بياسة، وبعد مرور سنوات عاد أحد أبنائه إلى جنة أبيه، فوجد أحدهم يعتمرها¹، وطرحت نازلة أخرى نزاعا حول فدان بين نصرايين ومسلم².

لكن يبدو أن الحالة المادية لهذه الطبقة لم تكن على أحسن حال، وقد أبرزت العديد من النوازل صعوبة حالهم، وعدم قدرتهم على القيام بشؤون أراضيهم، فقد اضطر بعضهم إلى بيع نصف أملاك من أجل إعمار الأرض وتحسينها³، وتعذر على بعضهم القيام ببعض الأعمال الخاصة بحماية جنتهم، بسبب حالتهم هذه، فمن ذلك أن رجلا عجز عن المساهمة في إعادة بناء جدار يفصل بين جنته وجنة جاره وامتنع الآخر عن بنائه بمفرده⁴، وهو ما يبرز ارتفاع تكاليف هذه الأعمال.

واضطر بعضهم إلى رهن جنتهم، مقابل ديون مستحقة عليهم، وهو ما منعهم من التصرف في هذه الجنان بالبيع⁵، ودفعهم بعضهم جنته لسداد الديون المترتبة عليهم⁶، واضطر آخرون إلى كراء جنتهم مقابل ثمن معلوم لمدة معلومة، أطلقت عليها النوازل مصطلح القبالة، ولم تجز هذا الوجه من التعامل⁷، ويفهم من نازلة أن أصحاب هذه الملكيات بسبب ضيق حالهم، عجزوا عن استئجار من يقوم بالأعمال معهم فكانوا يقومون بجميع الأعمال بمفردهم بمساعدة أفراد الأسرة والأقارب، كما لم تسمح لهم حالتهم بزيادة أملاكهم⁸، وما يؤكد ذلك ما أورده ابن عذاري وغيره، عن فلاح يعمل بيده رفقة أبنائه في جنة ويتناولون السقي بأقدامهم بسبب عجزه عن شراء دابة⁹.

¹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 522.

² ابن سهل، وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة، ص ص 56، 57.

³ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص ص 350، 351.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 67.

⁵ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص ص 542، 543.

⁶ نفسه، 581.

⁷ الشعبي، المصدر السابق، ص 314.

⁸ نفسه، ص 166.

⁹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص ص 291، 292. ووردت عند المقرئ بعبارة يتناولون السقي بأقدامهم انظر: المقرئ، نفع

الطيب، ج1، ص ص 412، 413.

وفي كتب التراجم أمثلة لفقهاء وغيرهم عجزوا عن استئجار عمال لمساعدتهم في الأعمال الزراعية بل عجز بعضهم عن اقتناء الدواب، مما جعلهم يضاعفون الجهد لتعويض هذه الوسيلة، فكانوا يحتطبون على ظهورهم، ويتناولون السبق بأقدامهم¹، من ذلك الفقيه أبا عمر معوذ بن داود بن معوذ بن دلهاب الأسدي ت 431هـ / 1039م، الذي كانت له ضيعة في جبال رية، ويصرف فضل ضيعته على من ينتاب إليه من أهل السبيل وطلبة العلم²، أما الفقيه أبو مروان عبيد الله بن محمد بن مالك ت 460هـ / 1067م كانت له جنة صغيرة يتعيش منها، ويقوم بخدمتها بنفسه³.

وعليه يمكن القول أن طبقة الملاك الصغار والمتوسطين، تميزوا بوضع اجتماعي غير مريح، فلم يكن يسمح لهم ريع أراضيهم من تحسين هذا الوضع، بل اضطروا في بعض الأحيان إلى الاستدانة، كما أنهم عجزوا عن عمارة هذه الأرض.

وقد ازدادت معاناة هذه الطبقة في الأوقات الصعبة التي كثرت فيها حالات التعدي والغصب على الأملاك، وهذا ما جعل أحد الباحثين في النشاط الزراعي للأندلس يحكم على ظاهري الغصب والاستحواذ بالشيوع في أندلس القرن 05هـ / 11م⁴، بسبب كثرة الأمثلة الواردة في نوازل العصر، ومن أمثلة ذلك أن امرأة تصدقت على ابنها بأملاك بجهة من الجهات، لكن الأملاك بيد غيرها يعتمرها، ولا تستطيع المرأة منعه عنها ولا أن تخرجها من يده، ولا هو يقدم لها كراء نظير الاستفادة منها⁵، ويبدو أن جاهه ونفوذه عند ذوي السلطان منعها من المطالبة بالحقوق، وهو ما تؤكد نازلة عند ابن الحاج من أن رجلا عاوض فदानا بكرم كان بجوزته، وكان للرجل أخت لها نصيب في الفدان، فلما علمت بذلك أرادت أن تطالب مقدم القرية بحقوقها، فلم تجرؤ عليه حتى زال من خطته⁶.

¹ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 212.

² القاضي عياض، المصدر السابق، ج 8، ص ص 42، 43.

³ وكذلك كان الفقيه أبو عمر أحمد بن يحيى بن سميح ت 450هـ / 1058م، كانت له غلة يتعيش منها يعمرها بالعمل. انظر: ابن بشكوال، المصدر السابق، ج 2، ص ص 457، 458، ج 1، ص ص 102، 103.

⁴ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 166.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص ص 293، 294؛ الوئشريسي، المصدر السابق، ج 9، ص 198.

⁶ ابن الحاج، المصدر السابق، و 113، 114.

واستغل رجل ضيعة ظلما وعدوانا، وقيمة غلة الضيعة مائة وخمسون مثقالا¹، وفي نازلة وردت القاضي عياض من مدينة شذونة، أن أحد ولاية تلك الجهة سطا على مجشر في موضع تابع للمدينة يقال له ابن عطية، ورثاه من أبيهما، واستعمل أحد فرسانه، حتى تضايق أصحاب المجشر واضطروا إلى الفرار منه². وأمام استفحال هذه الظاهرة في الفترة مجال الدراسة³، كان على أصحاب هذه الأملاك إما الفرار من أملاكهم، أو البحث عن حماية تدود عنهم، وجاه ينسحب عليهم من ذي قرابة للملك، أو خالصة له أو عصبية يتحماها السلطان، ويرتفع في أمنها من طوارق التعدي⁴، أو يقومون فيما عرف في كتب النوازل "بالإنزال"، فينزل أحدا مكانه في ملكه، فيعتمر المنزل الأرض على كراء⁵، وحتى هذه الأخيرة لم يسلم أصحاب الأملاك من التعدي فقد امتنع كثير منهم عن دفع الكراء خاصة إن كان من أصحاب النفوذ⁶. أما موقف الفقهاء أمام تفشي هذه الظاهرة، فقد حاولوا صيانة هذه الأملاك، بتحريم تداول الأرض المغصوبة، ومنع المجتمع من الاستفادة من تلك الأرض بأي شكل من الأشكال، وإلزام الغاصب بالكراء طول مدة الغصب، سواء زرعها الغاصب أم لم يفعل⁷.

وهكذا يمكن القول أن طبقة الملاك تختلف وضعيتهم الاجتماعية، باختلاف أملاكهم الزراعية، فبينما حققت الملكيات الواسعة لأصحابها الرفاه الاجتماعي، عجزت الملكيات الصغيرة عن تحقيق ذلك، وزادها الأمر سوءا تعرضها للظلم والتعدي خاصة في الأيام العصيبة.

2- الطبقة العاملة (غير المالكة):

شملت هذه الطبقة مجموع سكان الريف، الذين ليست لهم أملاك ولا يملكون سوى جهدهم

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 333، 334؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 540.

² القاضي عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، تق وتتح و تع. محمد بن شريفة، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 170.

³ تم إصدار هذا الحكم بالاستناد إلى ما أورده كتب النوازل الفقهية، من كثرة المسائل المتعلقة بالغصب وبيع المضغوط وبيع الغبن، يمكن الرجوع إلى هذا النوع من المصادر لمزيد من البيان.

⁴ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 382؛ دندش، المرجع السابق، ص 296، 297.

⁵ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 149.

⁶ نفسه.

⁷ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 619؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 550، ص 553؛ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 125.

للاشتغال في مختلف الأنشطة الزراعية، ففيهم المزارعون والفلاحون، والرعاة والعمال الأجراء، وعناصر من عبيد الخدمة، وتأتي هذه الطبقة في أسفل الهرم الاجتماعي للمجتمع الأندلسي عامة.

أ- المزارعون والفلاحون:

اشتغلت فئة الزراع بفلح الأرض وسقي الأشجار والبساتين، أو خدمة ضياع الأمراء والخواص وأصحاب الأملاك الكبرى¹، فقد كان هؤلاء المزارعون والفلاحون ذوو خبرات ميدانية أهلتهم لهذه الأعمال وقد أشارت نوازل العصر إلى معرفة المزارعين بكيفية استغلال الأرض استغلالاً أمثلاً حتى تعطي منتوجاً جيداً²، وبلغت خبرتهم أن ميزوا بين جودة الأرض هل هي ناتجة عن استعمال الزبل أو أن أصل الأرض جيدة³، ولذلك كان هؤلاء المزارعين أهمية كبيرة في العمل الزراعي، فكان لزاماً على أصحاب الأملاك الاستفادة منهم.

وكان هؤلاء المزارعون يتفوقون مع أصحاب الملكيات الكبيرة أو وكلائهم، أو مع أصحاب الملكيات الصغيرة والمتوسطة الذين عجزوا عن عمارة أراضيهم، على خدمة هذه الأراضي وفق نظام معين، فقد يكون مزارعة، ويتحدد نصيب المزارع فيها حسبما يقدمه المزارع في خدمة الأرض، فقد يقدم جهده فقط، على أن يأخذ خمس المحصول أو ربه⁴، وقد يحصل على ثلث المحصول إذا قدم المالك أو وكيله الأرض فقط⁵، وقد يرتفع نصيبه إلى النصف إذا قدم المالك الأرض، والمزارع العمل، بينما يشتركان في الزريعة⁶.

واختص بعض المزارعين بالمغارسة، فقد أشارت نازلة في كورة باغة سنة 518هـ/1124م، أن رجلاً مغارساً يغرس الأرض بجزء معلوم، ويقوم عليه العام والعامين، وقد تطول مدة الغرسة إلى عشر سنوات⁷ ويتم الاتفاق على نصيب المغارس ومدة الغرسة، ففي نوازل ابن الحاج أن مغارساً اتفق مع صاحب أرض

¹ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 178، 179.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1186، 1187.

³ عيسى أبو الأصبغ بن عبد الله الأسدي ابن سهل ت486هـ/1093م، ديوان الأحكام الكبرى، ج2، ص 1039.

⁴ الشعبي، المصدر السابق، ص 310، 311؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1011.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص 321.

⁶ نفسه، ص 322.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1360؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص 202؛ الشعبي، المصدر السابق، ص 327.

على غرس كرم مقابل أن يكون الغرس مناصفة بينهما¹.

وتيسر لبعض المزارعين تأجير الأرض من المتقبلين، الذين يكرونها من أصحابها لعام واحد أو لعدة أعوام، والتي يبدو أن قيمة التأجير كانت مرتفعة، لوجود هذه الوساطة التي تسعى إلى تحقيق ربح من الفرق بين قيمة الكراء وقيمة التأجير²، فقد أشارت نازلة أن: "رجلا أكرى جناحه لرجل آخر بثلاثين ديناراً، وفي الجنان شجر تين وعنب، وأرض بيضاء، والشجر أكثر من غلة البياض"³، وما يدل على ارتفاع قيمة الكراء أن أحدهم راسل الكاتب والفقير ابن أبي الخصال ت540هـ/ 1145م، يلتمس منه التوسط له عند شخص مرموق ليسقط عنه قيمة كراء أرض اكتراها، عجز عن تسديد المستحقات بسبب ضعف المحصول الزراعي⁴. وكان الكراء يسقط بوفاة صاحب الأرض، أو إذا تعرضت الأرض المكترة إلى جائحة من الجوائح⁵.

ويبدو أن المزارعين تعرضوا إلى أنواع من الظلم من قبل صاحب الأرض، فمن ذلك أن بعض عقود الكراء تضمنت شروطاً يحددها صاحب الأرض بما يضمن مصلحته، وهو ما جعل المزارع تحت رحمته⁶، ولم يكن حال المزارع والمغارس بأحسن حالاً، فقد أشارت نوازل العصر إلى تعرض هذه الفئة إلى ظلم أصحاب الأرض، كامتناع صاحب الأرض من دفع النصيب المتفق عليه للمزارع⁷، كما كانت هذه الفئة تحت رحمة المتقبلين، الذين كلفتهم السلطة بجمع الضرائب من المزارعين، فاشتطوا في تحصيلها حتى سماهم ابن عبدون بأثم شر جباة المال جميعاً، ملعونين من الله ومن الناس أجمعين⁸، وما زاد الطين بلة أن بعض المزارعين لم

¹ ابن الحاج، المصدر السابق، ورقة 281.

² بوشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص 79.

³ الشعبي، المصدر السابق، ص 317.

⁴ أبو عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، رسائل ابن أبي الخصال، تح. محمد رضوان الداية، ط1، دمشق، دار الفكر، 1988، ص ص 76، 77.

⁵ ابن الحاج، المصدر السابق، ورقة 283؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1284؛ البرزلي، المصدر السابق، ج5، ص ص 366، 367.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص ص 1413، 1414.

⁷ عياض وولده محمد، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص 192؛ الشعبي، المصدر السابق، ص 312؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 125.

⁸ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 30.

تكن لهم وسائل لدرس المحصول، فاضطرهم الأمر لدفعها إلى من لديه ذلك، وهو ما أدى إلى هضم حقوقهم¹.

ولا شك أن هؤلاء المزارعين، رغم ما يبذلونه من جهد، فإن مقابله من العطاء كان قليلا، مما جعلهم يعيشون في وضعية اجتماعية صعبة، ويزداد الأمر سوءا في أيام الجوائح والفتن، وقد عبر ابن عذاري عن هذه الحالة بالقول: "حتى لغدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر، ويأكلون البقل والحشيش"²، واضطر بعضهم إلى النزوح إلى المدينة بحثا حياة أفضل، وهربوا من الجوع، بعد أن ضاقت عليهم ظروف العيش في الريف³.

ومنه يمكن القول أن فئة المزارعين، كانت أكثر ارتباطا بالأرض مما يدل على أنهم أكثر استقرارا في الريف الأندلسي، ورغم ما كانوا يقدمونه من جهد وعمل دؤوب، إلا أن ذلك لم يمكنهم من تحسين مستواهم الاجتماعي الذي ظل صعبا بسبب الظلم الذي تعرضوا له في بعض الأحيان من أطراف عديدة.

ب- الرعاية:

شكل الرعاية فئة هامة في المجتمع الريفي للأندلس، نظرا لأهمية نشاط تربية الحيوانات في حياة هذا المجتمع⁴، ولا يقصد بهم هنا الرعاة الذين يرعون أغنامهم بأنفسهم، بل أولئك الذين يمتنون هذه الحرفة ويضعون أنفسهم تحت تصرف غيرهم، خاصة عند أصحاب الملكيات الكبيرة⁵، كما يمكن أن يشترك بعضهم في استئجار راعيا واحدا يرعى أغنامهم، وهو ما يعرف بالراعي المشترك⁶.

وكان هؤلاء الرعاة يستأجرون لمدة تصل إلى العام، يلتزم فيها صاحب الماشية، بدفع أجرة الراعي خلال ذلك العام، أو يعوض الراعي قدر ما رعى إذ انفسخت الإجارة بينهما⁷. وكان الراعي يقضي نهاره

¹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 562.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 162؛ ابن بسام، المصدر السابق، ج3، ص 19.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 162؛ ابن بسام، المصدر السابق، ج3، ص 19؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 178.

⁴ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص 7، ص 25.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1304، 1305.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 263؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 180.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 263.

في المسارح والمراعي، فيخرج بالأغنام عند طلوع الشمس ويدخلها عند الغروب، ويأوي بها إلى داره أو دار رب الغنم، أو لا يأوي بها إلى أي مكان وتكون في الفحص¹.

ومقابل ذلك العمل، يتحصل الراعي على أجرة، اختلفت حسبما اتفق عليه مع صاحب الماشية فبعضهم اشترط مقابلا نقديا، وصل حتى عشرة دنانير في السنة²، وأخذ بعضهم أجرته جزءا مما تنتجه هذه الماشية من الزبد والسمن³، والتزم بعض أصحاب الماشية بتسديد نفقة الراعي وكسوته، بينما لم تكن تتعدى أجرة بعضهم على الرغيفين، في حين بلغت درجة استغلال بعضهم للرعاة، أن استعملوهم في أعمال زراعية أخرى، مثل تزييل الأرض في فصل الربيع، دون زيادة في أجرتهم السنوية، وهو ما يعد إجحافا في حقهم⁴.

وكان على الرعاة أن لا يتقاعسوا في أداء مهمتهم لما ينتج عن تفريطهم من مشاكل وأضرار تلحق بالراعي وصاحب الماشية وتتعداه إلى الغير، وقد أشارت كتب النوازل إلى مجموعة من هذه المشاكل، منها ضياع الماشية، فيظن أصحاب الماشية أن الراعي قد تصرف فيها، إما بالبيع أو الأكل أو غيرها⁵، وقد يختلف صاحب الماشية مع الراعي عند انتهاء مدة الإجارة على عدد رؤوس الأغنام، فقد ذكر ابن رشد أن رجلا استأجر راعيا فادعى صاحب الماشية أنه استأجره على رعي مائتي رأس، بينما زعم الراعي أنها لم تكن سوى مائة وخمسين رأسا، وأن الخمسون الأخرى كانت ملكا له قبل الإجارة⁶، ومن المشاكل المترتبة على إهمال الراعي دخول أصحاب الماشية مع أصحاب المزارع في نزاعات، بسبب إفساد الماشية لهذه الزروع ونتيجة لهذا ضمن الفقهاء الرعاة ما أفسدت الغنم⁷.

يضاف إلى ذلك فإن حرفة هؤلاء الرعاة كانت مهددة، خاصة في أيام الاضطرابات والفتن بسبب نفوق الماشية، فغنائم النصارى في الهجمات على ديار المسلمين، غالبا ما كانت من الماشية التي تنجع في المراعي الخالية من كل تحصين، وهو ما يفهم من قول صاحب الحلل عن حملة ألفونسو المحارب: "رغم أنه

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص ص 1304، 1305.

² الوئشريس، المصدر السابق، ج8، ص 263.

³ نفسه، ص 261؛ دندش، المرجع السابق، ص 307؛ فتحة، المرجع السابق، ص 278.

⁴ بوتشيشن مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 180.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص 288.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1304.

⁷ الشعبي، المصدر السابق، ص 307.

لم يفتح مكانا مسورا صغيرا ولا كبيرا، إلا أنه أخلى ديار بادية الأندلس¹، يضاف إلى ذلك انتشار السرقة في أرياف الأندلس² وهو ما هدد قطاعان الماشية، وزاد في متاعب هذه الفئة.

وعليه يمكن القول أن الرعاة، لم تكن حالتهم الاجتماعية أحسن حالا، فبالإضافة إلى أجرتهم المنخفضة، تعرضوا في بعض الأحيان للاستغلال من طرف أصحاب الماشية، وهو ما يفسر ربما تعديهم على هذه الأملاك لمحاولة تحسين هذا الوضع.

ج- العمال الأجراء:

انتشرت هذه الشريحة في المجتمع الريفي الأندلسي، بسبب حاجة الأعمال الزراعية لهم، فقد فرضت بعض الأعمال استعمال هؤلاء العمال خاصة أثناء المواسم الفلاحية، وتكونت في الغالب من الفقراء الذين ليست لهم أملاك، ولم تكن لهم قدرة على التعاقد على مزارعة أو مغارسة، فأوكلت لهم أعمال مكملية لكنها أساسية، فمن ذلك الحرث والبذر والتنظيف والتزليل والقطف والحصاد والحراسة، واشتغل بعضهم في قطع الأخشاب من الغابات³.

وقد عكست عقود الإجارة، التي طرحتها النوازل في الريف الأندلسي، أن أجور هؤلاء العمال في الغالب كانت على نسبة من المحصول، وقد اختلفت حسب طبيعة العمل المتفق عليه ومدته، فبعضهم اتفق مع صاحب العمل على ربع المحصول أو خمسة⁴، وزادت نسبة بعضهم إلى النصف فعند الشعبي، أن رجلا استأجر أجيورا على أن يعمل في كرم له على النصف أو جزء منه على ما يخرج من الكرم⁵، وقد تكون الإجارة على أجرة معينة في السنة، كما يمكن أن يتعهد المستأجر بعيالة أجيوره في مؤونته وعائلته، وربما

¹ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 97.

² المقرئ، نفح الطيب، ج4، ص 128؛ خميسي بولعراس، الحياة الاجتماعية والثقافية في عصر ملوك الطوائف 400-479هـ/ 1009-1086م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف مسعود مزهودي، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2006-2007، ص 66.

³ الشعبي، المصدر السابق، ص 183، ص 295، ص 327؛ البرزلي، المصدر السابق، ج3، ص 565، المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 401.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 163.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص 327.

يتصدق عليه في بعض المواسم¹.

وقد يعجز الرجل على استئجار أجير بمفرده، بسبب ارتفاع الأجرة، أو بسبب عدم وفرة هؤلاء العمال، فيضطر أهل القرية أو مجموعة منهم على الاشتراك فيه وهو ما يمكن أن يطلق عليه بالأجير المشترك، ويظهر هذا النوع من الأجراء في الأعمال التي يستطيع أن يقوم بها هذا الأجير لجميع أصحاب العمل، مثل حراسة الزروع والبساتين². وتفسر ندرة اليد العاملة بالطابع الموسمي للإنتاج الفلاحي في الأندلس، إذ يزداد الطلب عليهم في مواسم الحرث والزرع والحصاد والدرس، كما يمكن أن يسهم أصحاب الأملاك الكبرى في هذه الندرة، لحاجة هذه الأملاك لأعداد كبيرة منهم³.

وطرحت بعض النوازل اهتمام حقوق بعض الأجراء، فمن ذلك أن رجلا اتخذ أجيرا للحرث في مزرعة، وكان لصاحب القليب وشرط على الأجير أن يرد عليه القليب في إبانته، وشرط عليه نصف العمل في الحصاد والدرس، وليس للأجير من الزرع إلا السدس، فأفتى الفقهاء أن هذا غرر⁴، وقد تكون الإجارة مجهولة، كلقط الزيتون على ما تبقى منه في الشجر بعد نفضه، أو نفض وتحريك الزيتون ثم لقطه، أو الحصاد مقابل الحب الملقوط، وقد اعتبرها الفقهاء إجارة فاسدة، إلا أن يحدد للأجير نصيبه، مثل المد والمدان وغيرها من القفيز، وأن يكون ما يجمع من الزيتون الساقط، مما يمكن تخمين كميته⁵.

ويبدو من هذه النوازل أن الحرمة جاءت لجهالة الأجرة، فرمما لا تتوافق أجرة العامل مع الجهد الذي يبذله، وهذا ما جعل أحدهم يذكر أنهم: "يقضون سحائب نهارهم بالعمل... وهم لا يجدون إلا الفراغ القليل، والمال القليل"⁶، خاصة أن بعض هذه الأعمال تحتاج إلى جهد كبير، كما أن وقت العمل للأجير

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص 36.

² الشعبي، المصدر السابق، ص 295؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 200؛ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 188؛ زناتي، المرجع السابق، ص 234.

³ فتحة، المرجع السابق، ص 278؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 178.

⁴ الشعبي، المصدر السابق، ص 309.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 223، ص 265؛ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي ت 790هـ / 1388م، فتاوى الإمام الشاطبي، تح. محمد أبو الأحفان، ط2، تونس، مطبعة الكواكب، 1985، ص 151؛ فتحة، المرجع السابق، ص 278.

⁶ عدنان صالح عبد الله العمودي، التعليم في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف السعيد محمود السعيد عثمان، جامعة أم القرى، 1430-1431هـ، ص 41.

يبدأ من شروق الشمس إلى ما بين صلاتي العصر والمغرب¹، ولهذا أوصى بعضهم على أن يختار لهذه الأعمال من الشباب الأقوياء لأنهم أقوى على الأعمال وأنشط وأبعد عن الكسل²، ورغم ذلك فقد عرف على بعضهم استعمال بعض الحيل لتضييع الوقت وإطالة مدة العمل، كحد مناشير قطع الأخشاب في وقت العمل، أو كثرة الحديث بسبب اشتغالهم في مكان واحد، وغيرها من الحيل فيعمل عمل اليومين في ثلاثة أيام³، أو يقوم العمال وقت الهجرة وشدة الحر بالجلوس في ظل الشجر وتعطيل عملية درس الدرس، في غياب صاحب العمل⁴.

وربما يفسر ذلك بما سبقه من حديث عن اهتمام حقوقهم، فكانت هذه الحيل وسيلة التجأ إليها هؤلاء، للتقليل من وقت العمل مع ما يتناسب من أجره، وقد برر أحدهم ذلك بوعي هذه الفئة بالاستغلال الطبقي الذي تتعرض له فلجأت إلى تلك الحيل⁵، وما يؤكد هذا ما ذكره ابن عبدون من قيام بعض العمال الأجراء بسرقة بعض المحصول أو الفواكه طول أيام عمله⁶، وهذا لا يعني البتة تعميم هذا الحكم أو القطع به، لكنها في الوقت ذاته تحمل هذا التأويل، خاصة أن من حكم على هؤلاء العمال بالحيل والمكر والظلم، لم يكونوا سوى أصحاب خطط، وهو ما يكون ربما تبريراً لمختلف ممارسات الاستغلال التي تعرض لها هؤلاء من طرف الملاكين الكبار الذين كان أكثرهم كما سبق ذكره من أفراد السلطة الحاكمة، وكبار الموظفين وأصحاب الخطط⁷.

وفي الأخير يمكن القول أن الطبقة غير المالكة، كانت أداة مهمة استعملتها الطبقة المالكة لاستثمار أملاكها في المجال الفلاحي، ورغم ما تبذله من جهد إلا أنها كثيراً ما تعرضت لمختلف أنواع الاستغلال حتى عجزت عن تحسين مستواها المعيشي.

¹ أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي، كتاب في آداب الحسبة، نش. ليفي برونسفال وج. س. كولان، باريس، إرنست لورو، 1931، ص 65.

² ابن العوام، المصدر السابق، ج3، ص 249.

³ السقطي، المصدر السابق، ص 65؛ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 56؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 179.

⁴ أبو الخير الأندلسي، كتاب في الفلاحة، ط1، الرباط، المطبعة الجديدة، 1357هـ، ص 98.

⁵ الطاهري، المرجع السابق، ص 102.

⁶ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 56.

⁷ الطاهري، المرجع السابق، ص 35.

د- فئة العبيد:

لم ينضب معين فئة العبيد في البلاد الأندلسية، بسبب خصوصية البلاد الثغرية، فقد عرف النشاط الجهادي للمسلمين على بلاد النصارى تواصلاً واستمراراً، ولئن عرف فتورا في عصر ملوك الطوائف، فإنه عاد بقوة خلال عصري المرابطين والموحدين، وقد كانت الحروب مرتعا للتزود بالسبي، ويكفي للدلالة على ذلك أن معركة الزلاقة 479هـ / 1086م كان فيها السبي الكثير كما يصف صاحب الحلل¹، وحسب أحد الباحثين: "أن كل طرف أعد لها ما استطاع من قوة، لذلك لا نعجب من وصول عدد الأسرى الذين سقطوا في يد المغاربة والأندلسيين إلى عشرين ألفاً"²، وبلغ من كثرة السبي في معركة إقليش 501هـ / 1108م ووفرتة، أن المرابطين تبادلوا الهدايا من السبايا³، بينما ذكر ابن أبي زرع أن حملة المنصور الموحي سنة 585هـ / 1189م إلى غرب الأندلس أسفرت عن ثلاثة عشر ألف سبية من النساء والذرية⁴.

ومما لا شك فيه أن هذه الوفرة أدت إلى انتشارهم في أوساط المجتمع خلال الفترة مجال الدراسة خاصة عند أصحاب الأموال و أفراد الطبقة الخاصة عامة، لحاجتهم إليهم في مختلف أغراضهم، مما يحقق لهم الرفاه والمتعة، ولئن صممت المصادر عن ذكر حضور هذه الفئة في المجتمع الأندلسي بصفة عامة، فإن الصمت يزداد في تناول المجتمع الريفي وهو ما يؤكد على صعوبة الأمر كما يقر بذلك بنمليح⁵.

لكن من خلال بعض الإشارات على قتلها، يمكن الكشف عن بعض مظاهر حضور العبيد في المجتمع الريفي، مثل اشتغالهم بالأعمال الزراعية، فمن ذلك مثلهم القائل: "أطلق الفاس خذ المصحاً"⁶ ولئن كان هذا المثل يحمل دلالة على كثرة استغلال العبيد في مختلف الأشغال، فإن ذكر الأدوات الفلاحية يدل على اشتغالهم في هذه الأنشطة، كما أن هذه الأعمال تتطلب كما ورد سابقاً جهداً كبيراً، وهو ما

¹ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 65.

² عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، ط1، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 2004، ص 154.

³ مؤنس، الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، ص 37.

⁴ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 218.

⁵ بنمليح، المرجع السابق، ص 344.

⁶ الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص 99.

يتوفر في بعض أنواع الرقيق، بسبب صبرهم وقوة تحملهم¹، وقد ورد في وثائق المرابطين والموحدين ما يدل على استئجار العبيد، لخدمة الدواب والاعتناء بهم إلى جانب القيام بأعمال الحرث²، ولا شك أن أصحاب الملكيات الكبيرة كانوا أكثر طبقات المجتمع امتلاكاً لهؤلاء العبيد، فاستفادوا منهم في الأعمال الزراعية خاصة في المواسم الزراعية التي تحتاج مزيداً من اليد العاملة، وهو ما يعني تقليص النفقات المتعلقة بأجرة هؤلاء العمال³.

أما عن أجناسهم فيبدو أن العبد الأسود كان مفضلاً عند أهل الأندلس، وهو ما تظهره أمثالهم من ذلك قولهم: "طل ما تجد أسود لا تسخر أبيض"⁴، ويرجع سبب ذلك إلى قوة تحمل هذا النوع لأنواع الأشغال وصبرهم، وهو ما يدعو إلى القول بوجودهم في المجتمع الريفي، خاصة أن الأشغال الزراعية تحتاج إلى قوة وصبر وجلد.

إضافة إلى ذلك فإن الأندلس عرفت عنصر الصقلية، الذين يقول عنهم البكري أنهم: "ذوو صولة وجولة... وسكنوا من البلدان أجزلها ريعاً وأكثرها أقواتاً، وهم يجتهدون في الفلاحة وطلب الأرزاق"⁵، وربما يكون قد تم الاستفادة من خبرتهم الفلاحية، فشكّل عدد منهم حضوراً في المجتمع الريفي. وما يؤيد ذلك ما ذكره ابن بسام، من استعمال أحدهم مائتي نسمة من رقيق الصقلية لتعمير ضياعه الشاسعة⁶، كما يمكن أن يكون عنصر الروم موجوداً لكثرة السبي في مواجهات المرابطين والموحدين مع النصارى، وقد أشار بعض الباحثين إلى اشتغال الأسرى من النورمان في الزراعة⁷، وهو ما يدعو إلى القول بوجودهم في أرياف الأندلس.

أما عن وضعية العبيد الاجتماعية، فإنهم لم يكونوا أحسن حالاً بل إنهم ربما عاشوا ظروفًا أسوأ من

¹ الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص 246، ص 461؛ سامية مصطفى سعد، صور من المجتمع الأندلسي رؤية من خلال أشعار الأندلسيين وأمثالهم الشعبية، ط1، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998، ص 107.

² المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 495.

³ بنمليح، المرجع السابق، ص 348.

⁴ الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص 246، ص 461؛ مصطفى سعد، المرجع السابق، ص 107.

⁵ البكري، المصدر السابق، ج1، ص 336.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 198.

⁷ محمد عيوني، دور الرقيق في الحياة السياسية والثقافية ببلاد المغرب والأندلس خلال القرنين 04-05 الهجريين، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف توفيق مزاري عبد الصمد، جامعة الجزائر 01، 2012-2013، ص 78.

عبيد المدينة¹، وقد دل على ذلك المثل العربي المأثور: "لم قالت الحاضرة للعبد: باعك الله في الأعراب؟ قال: لأنّا نعري جلده، ونطيل كده، ونجميع كبده"².

وعليه يمكن القول أن حضور فئة العبيد بأجناسها المتعددة في المجتمع الريفي للأندلس، لا يعدو أن يكون ضمن ما يحقق مصالح أصحاب الملكيات الكبيرة.

وفي خلاصة هذا الفصل يمكن القول أن المجتمع الريفي تألف من عناصر متعددة الأعراق والإثنيات فقد استوطنه العرب والبربر وأهل الذمة خاصة النصارى منهم، وقد كان استقرار العرب والبربر على أساس القرابة، فقد استقرت العائلات التي تنتمي إلى جد واحد في مكان واحد، وعرفت القبائل القحطانية أكثر حضوراً من العدنانية واستقرت للبربر مناطق إقامتهم مع مرور الزمن، ولم يتعرضوا إلى الطرد من المناطق الخصبة، في الأيام الأولى للوجود الإسلامي بالأندلس، فحضورهم في أرياف الأندلس شمل السهل والجبل، وعرفت أرياف جنوب البلاد وغربها أكثرها استقراراً لهذا العنصر

أما النصارى المعاهدون فقد انتجع بعضهم في مناطق ريفية خاصة بهم، للحفاظ على هويتهم أمام مد الثقافة الإسلامية الجارف في القرون الثلاثة الأولى من الوجود الإسلامي، وقد تأثرت التجمعات السكانية النصرانية في الريف الأندلسي تأثراً واضحاً، خلال الفترة مجال الدراسة، بسبب ازدياد نشاط حركة الاسترداد منذ القرن 05هـ / 11م، وعملية التغريب خلال عصر المرابطين التي أجلتهم عن الأندلس بعد تواطؤهم مع ممالك النصارى في الشمال.

وفيما يخص اليهود فإن حضورهم كان قليلاً في أرياف الأندلس وانحصر وجودهم في الحصون التي توفر لهم الحماية، وقد عبرت ملكياتهم الزراعية على قيامهم بممارسة هذا النشاط.

وإذا كان التقسيم الإثني غير واضح في المجتمع الريفي للأندلس، بسبب اختلاط الأنساب وضياعها، فإن التقسيم الطبقي أكثر وضوحاً، وقد ارتكز هذا التقسيم على أساس ملكية الأراضي الفلاحية، باعتبارها وسيلة الانتاج الرئيسية في القرون الوسطى عامة، وعند المجتمع الريفي خاصة، فمكنت الأملاك الكبرى لأصحاب الثراء الفاحش، من خلال الربح الذي كانت تجنيه من استغلال هذه الأراضي

¹ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 230.

² بنمليح، المرجع السابق، ص 345، هامش 05.

بالرغم من أنها لم تكن في بعض الأحيان تقدم سوى هذه الأراضي لمن يخدمها، وفي أحيان كثيرة كان يقوم وكيل عنها بالاهتمام بشؤونها والعناية بها، ويشرف على مجموعة هامة ممن يقومون بخدمة هذه الأراضي.

وكان غالبية أصحاب هذه الأملاك من الطبقة الحاكمة وحاشيتها، التي رضيت عنها من الفقهاء والقضاة والوزراء وقادة الجند، وشاركهم في بعض الأحيان بعض الأغنياء والموسرين، وبعض الأسر والبيوتات التي حافظت على أملاكها، وبسبب انشغال أفراد هذه الطبقة ومسؤولياتها فقد فضلت الاستقرار في المدن أكثر من الأرياف، ولم يكن ارتباطها بالريف إلا ما جرته لها من منافع زادت في ثرائهم، أو استغلت الضيعات التي تملكها للتخلص من ضغط المدينة، والاستمتاع بجمال الريف وهدوئه، فكان هذا الريف مجالا مهما بالنسبة لها للراحة النفسية.

وشكل الملاك الصغار والمتوسطون جزءا مهما من الطبقة المالكة، لكنها لم تكن ذا تأثير كبير فالمشاركة في عملية الانتاج لم تكن كبيرة، بسبب الضعف المادي لكثير من أفرادها، ما جعلها في كثير من الأحيان تلجأ إلى العديد من الصيغ للاستفادة من الموسم الزراعي، ورغم ذلك لم تستطع أن تصعد في السلم الاجتماعي، وزادها الأمر سوءا في الظروف الصعبة، ففقد بعض أفرادها أملاكهم لصالح ذوي النفوذ والسلطان، أو تترك أراضيها والفرار إلى مناطق أكثر أمنا.

أما الفئة التي كانت أكثر حضورا في هذا المجتمع، فهم الذين عدموا الأملاك، النشاط الزراعي قام على أكتافهم وكواهلهم، فكان منهم الزراع والفلاحون والرعاة والعمال الأجراء، وأقل منهم كان العبيد، فوصفتهم الدراسة بالطبقة العاملة، التي كانت أكثر الطبقات هشاشة وتعرضا للظلم.

الفصل الثالث

المظاهر الاجتماعية في المجتمع الريفي:

أولا/ الأسرة الريفية

ثانيا/ المعيشي للمجتمع الريفي

ثالثا/ العلاقات الاجتماعية بين ساكنة الريف الأندلسي

أولا/ الأسرة الريفية:

تشكل الأسرة نواة المجتمع، وقد خضعت في الأندلس -على غرار الأسر في المجتمعات الإسلامية- إلى أحكام الإسلام وتشريعاته، في تكوينها وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض، ولجأت إلى هذه الأحكام لحل المشاكل التي تحدث بين أفرادها، فما هي أهم هذه المظاهر؟

1- تكوين الأسرة:

يعتبر الزواج الأساس الذي قامت عليه الأسرة في الأندلس عموماً، امتثالاً لأحكام الشريعة الإسلامية، كما أن المجتمع عدّ الزواج أمراً لا مفر منه، وهو ما يظهره المثل القائل: "الزواج والموت هم لا يفوت"¹، بل كان ينظر إلى كل من تخلّى عن الزواج بنظرة الريبة والشك، فقد قالت عنه العامة: "عازب ومُتَفَنِّقٌ ثلثي قطيم يفتي فيه"².

ويبدو أن الزواج في الريف الأندلسي شكل الطريقة الأهم في العلاقات القائمة بين الذكر الأنثى أكثر من الطرق الأخرى المنتشرة في المدينة، كالتسري وبعض العلاقات المحرمة، وقد فسرهما أحدهم بالقول: "وقد توفرت في حواضر الأندلس عوامل عدة ... كتوفر الإمكانات المادية لدى بعض فئات المجتمع، واحتكاك المسلمين بغيرهم من العناصر، وشيوع ظاهرة الاختلاط بين الجنسين، ووجود أعداد من الجوّاري، غير أن هذه العوامل لم تتوفر في القرى على نطاق واسع..."³

وبما أن الزواج هو الطريق الموصلة بالفرد، إلى تكوين الأسرة في المجتمع الريفي، فإن ذلك يمر حتماً عبر مجموعة من الخطوات والمراحل، تبدأ بالخطبة، ثم عقد الزواج، وصولاً إلى حفل الزفاف.

¹ إبراهيم القدري بوتشيش، ظاهرة الزواج في لأندلس إبان الحقبة المرابطية من خلال نصوص ووثائق جديدة "مجلة دراسات أندلسية"، العدد 09، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1993.

² الزجالي، المصدر السابق، ج1، ص 243. ويقصد بهذا المثل تعيين الرجل الذي لا يرغب في الزواج، إذ تنقصه خصلة من خصال الرجال، وهي شعوره اتجاه النساء، فالمتنفق يعيب الزواج ويأباه ولا يريد أن يتزوج، والقطيم وردت عند ابن منظور بالقَطْم وهو الذي لديه شهوة في النكاح. انظر: ابن منظور، المصدر السابق، ج12، ص 488، مادة قَطْم؛ بنشريف، المرجع السابق، ج2، 421.

³ يوسف نكادي، الأسرة في البادية الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري، "الأسرة البدوية في تاريخ المغرب"، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، القنيطرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، الرباط، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2006.

أ- الخطبة:

تعتبر مسألة اختيار الزوج لزوجته من المسائل الهامة في الزواج، فحسن الاختيار يؤدي في الغالب إلى نجاح العلاقة الزوجية، وقد كانت القرابة أحد أهم المقاييس لاختيار الزوجة في المجتمع الأندلسي، خاصة زواج الرجل من ابنة عمه، ففي تراجم إحدى النساء أنها تزوجت من ابن عمها¹، وذكر عبد الله بن بلقين أن هذه المسألة في الأمور التي رامها كثير من السلاطين².

ولئن كان هذا في النص ما يدل على انتشار هذا النوع من الزواج وسط الطبقة الحاكمة، فإن في نوازل العصر ما يؤكد على انتشاره في المجتمع الريفي، فقد ورد عند الشعبي أن رجلاً اعتذر لقوم طلبوا يد ابنته لأحدهم بالقول أنه زوّجها لابن أخيه³، وفي نازلة أخرى رجلاً أنكر أنه قال لعمه سأزوج ابنتك⁴. وقد عبر أحدهم عن هذا الزواج بالزواج الداخلي اللحمي، بحيث يكون داخل العشيرة الواحدة أو القبيلة الواحدة⁵ وكان يهدف في كثير من الأحيان إلى الحفاظ على الميراث العائلي⁶.

قد يكون هذا النوع من الزواج منتشرًا في المجتمع الريفي، لكن ليس بالضرورة أن يكون غالبًا لعدة أسباب منها، أن النسب تلاشى في أندلس القرنين 05-06 هـ / 11-12 م كما تم ذكره سابقًا، كما أن القرية كانت تضم عدة قبائل متجاورة، كان لكل قوم حارة تعرف بهم⁷، وبالتالي يمكن أن يختار الرجل زوجته من بنات القرية الواحدة، أو القرى المجاورة، بل قد توجد حالات يتزوج بعضهم إحدى فتيات المدينة، كما أشار إلى ذلك ابن عبدون في رسالته، في معرض حديثه عن المظاهر التي تتبع الأعراس التي تزف فيها إحدى بنات المدينة إلى الريف⁸.

¹ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح. وتق. محمد بن شريفة، د.ط، 1984، ج8، ص 486.

² ابن بلقين، المصدر السابق، ص 176.

³ الشعبي، المصدر السابق، ص 433.

⁴ نفسه، ص 432، 433.

⁵ مليكة حميدي، الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة 92-897 هـ / 711-1492 م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر، 2013-2014، ص 193.

⁶ بوتشيش، ظاهرة الزواج في الأندلس، ص 13؛ قرني، المرجع السابق، ص 126.

⁷ لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى الفصل الأول.

⁸ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 53، دندش، المرجع السابق، ص 302.

وفيما عدا معيار القرابة، فإن المصادر لا تذكر معايير أخرى يفضلها المقبل على الزواج باستثناء ما ذكرته النوازل الفقهية حول تفضيل بعضهم البكر¹، بينما لم يجد بعضهم الآخر حرجا في الزواج من الثيب²، أما بالنسبة للسن فلم تحدد هذه المصادر السن المحببة للزواج، إذ اكتفت بعض النوازل بذكر لفظ صبية، أو التصريح بعدم البلوغ³، وفيها دلالة على تفضيل البعض أن تكون المرأة صغيرة السن، ويبدو أن هذه الظاهرة عامة في بلاد الأندلس ولم تقتصر على أريافها، إذ لا يوجد في النوازل ما يدل على اقتصرها على منطقة دون أخرى.

وبعد أن يقع اختيار الشاب على شريكة حياته، يتقدم لخطبتها، فيرسل من يخطبها سواء من قرابته أو من قومه⁴، إلى ولي المرأة والذي غالبا ما يكون أباه⁵، أو أكثر الناس قربا لها في حال غياب الأب كالأخ والعم والخال⁶، فإن عدمتهم يكون القاضي وليا لها أو يعين من يقوم ذلك المقام.

ب- عقد النكاح:

بعد أن يوافق أهل العروس على طلب العريس، تأتي مرحلة عقد النكاح الذي يتم بعد أن يتفق الطرفان على كل ما يتعلق بهذا العقد، وقد يكون بإرسال العريس أهله إلى دار العروس للاتفاق على ذلك⁷، ثم يتم تدوينه في عقد ويتولى عقد النكاح في أرياف الأندلس في الغالب إمام المسجد، ويشهد على هذا العقد مجموعة من الشهود العدول من أهل القرية، ويكفي شهادة عدلين منهم⁸، أما القرى التي ليس

¹ من أمثلة ذلك انظر: ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 185، ج3، ص ص 1308، 1309، ص 1320؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص ص 130، 131.

² انظر أمثلة عن ذلك: الشعبي، المصدر السابق، ص 426، ص ص 456، 457؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص ص 338، 339، ص ص 295، 296؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج4، ص ص 480، 481.

³ ابن الحاج، المصدر السابق، و 61، و 64؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص ص 294، 295.

⁴ الشعبي، المصدر السابق، ص 433.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص 128؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج4، ص ص 1557، 1558؛ ص 1598

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص ص 180، 181، ص ص 273، 274، ص ص 283، 284، ص ص 294، 295؛ البرزلي، المصدر السابق، ج2، ص ص 268، 269؛ عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء، ص 151.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 121، ص 130، ص 248؛ مريامة لعناني، الأسرة الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف عبد العزيز فيلاي، جامعة منتوري قسنطينة، د. ت، ص 25.

⁸ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 270.

بها مسجد أو بعيدة عنه، فقد يتولى فيها عقد النكاح أهل الزوجين ومجموعة من عدول القرية¹، ووجدت بعض القرى مشكلة أثناء عقد النكاح فقد عدت فيها عدولا يشهدوا على النكاح، حيث أشارت نازلة أن قرية ليس فيها عدول وهم قدر العشرين، وربما افتقروا لتزويج يتيمة فقيرة ولا ولي لها².

ويتضمن عقد النكاح اسم الزوجين والولي والشهود، ومجموعة من الحقوق المالية الالتزامات التي تم الاتفاق عليها مسبقا، خاصة الصداق، من حيث قيمته وشكله إن كان معجلا أم مؤجلا، وطريقة تسديد المؤجل³.

ويبدو أن قيمة الصداق في المجتمع الريفي تشكلت أحيانا من قيمة عينية، وهو ما يفهم من خلال مجموعة من النوازل، التي ذكرت الأراضي الفلاحية وبعض الحاصلات الزراعية والحيوانية، ففي نازلة أن رجلا ساق لزوجته دار يقيمها في قرية حددها، وأرضا نصفها مغروس بالزيتون⁴، وتزوج رجل امرأة بعدد مسمى من المواشي، وأرضا فلاحية تحوي كرما⁵، وساق آخر لزوجته نصف قرية من قراه⁶، وكتب رجل لزوجته في صداقها جميع ملكه بقرية عينها، وجميع الدار في قرية أخرى مع جميع ملكه بهذه القرية في الدور والدمن والأفنية⁷، بينما ساق أحدهم ربع جميع ماله بقرتين معروفتين⁸، ويبدو أن سياقة الأملاك عادة عند بعض العائلات الميسورة، فقد ذكرت نازلة أخرى أن رجلا ساق لكنته ربع أملاكه في قرية، وساق لكنة أخرى له ربعا آخر من تلك الأملاك⁹.

ويعتقد أن هذا النوع من الصداق في المجتمع الريفي كان خاصا بالعائلات التي لها أملاك، وإن كان

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 270؛ دندش، المرجع السابق، ص 302، لعناني، المرجع السابق، ص 25.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 270؛ دندش، المرجع السابق، ص 302.

³ ميلود كعواس، نوازل الأسرة بالمغرب الأقصى والأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، ط1، الرباط، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، 2017، ج2، ص 871؛ حميدي، المرجع السابق، ص 175.

⁴ ابن رشد، المصدر السابق، ج 3، ص 388.

⁵ أبو القاسم أحمد بن محمد بن عمر التميمي المعروف بابن ورد ت 540هـ، الأجوبة، تح. محمد بوخيزة و بدر العمراني، ط1، الرباط، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، 2009، ص 117؛ البرزلي، المصدر السابق، ج2، ص 208.

⁶ ابن الحاج، المصدر السابق، و 4.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 411؛ حسبلاوي، المرجع السابق، ص 284.

⁸ الشعبي، المصدر السابق، ص 147.

⁹ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 411.

لا يفهم منه حجم هذه الأملاك واتساعها، فيصعب بذلك تقدير قيمة الصداق، لكن الأكيد أنه مرتبط بالحالة المادية للزوج، أو مكانة الأسرتين في هذا المجتمع، أو يمكن الحكم عليه من خلال ما عرفه الصداق في عموم البلاد، ويظهر ذلك فيما ذكره ابن العربي، من ارتفاع الصداق وعدها من بدع الزمان، فيقول: "وقد عظم الخطب في هذا الزمان، حتى لا يدري العبد على أي شيء ييكي، أعلى فوات دنياه، أم على عروسه التي تطالب بما ليس به طاقة"¹.

ج- الزفاف وترتيباته:

بعد عقد القران الشرعي بين الزوجين، يبدأ الطرفان في ترتيب وتحضير كل ما يتعلق بيوم البناء، الذي تزف فيه الزوجة إلى بيت الزوجية، في عرس يشهده كل من دعي إليه، وتبدأ العروسة بتحضير الجهاز الذي تنقله معها إلى بيت زوجها، هذا الجهاز الذي كثيرا ما كان يشد إليه الأنظار، فسخرت العامة من تواضع بعضها وعبرت عنها بالقول: "شوار دجيحة، شَقْفَ وَخْرَابَة"²، ولذلك تنافست العائلات في الأندلس على إخراج بناتها إلى بيت الزوجية بأعلى جهاز وأجمله، وربما هذا ما يفسر ارتفاع المهور في البلاد.

أما بالنسبة للقرى والمناطق الريفية، فإنه يختلف باختلاف العائلات ووجاهتها وحالتها المادية، فبينما يكون بسيطا عند العائلات الفقيرة، مكون من لباس ولحاف وفراش وبعض الملابس والحلي³، يكون عند العائلات الميسورة، أفخم منه من حيث القطع المكونة له، وكذا في شكلها وأنواعها، وقد شبه أحد الزائرين إلى أحد المنازل الريفية ما يحتويه هذا المنزل، من فرش وبسط وأدوات ووسائل، بجهاز العروس من ذلك: "الغلائل والملاءات والهمايين والسراريات والعصائب والمقنعة والخمار، والدلال المستعار، ومن طيب البادية مثل طراقة الورد باللبن، وعصارة العصفور الزعفران، والإثم والإسفيداج، ومرآود الزجاج، وحببات المصطكي واللبان، وغبار العفص وقشور الرمان، وكثير من سنون ذلك المكان"⁴.

ويمكن القول أن جهاز العرائس عند بعض العائلات في المجتمع الريفي، بلغ حدا من الفخامة ما

¹ زناتي، المرجع السابق، ص 276، 277.

² ابن عاصم، مجموع ابن عاصم، تح. محمد بن شريفة ضمن تاريخ الأمثال والأزجال في المغرب والأندلس بحوث ونصوص، د. ط، الرباط، منشورات وزارة الثقافة، 2006، ص 94.

³ دندش، المرجع السابق، ص 302؛ لعناني، المرجع السابق، ص 35.

⁴ ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص 677.

يضاهي به جهاز عرائس المدينة، بل إن كثيرا من قطع هذا الجهاز تم اقتناؤه من أسواق المدن، و زاد عن جهاز المدينة أنه احتوى على قطع أنتجتها أيدي نساء البادية، أو مما زحرت به البيئة الريفية¹.

وحظي العروسان في عرف المجتمع الأندلسي عموما بالحرص والاهتمام، ويظهر ذلك في الهدية التي كانت تقدم لهما قبل البناء، وقد تعددت تسمياتها فمنها إضافة إلى هدية العرس²، النحلة³ والمعونة⁴.

وقد كانت هذه الهدية تقدم من عدة أطراف، فقد أشار ابن رشد أن رجلا نحل ابنه في زواجه، بثلاث مستغل أملاكه⁵، وزوج رجل ابنته ووهبها عند عقد نكاحها درار وحنوتا وجنانا وخادما⁶ ونحلت أم ابنتها مالا عند عقد صداقها⁷، كما كان الأزواج يقدمون هدايا لزوجاتهم قبل البناء إكراما لهن⁸، فتكون عبارة عن مبلغ من المال يعينها على إقامة عرسها⁹، وقد تكون أشياء عينية مثل الجورين والخفين ونحوهما¹⁰، أو كبشا أو ثورا أو الاثنين معا¹¹.

ويبدو أن عرف الهدية يختلف من منطقة إلى أخرى، فبينما يقدم الهدية أحد الأطراف في بعض الجهات، وهو ما أبرزته النوازل السابقة، تعددت الأطراف في جهات أخرى، فقد أشارت نازلة أن إحدى المناطق الريفية لشلب، عرفت بعادة في مناكحهم لا يتعدونها، وهي أن يسوق الرجل منهم لامرأته جزءا من أملاكه، ويجب على الوالد أن ينحل ابنته من ماله بما يكفى ذلك المقدار الذي ساقه الزوج من أملاكه¹².

¹ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص ص 677، 678.

² ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج1، ص 407؛ أبو القاسم سلمون بن علي بن سلمون الكتاني الغرناطي، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، رصيد المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، رقم 1366، و 14 وجه.

³ عياض، مذاهب الحكام، ص 227.

⁴ حبيدي، المرجع السابق، ص 183.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 218-814

⁶ عياض، مذاهب الحكام، ص 227

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 1053، 1054؛ عياض، مذاهب الحكام، ص 226.

⁸ أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف، رسالة ابن عبد الرؤوف ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح. ليفي بوفنسال، د. ط، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص 81.

⁹ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 92، ص 129؛ لعاني، المرجع السابق، ص 30.

¹⁰ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج1، ص 417؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 406.

¹¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 46؛ دندش، المرجع السابق، ص 302؛ حاج كولة، المرجع السابق، ص 69.

¹² ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1418، ص ص 1520-1522.

وأصبحت الهدية شرطا يوثق في عقود النكاح¹، وأي إخلال به يؤدي في كثير من الأحيان إلى التنازع، وقد أبرزت النوازل الفقهية بعضا من هذه النزاعات، فمن ذلك أن يخرج الرجل ابنته فقيرة دون هدية تضاهي هدية الزوج وتكافئ مقدارها²، ومنها أن امرأة وهبت نخلة لابنتها من مال أبيها المتوفي، ومنعتها من الميراث على أن هذه الهدية حقها من الميراث³، وفي بعض الأحيان يتهم الآباء مع أولادهم بالتحايل في عدم منح الهدية الواجبة عليهم⁴.

ويلاحظ أن الفقهاء التزموا في فتاواهم بشرط الهدية في المناكح، فأفتوا بمنح هذه الهدية على الأوصاف المذكورة في عقود النكاح⁵، ومنعوا كل ما يضر حق الزوجين فيها، خاصة من بعض الورثة الذين حاولوا أن يضمموها ضمن المال الموروث بعد وفاة الناحل⁶.

ويمكن القول أن هدية العرس في المجتمع الأندلسي عموما، أصبحت حقا ثابتا يهدف إلى تعزيز قيم المحبة والتعاون، ولم يكن المجتمع الريفي يختلف عن مجتمع المدينة، وربما كان الهدف من هذه الهدية -إضافة إلى ما تم ذكره سابقا-، إغناء الزوجين ومساعدتهم لتخطي نوائب الدهر ومصاعبه، وهو ما دل عليه شكلها، الذي كان عبارة عن مستغلات وأراضي فلاحية.

وبعد إتمام التحضيرات يقيم العريس حفل الزفاف، وفي هذا اليوم المشهود تزف فيه العروس إلى بيت الزوجية، في موكب يحضره أهل العروسين والأصدقاء، حيث يقصد أهل الزوج وجماعة من الرجال والنساء دار أهل الزوجة لزف العروس، في جو من الفرح والسرور تشهد عليه الغناء واللهو الذي تصحبها⁷، وتزف

¹ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج1، ص ص 460-462، ج2، ص ص 1069، 1070؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 1053، 1054؛ عياض، مذاهب الحكماء، ص ص 226-228.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص ص 1418، 1419.

³ نفسه، ج2، ص ص 1053، 1054؛ عياض، مذاهب الحكماء، ص 226.

⁴ عياض، مذاهب الحكماء، ص 227.

⁵ نفسه، ص ص 227، 228.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 812-814؛ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج1، ص ص 460، 461، ج2، ص ص 1069، 1070.

⁷ ابن الحاج، المصدر السابق، و302؛ ابن عبدون، المصدر السابق، ص ص 53، 54؛ دندش، المرجع السابق، ص 302؛ لعناني، المرجع السابق، ص 39.

العروس في هودج، بينما يمتطي العريس حصانا، وتنقل الهدايا على بغال تتبع العروس¹، وفي هذا الموكب يترك الآباء الحرية لأبنائهم للاستمتاع بهذه المناسبة، وهو ما أحدث نوعا من المفاسد على بعض المواكب والعريضة، ولذلك نصح ابن عبدون ألا يخرج الموكب إلى البادية، إلا بعد أخذ إذن من القاضي حتى يخرج معهم من الأعوان من يحرس العرس².

ويحضر الموكب والمدعوون في بيت الزوج وليمة أعدها أهله بالمناسبة، و ربما تستعين بعض العائلات المقتدرة بطباخ لإعداد أنواع من الأطعمة مقابل أجر معين³، ورغم أن هذه الأطعمة غير معروفة، لكن الأكيد أن اللحم شكل أحد مكوناتها، إذ تذبح بالمناسبة الذبائح فقد يذبح ثور أو ثورين أو أكثر حسب الحالة المادية للعريس ومكانته الاجتماعية⁴.

ويصحب الوليمة في أعراس المجتمع الأندلسي أنواع عديدة من الملاهي، كالغناء وضرب الدف وأنواع من المعازف، وقد شهدت عليها العامة بقولهم: "دلت زامر في مكبة عرس"⁵، وقولهم: "من يعير بوق في يوم عرس"⁶، وقد اختلف الفقهاء في موقفهم منها فبينما شدد بعضهم على منع استخدام الآلات الموسيقية إلا الدف⁷، ذهب بعضهم إلى جواز استعمالها بل وحتى شهود بعضهم هذه الأعراس مراعاة للخلاف الحاصل فيها⁸.

ومهما يكن من أمر فإن استخدام المعازف أصبحت عادة مترسخة في هذه الأعراس، ويبدو أن بعض المناطق الريفية في الأندلس، تميزت باستخدام نوع معين من الآلات، كما كانت لها طريقة في الغناء ويفهم ذلك من إشارة لابن سعيد عن أحد الرجال الذين عاشوا في القرن 07هـ/ 13م، فيذكر أن له

¹ لعناني، المرجع السابق، ص 39.

² ابن عبدون، المصدر السابق، ص 53.

³ نفسه، ص 52؛ قرني، المرجع السابق، ص 267، هامش 194.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 251.

⁵ الزجاجي، المصدر السابق، ج2، ص 242.

⁶ الزجاجي، المصدر السابق، ج2، ص 296.

⁷ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 83.

⁸ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 252.

أزجال على طريقة البداة التي يتغنون بها على البوق¹.

ولم تخل بعض الأعراس من مظاهر الفسق والمجون، والتي يبدو أنها كانت ظاهرة عامة في الأندلس، ولم تخص ريفه فقط، فابن عبدون يشير إلى انتشار ظاهرة شرب الخمر في الأعراس، وانعكاسات ذلك من عريضة ووجوه من المفاسد²، ويبدو أن هذه المظاهر قد استفحلت في أزمنة متأخرة عن فترة الدراسة، فيذكر الونشريسي عن أحد فقهاء الأندلس وصفا لعرس في أحد الحصون بقوله: "فيجتمع الفساق ويخرجونهم إلى موضع واسع، وفيجلبون الخمر ويشربونها، وإن كان بالليل يحضرون النساء الزواني مختلطات معهم... فإن كان في الحصن قائد جلس في موضعه ولا يتحرك من قصبة خوفا من شرهم، ولا يستطيع أن يغير على أهل المنكر حتى يتم العرس"³.

وفي الأخير يمكن القول أن تكوين الأسرة في المجتمع الريفي، يرتكز أساسا على الزواج، الذي تميز في هذا المجتمع ببعض الخصائص النابعة من طبيعة البيئة التي يعيش فيها، كشكل الصداق، والجهاز وهدية العرس وكذلك الاحتفال به، وبعد هذا الزواج يصبح الزوجين عمادا الأسرة الجديدة، ثم تبدأ في التوسع لتشمل العديد من الأفراد.

2- مكونات الأسرة وأوضاعها:

تختلف الأسرة عموما حسب عدد الأفراد المشكلين لها، ولذلك تنقسم إلى أسرة صغيرة الحجم مكونة من الزوجين وأبنائهما، وهي ما يسميها أحدهم بالأسرة النووية⁴، وقد تتعدى إلى الجدين والأعمام، فتصبح كبيرة الحجم.

ويختلف الباحثون في الشكل المنتشر في الريف الأندلسي، فبينما يرى بعضهم أن الأبناء في الغالب عندما يتزوجون لا ينفصلون عن منزل الأسرة⁵، وهو ما يعني انتشار النوع الثاني بكثرة في هذا المجتمع، لكن تبقى مجرد تخمينات لا تستند إلى دليل يعضدها، يرى البعض الآخر أن النوع الأول أكثر انتشارا، ويستند

¹ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 177.

² ابن عبدون، المصدر السابق، ص 54.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 251.

⁴ نكادي، الأسرة في البادية الأندلسية، ص 39.

⁵ دندش، المرجع السابق، ص 302.

إلى مجموعة من النصوص النوازلية¹، لكنها في الحقيقة لا تبرز انفصال الأبناء عن الآباء عقب الزواج، وهو ما يبرز صعوبة الفصل في هذا الأمر.

وبالرجوع إلى النوازل الفقهية، ومحاولة قراءة القضايا المتعلقة بالهبات والحبس والميراث، يمكن الجمع بين الرأيين، ففي نوازل الشعبي أن رجلاً توفي وترك زوجة وبنين صغاراً، وكان قد حبس نصف أراضيه على الإشاعة بينهم²، وأشارت نازلة إلى أسرة ريفية مكونة من ثمانية أشخاص، الزوجين وأربع بنات وبنين³، وقد تتكون الأسرة من أب وأم وبنين وبنيتين⁴ أو من زوجين وابنة واحدة⁵، كما يمكن أن تتكون من الزوجين فقط ويتوفى الابن دون أن يكون له عقب⁶.

وقد تتسع الأسرة أكثر فتشمل إضافة إلى الأبوين والأبناء، الجدين أو أحدهما، ففي نازلة أن رجلاً نخل ابنه في عقد نكاحه ثلث مستغله، وفاقت مدة استغلال الملك العشرة أعوام، وبعد وفاة الأب الناحل أراد الورثة إسقاط النحلة⁷، وهو ما يعني أن الأب كان مقيماً عند ابنه إلى غاية وفاته، وفي نوازل ابن سهل ما يفيد من أن أسرة لم ينفصل عنها أبنائها بعد زواجهم، فقد ساق رجل إلى كنته ربعا من أملاكه، وساق ربعا آخر إلى كنته الأخرى⁸، وربما يكون قد حمله على ذلك على وجه الإحسان لإبقاء الجمع مشتملاً.

وربما هذه الأمثلة أو تلك، لا تبرز بشكل جلي حجم الأسرة الحقيقي، لكن يمكن القول أن المجتمع الريفي في الأندلس، تكون من أسرة صغيرة الحجم قليلة الأفراد، وأسر كبيرة الحجم كثيرة الأفراد، فما هو وضعهم ومكانتهم داخل الأسرة؟

¹ نكادي، الأسرة في البادية الأندلسية، 39.

² الشعبي، المصدر السابق، ص 147.

³ الشعبي، المصدر السابق، ص 149.

⁴ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص 301.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص 145.

⁶ نفسه، ص 151.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص ص 812-814.

⁸ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج 1، ص ص 439، 440.

أ- الأطفال ورعايتهم:

يشكل الأطفال زينة الحياة وبهجتها، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾¹، فبحلولهم تدخل الفرحة على الأسرة، وتزدان حياة الزوجين، وتحتفل الأسرة بهذه المناسبة بالعقيقة في اليوم السابع، كما يحتفل بالأم وتقدم لها الهدايا، وتجهز أنواع من المأكولات والفواكه والحلوى، على حسب مستوى الأسرة²، ويعتقد أن هذا الاحتفال ليس خاصاً بمنطقة دون أخرى، أو مجتمع دون آخر، بل شمل المجتمع الإسلامي في الأندلس، لأنه نابع من الشريعة الإسلامية، ولذلك يمكن أن تكون الأسرة الريفية قد أقامت هذا الاحتفال وحرصت عليه، كل حسب طاقتها وقدرتها.

وتقع على عاتق الوالدين مسؤولية تربية الأبناء والاهتمام بهم، فتعتبر الأم المرضعة والحاضنة، حتى بعد افتراقها مع زوجها، أو زواجها من رجل آخر دون أن يطالب الوالد بولده مدة طويلة تصل إلى ثلاث أو خمس سنوات³، ولا يمكن للزوج الأول استرجاع حضانة الولد إلا إذا أثبت لحاق ضرر بالولد من زوج الأم أو إهمال الأم له⁴، ومنه يلاحظ أن الفقهاء قد اهتموا بمسألة رعاية الأطفال الصغار حتى لا يلحقهم ضرر يؤثر في تربيتهم التربية السليمة.

وقد أشارت أمثال العامة إلى أن التربية الحسنة تبدأ من الصغر، فذكرت: "من ربا صغير ما يندم"⁵ وبينت بعضها سوء تربية بعض الأباء لأبنائهم، حينما لا ينهاهم عن التصرفات القبيحة في حضور الكبار فذكرت: "أضارب الفلالس وصاحب الدار جالس"⁶، ولذلك حضت على التأديب بالضرب والشدة فقالوا: "ضرب الصبي كالماء للصبي"⁷، وقد أشار ابن سعيد إلى استعمال أهل الريف هذه الوسيلة، فيسرد قصة لجوئه مع والده إلى إحدى القرى بسبب البرد والمطر، وقبول أحد شيوخ القرية استضافتهم شريطة أن

¹ سورة الكهف، الآية 45.

² دندش، المرجع السابق، ص 332؛ حميدي، المرجع السابق، ص 205.

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص ص 295، 296، ص ص 338، 339.

⁴ نفسه، ص ص 295، 296.

⁵ الزجاجي، المصدر السابق، ج 2، ص 63.

⁶ نفسه، ص 321.

⁷ نفسه، ص 233.

يشتروا فحماً يسخنون به، فلما اشتروا الفحم وأضرم لهم النار، تقدم ابن صغير له ليتدفأ معهم، فضربه والده، ولما سئل عن سبب ضربه، أجاب: "يتعلم استغنام مال الناس، والضجر للبرد من الصغر"¹.

لقد عبر هذا النص بوضوح كيفية تعامل الآباء مع أولادهم، عند ارتكاب الأخطاء، وأشار في الوقت نفسه، إلى الأخلاق التي يغرسها المجتمع الريفي في الأبناء، فكان منها الزهد فيما أيدي الناس، والتعود على خشونة العيش وتحمل قساوة طبيعة الريف ومناخه، بالإضافة إلى تعلم إكرام الضيف وإيثاره على النفس فقد أمر هذا الشيخ ابنا له أكبر أن يمنح ابن سعيد كساءه الغليظ يزيداها على ثيابه².

ويضيف ابن بسام نصا مهما يبرز دور الآباء في غرس الصفات الحميدة في أبنائهم، إذ ينقل أبياتا لرجل ريفي فرح بقدوم الضيف بالقول³:

ومن شيمتي مهما تزين منزلي	بضيف أن أقره بأحسن ما عندي
لو أن دمي خمرٌ لرؤيته به	ولو صلحت كبدي شويت له كبدي
بذلك أوصاني أبي مثد عقلته	وقد كان أوصاه بذا قبله جدي

أما تعليم الأطفال فإن ذلك يتم في المساجد والكتاتيب، حيث يقوم المؤدب بتحفيظ الأطفال القرآن الكريم، وحسن تلاوته ونطق الألفاظ بشكل سليم، كما يعلمهم الخط الحسن والهجاء، وشيء من مبادئ الحساب، وبعض الأحكام التي لها صلة بالعبادة كأحكام الوضوء والصلاة وغيرها⁴، ويكون ذلك مقابل أجرة يقدمها الأولياء، وهي عادة عرفت بها بلاد الأندلس، وأجازها الفقهاء⁵، لكن يبدو أن الكثير من أبناء المجتمع الريفي الصغار حرموا من هذا التعليم، بسبب أن الكثير من فئات المجتمع الريفي في الأندلس، لا تستطيع تسديد نفقات ذلك التعليم لضعف دخلهم - كما تم الحديث عنه سابقا - الذي أثر على مستواهم الاجتماعي، كما أن أخذ الأجرة من الأحياس لم يكن كذلك ممكنا، لأن بعض هذه الأحياس لم تكن

¹ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 224.

² نفسه، ص 224.

³ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 680.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 25؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 244.

⁵ أجاز الفقهاء أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وهو متعارف عليه في بلاد الأندلس. انظر: ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 211؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 252.

كافية، وكان يقدم صيانة المسجد والقيام به على أجرة الإمام¹.

ومنه يمكن القول أن الكثير من أطفال المجتمع الريفي لم يكن لهم حظ وافر من العلوم المختلفة ولكن في المقابل ركز الآباء على زرع الأخلاق التي جبلوا عليها في بنيتهم، الذين اختلف وضعهم داخل الأسرة.

- أوضاع البنات:

لقد عبرت أمثال العامة عن الوضعية الحساسة للبنات في المجتمع الأندلسي عامة، ولذا يبقى التفكير بحالتها من طرف الآباء إلى الممات²، رغم أن الشرع حمل الآباء مسؤولية رعاية البنت في كل شؤونها إلى غاية تزويجها وتكوين أسرة خاصة بها³، وبالرجوع إلى النصوص النوازلية يمكن فهم وضعية البنت في الأسرة الريفية في البلاد الأندلس، ومدى اهتمام الوالدان بها.

ففي نوازل ابن الحاج أن رجلا حبس على ابنته وعقبها ضياعا ومستغلات، تحتوي موضع سقي وأرضا طيبة تنتج كل عام القمح والشعير والكتان وأنواع الحبوب، إضافة إلى احتوائها على أنواع من الأشجار المثمرة⁴، ونحل رجل ابنته أرضا وبقيت بأيديهما أعواما ثم باعتها⁵، ويورد الونشريسي نصا يعبر عن اهتمام بعضهم بالبنات دون الذكور، فيذكر أن رجلا من إشبيلية اسمه أيوب وهب لابنته المسماة عائشة أموالا وأملاكا ببلده، واشترط في عقد الهبة أنه في حالة وفاة ابنته عائشة من غير ولد، فإن الهبة المذكورة ترجع إلى حفيدته أمة بقنة بنت أحمد، فإن لم تكن على قيد الحياة عند موت عائشة، رجعت الهبة ميراثا لورثة عائشة⁶، وفي فتاوى ابن رشد ما يشير إلى تفضيل أحدهم بنتا له على سائر أولاده⁷

ورغم وضوح هذه النصوص، فإنه لا يمكن الحكم على أن المجتمع الريفي فضل البنات على الذكور

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص ص 311-313؛ البرزلي، المصدر السابق، ج5، ص ص 389، 390.

² يقول المثل: "هم البنات للممات". انظر: ابن عاصم، المصدر السابق، ص 142.

³ الشعبي، المصدر السابق، ص ص 108، 109.

⁴ ابن الحاج، المصدر السابق، و39.

⁵ أحمد بن سعيد بن بشتغير اللورقي المالقي ت 516هـ، نوازل أحمد بن سعيد بن بشتغير، تح وت. قطب الريسوي، ط1، بيروت، دار ابن حزم، 2008، ص235.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص ص 132، 133.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص ص 667، 668.

فقد أشارت بعض النوازل إلى بعض الآباء، استعملوا مبدأ المساواة بين الأبناء في توزيع الهبات والصدقات إذ تذكر نازلة أن رجلا ساق لابنته في زواجها ريع جميع أملاكه، وساق لبنيه الصغار الثلاثة أرباع المتبقية¹ وفي نازلة أخرى أن رجلا تصدق على ولده بملك في قرية، ويمنح لأختيه نصيبا مما يخرج من الأرض كل سنة².

ولا شك أن سياقة الآباء أملاكاً لبناتهم عند الزواج³، تطرح بوضوح مسألة إدراك الأسرة الوضعية الحساسة للبنات، فيمكن اعتبار هذه السياقات، بمثابة التفكير بمستقبل البنت ووضعها حتى بعد خروجها من نفقة أبيها بعد الزواج، بل لقد وجد في هذا المجتمع من كان يعين ابنته بعد الزواج، خاصة في الظروف الصعبة التي تمر بها، كأن يجلس عليها نصف أملاكه في قرية، بشرط أن لا يتركها زوجها بسبب مرض أصابها⁴، وحبس رجل موضعاً من ماله مؤبداً على المساكين، وشرط أن احتاجت ابنته إلى غلة الحبس انصرف إليها ذلك الموضع صدقة أو حبساً⁵

وعليه يمكن القول أن بعض الآباء قد أدركوا الوضعية الحساسة للبنات، وضعفهم أمام نواب الدهر أو حماية لهم مما قد يمنعهم حقهم من الورثة، ولهذا خصصوا لهم أملاكاً اختلفت أشكالها بين الهبة والصدقة والحبس. ولكن هذه القاعدة عامة أم أنها استثناء؟

- أوضاع البنين:

رغم ما حملته بعض النصوص من مساواة بعض الآباء بين البنات والأبناء، إلا أن ذلك لا يعني انعدام ظاهرة تفضيل الذكور على الإناث، فالمجتمع الأندلسي عامة، لم تزل فيه العادات النابعة من القيم الشرقية، كالافتخار والتباهي بالذكور، وهذا أمر طبيعي كون أن الولد يحمل اسم أبيه ويحافظ على نسل الأجداد، ولا شك أن الأمر يزداد في المجتمع الريفي لحاجة الأسرة للذكور، الذين يساعدون الآباء في

¹ ابن بشتغير، المصدر السابق، ص 252.

² نفسه.

³ لقد تم إيراد نماذج عن هذه السياقات في عنصر الزواج يمكن الرجوع إليها.

⁴ حميدي، المرجع السابق، ص 355.

⁵ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج 2، ص 1079؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 420؛ كعواس، المرجع السابق، ص 625.

الأعمال الزراعية، ويشاركون في الأعمال الحربية من أجل الحماية والدفاع في أيام الاضطرابات والفتن¹.

وتظهر مسألة تفضيل الذكور في المجتمع الريفي في الأندلس، من خلال بعض الأعراف القديمة التي تحاول إقصاء البنت من التركة، وهو ما كانت تهدف إليه الأحباس على الذكور وأعقابهم من الذكور دون الإناث منهم²، ومن أمثلة ذلك أن رجلاً من أشبونة حبس على ابنه دون بنتيه، جميع داره مع أرض له³ ورجل له أملاك شتى في قرية واحدة، محبسة عليه وعلى أعقابها⁴.

لكن يبدو أن مسألة تفضيل الذكور على البنات في الأندلس بشكل عام، لم تكن هي القاعدة، وقد دلت عليها نوازل الأحباس، التي تبين من خلال دراستها أنها حالات شذت عن المتعارف عليه، أو أن بعض المناطق انتشرت بها هذه الظاهرة دون غيرها، حتى صارت عرفاً يحسم فيه الخلاف على الذي يذكر الأولاد دون تحديد الجنس⁵.

وإذا كانت رعاية البنت تشغل تفكير الوالدين طويلاً، فإن رعاية الابن تزداد صعوبة مع مرور السنوات، فرمما يسبب الشاب الكثير من المتاعب لوالده، فينحرف سلوكه ويصير من أهل الشر والفساد⁶ ولقطع هذا الطريق، أوصى ابن عبدون أن يخرج الشبان إلى العمل الموسمي في الصيف، وإذا ما وقع في القرية عظم أو سرقة أو جرح يؤدب كل من له ابن عازب ويغرم⁷، ولا شك أن الفراغ الكبير الذي يعيشه الأبناء في الأرياف مع عدم انتظام العمل الزراعي المتسم بالموسمية، تسببت في دخول بعضهم طريف الفساد والشر⁸.

ويمكن القول في الأخير أن رعاية الأطفال لم تكن أمراً هيناً، فكلما كبروا في السن، زادت همومهم ومشاكلهم، وتفاقت مسؤوليات الآباء خاصة الأم، التي تعتبر الحاضنة والمرضعة والمربية، فهل اكتفت المرأة

¹ قرني، المرجع السابق، ص 214.

² فتحة، المرجع السابق، ص 109.

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص ص 959، 960.

⁴ نفسه، ج 1، ص 320.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 444.

⁶ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 54.

⁷ نفسه.

⁸ قرني، المرجع السابق، ص 214.

الريفية بهذه الأدوار؟

ب- المرأة الريفية ومكانتها:

حظي موضوع المرأة وحضورها في المجتمع الأندلسي باهتمام بالغ من طرف الباحثين، فتنوعت مجالات الدراسة، لكنها للأسف الشديد ركزت على المرأة في مجتمع المدينة¹، إذ لا تكاد المرأة الريفية تذكر إلا فيما ندر ويعود السبب ربما إلى ندرة النصوص المصدرة، وهو ما شكل صعوبة كبيرة عند تناول هذا الموضوع، لكن يمكن تجاوز هذه الصعوبة نسبيا بالاستفادة من النصوص النوازية، وما ورد من إشارات عابرة في بعض النصوص الأخرى، لتكوين صورة مقربة، عن وضعية المرأة في محيطها الضيق داخل الأسرة، ثم من خلاله مكانتها وإسهاماتها في المجتمع الريفي.

وأول مسألة تبرز حالة المرأة في الريف الأندلسي، هي الحق في التملك فتكشف نوازل العصر عن بعض هذه الأملاك، التي تنوعت بين الحيوانات² والأراضي الفلاحية، والتي آلت إليها بطرق مختلفة كالميراث والحبس، والصدوق وفي بعض الأحيان عن طريق الشراء، فقد ورثت بعض النسوة أملاكاً شاسعة مثل أم ناجية المعروفة بهتتي ابنة محمد بن فرج بقرية مريانة الغافقي بإقليم الشرف³، وفي نازلة أن امرأة في قرية طالبت أخاها حقها من أملاك أبيها⁴، وآل انتفاع بنتين بأملاك أبيهما في قرية بسبب حبسها عليهما⁵ وكان لنساء في ريف بطليوس أرض محبسة⁶، وحبس رجل على أمي ولده سرية وهناء العيش جميع أملاكه

¹ انظر على سبيل المثال: حميدي، المرجع السابق؛ راوية عبد الحميد شافع، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط قرطبة، ط1، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2006؛ رقية بن خيرة، الجسد الأنثوي والمجتمع الأندلسي (ق5-6هـ / 11-12م) قراءة في صوره وتمثالاته " عصور جديدة" العدد 19-20، 2015، ص ص 177-192؛ زهور أربوح، أوضاع المرأة بالغرب الإسلامي من خلال نوازل المعيار للونشريسي دراسة فقهية اجتماعية، ط1، الرباط، دار الأمان، 2013؛ سعاد بنت عبد الله بن عبد العزيز البيحان، المرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين (453-541هـ / 1061-1116م)، مذكرة ماجستير غير منشورة، إش محمد بن صالح السحيباني، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1435-1436هـ.

² ابن الحاج، المصدر السابق، و 106.

³ نفسه، و 7-9.

⁴ ابن بشتغير، المصدر السابق، ص 188.

⁵ نفسه، ص 235.

⁶ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 838؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، 437.

بقرى معينة، كانت بينهما على السواء¹.

وشهدت عقود الزواج بامتلاك بعض النساء لممتلكات زراعية وعدد من رؤوس الأنعام، وقد تم إيراد أمثلة عن السياقات التي قدمها الأزواج لزوجاتهم في عقود الزواج²، ما يبرز أن الزواج كان من أهم مصادر التملك للمرأة في المجتمع الريفي في الأندلس.

بالإضافة إلى ذلك فإن بعض النسوة كان لهم استقلالية مالية فاكسبن الأملاك عن طريق الشراء فتذكر نازلة أن امرأة اشترت جنة في ريف بلنسية، احتوت على ضروب من الشجر، وأنواع من الغراسات المثمرة وغير المثمرة³، وامتلكت امرأة نصف أرض، واشترى زوجها النصف الثاني، وبعد مدة طالبت ذلك النصف، مدعية أنه اشتراه لها بمالها وأمرها⁴، بينما اشترت امرأة من زوجها فداناً، فدفعت جزءاً من الثمن وما تبقى منه ديناً على ذمتها⁵، لكن يبدو أن حالات الشراء لم تكن ميسورة لكل النسوة، وقد دلت عليها قلة النوازل مقارنة بمصادر التملك الأخرى.

وما يبرز حقيقة وضعية المرأة في هذا المجتمع، الحرية المطلقة التي تمتعت بها في التصرف في هذه الأملاك، سواء بالبيع والصدقة والهبة والحبس، فمن ذلك أن امرأة باعت أرضاً لها بقرية أطرانة⁶، وباعت امرأة أخرى أرضاً لها إلى رجل، ثم خالفت البيع الأول وباعتها إلى رجل آخر⁷، واكتسبت امرأة بقرية شتيمة بنت خليف، من إحدى أقاليم قرطبة، مبلغاً مالياً مهماً نتيجة بيع أملاك زوجها المتوفى⁸، وأثبت عقد بيع كان طرفاه نسوة، حرية المرأة في بيع الأملاك وشرائها⁹.

كما استغلت المرأة أملاكها في أوجه البر المختلفة، ففي نوازل الشعبي أن امرأة كان لها دار وأحقال

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1207.

² يمكن مراجعة العنصر المتعلق بالزواج.

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1071.

⁴ ابن بشنغير، المصدر السابق، ص 225.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج5، ص 233.

⁶ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 378.

⁷ الشعبي، المصدر السابق، ص 201.

⁸ حميدي، المرجع السابق، ص 357.

⁹ انظر الملحق رقم 03 بعنوان: "عقد بيع بين امرأتين".

تصدقت بهما على ابن لها، فلم يزل الابن يعمر الأحقال، والأم ساكنة في الدار حتى يوم وفاتها¹ وتصدقت امرأة أخرى على ابن لها، أيام بني عباد بجهة من الجهات²، وتصدقت أخرى على ابن أخيها بنصيبها من الأرض³.

لكن يبدو أن المرأة في بعض الأحيان تعرضت للظلم في أملاكها، فحرمت بعض النسوة من أملاك أبيهم بسبب تسلط الأقارب، ومنعهن من الميراث، وهو ما أدى بها في كثير من الأحيان إلى اللجوء إلى القضاء لاسترداد الحق الضائع⁴، أو يمكنها اللجوء إلى الحاكم أو حتى الأمير إذا كان المتعدي على الحق صاحب نفوذ، مثل المرأة الشلبية التي اشتكت ظلم واستبداد ولاية بلدها وصاحب خراجها، إلى المنصور أبي يوسف يعقوب الموحيدي، فأنصفها ورفع الظلم عنها، وكانت سببا في رفع الظلم عن بلدتها⁵.

وإذا وجدت هذه المرأة آذانا صاغية، وحفظت المصادر شكواها، فإنه ربما قد وجدت أخريات فقدت أراضيهن ولم تصل شكواهن، أو منعهن الفتنة من المطالبة بالحق الضائع، وفي هذا الصدد يذكر ابن رشد أن امرأة لها أملاك منزلة أيام بني عباد، وكانت هذه الأملاك بيد غيرها يعتمرها بالإنزال المذكور، ولا تستطيع المرأة منعه، ولا أن تخرجها من يده، ولا تقبض شيئا من كرائها⁶، ولا شك أن المنزل في أملاكها صاحب نفوذ عن بني عباد، لذلك لم تقدر على فعل شيء.

وما يمكن قوله أن المرأة الريفية اكتسبت الأملاك في الريف الأندلسي، وتمتعت بحرية التصرف فيه كما تمتعت بحق الدفاع عن هذه الأملاك من كل محاولات التعدي خاصة في الأيام العادية.

وتعتبر المرأة الريفية عنصرا هاما في الأسرة، فهي تقوم بالعمل في البيت وخارجه⁷، فبالإضافة إلى

¹ الشعبي، المصدر السابق، ص 20.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص 293.

³ نفسه، ص 206.

⁴ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 1، ص 511؛ الشعبي، المصدر السابق، ص 182؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج 3، ص 1407، 1408؛ البرزلي، المصدر السابق، ج 5، ص 256.

⁵ المراكشي، المصدر السابق، 495؛ حميدي، المرجع السابق، ص 128، ص 361؛ السيد عبد الهادي، المرجع السابق، ص 271.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص 293.

⁷ دندش، المرجع السابق، ص 303؛ اليحيان سعاد، المرجع السابق، ص 81، ص 177؛ حميدي، المرجع السابق، ص 370؛ لعناني، المرجع السابق، ص 71.

الأعمال المنزلية المنوطة بها تشارك في العمل الزراعي وتقوم بمختلف الأنشطة المرتبطة به، فكانت بعض النسوة تقوم بمشاركة الزوج في الزرع والحصاد غيرها¹، وأشارت نازلة أن قوما ذوي قرابة كانت لهم أملاك مشتركة، ويحرق كل واحد ما أمكنه على سبيل التوسع، ويتداولون حرثها وزرعها عاما بعد عام، وكانت توجد بينهم امرأة²، وزارعت امرأة رجلا حصة لها في قرية³.

وتزداد أهمية المرأة في العمل الزراعي في مواسم القطف والحصاد التي تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة، فتقوم المرأة بتحضير الطعام والمساعدة في هذه الأعمال، حيث ذكرت نازلة أن شريكين في زرع خرجا للحصاد فأعدت امرأة أحدهما خبزا للعمال، ثم قامت والتقطت خلف الحصادين⁴، كما كانت تشارك في جني محصول العنب والتين، خاصة في المناطق التي تشتهر به، مثل أرياف غرناطة ومالقة، فقد كان النسوة يخرجن بجانب الرجال إلى حقول العنب والتين، يمكثون أياما يجمعون خلالها المحصول⁵، وقد يضطر بعضهم إلى الاستعانة ببناتهم المتزوجات في هذا العمل إذا دعتهم الحاجة إلى ذلك⁶، وأوكلت لبعض النسوة مهام أخرى لها علاقة بالمحافظة على المحصول، مثل الحراسة فقد شاهد أحدهم نساء يقمن بحراسة البساتين⁷.

كما قامت المرأة بتربية صنف من الحيوانات، فيذكر ابن الحاج أن امرأة لها جملة من البقر⁸ وأسهمت نساء أخريات في تربية دودة القز المنتجة للحرير خاصة في أرياف جيان⁹، حتى عدها بعضهم من المتخصصات في ذلك بسبب براعتهم¹⁰، وكانت مهمة تربية أنواع من الطيور والدواجن تقع على عاتق

¹ الشعبي، المصدر السابق، ص 182؛ محمد بن أحمد الأموي المعروف بابن العطار ت 330-399هـ، كتاب الوثائق والسجلات،

تح. ب. شلميتا و ف. كورينطي، مدريد، مجمع الموثقين الجريطي و المعهد الإسباني للعربي للثقافة، 1983، ص 66.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص 206.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 166.

⁴ البرزلي، المصدر السابق، ج 2، ص 72.

⁵ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص 423؛ قاسم الطويل، المرجع السابق، ص 259، حميدي، المرجع السابق، ص

362. انظر أيضا عن المرأة التي كانت تخرج إلى حقول العنب والتين لتساعد زوجها. الشعبي، المصدر السابق، ص 166.

⁶ عياض وولده، مذاهب الحكماء، ص ص 273، 274.

⁷ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص 166.

⁸ ابن الحاج، المصدر السابق، و 106.

⁹ نفسه، و 80، 81؛ المقرئ، نفح الطيب، ج 3، ص 217.

¹⁰ قرني، المرجع السابق، ص 215؛ 285، Provençal, op. cit, t3, p 285

المرأة¹، ولا شك أن إشرافها على تربية هذه الأنواع من الحيوانات مرتبط بمسؤوليتها في إنتاج أنواع من السلع التي توجه للاستهلاك العائلي، أو تسوق في مختلف المناطق.

وفي هذا الصدد تذكر بعض المصادر أن المرأة الريفية استغلت ما توفره الثروة الحيوانية في بيعتها من صوف وكتان وحرير، فتقوم بغزلها، ونسجها وعملها²، وقد اشتهرت بعضهن بالبراعة والاتقان وكثرة الانتاج فحنت من ذلك أموالا هامة³، وجعلت بعضهن ما ينتج من غزل أيديهن صدقة⁴، وهو ما يعطي صورة واضحة أن نساء المجتمع الريفي، كان أكثر اشتغالهن في غزل الصوف.

كما كانت المرأة تقوم بحلب الأبقار والماعز وتستخرج ما يشتق منه بواسطة المخيض، فتنتج إضافة إلى الحليب واللبن، الزبدة والسمن والأجبان⁵، وتقوم بإعداد الطعام وصناعة الخبز بنفسها، لأن الريف الأندلسي غير المدينة التي يباع فيها الخبز جاهزا⁶. وبهذا تكون المرأة الريفية قد أثبتت حضورها في مجتمعاتها، بما تسهم به من أعمال لصالح أسرتها، وربما يتعدى النفع إلى الغير عن طريق التجارة.

ويظهر ذلك جليا في القرى التي تقع على طريق المسافرين، وهو ما يفهم من قول المقرئ عن الأندلس: "وحيث ما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والشعاري والأودية ورؤوس الجبال، لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت، وغير ذلك من ضروب الأطعمة"⁷، ولا ريب أن أغلب هذه السلع من انتاج المرأة الريفية، كما يمكن أن تنقل بعض النسوة بعض السلع الريفية لبيعها في أسواق المدن القريبة من قراهن، فتدخل الأسواق حاملات القفف وفيها أنواع من السلع كالطيور⁸، وربما ما شجعها على ذلك أن بعض الأسواق احتوت على أماكن خاصة بالنساء كسوق الغزل والنسيج، كما أنهن كن محفوظات

¹ حميدي، المرجع السابق، ص 370؛ قرني، المرجع السابق، ص 215.

² ابن الحاج، المصدر السابق، و 80، 81؛ الشعبي، المصدر السابق، ص 445؛ الخشني، المصدر السابق، ص 69؛ ابن عبدون،

المصدر السابق، ص 55؛ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 87؛ المقرئ، نفح الطيب، ج 3، ص 339.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج 9، ص 128.

⁴ نفسه، ج 2، ص 79.

⁵ دندش، المرجع السابق، ص 303؛ حميدي، المرجع السابق، ص 370؛ قرني، المرجع السابق، ص 215.

⁶ دندش، المرجع السابق، ص 303.

⁷ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 226.

⁸ يحمل المثل العامي القائل " بخل ورّ في قفّ، كل شي داخل إلا الرأس " دلالة نقل الطيور إلى الأسواق لبيعها. انظر: الزجاجي، المصدر السابق، ج 2، ص 151.

الجانب من خلال الدور الذي يقوم به المحتسب، من أي محاولة للتعدي أو التحرش¹.

ولا شك أن هذا النشاط المتعدد له ما يبرره، فالحياة القاسية التي تميز الحياة الريفية، والمستوى المتدني للأسرة، جعل العلاقة بين الرجل والمرأة قائمة على التعاون والتضامن، فكانت إلى جنبه بهدف توفير القوات لأفراد الأسرة²، ولهذا لم تذق ربما طعم الترف إلا نادراً³، بل حرمها انشغالها من ناحية، وبعدها عن مراكز الحضارة في المدن من ناحية أخرى، من الإقبال على تلقي العلوم المختلفة⁴، ولهذا من النادر إيجاد امرأة في المجتمع الريفي، برعت في ميدان من ميادين العلم، عكس المرأة في المدينة، وما ينهض دليلاً على هذا الاستنتاج، نازلة وردت عند ابن رشد، في نزاع امرأة مع أخيها في ملك أبيها الموزع في عدة قرى، وحينما سئلت البينة في ادعائها، أجابت: " نذكر البيع ولا نذكر في أي ملك، ونحن أميون لا نقرأ ولا نكتب، وإنما نذكر إسهادا على بيع"⁵.

ويبقى في الأخير الإشارة إلى مسألة مهمة، وهي خروج المرأة الريفية من عدمه، والذي يبدو من خلال ما سبق ذكره، أن خروجها من المنزل كان أمراً ضرورياً، إذ لا يعقل أن تقوم المرأة بالمشاركة في النشاط الفلاحي وتربية الحيوانات، وإنتاج السلع المرتبطة بها وبيعها، دون أن يتم جل ذلك خارج المنزل، وإذا لم يكن لها شغل غير الاهتمام ببيتها، فإن من عادة نساء المجتمع الريفي أن يخرجن للاستقاء أو غسل الصوف أو الاحتطاب⁶، وينقل ابن عذاري صورة عن عادة خروج المرأة لجلب الماء، حيث تحمل المرأة الجرة على كتفها⁷، كما كان من عادتها خروجها بادية الأطراف والوجه، في ملابس بسيطة عملية تساعد على

¹ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 87؛ شافع، المرجع السابق، ص 174؛ شافع، المرجع السابق، ص 174؛ محمد المنوبي وآخرون، التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، ط1، الرباط، شركة النشر والتوزيع الدارس، 1991، ص 191؛ دندش، المرجع السابق، ص 303؛ حميدي، المرجع السابق، ص 371؛ بن خيرة، المرجع السابق، ص 183.

² خالص، المرجع السابق، ص 91؛ بولعراس، المرجع السابق، ص 72.

³ يستثنى منها بعض النساء الموسرات التي تساعدن الخدم والعبيد، والتي غالباً ما تكون في الأسر التي لها أملاك واسعة، وهي في الغالب تقطن المدينة، وتقصد الريف لتمضية بعض الوقت والترويح عن النفس، وقد سبق الحديث عن هذا الأمر في فئات المجتمع الريفي، وينظر أيضاً: دندش، المرجع السابق، ص 303.

⁴ اليحيان سعاد، المرجع السابق، ص 82.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1566.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج4، ص 475.

⁷ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 103.

انجاز مختلف الأعمال¹.

وفي الأخير يمكن القول أن المرأة الريفية، تمتعت بقدر كبير من الحرية، وقد استغلت أملاكها وقدراتها للمساهمة في النشاط الاقتصادي على وجه الخصوص، دافعها في ذلك مساعدة الزوج لتوفير لقمة العيش وهو ما يعكس صورة العلاقة بين أفراد الأسرة في المجتمع الريفي في الأندلس.

3- العلاقات الأسرية:

تختلف العلاقات داخل الأسرة باختلاف أطرافها الفاعلة فيها، فبينما تقتصر على الزوجين من جهة وعليهما وعلى الأبناء من جهة أخرى داخل الأسرة النووية، تتعداها إلى الأجداد والأعمام في الأسرة الكبيرة.

أ- العلاقة بين الزوجين:

تكشف بعض النصوص عن حالات من المودة والرحمة والتعاون والتضامن بين الزوجين، وتبدأ هذا العلاقة قبل العرس والبناء، حيث جرى العرف في المجتمع الأندلسي عموماً أن يقدم الزوج لزوجته أنواعاً من السياقات، وقد تمثلت السياقات عند المجتمع الريفي، في بعض الأملاك الفلاحية كالأراضي وأنواع من الحيوانات، وكان الهدف من هذه السياقات إدخال السرور إلى قلب الزوجة، وفي الوقت ذاته مظهر من مظاهر حسن معايشة الأزواج لزوجاتهم قبل البناء².

وخلال طول فترة الزوجية تظهر أمثلة عديدة يبرز فيها مدى الحب القائم بين الزوجين، فتذكر بعض النوازل مراعاة الزوجة لضعف حالة زوجها المادية، فتهبه رباعاً بمجش³، أو شرب ماء من سانية⁴، أو تتنازل عن كالي صدائها، أو تهبه له، أو جزءاً منه⁵، وعرفت بعض الزوجات بالصبر على أزواجهن، فتجد الزوجة توكل زوجها في أملاكها وتمتعه بإياها دون أن تطالبه بشيء من الأرباح، أو تسأله عن هذه الأملاك، فإذا

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص 165؛ قرني، المرجع السابق، ص 231.

² يمكن مراجعة العنصر المتعلق بتكوين الأسرة الريفية، حيث تم ذكر العديد من الأمثلة الدالة على حسن معايشة الزوج لزوجته قبل البناء.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 125.

⁴ نفسه.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 177، 178؛ عياض، مذاهب الحكماء، ص 131؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 125، ص 143، 144.

توفي تطلب حقها من الميراث¹.

لكن يمكن أن تضطرب العلاقة بين الزوجين، فيحدث تشاجر بين الزوجين²، وهو أمر طبيعي يعود إلى الضرر الذي يلحق بأحد الطرفين، وقد تنتهي العلاقة بسبب ذلك إلى الانفصال أو الوقوف أمام القاضي، لمحاولة استرجاع الحق الضائع، فمن مظاهر ذلك نشوز الزوجة وخروجها عن طاعة زوجها ورجوعها إلى بيت والديها ورفضها العودة إلى الزوج، فأفتى ابن الحاج أن النفقة تسقط الزوج كونها ناشز³ واشتكت بعض الزوجات ضررا لحقهن من أزواجهن، أو أخذ أموالهن بغير إذنهن، مما اضطرهن إلى الاستعانة بالآباء أو استعمال شرطهن المثبت في عقد الزواج⁴، ولا شك أن الحالة هذه إنما ظهرت ربما نتيجة الضرر الكبير الذي لحق بهن، لأن النساء في الغالب كما ذكر سابق صابرات على أزواجهن.

وقد يتضرر الأزواج من زوجاتهم، نتيجة العيوب التي تظهر، فتنتهي العلاقة الزوجية مبكرا⁵، كما يمكن أن تنتهي العلاقة الزوجية بالطلاق الصريح⁶، أو بسبب الشروط التي تتضمنها عقود الزواج، مثل الرجل من كورة باغة الذي كانت له طليقة، وتزوج من امرأة وشرط أنه متى راجع طليقته، فهي طالق، وبعد وفاة زوجته راجع طليقته، فأتى ابن رشد أن تطلق منه ومتى راجعها فهي طالق⁷، أو يكون الزوج جاهلا بعواقب الأيمان اللازمة - طلاق الزوجة ثلاثا -، فيستعمله في خلافه مع زوجته، فقد ذكر ابن رشد أن رجلا من البادية تشاجر مع زوجته وحلف بالأيمان اللازمة عليه إن جامعها إلى تمام ثلاثين يوما، فجامعها قبل تمام الأجل المذكور، فطلقت منه⁸، ويبدو أن هذه الحالات قليلة، لأن الشائع في أرياف الأندلس، أن الأيمان اللازمة توجب طلاق الثلاث على الزوجة⁹.

وما يمكن قوله في العلاقة بين الزوجين، أنها كانت قائمة على التعاون لمجابهة صعاب الحياة في هذه

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص 323.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 1111، 1112.

³ كعواس، المرجع السابق، ج2، ص ص 526، 527.

⁴ عياض وولده، مذاهب الحكام، ص ص 273، 274.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص ص 130، 131؛ كعواس، المرجع السابق، ج1، ص 318.

⁶ كعواس، المرجع السابق، ج1، ص 360.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص ص 1355، 1356.

⁸ نفسه، ج2، ص ص 1111، 1112.

⁹ الونشريسي، المصدر السابق، ج4، ص 137.

البيئة القاسية، لكن قد يحدث شجار بين الطرفين، ينتهي في بعض الأحيان إلى الانفصال، لكن يلاحظ غياب ظاهرة الخلع، حيث لم ترد إشارات عن المجتمع الريفي في هذا الخصوص، وهو ربما ما يظهر ذهنية المجتمع الريفي الرافض لهذه الوسيلة.

ب- العلاقة بين الآباء والأولاد:

حرص الآباء على رعاية أبنائهم وغرس الأخلاق التي جبلوا عليها فيهم، وأغدقوا عليهم بمختلف الهبات والصدقات والأحباس لتكون لهم عوناً في قادم أيامهم، ولم يفرقوا في ذلك بين الذكر والأنثى، وهو ما يظهر صورة التراحم التي ميزت الأسرة الريفية، فمن ذلك النحل التي قدمها الآباء لمساعدة أبنائهم على بناء بيت الزوجية¹، كما أبرزت الأحباس في المجتمع الريفي التي كانت عبارة عن أراضي فلاحية على اهتمام الآباء بمستقبل الأبناء، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، بل تعداه إلى بنيتهم وبني بنيتهم ما تناسلوا²، وتعهد رجل في مرض وفاته بجميع ملكه من عقار وحيوان لأسباطه³، ومن مظاهر الإحسان والتراحم، أن يتطوع بعض الآباء بالإنفاق على أبنائهم المتزوجين مدة معلومة، وإسكانهم في ديارهم، وإعطائهم جزءاً من غلات الضياع⁴، وتصدق رجل على ابنه بأرض وحديقة أعناب ودور وأرجاء⁵

وبالمقابل فإن الآباء تلقوا كل الاحترام من أبنائهم، فأظهروا لهم الطاعة في أوامرهم⁶، وتجنبوا الرد عليهم إذا ما تعرضوا لأنواع من التوبيخ⁷، وفي حال كبر الآباء وعجزهم عن الاهتمام بأنفسهم، أو بلوغهم درجة الفاقة والحاجة، فإن الأبناء في المجتمع الأندلسي عموماً، اهتموا بآبائهم بالقيام بمختلف شؤونهم، أو بالنفقة أو الإسكان، وحظهم على ذلك الفقهاء⁸، ومن مظاهر ذلك في المجتمع الريفي، أن رجلاً في ريف

¹ ورد في الدراسة في العنصر المتعلق بتكوين الأسرة، العديد من الأمثلة الدالة على ذلك، يمكن الرجوع إليها.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص620، ج2، ص1043، ج3، ص1358؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج5، ص175، ج7، ص226، ص459، ج9، ص157.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص ص408، 409.

⁴ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص812.

⁵ نفسه، ص ص885، 886.

⁶ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص244.

⁷ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج5، ص230؛ لعناني، المرجع السابق، ص85.

⁸ حسبلاوي، المرجع السابق، ص ص375، 376.

بطليوس أشهد على نفسه أنه وهب أمه ثلث قرية معينة، وفيها رحي¹، وفي مقابل ما وهبت أم لابنتها من أملاك، التزمت البنت بالإنفاق على أمها أمد الحياة².

وإذا كانت الهبات والصدقات قد عززت من الروابط الأسرية، فإنها في المقابل أحدثت العديد من المشاكل، فقد خاصمت بنت أباهها، وطالبته بعد زواجها بالعقارات التي تصدق بها عليها، فأبى ذلك وادعى أنه أنفق عليها مقدار ما يعادل الصدقة، بينما نفت هي ذلك مدعية "أن للأملاك مستغلا قدر الخمسة عشر دينارا كل عام"³، وقد يفضل الوالدان أحد الأبناء في الصدقة، فيغضب بقية الإخوة، فيحلف أن لا يدخل بيت المتصدق، أو ربما يهجره⁴، وقد يهجر الابن أباه بعد وفاة والدته ويقاطعه، بسبب إقدام الأب على الزواج مرة ثانية⁵، وقد يخاصم الولد أمه الوصية على ماله، ويحاول إسقاط وصايتها مدعيا أن بها سفها⁶.

ج- العلاقة بين الإخوة وبقية أفراد الأسرة:

شكل ما يتركه الآباء بعد الوفاة من أملاك وعقارات، مثار خلاف بين أفراد الأسرة عموما، خاصة بين الإخوة، أو بينهم وبين الأعمام من القرابة القريبة، أو بينهم وبين أفراد الأسرة من القرابة البعيدة. ومن الطبيعي أن يحدث الخلاف، نتيجة استحواذ أحد الإخوة على ميراث الأب، وحرمان بقية إخوته منه، فمن ذلك أن رجلا توفي في قرية، وخلف أملاكا فيها وفي غيرها، فاستغل ابنه هذه الأملاك بمفرده، وبعد مرور ثلاثين سنة قامت عليه أخته تطالب بحقوقها في هذه الأملاك⁷، وقامت أخت على أخيها في قرية، تدعي حقا لها من أملاكه الموروثة عن أبيهما⁸، وفي إحدى أرياف كورة باغة، توفي رجل عن زوجة وابن كبير وابنة صغيرة، وخلف أملاكا فاستحوذ الابن على جميع الأملاك واستغلها مدة تقرب من خمس

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص19.

² نفسه، ص285.

³ نفسه، ج9، ص177.

⁴ نفسه، ج4، ص210.

⁵ عياض وولده، مذاهب الحكام، ص ص 212-214.

⁶ ابن الحاج، المصدر السابق، و 271؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص ص 389، 390.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص ص 1566، 1567؛ ابن الحاج، المصدر السابق، و 281.

⁸ ابن بشتغير، المصدر السابق، ص 188.

وعشرين سنة، وبعد وفاته قامت الأخت تطالب بحقها من الميراث وما اغتلت طول فترة الاستحواذ¹ واستحوذ آخر على ملك أبيه وحرّم أختيه مدة طويلة، ولم تطالباه طول فترة حياتهما بحقهما في ذلك، وبعد وفاتهما قام أبنائهما بالمطالبة بحقهما من الميراث².

يدل تكرّر هذه النازلة في الريف الأندلسي على ذهنية المجتمع الريفي، المتمثلة ربما في شيوع سلطة السن داخل الأسرة³، فرغم حدوث الظلم إلا أن أفراد الأسرة لم يطالبوا بحقوقهم، بسبب حيائهم من الأخ الأكبر، أو خوفهم منه، فلما زال المانع طالبوا بهذه الحقوق، وما يؤكّد ذلك أن رجلاً لم يطالب أخاه بحقه من ميراث أمه مدة ثمانية أعوام، خوفاً على نفسه منه لأنه هدده بالقتل، فهو معروف من أهل الشر، وأنه من أهل الخرابة والقتل، فلما مات طالب بحقه⁴، ومكنت سلطة السن أخا أكبر من أن يزيد في ملكه، فقد أشارت نازلة أن والدا وزع على أبنائهم ملكه في القرية، ربع زوج به الابن الأكبر، ووزع الباقي على أبنائه الصغار، وبعد وفاة الأب قام الابن الأكبر واقتسم مع إخوته حظهم⁵.

وقد يحدث النزاع بين الإخوة على الصدقات والهبات التي منحها الآباء لأبناء دون آخرين، وبعد وفاته يسعى المحرومون من هذه الصدقات إلى إبطال تلك الصدقات وضمها في الميراث، فمن ذلك أن أختاً نازعت أخاها بعد وفاة أمها، وأرادت إبطال ما تصدقت به عليه المتوفية، من دور وأحقال وضمها إلى الميراث⁶، وتنازع إخوة في مال صار إلى بعضهم دون آخرين، من أملاك باعها أبوهم من ميراث أمهم⁷ بينما قام أخوان على أختيهما، يدعيان ملكاً لهما في أملاك حبسها الأب على البنّتين في إحدى القرى⁸.

كما يمكن أن يحدث النزاع بسبب سوء القسمة، أو شكوى أحد الإخوة بالغبن، فمن ذلك نازلة حدثت بقرية أفيانش، حيث تنازعت أختان في ملك أبيهما فوكلت كل منهما زوجها عنها، فطلب أحدهما

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص ص 1407، 1408.

² نفسه، ج1، ص ص 301-303.

³ كعواس، المرجع السابق، ج2، ص 864.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص 291.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص ص 147، 148.

⁶ الشعبي، المصدر السابق، ص 203.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1636.

⁸ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج2، ص 809.

أن موكلته تدعي الغبن في القسمة، بينما رفض الآخر الإعادة، لأن موكلته تدعي صحة القسمة¹، وتسبب أخ في هجرة أخته من بلدها ثم وفاتها، بسبب إخلاله بشروط بيع أملاكها من ميراث أبيها له، فقد تعهد أن يضمن ما يكفيها من الإنفاق عليها وعلى أولادها مدة حياتها، لكن بعد مدة توفى عن ذلك، وبعد وفاة الأخت قام أولادها يطالبون باسترجاع ملك أمهم²، بينما اشتكى زوج امرأة الغبن في عقار، باعتته أختها في قرية قيريلش في سفح جبل قرطبة مدعياً أن العقار يساوي أكثر من الثمن الذي بيع به³.

ولم يقتصر الخلاف على الإخوة فقط، بل قد يتعداه إلى الأعمام وأبنائهم، ومرد ذلك إلى بقاء الميراث دون قسمة فترة، فيهلك الورثة المباشرون أو بعضهم، فيطالب من له حق بحقه، ويكون الخلاف في أصل تلك الأملاك هل هي أملاك المتوفي الأول آلت إلى الثاني بالاستحواذ أم أنها ملك خالص للمتوفي الثاني؟ فمن ذلك أن امرأة قامت على أبناء أخيها تطالبهم بحقها في ميراث أبيها التي أقرها أخوها لها، ولم يعلم الورثة بهذا الإقرار⁴، ونازعت زوجة في إحدى القرى الأندلسية، عم أولادها من أجل استرجاع ملك زوجها المتوفي الذي صار إليه من هلاك والده، وكان مالا كثيراً⁵. بينما قام ورثة هالك على رجل قدمه أخوه الهالك للنظر في أملاكه بما ينفع، لكن المقدم استأثر بالأملاك⁶. وفي قرية من إقليم أبي مريم بقرطبة، أن رجلاً توفي وترك زوجة وابنة، فقام قوم ادعوا أنهم عصبة الميت بنو عمه لأبيه⁷، ورغم أن هذه النازلة لا تشير إلى نزاع إلا أنها أبرزت رغبة أبناء العمومة في بقاء الملك عندهم، إذ يؤول إليهم بعد أن تأخذ الزوجة والبنت فريضتهما، بينما تشير نازلة في قرية شتيمة البربر، إلى تنازع هشيمة ابنة سعيد بن مزين، وابن عمها محمد بن جعفر بن مزين في ملك أبيها⁸.

لا شك في أن هذه النصوص، أبرزت بشكل جلي اضطراب العلاقة بين مختلف أفراد الأسرة، ومرد

¹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 668.

² عياض وولده، مذاهب الحكام، ص 219.

³ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج1، ص 215.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص 302.

⁵ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج2، ص 806.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 960-963.

⁷ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 178.

⁸ نفسه، ج2، ص 511.

ذلك كله إلى محاولة البعض منهم اقضاء الآخرين من حق فيما خلفه الهالك من هذه الأسرة، وهو ما يعتبر نوعاً من أنواع التعدي.

هذا ولا يعني بالضرورة غياب مظاهر التسامح بين الإخوة في هذا المجتمع، فقد دلت نصوص أخرى على التزام بعضهم بأوامر الشرع، أو أنهم فضلوا التنازل على الأملاك من أجل الحفاظ على أواصر الأخوة داخل هذه الأسرة، فمن ذلك "أن امرأة اطلعت على جميع تركة أبيها، وعلمت نصيبها منها... وأشهدت أنها ساحت إخوتها في نصيبها، وأبرأتهم منه براءة تامة مطلقة عامة لم يبق لها معهم بعدها من تركته حق وشكرتها أمها على فعلها، وكافأتها بدراهم أعطتها"¹، ولم يكن هذا الفعل كما يبدو إلا رحمة بإخوتها وعطفا عليهم، بينما أشهدت بنتان على إمضاء والدهما جميع داره مع أرض له لأخويهما²، وفي بعض الأحيان لا يتم التنازل، وإنما يسكت أحدهم عن حقه لأخيه، ينتفع بالملك وغلاته "على وجه الإحسان والمجاملة"³ وهي صورة أخرى تظهر فيها معاني الرحمة والعطف بين الإخوة.

وما يمكن استنتاجه، أن الأسرة الريفية عرفت مظاهر التراحم والتلاحم بين أفرادها، سواء بين الآباء وأبنائهم، أو بين الإخوة فيما بينهم، بل تعداها إلى أفراد أبعد في القرابة، كما عرفت صراعات ونزاعات بسبب التسلسل وحب الذات عند بعض الأفراد.

ثانياً/ المستوى المعيشي للمجتمع الريفي:

يرتبط تحديد المستوى المعيشي لأي مجتمع بثلاث عناصر أساسية، تشمل الغذاء والمأوى واللباس وتتأثر هذه العناصر عادة بالظروف التي تعرفها البلاد، فتتحسن في فترات الرخاء، وتنحط إبان الأزمات⁴ فكيف كانت حالة المجتمع الريفي المعيشية؟

1- الغذاء في المجتمع الريفي:

أ- ألوان الطعام وخصائصه:

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص 502.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 959، 960.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص ص 270، 271.

⁴ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 210.

تكاد تنعدم الإشارات التاريخية الخاصة بغذاء المجتمع الريفي، وهذا ما يشكل صعوبة كبيرة تجعل الباحث، يتناول هذا الموضوع ضمن غذاء المجتمع الأندلسي بشكل عام، مع إبراز بعض الخصوصيات التي تميز غذاء المجتمع الريفي النابعة من خصوصيات هذا المجتمع، أو من خلال الإشارات القليلة التي توردها بعض النصوص.

ولا شك أن ما يميز غذاء المجتمع الريفي أنه نابع من البيئة الريفية المحيطة به، فالمكونات الغذائية لا تخل من عناصر نباتية أو حيوانية أفرزها نشاطه الفلاحي، ويأتي في مقدمة هذا الغذاء القمح الذي يشكل غذاء رئيسيا للمجتمع الأندلسي عامة، وقد دلت على ذلك كتب الطبخ التي ذكرت أنواعا عديدة من الأطعمة، يكون الدقيق والخبز أحد أهم العناصر المكونة لها¹، كما كان هذا الغذاء حاضرا في النفقات المفروضة على الأوصياء².

ويصنع الخبز في الأيام العادية من الدقيق الصافي، أو يمكن أن يحتوي على كمية من النخالة، كما استعمل الشعير في إعداد الخبز، وقد شكل هذا الأخير أهمية كبيرة بالنسبة للفئات الهشة عموما نظرا لانخفاض ثمنه، كما كان يمزج بالدقيق الصافي أو النخالة³، ويعتبر خبز القمح والشعير أفضل أنواع الخبز، خاصة إذا أحكم طبخه، وتقل قيمته إذا تقادم عجنه وطبخه⁴، وهذا النوع من الخبز على الأرجح أن يكون غذاء العائلات الميسورة في المجتمع موضوع الدراسة، كما يمكن أن تجد بقية الفئات مبتغاها منه في المواسم التي يكثر فيها الانتاج.

وما يؤكد ذلك أن القمح والشعير لم يكن متاحا لكل فئات المجتمع الريفي في كل الأوقات والمواسم فالذرة كما يذكر ابن الخطيب كانت قوت الضعفة والبوادي والفعلة في الفلاحة في فصل الشتاء⁵، وربما

¹ سهام الدبابي الميساوي، الخبز طعاما في الأندلس في القرون الخامس والسادس والسابع الهجري (11- 12- 13 م) " دراسات أندلسية" العدد 07، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1992، ص 79؛ دايفد وينز، فنون الطبخ في الأندلس، تر. عبد الواحد لؤلؤة " الحضارة العربية في إسبانيا"، تح. سلمى خضراء الجيوسي، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ج2، ص 1030.

² كعواس، المرجع السابق، ج2، ص ص565، 566.

³ السقطي، المصدر السابق، ص 21، ص 26؛ قرني، المرجع السابق، ص 220.

⁴ أبو مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي ت557هـ، النشاط والقوة والشفاء في الأغذية وهو كتاب الأغذية، تع. محمد أمين الضناوي، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ص ص 08، 09.

⁵ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 137.

زهدت فيها الطبقة الغنية بسبب ضعف قيمتها الغذائية¹، فقل ثمنها وهو ما مكن الفئات الضعيفة من توفيرها².

وربما كان القوت اليومي لهذه الفئات بعض النباتات البرية، مثل القسطل الذي كان غذاء صالحا ويصنع منه خبز جيد فصلح أن يكون قوتا³، وفي بعض الأحيان كانت هذه النباتات ملاذا لتلكم الفئات الضعيفة من الجوع، فعبرت عنها المصادر بأنها كانت أقواتا عند الضرورة وفي أوقات الغلاء والمجاعة، مثل البلوط، والخروب والسفرجل⁴.

أما عن أنواع الأطعمة، فإن الإشارات المتوفرة لا تُمكن من إصدار حكم على مستوى التغذية عند المجتمع الريفي، لكن يمكن أن تعطي صورة عن خصائص هذه الأطعمة، ففي نازلة تشير إلى أن فئة الرعاة كان غذاؤهم بسيطا مما تنتجه الحيوانات التي يرعونها، فلا يتعدى أن يكون رغيفين مع إدام مكون من الزبد والسمن⁵، بينما يشير صاحب كتاب الطبخ، أن الرعاة في ريف قرطبة كان غذاؤهم قويا غليظا بطيء الهضم كثير الفائدة الغذائية، يطلق عليه المعلق والمقلو⁶، ولكن من خلال ما ذكره من مكونات يبدو أنها لا تعبر عن حقيقة غذاء هذه الفئة، التي عانت من ظلم أصحاب الماشية، كما تم الإشارة إليه سابقا وعبرت عنه النوازل الفقهية، وما يؤكد أن هذه الفئات الهشة لم تكن تحظى بغذاء كامل، إلا ما كان يسد جوعها، ما أشارت إليه نازلة من أن عمالا في موسم الحصاد، غذاؤهم خبز كانت قد أعدته إحدى نساء القرية⁷، وفي إشارة أخرى أن امرأة توصل غذاء إلى المزارعين في موسم الحصاد، مكون من خبز فطير وجبنة

¹ ابن زهر الأندلسي، المصدر السابق، ص 10.

² يقصد بهم فئة المزارعين الرعاة والعمال الأجراء، وبعض الملاك الصغار، وقد سبقت الإشارة إلى ضعف دخلهم، وتعرضهم للظلم خاصة أيام الفتن والاضطرابات. يمكن الرجوع إلى الفصل الثاني.

³ ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص 134.

⁴ نفسه، ص 111، ص 138، 139، ص 298.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 261؛ دندش، المرجع السابق، ص 307؛ فتحة، المرجع السابق، ص 278؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 180.

⁶ مؤلف مجهول، كتاب الطبخ في المغرب والأندلس، تح. أومبروزيو أويثي ميراندا، مدريد، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، 1961-1962، مج 9-10، ص 188.

⁷ البرزلي، المصدر السابق، ج2، ص 72.

ولبن وبصل كثير، الذي كان يستعمل لمقاومة شدة الحر¹.

بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الفئات يمكن أن تكون قد استعملت القمح والشعير والذرة لصناعة أنواع من الأغذية البسيطة مثل العصائد والأحساء، التي كان بعضها يقدم للمرضى من أجل تخفيف الحمى عليهم².

أما العائلات الميسورة، فيبدو أنها كانت تستطيع إعداد أطباق دسمة خاصة من الدجاج، الذي كانت تفضله وكثيرا ما تستعمله هذه العائلات في الضيافة، فقد أورد ابن بسام زيارة أحدهم إلى منطقة ريفية فاستضافه أحد السكان بديك ذبحه له تعبيرا له عن كرمه³، ويبدو أن لهم طريقة خاصة في إعداد الدجاج حتى سمي الطبق بـ: "دجاجة بدوية"، والتي يذكرها صاحب الطبخ بقوله: "تطبخ الدجاجة بالماء والملح والفلفل والبصل المدقوق والزيت الكثير، وتحمر ببيض وينثر عليها، وتقدم إن شاء الله"⁴.

واستغل سكان الريف الخضروات في غذائهم، والتي تكون في كثير من الأحيان عبارة عن حساء يمزج فيه أنواع عديدة من الخضروات مثل "الجناتية"⁵، التي يذكر صاحب الطبخ أن العادة عندهم أن تعمل في الجنات والبساتين، فيفهم منها أنها تعمل عند النزهة، كما يفهم منها أن أهل الريف يتناولونها بشكل مستمر حتى أصبحت عادة عندهم⁶، وما يميز هذه الأكلة أن مكوناتها تختلف باختلاف الفصل، ففي زمن الصيف والخريف فيها القرع والباذنجان والقثا والخيار والبصل، أما في فصل الربيع فالبحر والحبس والبسباس والبقول الأخضر المقشر والسلق والكزبرة⁷.

وكثيرا ما كان البيض بمختلف أنواعه غذاء رئيسا في أطعمة الأندلسيين فقد كانوا يستعملونه في كثير من أصناف الطعام، وكان في الغالب يخفق ويجعل طبقة تغطي الطعام المطبوخ، وفي بعض الأحيان يمزج

¹ بولعراس، المرجع السابق، ص 73.

² ابن زهر، المصدر السابق، ص 13.

³ ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص 678.

⁴ مؤلف مجهول، كتاب الطبخ، ص 140.

⁵ نفسه، ص 172.

⁶ يظهر ذلك في بعض المجتمعات في هذا الزمان، حيث تفضل عند اختيارها الريف مقصدا لنزهتها، أن تتناول الغذاء الذي يتميز به، مثل الرفيس والشخشوخة عند المجتمع الجزائري.

⁷ مؤلف مجهول، كتاب الطبخ، ص 172.

بالدقيق، ثم بعد ذلك ترش فوقه المطيبات، كما كان يقلى أو يطبخ في الفرن، أو يمزج بالجن ويقلى ويستعمل بالعسل¹، وقد وفرت البيئة الريفية هذا العنصر، فلا شك أن يكون استعماله منتشرا في أطعمة المجتمع الريفي.

واعتمدت القرى التي تقع على سواحل البحار أو ضفاف الأنهار أو القرية منهما في غذائها على الحوت، وذلك بسبب وفرته، فكثير من القرى التابعة لمدينة المنكب تعرف بصيد الأسماك²، بل إن بعضها اشتهرت به، مثل قرية بزليانة: "بها شباك يصاد به الحوت الكثير ويحمل منها إلى تلك الجهات المجاورة لها"³، وقد تعددت طرق تحضيره، فكان يصنع منه جميع ما يصنع من ألوان اللحوم والدجاج⁴، فيتناولونه مقليا أو مشويا أو مطبوخا على شكل حساء أو مرق⁵.

ومن الأغذية التي يرجح أن تكون حاضرة في هذا المجتمع، الزيتون الذي أكدت كتب الجغرافية عن وفرة إنتاجه، وشهرة بعض المناطق بهذا النوع من المحصول⁶، ويتم تناول هذا الغذاء طوال الموسم، إما على حالته أي زيتونا بعد أن يتم تخليله⁷، أو يصنع زيتا ويستعمل في عملية الطهي، بسبب وفرة إنتاجه فكان مفضلا عند أهل الأندلس عموما⁸.

ويبدو أن الجبن كان أحد ألوان الطعام، الذي كان حاضرا في غذاء المجتمع الريفي، وذلك لوفرة مادته الأولية، إذ أن تربية الحيوانات جعلت الحليب متوفرا، فكان يستخرج منه الرائب والزبد، إضافة إلى الجبن الذي كان سهل التحضير، إذ لم يكن يحتاج إلى عناصر كثيرة تضاف إليه، إضافة إلى حاجته للظل فقط

¹ ابن زهر، المصدر السابق، ص 18؛ وينز، المرجع السابق، ص 1033، 1034.

² الإدريسي، المصدر السابق، ص 564، 565.

³ نفسه، ص 565.

⁴ مؤلف مجهول، كتاب الطبخ، ص 173.

⁵ نفسه، ص 173 - 179؛ ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طبيايات الطعام والألوان، تح. محمد بن شقرون، إ.ش. إحسان عباس، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1984، ص 197 - 209؛

⁶ من ذلك منطقة الشرف، وقد سبقت الإشارة إلى انتشار القرى فيها بكثرة، كما ترد إشارات عن حصون تلفها أشجار الزيتون من كل جهة. انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص 541، ص 571 - 573.

⁷ أبو الخير الأندلسي، كتاب في الفلاحة، ط1، الرباط، المطبعة الجديدة، 1357هـ، ص 60، 61.

⁸ هذا الاستعمال الواسع تظهر آثاره في الاستخدام الإسباني له إلى اليوم. انظر: قرني، المرجع السابق، ص 120.

من أجل تخفيفه، حتى يصبح جاهزا صالحا للطعام¹.

ويشكل الجبن عنصرا أساسيا في تحضير نوع من الحلوى وهي المجبنات، التي كانت مفضلة في جميع أرجاء الأندلس، ويتم تحضيرها بإضافة الدقيق إلى الجبن وقليلها في الزيت، وهي نوع من الفطائر الساخنة التي يتناولها أفراد المجتمع في الصباح²، فقد قالت العامة: "مجبنة الظهر خرج نارها وقَلْ طُلأها"³، كما اشتهرت بعض المناطق بهذا النوع من الطعام، من ذلك شريش التي قيل عن مجبناتها "من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم"⁴، ونظرا لسهولة تحضيرها وبساطة عناصرها المكونة لها، إضافة إلى شهرتها في البلاد الأندلسية وانتشارها الواسع بها، يرجح أن تكون من الأطعمة التي كانت في أطباق المجتمع الريفي.

ومن أنواع الحلوى التي أشارت إليها المصادر الإسفنج، فقد أبدى أحد سكان الريف فرحته بقدم ضيفه بقوله⁵:

أخذي كذا بركاب الضيف أنزله ألدُّ عندي من الإسفنج بالعسل
أو من رغائف كانون ملهوجة أو رائبٍ بَقَرِيٍّ جيد العمل

ويورد صاحب الطبخ طريقة تحضيرها، والتي يمكن القول فيها أنها سهلة التحضير، مكوناتها متوفرة في البيئة الريفية، فهي تحتاج إلى عجين مكون من سميد وماء وبيض، ويعمل على شكل رغائف صغيرة تحشى بحشوة مصنوعة من العسل واللوز والجوز والفسق، ثم تقلى في الزيت⁶.

أما عن الأطعمة المناسبة والموسمية، فقد وردت إشارات إلى بعض هذه الأنواع، فمن ذلك استعمال اللحم بكثرة في الولائم، إذ يذكر صاحب الطبخ نوعا من الأطعمة المنتشرة في لأندلس خاصة في قرطبة وإشبيلية تسمى المخلل، وهي عبارة عن قطع لحم كثيرة تطهى في القدر، ويضاف لها التوابل والزيت والحل

¹ ابن رزين، المصدر السابق، ص 215، 216، ص 220.

² مؤلف مجهول، كتاب الطبخ، ص 200، 201؛ وينز، المرجع السابق، ص 1032؛ قرني، المرجع السابق، ص 222؛ لعناني، المرجع السابق، ص 129.

³ الزجاجي، المصدر السابق، ج 2، ص 343.

⁴ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 184.

⁵ ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص 677.

⁶ مؤلف مجهول، كتاب الطبخ، ص 40.

وتزين بالبيض وتصبغ بالزعفران¹، ويرجح أن تكون منتشرة في المجتمع الريفي عند الأسر الميسورة على الأقل.

وخصت الأسر الأندلسية عموماً المواسم الدينية بأطباق خاصة، مثل شهر رمضان رغم أن المصادر لم تفصح عنها²، أو بعضاً من لياليه مثل السابع والعشرين التي يكثُر فيها الناس من الحلوى³، وربما كان ذلك تمهيداً لعيد الفطر، أما في عيد الأضحى فإنه اختص بذبح الأضاحي، ويرجح أن يغلب على الأطعمة في أيامه عنصر اللحم، فتنوعت بذلك بين الشواء والقديد والثريد⁴.

وتوسع بعض أهالي المناطق في المأكَل حيث أعدوا ألواناً من الطعام في بعض الأيام والمواسم، وإن كانت المصادر تحجم عن ذكرها، إلا أنه يفهم أنها كانت عديدة، وكثيراً ما شاركوا أهل المدن فيها فمن ذلك أيام النزهة في فصل الربيع، فيذكر الحميري خروج بعض أهالي مدينة المرية إلى حصن الحمة في فصل الربيع بنسائهم وأولادهم باحتفال في المطاعم والمشارب والتوسع في الإنفاق⁵، ويذكر المقرئ عن قرية نازحة التابعة لغرناطة أنهم يحتفلون في موسم صباغة الحرير، فيخرجون إلى الوادي ويحتفلون بالشرب والغناء والطرب⁶، وفي عيدي ينير والعنصرة يصنعون ألواناً من الطعام، ففي الأول ذكرت نازلة " يتهادون صنوف الطعام"، وفي الثاني ذكرت ما يدل ربما على أنه لون من الأطعمة بالقول " ويجعلون ورق الكرب والخضرة"⁷.

وفي الأخير يمكن القول أن طعام المجتمع الريفي اختلف في مكوناته وألوانه، فبينما كان دسماً عند ميسوري الحال، كان بسيطاً جداً عند الفئات الضعيفة، مكوناً في الغالب من الخبز وبعض الإدام، وهذا حالهم في الأيام العادية فكيف كان طعامهم في الأزمات والظروف الصعبة؟

عرفت الأندلس خلال الفترة مجال الدراسة، العديد من الأزمات السياسية والطبيعية، وكان الريف

¹ مؤلف مجهول، كتاب الطبخ، ص 26.

² لعناني، المرجع السابق، ص 143.

³ دندش، المرجع السابق، ص 226.

⁴ ابن رزين، المصدر السابق، ص 40؛ لعناني، المرجع السابق، ص 146.

⁵ الحميري، المصدر السابق، ص 80.

⁶ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 178.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج 11، ص 151، 152.

بجبالا لهذه الأزمات، وأكثر تأثراً بها، ففي مطلع القرن الخامس الهجري، عرفت البلاد الفتنة القرطبية، والتي امتدت (399-422هـ / 1008-1031م)، وسادت الفوضى في كل البلاد، وتعرضت المناطق الريفية للنهب والحرق والنسف، وفر أهل المناطق الريفية التابعة لقرطبة إلى المدينة خوفاً من البربر، وانتشر الجوع في وسطهم حتى مات أكثرهم بسببه، وفنيت مواشيهم¹.

وبعد سقوط الخلافة سنة 422هـ / 1031م، تأسست الإمارات الطائفية، وامتد عصرها زهاء سبعين سنة قضتها جميعاً في سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة والخصومات والحروب وهو ما أثر على المحاصيل الزراعية وتسبب من دون شك في نقص الغذاء، وفي ذلك يذكر ابن بسام: "فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعية مهملة، لأن جملة غلاتهم، وجميع اعتماداتهم تتلف بأيدي تلك الطواغيت"².

وما زاد الأمر سوءاً غارات النصارى على القرى الأندلسية، التي كثيراً ما كانت هدفهم الأول فتقوم باتلاف المحاصيل الزراعية، من أجل استنزاف الطاقة الاقتصادية ضمن حركة الاسترداد التي بدأتها خلال هذه الفترة³، فقد تعرضت أرياف طليطلة وأحوازاها خلال فترة ملوك الطوائف إلى الكثير من الغارات، فقد شن ملك قشتالة فرناندو الأول سنة 454هـ / 1062م، على طلمنكة من أعمال طليطلة غارات، وعاث في بسائطها⁴، وبعد سقوط طليطلة سنة 478هـ / 1085م، اتخذها ألفونسو السادس قاعدة لانطلاق غاراته، "فانتشر الروم على جميع الأقطار وعثوا في جميع الأقطار، وصارت لهم أقصى بلاد المسلمين مرتعا"⁵.

وفي سنة 519هـ / 1125م قام ألفونسو المحارب بحملة كبيرة، استغرقت ما يزيد على العام واستهدفت غرناطة بطلب من معاهديها، فاخترق البلاد من الشمال إلى الجنوب، وعاث فيها سلباً ونهباً⁶ وقد كان تأثير هذه الحملة على ريف الأندلس أكبر من غيرها، وفي هذا يقول صاحب الحل: "مع أنه لم

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 102.

² ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص 254.

³ بوتشيش، مباحث في التاريخ والاجتماعي، ص 202.

⁴ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 381.

⁵ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص ص 1246-1251.

⁶ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص ص 109-113؛ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص ص 91-97؛ مكّي، المرجع السابق، ص 125.

يفتح مكانا مسورا صغيرا ولا كبيرا، إلا أنه أخلى بادية الأندلس، وعفا آثارها"¹.

يضاف إلى كل ذلك ما شهدته البلاد من كوارث طبيعية أدت إلى نقص الغذاء، فقد كانت القحوط تعصف بالبلاد كل عشر سنوات تقريبا، وتستمر ما بين سنة وثلاث سنوات وهو ما يخلف أضرارا كبيرة² فعن سنة 498هـ/ 1105م يشير ابن عذاري إلى نقص الغذاء بقوله: "وفي هذه السنة تناهى القحط في بلاد الأندلس والعدوة، حتى أيقن الناس بالهلاك"³، وهو ما أدى إلى حدوث الكثير من الوفيات جراء نقص التغذية⁴، وفي سنة 526هـ/ 1131م عرفت قرطبة القحط، "واشتدت المجاعة والوباء بالناس، وكثر الموتى، وبلغ مد القمح خمسة عشر دينارا"⁵، وهو ما يوحي بنقص الغذاء، كما أثرت غارات الجراد على ذلك في الفترة من 527- 531هـ/ 1132- 1136م، وقد وصفت عبارات ابن القطان التأثير الكبير لهذه الجائحة على المحاصيل الزراعية في الأندلس⁶.

وما يمكن قوله أن الغذاء في المجتمع الريفي، عرف تناقصا كبيرا خلال الأزمات السياسية والطبيعية التي عرفت بها البلاد، فكيف تعامل مع هذا الوضع؟

واجه المجتمع الريفي في الأندلس، نقص الغذاء في الأيام الصعبة والسنوات العجاف بواسطة وسيلتين اثنتين، أما الأولى، فبالاستعداد لمثل هذه الأيام، وتكون قبل حدوثها عن طريق التخزين وفي الثانية، يتجه إلى البيئة المحيطة به لسد رمق جوعه بالنباتات المختلفة، وتكون خلال الأزمة أو بعيدا.

فالنسبة لتخزين الطعام، لقد عرف هذا المجتمع هذه الظاهرة، كغيره من المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط⁷، بل كان التخزين مبدأ راسخا في حياة هذا المجتمع لما خبره من تغير الأحوال، وفضل

¹ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 97.

² فتحة، المرجع السابق، ص ص 167، 168.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص ص 44، 45.

⁴ إبراهيم القدري بوتشيش، أثر قيام الدولة وسقوطها في التطور الديمغرافي في العصر الوسيط - دراسة حالة - "مجلة كنانيش"، العدد 01، جامعة محمد الأول وجدة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999، ص 44.

⁵ ابن القطان، المصدر السابق، ص 226.

⁶ نفسه، ص ص 230، 235، 242، 250، 252.

⁷ موسى هوارى، تخزين الحبوب ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، "مجلة الحكمة التاريخية"، العدد 08، الجزائر، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، 2016، ص 122.

فساده مخزنا على جني الأرباح من بيعه¹، وقد عرف كيف يقوم بتخزين أنواع عديدة من الأطعمة لمدة طويلة دون ان تفسد، وساعدته طبيعة تربة الأندلس وخاصيتها، التي تناسب حفظ الطعام².

وكان القمح والشعير من أهم المواد التي يتم تخزينها، فقد كانت أرياف غرناطة تخزنه لمدة تصل إلى مائة عام، فلا يتعفن ولا يتغير له طعم ولا رائحة³، وفي أرياف سرقسطة تصل مدة القمح المخزن فيها المائة عام⁴، وفي أرياف إشبيلية تخزن الحنطة لمدة ثمانين سنة لا تتغير لصحة الهواء فيها⁵، بينما في أرياف المرية يتم تخزين الشعير لمدة ستين وسبعين سنة فلا يتسوس⁶، وكذلك الحال بالنسبة لأرياف طليطلة⁷.

وقد استخدم لأجل ذلك المطمورة، وهي عبارة عن حفرة يحفرها الرجل داخل بيته، ويخرج منها ما يحتاج إليه من الطعام⁸، إذ لا يكاد يخل بيت ريفي من هذه الوسيلة، بل ربما يحتوي البيت على أكثر من مطمورة⁹، ومن لم يجد أين يحفر مطمورة لتخزين الطعام، أو لم تكفه مخازنه يمكنه أن يستفيد من مطمورة جاره بعد أن يحفرها عنده¹⁰، أو يكتري منه مطمورته¹¹.

كما يمكن حفظ هذه المواد في أكياس مصنوعة من الجلود، وجرار وقدر مصنوعة من الطين أو من مواد نباتية، وتكون هذه الوسيلة أكبر حجما من التي تستخدم في حفظ السوائل، أو نقل، ويمكن لصاحبها نقلها في ترحاله، كما يمكنه تغيير أماكنها¹²، وقد ورد في أمثال العامة ما يدل على ذلك، منها

¹ الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص 347؛ قرني، المرجع السابق، ص 222.

² تواتية بودالية، البيئة في بلاد الأندلس عصري الخلافة وملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشر. فاطمة بلهوارى، جامعة وهران، 2013-2014، ص 303.

³ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 47؛ الزهري، المصدر السابق، ص 83، ابن غالب، المصدر السابق، ص 288.

⁴ الزهري، المصدر السابق، ص 82؛ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 197؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 70، 71.

⁵ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص 523.

⁶ الزهري، المصدر السابق، ص 101.

⁷ ابن غالب، المصدر السابق، ص 288؛ الزهري، المصدر السابق، ص 83؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 50.

⁸ الشعبي، المصدر السابق، ص 146، 208، 314، 319، 320.

⁹ الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص 124.

¹⁰ نفسه، ج9، ص 108.

¹¹ الشعبي، المصدر السابق، ص 314، 319، 320.

¹² هوارى، المرجع السابق، ص 129.

التليس وهو وعاء من خوص، ضيق الفم، يوضع فيه الزرع ثم يغطى بالتبن، ثم يغرز¹.

كما اهتم المجتمع الريفي بتخزين أنواع أخرى من الغلال، وقد كان يقوم بعدة عمليات يراعي فيها العوامل الطبيعية، لحمايتها من التدهور والفساد²، ففي أرياف سرقسطة يوجد فيها "القول والحمص من عشرين عاما"³، وفي إشبيلية يتم تخزين الزيتون وزيته لفترات طويلة، دون أن يتغير طعمه ولا رائحته⁴.

ولكن أسلوب التخزين قد لا يجدي نفعا، مع طول أمد الأزمة، كما يجب أن يوضع في الحسبان أن الكثير من الفئات الضعيفة لم تكن تمتلك قوتها اليومي، فمن أين لهم ما يختزنون⁵، وهذا ما جعل اعتمادهم مرتكز على النباتات البرية، وقد سبقت الإشارة إلى أنواع عديدة، ويزداد اهتمامهم بها في الأيام الصعبة وقد وردت إشارة إلى ذلك عن نبات البلوط، الذي كان يحيط بجبال وسهول قرية بطروش القريبة من قرطبة فكان لهم غلة وغيثا في أيام الشدائد والمجاعات، ولذلك اهتموا به⁶.

كما اضطر سكان بعض المناطق الريفية إلى تناول بعض النباتات التي لا طعم لها، وقد شاهد الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر ت 557هـ / 1162م، جماعة يأكلون في أيام المجاعات أنواعا منها مثل الكرستنة، والفيجاله، وأصل اللوف⁷، وكلها نباتات برية ينبت بعضها في الجبال والتربة البيضاء وبعضها في السبخات، كما يمتاز بعضها بتفاهة طعمه⁸.

وبالرغم من قلة النصوص حول غذاء المجتمع الريفي في فترات الأزمات، إلا أن الإشارات القليلة- توحى بتدهور المستوى الغذائي، وذلك نتيجة اعتماده على النباتات البرية، التي يمكن أن تشكل خطرا على

¹ يقول المثل العامي: "بجل تليس بدوي، تبين يغلق فم". انظر: الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص 151.

² عن هذه العمليات والطرق المستعملة، انظر: بودالية، المرجع السابق، ص 305-315.

³ الزهري، المصدر السابق، ص 82؛ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 197؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 71.

⁴ ابن غالب، المصدر السابق، ص 292؛ الزهري، المصدر السابق، ص 89؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 61، 62.

⁵ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 200.

⁶ الإدريسي، المصدر السابق، ص 580؛ الحميري، المصدر السابق، ص 93.

⁷ نور الدين زرهوني، الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، د. ط، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2006، ص 118.

⁸ أبو الخير الإشبيلي ق6هـ / 12م، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تق وتج. محمد العربي الخطابي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995، ج1، 320، 354-355، ج2، ص 370.

صحته¹.

ب- الفواكه والأشربة:

لا شك أن الفواكه شكلت جزءا من غذاء المجتمع الريفي، فقد أشادت المصادر بإنتاج الريف الأندلسي لأنواع عديدة من الفواكه ويأتي في مقدمتها الكروم، فقد أحب الأندلسيون عامة الكروم واهتموا بغراستها حتى في أفنية الدور، وفي جنبات البيوت والمنازل، فاحتلت أشجار الكروم مساحات واسعة، حتى إن بعض المزارعين كانوا يجدون صعوبة في الوصول إلى ضيعاتهم لإحاطة كروم الناس بها² وتعددت أنواع الكروم، منها الأخضر الذي كان مفضلا في المجتمع الأندلسي خاصة العنقود الكبير منه³.

بالإضافة إلى الكروم، فقد انتشرت في أرياف الأندلس أنواع أخرى من الفواكه، مثل أشجار الرمان والخواج والجز والوز، والكمثرى والتفاح، وقد أبدى ابن بطوطة إعجابه بكثرة الفواكه في بعض الأقاليم وما تنتجه أريافها، فيذكر عن مالقة: "رأيت العنب يباع في أسواقها لحساب ثمانية أرتال بدرهم صغير، ورمائها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا، وأما التين والوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب"⁴

ولا شك أن انتشار هذه الأنواع من الفواكه في اقاليم الأندلس وقراها، مكن مجتمعا من الاستفادة منها في غذائه، ويبدو أن استعماله لها يكون إما رطبا بعد قلعها، أو يابس جافا، لاستهلاكه في غير موسمه فقرية شاط القرية من المنكب بها " زيب حسن الصفة كبير المقدار، أحمر اللون، يصحب طعمه مزارة"⁵ كما يمكن أن تحتفظ بهذه الفواكه لفترات طويلة، وقد عرفت بعض المناطق كيف تقوم بذلك، فأرياف سرقسطة يوجد فيها " العنب المعلق من ستة أعوام، والتين والخواج وحب الملوك والإجاص اليابسة، من أربعة أعوام"⁶، وفي أرياف إشبيلية يخزنون العسل والتين اليابس لفترات طويلة¹.

¹ ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص 111، ص 138، 139، ص 298.

² ابن الحاج، المصدر السابق، ص128؛ حاج كولة، المرجع السابق، ص128.

³ جاء في أمثال العوام قولهم: "خير العنب ما اخضر عوده، وعظم عنقوده"، راجع ايضا تعليق المحقق على المثل. الزجاجي، المصدر السابق، ج2، ص 209.

⁴ أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تق وتح. محمد عبد المنعم العريان، مر. مصطفى القصاص، ط1، بيروت، دار إحياء العلوم، 1987، ج2، ص 682.

⁵ الإدريسي، المصدر السابق، ص 564، 565.

⁶ الزهري، المصدر السابق، ص 82؛ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 197؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 71.

كما يمكن أن تستعمل هذه الفواكه في إنتاج أنواع عديدة من الأشربة والمربيات، مثل رب السفرجل والرمان ورب العنب، وهي أشربة تطبخ عصائرها على النار، حتى تصبح خائفة، وتحمل فوائد طبية، وكان يتناولها أصحاب المناطق الباردة، ويبدو أن بعض أنواع الرب كان له تأثير يشبه الخمر خلال العصر الموحد، وهذا ما جعل السلطة تمنعه².

أما الخمر فالأكيد أنه كان شرابا قارا لأهل الذمة في المجتمع الريفي، لأنه لا يتنافى مع عقيدتهم الدينية، وفيما يخص المسلمين فلا يعلم إن كان منتشرًا بينهم، لكن هناك بعض الإشارات تدل على انتشاره، عند بعض الفئات، خاصة أن هذا العصر عرف انتشار ظاهرة شرب الخمر، وفشل السلطة في منع شربه³، ويبدو أن شربه في هذا المجتمع ينتشر خاصة في بعض المواسم والمناسبات، فمن ذلك ما ذكره ابن عبدون أن ألوانا من الفساد والشر تحدث في الأعراس بسبب شرب الخمر، ولذلك أوصى: "بأن يؤخذ سلاح الشبان عند إقبالهم على العرس قبل أن يشربوا"⁴.

كما كانت أيام النزهة في الريف عند بعضهم مناسبات للهو وشرب الخمر، فيصف المقرري الوادي الكبير بقوله: "وقد سعد هذا الوادي بكون لا يخل من مسره، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناه عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤدي السكر إلى شر وعريضة"⁵، كما كان الأمراء والملوك خاصة خلال عصر الطوائف (422-484هـ / 1031-1091م)، يكثر من شرب الخمر في منياتهم وقصورهم الريفية، أيام خلواتهم وراحتهم، فمن ذلك أن المأمون بن ذي النون، أقام حفلا في مجلس خلوته بقصر الناعورة، وبالغ في تأنيس الحاضرين بالنبيذ⁶.

وعليه يمكن القول أن الخمر، كان محدود الانتشار في المجتمع الريفي، فقد انتشر عند أهل الذمة

¹ ابن غالب، المصدر السابق، ص 292؛ الزهري، المصدر السابق، ص 89؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 61، 62.

² مؤلف مجهول، كتاب الطبخ في المغرب والأندلس، ص 255، 256؛ مجموع رسائل موحدي، ص 167؛ السيد عبد الهادي، المرجع السابق، ص 238، هامش 2.

³ حاج كولة، المرجع السابق، ص 142.

⁴ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 54.

⁵ المقرري، المصدر السابق، ج 3، ص 212.

⁶ ابن بسم، المصدر السابق، ج 4، ص 106؛ سالم عبد العزيز السيد، صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال الصور المنقوشة في علب العاج، مدريد، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1976-1978، مج 19، ص 64.

وبين شباب المسلمين وبعض الفئات من مجتمع المدينة، الذين يقصدون الريف للنزهة والراحة.

ولم تقتصر أشربة المجتمع الريفي على النباتية فقط، بل لقد كان ما يستخرج من ضروع الحيوانات أشربة دائمة في غذائهم، فقد استغل هذا المجتمع انتاجهم الحيواني من الغنم والبقر، في انتاج الألبان، وقد دل على ذلك أوصاف الجغرافيين حول المناطق الريفية، التي تتميز بكثرة الضرع، فأرياف إشبيلية بها المسارح الواسعة الطيبة " فيصلح نتاجها وتدوم ألبانها"¹، وأرياف ميورقة " واسعة الخير كثيرة الثمار رخيصة الماشية لكثرة المراعي عزيرة النتاج والمواشي"²، وقلعة رباح غرب طليطلة، تحسن الماشية في مسارحها، ولألبانها فضل بائن على غيرها³، وأرياف القصر كثيرة الألبان والسمن العسل واللحم⁴.

وإذا كانت هذه الألبان من أشربة المجتمع الريفي عامة، فإنها ربما كانت أكثر حضورا عند الفئات الضعيفة منه، مثل: الرعاة والمزارعين، لأنها شكلت طبقا رئيسيا بالإضافة إلى الخبز، في غياب أنواع الأغذية الأخرى، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، وفي وثائق ابن العطار ما يؤكد على ذلك، حيث كان أجر الرعاة كمية محددة من الألبان ومشتقاتها⁵.

وما يمكن قوله، أن أشربة المجتمع الريفي شكلت جزءا من غذائه، وتنوعت تبعا لتنوع إنتاجه النباتي والحيواني، وربما شكلت بعضها غذاء هاما لبعض الفئات.

2- ألبسة المجتمع الريفي:

تميز المجتمع الريفي بلباسه عن مجتمع المدينة، فقد أشار أحدهم أثناء تجوله في الريف مع أصدقائه إلى ذلك، بالقول: " فملنا إلى منزل بدوي في هيئة وزي"⁶، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن سعيد في ترجمة سعيد بن هشام بن دحون ق 06هـ / 12م، أنه وُجد: " في قرية من قراها في زي الفلاحين"⁷، وإن كان يفهم منها

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 59.

² ابن حوقل، المصدر السابق، ص 110.

³ ابن غالب، المصدر السابق، ص 289.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 544؛ الحميري، المصدر السابق، ص 476، 477.

⁵ ابن العطار، المصدر السابق، ص 46.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص 677.

⁷ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص 222.

أيضا، أن هذه الملابس خاصة بأوقات العمل¹، وكان سكان الريف في الأندلس يعرفون بزيهم عند مقدمهم للمدينة²، كما كان شكلهم يميزهم، فقد ذكر ابن عبدون أن بعضهم يتميزون بشعورهم الطويلة، لذلك نبه على من ظفر بأهل البادية في المدينة أن يقص له شعره³.

ورغم هذا التميز الذي طبع لباس المجتمع الريفي، إلا أنه لم يخرج عما اعتاده الأندلسيون في لباسهم والذي كان مقسما إلى أغطية الرأس، ولباس الجسد الذي يستر العورة، ثم ما يقي الأقدام من الحر والقر.

أ- أغطية الرأس:

استعمل سكان المجتمع الريفي، أنواعا عديدة من أغطية الرأس، خاصة العمائم التي تعتبر لباسا عربيا أصيلا⁴، حافظ عليه أهل الريف عكس سكان المدن، وهو ما يبرزه قول ابن الخطيب، أنها "تقل في زي أهل الحضرة، إلا ما شاد في شيوخهم وقضاةهم وعلمائهم، والجند العربي منهم"⁵ وما يؤكد ذلك ما ذكره الحميدي، في ترجمته لأحد شعراء قرطبة أنه، تنكر بزي أهل الريف لرؤية من يهواه: "فلبس جبة من جباب أهل البادية، واعتم بمثل عمائمهم"⁶.

أما القلنسوة وتعرف أيضا بالشاشية والدنية و الطاقية و العرقية⁷، فهي من أغطية الرأس كذلك وتصنع من الوشي أو الخز أو الصوف أو الفراء⁸، وقد أكدت بعض الدراسات شيوع انتشارها في الأندلس

¹ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 180.

² الحشني، المصدر السابق، ص 137؛ المقرئ، نفع الطيب، ج 4، ص 123.

³ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 55؛ دندش، المرجع السابق، ص 304.

⁴ سحر السيد عبد العزيز سالم، ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي، "مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد"، مدريد، 1995، مج 27، ص 163.

⁵ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 136. يفسر المقرئ سبب ترك سكان المدن للعمائم، خاصة في شرقها بسبب تأثرهم بالنصارى المجاورين لهم، أما رؤساء البربر وأشياخهم فقد حافظوا على هذا النوع من اللباس، وبعد دخول المرابطين إلى الأندلس أصبح سمة بارزة لهم انظر: المقرئ، نفع الطيب، ج 1، ص 222، 223؛ سحر سالم، المرجع السابق، ص 164-167؛ لعاني، المرجع السابق، ص 97.

⁶ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عيد الله الحميدي 426-488هـ / 1069-1095م، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تح. إبراهيم الأبياري، ط 2، القاهرة- بيروت، دار الكتاب، 1989، ج 1، ص 223.

⁷ رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، تر. أكرم فاضل، ط 1، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2012، 324؛ قرني، المرجع السابق، ص 228.

⁸ سحر سالم، المرجع السابق، ص 167.

بين العامة والخاصة وفي مختلف الفترات¹، ويمكن ارتداؤها بمفردها، أو توضع تحت العمامة²، وهذا ما يرجح ارتداء أهل الريف لها، خاصة أنها تحقق نفس الغرض التي تحققه العمام، من ستر رأس الإنسان ووقايته من الحر والقر.

أما الغفارة فهي عبارة عن منديل يطرح على الرأس ويوضع تحت العمامة، وربما هي عادة البربر في ذلك³، وتصنع أغلب الغفائر الأندلسية من الصوف، وتكون متعددة الألوان خاصة الأحمر والخضر باستثناء اللون الأصفر فإنه مخصص لليهود⁴.

وعلى هذا من خلال ما تم ذكره، يتضح الشكل الذي يغطي الرجل به رأسه، إذ يضع القلنسوة أو الغفارة على الرأس، ثم يضع فوقها العمامة ويعصب بها رأسه.

كما شاع ارتداء الطيلسان في عموم البلاد، بين مختلف الفئات الاجتماعية، وقد دل على ذلك قول المقرئ: "ولا تجد خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان"⁵، ويوضع هذا اللباس على الرأس وينسدل على الكتفين ويصنع من الخز أو الديباج بمختلف الألوان، وهو خاص بالمناسبات والاحتفالات⁶ ولكن لأهل الأندلس طريقة خاصة في لبسه، فيضعونه على الأكتاف، ولا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظمون⁷، ويمكن أن يكون أهل اريف قد استعملوا هذا اللباس في مناسباتهم واحتفالاتهم.

أما بالنسبة للمرأة، فإن ابن سهل يورد في نوازله نصا، يحمل فيه ما ترتديه المرأة في رأسها، من خلال ما يجب لها على زوجها، فيقول: "...لفافة سابغة لشعرها، ومقنعة فوق اللفافة تجمع بها رأسها وصدرها

¹ دوزي، المرجع السابق، ص 328؛ سحر سالم، المرجع السابق، ص 167-169.

² دوزي، المرجع السابق، ص 324؛ سحر سالم، المرجع السابق، ص 167-169.

³ يفهم ذلك من قول صاحب الحلل أن يوسف بن تاشفين أهدى ابن عمه أبا بكر بن عمر مائة عمامة ومائة غفارة، ولا شك أن تساوي الرقم فيه دلالة على مصاحبة الغفارة للعمامة. انظر، مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 27.

⁴ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 223.

⁵ نفسه، ص 223.

⁶ سحر سالم، المرجع السابق، ص 171، 172.

⁷ ربما هذا ما جعل سحر سالم لا تعتبره من أغطية الرأس، رغم أنه كذلك، وهو ما تبينه إحدى اللوحات، انظر: المقرئ، النفح، ج1، ص

223؛ سحر سالم، المرجع السابق، ص 172؛ دوزي، المرجع السابق، ص 249؛ James Cavanah Murphy,

The Arabian Antiquities of Spain, London, p126.

فإن لم تكن مقنعة فحمار، فإن لم يكن خماراً فإزار تقذفه على رأسها، وتجمع به ثيابها¹، ويبدو أن القناع والحمار يؤديان نفس الغرض من ستر لعورة الشعر، يوضعان فوق اللقافة التي تشد الشعر، ولكن القناع أكثر انتشاراً وهذا ما يظهر تأثيره على الإسبان، الذين يستعملون كلمة "الكينال، Alquinal"².

ب- ألبسة البدن:

انتشر عند سكان المناطق الريفية، أنواع شتى من الثياب التي كانت تستر البدن، وتتناسب مع الفصل السائد، واشتركت فيها النساء مع الرجال، فمن ذلك الجباب التي تحوي تحتها الثياب التي يرتديها المرء، من قميص وسراويلات، وتسدل من أعلى إلى أسفل الجسم³، وكان هذا النوع من اللباس منتشرًا في الأندلس عامة، وشاع ارتداؤه بين مختلف الفئات الاجتماعية⁴، ويبدو أن سكان المناطق الريفية ارتدوا جبابا تميزهم عن سكان المدن، فقد أورد الحميدي إشارة تحمل هذا المعنى، إذ يذكر أن أحدهم في قرطبة تنكر في زي أهل الريف "فلبس جبة من جباب أهل البادية"⁵.

كما كانت الدرايرع من الألبسة التي تغطي سائر الجسد، وهي عبارة عن إزار أو رداء واسع ربما تكون خاصة بالنساء دون الرجال⁶، وعرفت انتشاراً واسعاً في المناطق الريفية⁷، كما عرف المجتمع الريفي انتشار نوع من الثياب يسمى المحاشي وهو عبارة عن إزار غليظ يكون في الغالب مبطناً⁸ يستعمل في فصل الشتاء وزمن البرد⁹، وربما يعود سبب انتشاره إلى انخفاض ثمنه، فكان في المتناول، ولهذا كان لباساً خاص

¹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 268.

² دوزي، المرجع السابق، ص 335.

³ تم استنتاج شكلها مما ذكره دوزي من أوصاف لها في مختلف العصور، وعلى الأرجح أن تكون غير مفتوحة. انظر: دوزي، المرجع السابق، ص ص 97-105، مادة الجبة.

⁴ المقرئ، نفح الطيب، ج3، ص 128؛ سحر سالم، المرجع السابق، ص 176؛ ثريا محمود عبد الحسن، أزياء المجتمع الأندلسي 92-625هـ، "مجلة كلية الآداب"، العدد 102، بغداد، جامعة بغداد، 2012، ص 195.

⁵ الحميدي، المصدر السابق، ص 144.

⁶ ثريا محمود، المرجع السابق، ص 200؛ دوزي، المرجع السابق، ص ص 155-157.

⁷ السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 236؛ إبراهيم السيد الناقة، دراسات في تاريخ الأندلس الاقتصادي- الأسواق التجارية والصناعية في عصري الخلافة الأموية والخلافة الموحدية، د.ط، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2010، ص 175.

⁸ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 922؛ دوزي، المرجع السابق، ص ص 125، 126.

⁹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 276، كعواس، المرجع السابق، ج2، ص 566.

بالعامية¹، أما البرنس فإنه انتشر كذلك في بلاد الأندلس، خاصة وسط البربر، وهو ثوب طويل يغطي الجسد، وملتزم به غطاء للرأس².

واختصت نساء المجتمع الريفي بارتداء الشايات، خاصة النصرانيات منهن، وهي عبارة عن عباءة واسعة بدون أزرار، تستخدم خاصة في فصل الشتاء، وهي كلمة إسبانية "saya سايا" أو "sayo سايو"، مقتبسة من الكلمة اللاتينية "sagum ساكيوم"³

ولا شك أن ارتداء الثياب المذكورة سابقا كان طوال السنة، لكنها اختلفت في مادة صنعها حسب الفصول، فبينما تكون مبطنة بالقطن أو الصوف أو الفرو في فصل الشتاء، تكون في بقية فصل الربيع والصيف دون بطائن⁴، ويرجح أن يكون استعمال سكان الريف للصوف بشكل كبير، سواء في تبطين هذه الألبسة، أو صناعة أنواع أخرى من الألبسة الصوفية، فقد انتشرت تربية المواشي بشكل كبير، في أرياف وقرى الأندلس⁵، وهو ما وفر مادة الصوف، التي لم تكن صعبة المعالجة والاستغلال.

أما ما كان يغطي البدن من الألبسة الداخلية، فتمثل في القمصان والسراويلات، وقد شاع ارتداؤها بين مختلف الفئات الاجتماعية، واشترك في ارتدائها الرجال والنساء والأطفال⁶، وتغطي القمصان الجزء العلوي وتكون واسعة الأكمام، بينما السراويلات فتستر ما أسفل السرة إلى الكعبين، وهذا النوع من الثياب منتشر وشائع في بلاد الأندلس⁷، فقد كانت هذه الثياب من جملة النفقات التي فرضها الفقهاء على الأوصياء⁸.

وفيما يخص ثياب النوم، فإنه لا توجد إشارات تدل عليها إلا ما ذكرته بعض النوازل الفقهية بشكل

¹ المقرئ، نفح الطيب، ج3، ص128.

² ابن منظور، المصدر السابق، ج6، ص26، مادة برنس.

³ دوزي، المرجع السابق، ص ص 191، 192؛ حميدي، المرجع السابق، ص 259.

⁴ المقرئ، نفح الطيب، ج3، ص 128؛ سحر سالم، المرجع السابق، ص 176.

⁵ السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 179. وقد وصفت بعض المناطق بالصوف، فيذكر الزهري "الجبال المعروفة بجمال الصوف، وهي متصلة بجل طارق بجمال تاكرنا وجمال أرجونة". انظر: الزهري، المصدر السابق، ص 93.

⁶ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 274، ص 276؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 73؛ كعواس، المرجع السابق، ج2، ص 566.

⁷ دوزي، المرجع السابق، ص ص 182-184، ص ص 328-332.

⁸ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 274، ص 276؛ كعواس، المرجع السابق، ج2، ص 566.

عام، حيث صرحت بأن الملحفة كسوة خاصة بالرقاد، يرتديها الصغار والكبار والنساء والرجال¹، وهي عبارة عن إزار يغطي سائر البدن²، ويبدو أن المرء يرتديها في هذه البلاد في مكان الجباب والدراريع التي يتركها عند نومه. وتبقى هذه الإشارة عامة كما تم ذكره، لا تدل على أن المجتمع الريفي قد استعمل الملحفة، لكن يرجح أن تكون منتشرة بين فئاته، لأن لباسه في العموم كان لا يختلف كثيرا عن لباس مجتمع المدينة، وربما لا يتعدى الاختلاف إلا في كيفية ارتداء الثوب، أو المادة التي صنع منها.

ج- ألبسة القدمين:

استعمل مختلف فئات المجتمع الريفي، نعالا وأحذية تتناسب مع الفصل السائد، وينتشر استعمال الخف بشكل كبير³، ويختلف الخف باختلاف المادة التي صنع منها، فهناك الخفاف المصنوعة من القماش أو المصنوعة من جلد الغنم أو الأرانب، وهي بدورها على نوعين مبطنة وغير مبطنة⁴، ولا شك أن استعمالها يختلف باختلاف فصول السنة.

ومن الأحذية التي انتعلها الفلاحون خاصة النصاري منهم، وربما أخذها عنهم المسلمون، البطان وهو حذاء قروي مصنوع من جلد الثور المدبوغ، يقي من البرد خاصة عند المشي على الثلوج⁵، أما في فصل الصيف وارتفاع الحرارة، فيكتفي المرء بالبلغة، وهو حذاء مصنوع من الحلفاء⁶.

وعليه يمكن القول في الأخير أن لباس المجتمع الريفي اختلف باختلاف فصول السنة، فيكون خاليا من التبطين في الأيام الدافئة، ويستعمل الصوف في الغالب للحصول على الدفء، وحماية البدن من البرد في فصل الشتاء.

3- المساكن والبيوت:

يعد اتخاذ المساكن أمرا ضروريا لمن كان عيشه قائم على الاستقرار، لأن هذه الدور " مأوى الأنفس

¹ أخطأ دوزي حينما جعلها خاصة بالنساء في بلاد المغرب والأندلس، وهذا عكس ما صرحت به النوازل الفقهية. انظر: ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 276؛ كعواس، المرجع السابق، ج2، ص 566؛ دوزي، المرجع السابق، ص 355.

² دوزي، المرجع السابق، ص 355.

³ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 276؛ كعواس، المرجع السابق، ج2، ص 566.

⁴ قرني، المرجع السابق، ص 231. provençal, op. cit, t3, pp 424, 425.

⁵ دوزي، المرجع السابق، ص 75، 76. ويشبه هذا الحذاء ما كان معروفا في المجتمع الجزائري فيما مضى بالقرّوس.

⁶ قرني، المرجع السابق، ص 230؛ دوزي، المرجع السابق، ص 84، هامش 1.

والمهج والأبدان"¹، ولهذا فقد أوى المجتمع في الريف الأندلسي، إلى دور ومنازل تميزت بمظهرها الخارجي وتخطيطها الداخلي، والتجهيزات التي حوتها.

أ- المظهر الخارجي للمسكن الريفي:

اختلفت القرى في الأندلس، بين قرى صغيرة الحجم، وأخرى كبيرة، ويرجع ذلك إلى اختلاف عدد الدور والمنازل المشكلة لكل قرية، وقد أشارت نازلة عند ابن رشد، إلى هذا الاختلاف، فقد تشكلت قرية من اثني عشر درا، بينما احتوت قرية أخرى على ثلاثين داراً².

ويبدو أن هذه الدور كانت جميلة وحسنة الشكل الخارجي، فيذكر الإدريسي عن أرياف إشبيلية أنها: "ثمانية آلاف قرية عامرة أهلة بالحمامات والديار الحسنة"³، ويؤكد أحدهم هذا الأمر في وصفه للأندلس بالقول: "وربما لقي من المعازل والقرى ما لا يحصى، وهي بطاح خضر وقصور بيض"⁴، هذا البياض الذي يعد سمة بارزة في بيوت ومساكن المجتمع الريفي في الأندلس، فقد بلغ بسكان المناطق الريفية في إشبيلية من الاعتناء بمساكنهم حتى أضحت: "نجوما في سماء الزيتون"⁵، ويقارن ابن سعيد بين هذه المنازل ومنازل بعض المناطق الأخرى بالقول: "وما اختصت به -الأندلس- أن قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها، وتبييضها لثلا تنبو العيون عنها... ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها"⁶.

واعتنى بعض الفلاحين بموقع إنشاء بيوتهم، فكانوا ينشئونها في أماكن مرتفعة من الأرض، وأن تكون الأبواب متسعة، ومتجهة إلى الشرق لتدخلها الشمس، وكانت بعض المنازل تطل من الجهات الأربع، هو

¹ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 34

² ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 784. يرى نكادي أن القرية الكبيرة تضم ثلاثين داراً، لكن يبدو أن العدد أكبر من ذلك، وهو ما دلت عليه أوصاف الجغرافيين الذين شبهوا بعض القرى بالمدن، ويمكن الرجوع إلى الفصل الأول لمعرفة هذه الأوصاف. وهذا لا يتنافى مع كون أن أغلب الدراسات الحفرية أكدت أن مع معظم قرى القرنين 05-06هـ / 11-12م تتكون من مجموعات سكنية صغيرة الحجم يصل متوسطها إلى عشرة منازل انظر: نكادي، الأسرة في البادية الأندلسية، ص 42.

³ الإدريسي، المصدر السابق، ص 541.

⁴ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 209.

⁵ نفسه، ج3، ص 213.

⁶ نفسه، ج1، ص 205.

ما يساعد على دخول الهواء¹، وقد فسر أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي ت 404هـ / 1014م سبب هذا الاختيار " ليلا تتلقاها المياه، ولا يظهر فيها الندى، وليشرف ساكنها منها على أراضي القرية وزروعها وبساتينها"، إضافة إلى الفوائد الصحية².

وتميزت بعض منازل الفلاحين، بوجود سياج يحيط بالمنزل، وعادة ما يتخذ هذا السياج من جذوع الأشجار، فقد لاحظ ذلك الوزير أبو حفص عمر بن الشهيد ق 05هـ / 11م، أثناء زيارته مع أصدقائه لأحد الأرياف، بالقول عن أحد سكان الريف³:

له منزل رحب عريض مزرب بأعواد بلوط وطوج مفتل
تري بعرا الأرام في عرصاته وقيعانه كأنه حب فلفل

وربما يجعل بعض الفلاحين، داخل هذا السياج وعلى جنبات المنزل، بستانا صغيرا يضم فيه أنواعا من الخضر، وصنوف الزهر⁴.

وإذا كانت مساكن المجتمع الريفي، جميلة في شكلها الخارجي، فكيف حالها من الداخل؟

ب- تخطيط المنزل الريفي وأجزأؤه:

تفيد بعض الدراسات الحفرية على مواقع ريفية في شرق الأندلس، أن أغلب المنازل هناك تتميز بصغر الحجم، إذ أن بعضها تتراوح مساحتها بين 70 و 80 م²، وتكونت من ثلاث إلى أربع غرف، بينما لم تتجاوز مساحة بعضها 40م²، واحتوت غرفتين فقط⁵.

لكن هذا لا يعني انعدام البيوت الواسعة، وقد شد انتباه الوزير أبا حفص رحابة واتساع وعرض أحد البيوت الريفية⁶، بينما وصف أحدهم انتشار القصور في القرى الأندلسية⁷، وقد تمت الإشارة في ثنايا هذا

¹ هياجنة، المرجع السابق، ص 281.

² بودالية، المرجع السابق، ص 171.

³ ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص 677.

⁴ بودالية، المرجع السابق، ص 290.

⁵ نكادي، الأسرة في البادية الأندلسية، ص 43.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص 677.

⁷ المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 209.

البحث إلى انتشار المنيات والفيلات في الريف الأندلسي، والتي كانت مأوى الطبقات المترفة والغنية، في أيام الراحة والنزهة والترفيه¹.

ومما لا شك فيه أن اختلاف المساحة، مرده اختلاف الوضعية الاجتماعية في المجتمع الريفي، فبينما امتلك الفلاحون الكبار البيوت والمساكن الواسعة، لم يكن بإمكان الفلاحين المتوسطين والصغار إلا امتلاك بيوت صغيرة الحجم، بل إن سكان بعض القرى بلغ بهم قلة ذات اليد، أن سكنوا الكهوف أو اتخذوا بيوتا من القصب، فقد شكوا أحدهم ضيق حاله في إحدى القرى بالقول²:

بدوت وقدما كنت أعرف حاضرا وسكني البوادي لا يحل ويحرم
تكلفت سكناه وكان ضرورة وفي باطني أمر به الله يعلم
ثويت بهما ما بين قوم بيوتهم كهوف وأشعاف وبيت مروم

كما يمكن أن يكون اتساع البيوت من عدمه سببه شكل الأسرة، فالأسرة النووية - قليلة الأفراد - تكفيها بيوت صغيرة المساحة، بما يلبي حاجيات أفراد الأسرة المكونين لها³.

وعلى هذا الأساس فإن أجزاء المنزل الريفي تختلف من أسرة لأخرى، ولكنه يشترك في بساطته، وهو في الغالب يتكون من طابق أرضي⁴، ويعتبر الفناء جزءا هاما في منازل المجتمع الأندلسي عامة، ففيه أشغال المرأة المنزلية، ومرتع الأطفال واجتماع العائلة⁵، وقد احتوت بعض المنازل الريفية على هذه الصحن، وإن اختلفت استعمالاته عند بعض الريفيين عن مجتمع المدينة، فقد شاهد أحدهم بعن الأغنام في فناء أحد المنازل الريفية، ربما لاستعماله كحظيرة لمواشي⁶، بينما لم تكن منازل أخرى في حاجة إليها، لأنها كانت

¹ يمكن الرجوع إلى الفصل الأول في العنصر المتعلق بالضياع والمنيات.

² محمد بن شريفة، البسطي آخر شعراء الأندلس، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985، ص 161؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين، ص 299.

³ نكادي، الأسرة في البادية الأندلسية، ص 43.

⁴ دندش، المرجع السابق، ص 298.

⁵ ليوبولدو توريس بلباس، الأبنية الإسبانية الإسلامية، تر. علية إبراهيم العناني "مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية"، العدد 01، مدريد، مطبعة المعهد المصري، 1953، ص 127.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 677.

منعزلة¹، وبالتالي فإن الفضاء الخارجي شكل صحنا وفناء لنشاطات أفراد الأسرة.

ويختلف عدد غرف النوم وتوزيعها باختلاف مساحة المنزل²، وإن كان في المنزل صحنا، فإن هذه الغرف تنتشر حوله، بينما لا يعلم توزيع الغرف في البيوت الخالية من الصحن، في حين تخصص غرفة للضيافة، التي تعد وتجهز لذلك الأمر، وقد تكون هذه الغرفة في إحدى جنبات الصحن، أي أنها تقع داخل المنزل وليست بمعزل عنه، وقد دل على ذلك وصف أحدهم فرحة بدوي بمجيئهم له بالقول: "وصير عياله في ناحية، وجمع أطفاله في زاوية، وجعل يدور كالحذروف أمام الصفوف، يتلقى الواحد منا بعد الواحد... ثم مال بنا إلى بيت مكنس ممنوع مجنس"³.

ويبدو أن هذه حال بيوت بعض الأسر الريفية المتوسطة أو الفقيرة⁴، أما كبار الملاك والأغنياء فقد اتخذوا بيوتا واسعة، عرفت بالمنيات، وقد اتسعت بالاتساع، فضمت حجرة واسعة أو حجرتين لاستقبال الضيوف، كانت في الجزء الأمامي من البيت، بينما خصص الجزء الخلفي من المنزل غرضا للنوم والمعيشة وبين الجزئين صحن يحتوي على بئر وأشجار وظلال⁵، ويبدو أن اتخاذها بهذا الشكل ليجنب أهل البيت والضيوف الإحراج فقد يكون عدد الضيوف كبيرا، وربما تستمر الضيافة لمدة طويلة⁶.

ويرتبط بالحياة الريفية بعض العناصر التي يجب توفرها في البيت الريفي، بينما تغيب في بيوت المدينة من ذلك المطامير المخصصة لتخزين القمح والشعير، وقد تمت الإشارة سابقا إلى أنه لا يكاد يخلو بيت ريفي من مطمورة أو اثنتين، كما كان لتربية الحيوانات في هذه البيئة دور في ظهور الحظائر في هذه البيوت⁷ فيتخذ بعضهم فناء بيته حظيرة لأغنامه⁸، أو يمكن أن تكون هذه الحظائر منفصلة وبعيدة عن المسكن

¹ بلباس، المرجع السابق، ص 127.

² نكادي، الأسرة في البادية الأندلسية، ص 43؛ رابح فيسة، الأقسام المعمارية للمنزل الريفي البربري، ص 89.

³ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 677.

⁴ انظر: الملحق رقم 04 بعنوان "تصور لتخطيط منزل ريفي لطبقة متوسطة".

⁵ المقرئ، نفح الطيب، ج3، ص214؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 153؛ الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن

حزم وكتابه طوق الحمامة، ط2، القاهرة، مكتبة وهبة، 1977، ص ص 41، 42؛ قرني، المرجع السابق، ص ص 263، 264.

انظر: الملحق رقم 05 بعنوان: "تصور لتخطيط منزلي ريفي لطبقة غنية".

⁶ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص 72.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1304؛ قرني، المرجع السابق، ص 125.

⁸ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 677.

الرئيسي¹.

ج- تجهيزات المنزل وأثاثه:

اعتنى سكان الريف بتأثيث قاعة الضيافة، وإظهارها بأحسن مظهر، وهو ما يظهره قول الوزير أبي حفص: "ثم مال بنا إلى بيت مكنس، منوع مجنس"²، ويعبر هذا الأمر على ذهنية هذا المجتمع في تقديره للضيوف، بتهيئة قاعة توفر لهم الراحة، أو كما عبر عنه بعضهم أنه نوع من التفاخر والتباهي أمام الضيوف³.

وتفرش هذه القاعة بأنواع من الحصر البلدية والبسط اليدوية⁴، وتكون هذه البسط محشوة ومبطنة بالصوف لتدفئة الجالس عليها أيام البرد⁵، كما يمكن أن تفرش ببعض جلود الحيوانات للزينة أو للتدفئة خاصة عند الفئات الضعيفة، مثل جلود الأغنام والتي تسمى بالهيدورة⁶، وتنتشر في القاعة حول الجدران وسائد من صوف⁷.

وتعتمد بعض الأسر إلى تزيين هذه القاعة، بما توفر لديها من أفرشة وأدوات، فكانت الحيطان تغطي بأنواع من المنسوجات الصوفية تسمى باللبود أو الحائطي⁸، أو تضع على جانب من القاعة شرائط وحبلا عليها ألبسة متنوعة، وفي جانب آخر رفوف عليها أدوات منزلية ووسائل الزينة⁹.

أما غرف النوم فقد احتوت أسرة تختلفت في شكلها وما تحتويه من فراش بين فئة وأخرى، فبينما كان الأغنياء يستخدمون أسرة مرصعة وعليها فرش فاخرة¹⁰، استخدم غيرهم أسرة خشبية كما يمكن أن

¹ رايح فيسة، الأقسام المعمارية للمنزل الريفي البربري، ص 89.

² ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 677.

³ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص 300؛ قربي، المرجع السابق، ص 212.

⁴ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 677.

⁵ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص 72.

⁶ لعناني، المرجع السابق، ص 117.

⁷ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص 72؛ مكي أحمد، المرجع السابق، ص 42.

⁸ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص 72؛ مكي أحمد، المرجع السابق، ص 42.

⁹ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 677. إظهار هذه الألبسة مع وسائل الزينة وبعض الأدوات أدى إلى الحكم عليه أنه مظهر تفاخر وتباهي من قبل بعض الباحثين-كما ذكر سابقا-.

¹⁰ المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص 201؛ لعناني، المرجع السابق، ص 116.

يستغنى عن السرير¹، فيوضع فراش النوم على الأرض مباشرة، ويتكون هذا الفراش من حصر مصنوعة من الخلفاء، وتوضع عليها فرش مبطنة بالصوف².

وضم المنزل بالإضافة إلى هذه الفرش، بعض الأدوات التي يحتاجها الفرد، فمن ذلك أنه كان يستعمل التوابيت والصناديق لحفظ الملابس وبعض الحاجيات³، وعلى الأرجح أن توضع في غرفة النوم لأنها تحتوي أغراضا خاصة. ومن أجل تدفئة الجو في أيام الشتاء يستخدم الكانون، وهو عبارة عن إناء كبير مفتوح يملأ بالفحم ويوضع في وسط الغرفة ليستفيد منه الجالسون حوله، وقد يصل طوله قدر قامة الإنسان⁴، كما يمكن أن يستعمل في الطبخ⁵.

أما المطبخ فقد احتوى أدوات وأواني متعددة، مثل القدور المصنوعة من الفخار والتي يستعملها في الطبخ، والقصاع للعجن، والأطباق والمغارف والملاعق للأكل، والأباريق والقلل والأقداح الخاصة بشرب الماء وصبه، ووسائل حفظ الدقيق وغربلته، بالإضافة إلى بعض الوسائل الخاصة بحفظ أنواع الطعام المختلفة⁶.

خلاصة القول، فإن المنزل الريفي اختلف في تفاصيله وأجزائه الداخلية، وحتى تجهيزاته وفرشه، بين أسرة وأخرى - وهو أمر طبيعي - أملت الفروق الاجتماعية الواضحة بين سكان المجتمع الريفي.

4- الوضعية الصحية للمجتمع الريفي:

لا يمكن الحكم على الحالة الصحية للمجتمع الريفي إلا بالحديث عن الأمراض كانت منتشرة في وسطه، والطرق التي استعملها للتخلص منها أو التخفيف من آثارها.

أ- الأمراض والأوبئة المنتشرة:

تلوذ المصادر بالصمت عن الأمراض التي عرفها المجتمع الأندلسي عامة إلا ما ذكر عن السنوات

¹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 1، ص 268؛ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 852؛ مكي أحمد، المرجع السابق، ص 42.

² ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 1، ص 268؛ كعواس، المرجع السابق، ج 2، ص 566؛ مكي أحمد، المرجع السابق، ص 42؛ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 852.

³ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 5، ص 152.

⁴ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 72؛ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 224.

⁵ ابن رزين، المصدر السابق، ص 71.

⁶ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 852؛ لعاني، المرجع السابق، ص 120، 121.

العجاف، أو في أيام الحروب والفتن وما كان لها من تأثير على حياة الناس، وحتى المصادر التي تحدثت عن الأدوية والنبات، فإنها في الغالب اهتمت بالجانب النظري منها، وهذا ما يشكل عائقا يحول دون الوصول إلى نتائج يمكن الركون إليها.

ومن خلال بعض الإشارات الواردة يمكن معرفة بعض الأمراض التي عرفها المجتمع الريفي، فمن ذلك مرض السعال، الذي ينتشر في المناطق الباردة بسبب امتلاء أنابيب الرئة وحلقاتها بالرطوبة والهواء البارد¹ ويبدو أن هذا المرض عرف انتشارا كبيرا في بعض المناطق الريفية، خاصة في بعض القرى التي عرفت ببرودتها الشديدة²، أو تلك القرى التي تقع في المرتفعات الجبلية أو في سفوحها³.

ويمكن أن يكون المجتمع الريفي قد عرف أيضا بعض الأمراض الداخلية، فقد تصاب المعدة بالأمراض، وتحدث الأوجاع والآلام من جرائها، ويتسبب في هذا المرض تناول الأغذية والحبوب الرديئة⁴ ويحتمل أن يعرف المجتمع مثل هذه الأمراض - فقد تم الإشارة سابقا-، إلى اضطراب بعض الفئات من المجتمع الريفي إلى تناول بعض النباتات البرية، وهو ما يحدث أضرارا خاصة لمن أدمن عليها ولم يعتدها⁵ كما يمكن أن تسبب هذه الأغذية في أمراض داخلية أخرى، مثل أمراض الكبد، فقد ذكر ابن العوام أن اتخاذ البلوط كغذاء قد يسد الكبد ويفسدها⁶.

كما يمكن أن يكون المجتمع الريفي قد عرف بعض الأمراض الورمية، والتي تصيب بعض أعضاء البدن والتي تظهر نتيجة بعض السلوكيات الخاطئة، مثل الأورام المتعلقة بالجهاز البولي، فقد أشار أحدهم أن بدويا أصيب بهذا الورم فاحتبسه البول، مما سبب له آلاما شديدة⁷.

وتسببت الحالة التي مرت بها الأندلس خلال الفترة مجال الدراسة من حروب وفتن وحروب داخلية

¹ زرهوني، المرجع السابق، ص 111.

² ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 113.

³ تم الإشارة في الفصل الأول إلى ما تتميز به بعض المناطق الريفية من برودة قاسية، وقد اشتكى أحد الشعراء من شدة البرد في بعضها.

يمكن الرجوع إلى الفصل الأول، أو انظر: الحميري، المصدر السابق، ص 343؛ الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص 360

⁴ زرهوني، المرجع السابق، ص 107.

⁵ ابن العوام، المصدر السابق، ج 2، ص 139.

⁶ نفسه.

⁷ أبو داود سليمان بن حسان بن جليل الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء، تح. فؤاد السيد، د. ط، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، 1955، ص ص 100، 101.

وغارات النصارى الخارجية، في حدوث أمراض متعلقة بالقلب، فحالة الخوف والفرع التي كان يشعر بها المجتمع خلال هذه الفترات تسببت له في مرض الخفقان، ويقصد به الزيادة في الحركة الطبيعية لعضلة القلب، ويكون ذلك لشدة الغضب، أو لشدة الخوف¹، ويحتمل أن يكون هذا المرض قد أصاب بعض الفئات العمرية من المجتمع الريفي، خاصة أن القرى الأندلسية تميزت بعدم حصانتها، وهو ما جعل السكان في حالة تأهب وترقب دائمين وهجرة مستمرة خلال هذه الأزمات.

وغالبا ما يرتبط انتشار الوباء والطاعون بالفترات الحرجة التي مرت بها البلاد، سواء التي تسببت فيها الأوضاع السياسية، أو العوامل الطبيعية خاصة في السنوات العجاف، نتيجة استعماهم الأغذية والمياه الفاسدة، مما يؤدي إلى انتشار العدوى بين الناس، فتسقط الكثير من الوفيات، وفي عبارات بعض المصادر دلالات عن ذلك، فابن أبي زرع يشير إلى أن بلاد الغرب الإسلامي عرفت سنة 407هـ / 1017م: "قحط شديد ومسغبة عامة ووباء كثير"²، وفي سنة 448هـ / 1056م حدثت حالة من القحط، فانتشر الموت بين الناس³، ولكثرة الوفاة في هذه السنة شاهد أحدهم في إشبيلية: "الناس يدفنون الثلاثة والأربعة في قبر واحد، والمساجد مربوطة أبوابها بالخزم لا يوجد من يؤم بها ولا من يصلي فيها"⁴، وفي سنة 498هـ / 1105م، سقطت الكثير من الأرواح، بسبب القحط الذي اجتاحت قرطبة، حتى أيقن الناس بالهلاك⁵، وفي سنة 526هـ / 1131م عرفت قرطبة القحط، "واشتدت المجاعة والوباء بالناس، وكثر الموتى"⁶.

وإذا كانت النصوص السابقة تثبت انتشار أوبئة مجهولة أدت إلى هذه الوفيات، فإن أوبئة أخرى كانت معروفة عند المجتمع الأندلسي، مثل داء الجذام أو العلة الكبرى⁷، وهو من الأمراض المعدية، فكان

¹ زرهوني، المرجع السابق، ص 110.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 118.

³ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج 3، ص 786؛ ابن عبد المراكشي، المصدر السابق، ج 5، ص 33.

⁴ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج 5، ص 33.

⁵ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص 44، 45؛ بوتشيش، أثر قيام الدولة وسقوطها في التطور الديمغرافي في العصر الوسيط، ص 44.

⁶ ابن القطان، المصدر السابق، ص 226.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 883، 884؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج 9، ص 404، 405؛ زرهوني، المرجع السابق، ص 119.

الناس يتطيرون منه، ولهذا كان يتم عزل المصابين¹، وقد ورد عند الونشريسي ما يفيد بانتشار هذا الوباء في المجتمع الريفي، فقد سأل أحدهم عن مرضى الجذام الذين هم بخارج قرطبة، أعطوا من الطعام الذي أوصى به أحدهم للجذمي بقرطبة؟ أم يخصص للذين هم بالحاضرة فقط؟²

لقد عبرت النازلة الأخيرة على حرص المجتمع الأندلسي على التضامن مع المجذومين، مواساة لهم وتخفيفا من معاناتهم، وهو ما يتضح جليا في جواب الفقهاء، الذي كان في صالح جميع المجذومين، كما تعبر هذه النازلة على نوع من أنواع التعامل مع هذه الأمراض للتخفيف منها، فكيف تعامل المجتمع الريفي مع مختلف الأمراض؟

ب- العلاج وطرق التداوي:

لم يكن طلب التداوي عند الأطباء والحكماء ميسورا للمجتمع الريفي، إذ تنعدم الإشارات التي تدل على وجود مهنة الطب في أرياف الأندلس، كما أن البيمارستانات تنتشر في المدن فقط، وهذا ما جعل بعض الفئات من هذا المجتمع تتجه إلى المدينة لطلب الشفاء³، فقد وردت حادثة عن رجل من الريف الأندلسي أصابه ورم في جهازه البولي فقصد المدينة لطلب العلاج من أحد أطبائها المعروفين⁴، أو ربما يتجه بعضهم إلى البيمارستانات للاستفادة من الأحباس الموجهة للمرضى في المدن⁵، رغم تشديد الفقهاء في استفادة الغرباء عن المدن من الاستفادة منها⁶، كما قد يلجأ بعضهم خاصة العناصر غير المسلمة⁷ إلى

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 883، 884؛ ابن منظور، المصدر السابق، ج12، ص 88، مادة جذم؛ زرهوني، المرجع السابق، ص 119.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج09، ص ص 404، 405.

³ لم يكن بمقدور كل فئات المجتمع الأندلسي عامة اللجوء إلى الأطباء والحكماء للتداوي، بسبب الأجرة المرتفعة التي يطلبها هؤلاء، فقد ذكر ابن بسام، أن رجلا ساوم طبيبا في الأجر الذي طلب منه دفعه مقابل الكشف عنه. ولهذا التجأ الكثير منهم إلى طرق الاستشفاء البدائي انظر: ابن بسام، المصدر السابق، ج3، ص 905؛ إبراهيم القدري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين- المجتمع الذهني والأولياء-، ط1، بيروت، دار الطليعة، 1993، ص 103؛ زرهوني، المرجع السابق، ص 62، ص 94.

⁴ أبو داود سليمان بن حسان ابن جليل الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء، تح. فؤاد السيد، د. ط، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص ص 100، 101.

⁵ زرهوني، المرجع السابق، ص 94.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 481.

⁷ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 57.

الأديرة التي كانت تتوفر على أطباء وحكماء¹.

وأمام هذه الصعوبة لم يكن على فئات واسعة من المجتمع الريفي، إلا استعمال طرق وسائل أخرى لمعالجة مختلف الأمراض التي عانوا منها، وأغلب هذه الوسائل كانت مما وفرته البيئة الريفية، فمن ذلك اعتقادهم بأهمية بعض العيون الحارة التي تسمى " الحمة"²، في معالجة بعض الأسقام، ومن أشهر حمات الأندلس، عين الحمة بقرية الحمة بالقرب من بجانة على بعد ثلاثة أميال، التي وصفها الحميري بالقول: " ليس لها نظير في الأندلس، في طيب مائها وعدوئته وصفائه ولدوته ونفعه وعموم بركته، يقصدها أهل الأسقام والعاهات من جميع النواحي، فلا يكاد يخطئهم نفعها"³، ويذكر الإدريسي أن: " المرضى والمعلون يقصدونها من كل الجهات، فيلزمون المقام إلى أن تستقل عندهم، ويشفون من أمراضهم"⁴، وقد احتوت هذه الحمة على عناصر معدنية كان لها الأثر الواضح في شفاء المرضى⁵.

واختصت بعض العيون بمعالجة أنواع من الأمراض، مثل العين المباركة بالقرب من حصن بلش من أعمال تدمير، وهي عين باردة يقصدها من كان به ريح أو وجع واغتسل به شفي⁶، وعلى أربعين ميلا من مدينة مرسية، توجد عين عذبة يقصدها من علق العلق بحلقه، فيفتح فاه فيسقط العلق لحينه⁷، وفي قرية الأنجرون من قرى البشرات قرب غرناطة، مشهورة بالمياه المعدنية، يقصدها مرضى الكبد للاستشفاء⁸ وكانت مياه عين باغة تفتت الحصاة إذا تم شربها⁹.

وما يمكن ملاحظته على هذه العيون أنها كانت منتشرة بكثرة في الريف الأندلسي، كما أنها كانت في متناول الجميع، وهو ما يرجح أن تكون مقصد المرضى والمعتلين من المجتمع الريفي، من مختلف المناطق.

كما استغل المجتمع الريفي ما وفرته البيئة الريفية من مواد نباتية وحيوانية لمعالجة مختلف العاهات، فأما

¹ ابن جليل، المصدر السابق، ص 101.

² ابن منظور، المصدر السابق، ج 12، ص 154.

³ الحميري، المصدر السابق، ص 79.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 566.

⁵ الحميري، المصدر السابق، ص 80.

⁶ العذري، المصدر السابق، ص 09.

⁷ الحميري، المصدر السابق، ص 539.

⁸ حتاملة، موسوعة الأندلس والمغرب العربي، ج 3، ص 140.

⁹ قرني، المرجع السابق، ص 226.

المواد العلاجية ذات الأصل الحيواني، فتمثلت في اللحوم بمختلف أنواعها والألبان والزبد والعسل والبيض والعسل¹.

وأما المواد النباتية فإنها تحمل الكثير من الخصائص، التي تسهم في علاج مختلف الأمراض، فيستخدم بعضها لعلاج أوجاع المعدة والإمساك والإسهال، مثل الأرز والتوت والسفرجل والكرم والرمان والزيتون² ويصلح بعضها الآخر لمعالجة السعال وأمراض الرئة والصدر، مثل القمح والشعير والتين والكرم والصنوبر³ وللتخلص من الحروق والقروح والأورام والجراحات والصداع ولسعات ذوات السموم وعضات الكلاب تستخدم الباقلي والبلوط والتوت والقمح والشعير والزيتون⁴.

ويبدو أن وفرة هذه المواد جعلت استعمالها ميسورا عند المجتمع الريفي، واعتمد على بعضها حتى عرف بها، فقد قيل عن الثوم أنه: "ترياق أهل البادية"⁵، وشاهد ابن وافد الأندلسي ت 460هـ / 1068م رجلا جرح نفسه بمنجل، فاستعمل ورق البلوط وحده، بأن دقه وسحقه ووضع على الجراحة، فأدملت جراحه⁶.

وفي الأخير يمكن القول، أن المستوى الصحي للمجتمع الريفي تأثر بالحالة التي عرفت بها البلاد خلال الفترة مجال الدراسة، ففي الظروف العادية عرف بعض الأمراض الداخلية والصدرية، وفي الظروف السياسية الصعبة وأيام الجوائح والمسغبات، تنتشر الأوبئة والأمراض مما نجم عنه العديد من الوفيات، وقد حاول هذا المجتمع أن يحسن من حالته الصحية بالاستفادة مما وفرته له البيئة الريفية.

ثالثا/ العلاقات الاجتماعية بين ساكنة الريف الأندلسي:

تراوحت العلاقة بين أفراد المجتمع الريفي بين التعاون والتضامن تارة، والمنازعات والاختلاف تارة أخرى.

¹ زرهوني، المرجع السابق، ص 129؛ قرني، المرجع السابق، ص 225.

² الوزير أبو مطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكريم بن وافد الأندلسي ت 460هـ، كتاب الأدوية المفردة، ضبط. أحمد حسن بسج، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000، ص ص 37، 36، 43، 119-123، 56، 60.

³ نفسه، ص ص 53، 59، 60، 82، 177.

⁴ نفسه، ص ص 36، 37، 53، 101-103، 121-123، 177.

⁵ قرني، المرجع السابق، ص 224.

⁶ ابن وافد، المصدر السابق، ص ص 102، 103.

1- مظاهر التعاون والتضامن:

أ- التعاون في الأعمال الزراعية:

تعرف المجتمعات الريفية بانتشار مظاهر التعاون فيها، وهو أمر ضروري لأفرادها، فقد خلص ابن خلدون في حديثه عن معاش المجتمع الريفي المرتبط بالأعمال الزراعية، بالقول: "وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفاع، إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه"¹.

ويبدو أن علاقة التعاون هذه قد ميزت المجتمع الريفي الأندلسي أيضا، فقد احتاجت الأعمال الزراعية إلى آلات ووسائل، ولم تكن لكل فئات المجتمع القدرة على امتلاك هذه الوسائل، فقد أشارت بعض النوازل إلى ظاهرة تسليف واستعارة الدواب، التي تستعمل في الحرث والدرس، وحتى في السقي فذكرت نازلة، أن رجلا استعار ثورا للقيام بمختلف أعماله الزراعية²، واستعار آخر بقرة ليدرس بها زرع³.

ودلت عملية سقي المزروعات على أهمية التعاون في المجتمع الريفي، فقد عرفت بعض المناطق الريفية السقي المشترك والانتفاع الجماعي لأهل القرية بالمياه سواء الموجودة في الآبار⁴، أو من خلال السواقي التي تعبر جنتهم، والذي يطلق عليه بالري التوافقي⁵، وهو نظام تعاقدى حددت بفضله نوبة كل شخص فقد جاء في بعض النوازل أن أهل ساقية يسوقون الماء عليها لسقي أرضهم وثمارهم وجنتهم، ولكل واحد منهم حصة في الماء المذكور معلومة، والساقية تجري في أرض السلطان وفي أرض رجل منهم، يسوق كل واحد منهم حصته عليها في اليوم الذي يجب له دون أن يعترض واحد منهم صاحبه، على هذا السبيل كانوا في الساقية والماء والمذكورة منذ كانوا عليها كان آباؤهم وأجدادهم⁶، وهو ما يشير إلى وجود نظام تعاقدى يحدد

¹ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 129.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 109.

³ نفسه، ص 110.

⁴ ابن ورد، المصدر السابق، ص 102.

⁵ سعيد بنحمادة، الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 07 و 8 هـ / 13 و 14 م إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2007، ص 65.

⁶ ابن الحاج، المصدر السابق، و 147؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1604، 1605؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 407، 408.

نوبة كل مستفيد¹، قد يكون يوماً أو جزءاً منه أو وحدة زمنية معينة، ويراعى فيها مستوى التدفق ومساحة الأرض، وعدد أفراد الجماعة المستفيدة²، ويحمل هذا النظام معاني التفاهم والتعاون السائد بين أفراد المجتمع الريفي.

وقد كان لصاحب الحصة في السقي الحرية في التصرف في شربه، فكان بعضهم يهب حصته من السقي لمن يحتاجه³، وقام بعضهم الآخر بتسليف حصته لفلاح يحتاج الماء على أن يصرفه إليه بعد أيام في يوم بعينه من أيام الشرب، أو يشتريه له إن لم يكن له حظ من ماء القرية⁴، وأفتى بعض الفقهاء بجواز كراء الماء وبيعه، بسبب المنفعة التي تنجر عنه، خاصة في سقي لمحاصيل الزراعية⁵، ولا شك أن هذه الليونة في تداول المياه، عبرت عن تجذر السلوك التضامني بين أفراد المجتمع الريفي، كما حاول الفقهاء بفتاواهم ترسيخ هذه الثقافة، من خلال مسايرتهم للأعراف والعادات المتعلقة بعملية السقي مثلما يحدث عند قلة الماء فيكون النقص مقسماً بينهم⁶.

ويبدو أن تكاليف إنجاز السواقي لم تكن بالتكاليف الهينة، خاصة إذا كانت تمتد على مسافات طويلة، مما دفع بأصحاب الجنان إلى سلوك مسلك التعاون والاشتراك في حفر السواقي للاستفادة من المياه في السقي⁷، فتذكر نازلة أن أهل قرية جلبوا لأنفسهم ماء في قناة تمر عبر جنان رجل منهم⁸، واقتطع قوم

¹ بنحمادة، المرجع السابق، ص 66. وقد أثبتت إحدى الوثائق النصرانية أن نظام النوبة كان عرفاً سائداً في بلاد الأندلس، فقد وصفت عملية التناوب في سهل جاندنيا شرقي الأندلس قبل سقوطه سنة 637هـ/ 1239م، وضمت أسماء الجماعات القروية المألقة لتلك النوبات. انظر: غيثار، المرجع السابق، ص 988، 989.

² ابن الحاج، المصدر السابق، و 147؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1604، 1605؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 407، 408؛ يوسف نكادي، الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، ص 253، 254؛ بنحمادة، المرجع السابق، ص 66؛ سعيد بنحمادة، الملكية العقارية وقانون الماء ببلاد المغرب والأندلس بين التشريع النظري والتنزيل التاريخي دراسة لأثر الجغرافيا التاريخية في تهيئة القانون، "التاريخ والقانون التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة"، سلسلة الندوات رقم 22، جامعة مولاي إسماعيل مكناس، 2009، ص 169.

³ حاج كولة، المرجع السابق، ص 122.

⁴ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1306-1307، 1317.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 292.

⁶ بنحمادة، المرجع السابق، ص 68.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 407.

⁸ ابن الحاج، المصدر السابق، و 147؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1575، 1576؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص 400.

آخرون من عين طبيعية جزءا كبيرا ، وأجروه في ساقية على أرض غيرهم واقتسموا ماء الساقية المذكورة¹ وفي جيان اشترك رجل مع قوم على حفر ساقية في أرضه².

وتعرضت هذه السواقي للعديد من الأضرار الناجمة عن النشم الكثير، والشجر الذي ينبت في حافتيها، وفي مقرها وفي شفيرها، مما يضطر أصحابها إلى تنقيتها، حتى يسهل جريان الماء³، ولا شك أن عملية الصيانة والإصلاح هذه، كانت تحتاج إلى تكاليف وجهد كبيرين، خفف منهما التعاون بين المنتفعين من هذه الساقية⁴، ولا شك أن هذا التعاون في الإنجاز والإصلاح، ومراعاة ظروف البعض عند السقي يسهم في الحصول على سقي منتظم لكل الفلاحين.

ولم تقتصر صور التعاون بين أفراد المجتمع الريفي عند هذا الحد، إذ يلاحظ استمرار روح التعاون بينهم طيلة مراحل النشاط الزراعي، فعند جني المحصول كان سكان أرياف غرناطة ومالقة يخرجون نساء ورجالا إلى حقول العنب والتين يكتثون أياما يجمعون خلالها المحصول⁵، وفي نازلة عن موسم الحصاد ما يفيد بوجود روح التضامن خلال عملية الحصاد⁶ وبعد جني المحصول، قد يضطر بعضهم إلى استلاف المطامير من جيرانه لحزن الحبوب أو يكتريها منهم⁷، أو يقوم بحفر مطمورة له عند جاره⁸.

كما عرفت عملية الرعي ظاهرة التعاون، فقد انتشرت في بعض القرى المسارح المشتركة، فكانت الأراضي الرعوية منتشرة بين عدة قرى لا فضل لأحد منهم على سائر أرياب تلك القرى وأصبحت عرفا عندهم⁹، كما عرفت قرى أخرى الرعي المشترك، فقد كان لقوم غنم لكل واحد منهم جزء يتداولون على

¹ ابن الحاج، المصدر السابق، و 147.

² نفسه، و 148.

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 1109، 1110؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص ص 400، 401.

⁴ نفسه، ج 10، ص 273.

⁵ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 423؛ قاسم الطويل، المرجع السابق، ص 259، حميدي، المرجع السابق، ص 362.

⁶ البرزلي، المصدر السابق، ج2، ص 72.

⁷ الشعبي، المصدر السابق، ص ص 314، 319، 320.

⁸ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 108.

⁹ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 132؛ البرزلي، المصدر السابق، ج5، ص 32.

حرزها بأنفسهم، ولكل واحد منهم يومه الذي يحرز فيها جميع المواشي¹، ويبدو أن هذه العملية أغنت السكان عن استئجار الرعاة، وهو ما يسهم في التقليل من المصاريف المتعلقة بهذا النشاط، وما يؤكد ذلك أنه من لم يستطع منهم أن يرفعى الغنم في يومه، يعوض ذلك بكراء واستئجار رجل يحرز عنه المواشي².

ب- المجتمع الريفي وسبل الخير:

انتشرت في المجتمع الأندلسي خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م، قيم التراحم الإنساني ويظهر ذلك جليا في الأحباس التي خصصها الأندلسيون، لجهات البر المختلفة، وباعتبار الحبس صدقة جارية تنفع صاحبه بعد مماته، فقد تعلق به الأندلسيون فخصصوا الدور والأراضي والضياع والحمامات وغيرها على سبل الخير والبر³، فقامت هذه الأحباس بدور كبير في مجال الرعاية والتكافل الاجتماعي.

ولم يكن المجتمع الريفي بمعزل عن هذا الفعل الخيري، وهو ما تظهره حجم الملكيات الزراعية المتنوعة التي خصصها لهذا الغرض⁴، وقد تم الحديث سابقا عن الأحباس التي خصصتها الأسرة الأندلسية لأفرادها كشكل من أشكال التفاهم والود بينها، ومظهرا من مظاهر التكافل الأسري، حتى تجنب الأبناء نوائب الدهر وتقلباته وتضمن لهم بها دخلا يجنبهم حاجة السؤال للغير، وهو ما يعرف بالحبس الأهلي.

كما عرف هذا المجتمع النوع الثاني من الحبس والمتمثل في الحبس الخيري، وهو أن يوجه هذه الأحباس إلى مختلف جهات البر ابتغاء للأجر، فوجدت فيه الفئات الضعيفة عوناً لها لتجاوز مشاكل الحياة وصعابها.

وقد تنوعت الجهات التي استفادت من هذه الأحباس، فاهتم المجتمع بفئة الفقراء والمساكين، فمن ذلك أن رجلا حبس في وصيته ضيعة له حبسا صدقة على ضعفاء أهله، يبدأ بأهل الحاجة منهم على ألصق قرابة، فيعطى كل واحد منهم من ذلك قوته وكسوته، ثم إلى الفقراء من بعدهم⁵، وأوصى آخر بفدان

¹ الشعبي، المصدر السابق، ص ص 261-262، 296.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص ص 1304، 1305.

³ عبد القادر رنوح، الأحباس ودورها في المجتمع الأندلسي ما بين القرنين 4-9هـ / 10-15م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص 74.

⁴ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص ص 94-96.

⁵ ابن الحاج، المصدر السابق، و 284؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص ص 477، 478.

يكون حبسا على المساكين بعد وفاته يؤخذ فائدته كل عام ويشترى به خبزا، يفرق على الضعفاء والمساكين في شهر رمضان¹.

وانتشرت الأراضي المحبسة على المساكين والفقراء في أرياف قرطبة²، وفي غيرها من أرياف الأندلس فقد وردت عند ابن سهل شورى في أحباس أهل البوادي تحمل دلالة قوية على كثرة الأحباس الموجهة لصالح الفئات المحرومة من المجتمع الريفي، إذ أقر "قوم من قرى شتى"، بأحباس لهم على فقرائهم ومساجدهم³، وفي نازلة أخرى أن رجلا حبس أرضا على ضعفاء أهله لصلبه، فإن لم يكن من أهله ضعفاء رجع إلى المساكين، حتى يكون من أهله ضعفاء⁴، وخصص بعضهم أصل توت على سبل الخيرات، فجعلها الناظر على المساكين⁵، وتعدى نفع هذه الأحباس الريفية، إلى فقراء ومساكين المدن، خاصة إذا كانت هذه الأملاك والأراضي الزراعية قريبة منها⁶.

كما لقيت فئة المرضى والضعفاء بعض الاهتمام، فقد حاول المجتمع الريفي أن يخفف من آلامهم بتخصيص بعض الأحباس لفائدتهم، فقد دلت نازلة سابقة على اهتمام أحدهم بضعفاء أهله، واشترط أحد الآباء تصديق بأرض على ابنه الكبير أن ترجع هذه الأرض صدقة على المرضى بعد وفاة ابنه⁷ وأوصى رجل من أحد أرياف قرطبة للمرضى بحاضرة قرطبة بأن يعطوا أربعة أمداد⁸، وأوصت امرأة بقطيع من جنة حبسا على المرضى بقرطبة، بعد انقراض أهلها⁹.

وتعددت سبل الخير في بعض الأحباس الريفية، فقد حبس رجل جنة له اعتمرها عشرة أعوام على

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 182.

² نفسه، ص 437.

³ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 734.

⁴ الشعبي، المصدر السابق، ص 151.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 143.

⁶ نفسه، ص 157.

⁷ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 133.

⁸ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 170. انظر الملحق رقم 06 بعنوان: "صورة من التضامن مع المرضى عند المجتمع الريفي"

⁹ نفسه، ج2، ص 714.

بنيه، فإذا انقضوا رجعت حبسا على طلبه العلم وفك الأسرى وعتق الرقاب¹، وحبس أحدهم قطيعا من فدان له بقرية السقاين بغربي قرطبة، لدفن أموات المسلمين².

وما يمكن قوله، أن صور التراحم لم تغب عن المجتمع الريفي في الأندلس، فكثر الأحياس الموجهة للفئات المحرومة، خاصة الفقراء والمساكين والمرضى، وشملت أحيانا حتى تلك الموجودة في المدن.

2- النزاعات في المجتمع الريفي:

لا تخلو المجتمعات من وجود نزاعات تقوم بين أفرادها بسبب اختلاف المصالح وتضاربها، وللنزاعات القائمة بين أفراد المجتمع الريفي خصوصية أملتتها الحياة الريفية القائمة على الفلاحة، وأي ضرر يمس هذا المصدر، تظهر الصراعات بين أفرادها³، ولذلك ترتبط أساسا بهذا النشاط، فتظهر الصراعات على السقي أو مختلف الأضرار التي تحدث للجنان، أو للطرق والمحجات التي توصل إليها.

أ- نزاعات السقي:

يشكل الماء عنصرا هاما لاستمرار الحياة، ودعامة أساسية يقوم عليها الاقتصاد الريفي⁴، ولذلك ارتبطت الكثير من النزاعات بهذا العنصر، مما هدد السلم الاجتماعي بين أفراد المجتمع الريفي، فتعددت مظاهر هذا النزاع والأسباب التي أدت إليه، فمن ذلك ما يعرف بمشكل الأعالي والأسافل، وهو نزاع بين قوم يسكنون أعلى النهر وآخرون يقطنون أسفله، فيقطع الأعالي الماء عن الأسافل، ويجعلونه حكرا لهم يسقون به زروعهم دون الأسافل⁵.

وترجع أسباب هذا النزاع إلى فترات الجفاف التي تعرفها البلاد من حين لآخر، فيقل مستوى تدفق الأنهار، مما يضطر الأعالي إلى احتكار الماء وتصريفه ملء الصهاريج والسدود⁶، أو نتيجة إنشاء الأعالي

¹ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج2، ص 1117.

² ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 710.

³ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 239؛ فتحة، المرجع السابق، ص 100.

⁴ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 227؛ غيثار، المرجع السابق، ص 988.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1140؛ ابن الحاج، المصدر السابق، و392.

⁶ عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوم وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس ق6- 8هـ / 12- 14م، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2008، ص224؛ بنحمادة، الماء والإنسان في الأندلس، ص76؛ البياض، تدبير النزاع بين الفلاحين في بوادي المغرب والأندلس، ص362.

زروعا جديدة مثل الخضر والبقول، فاحتكروا حصصا إضافية لسقي هذه الزروع الجديدة مما أضر بالأسافل¹، أو يحدث الأعالي منشآت، مثل إنشاء ساقية جديدة يجرون فيها الماء فيحدث ذلك ضررا على الأسافل²، أو يتهم الأسافل الأعالي بسرقتهم الماء وإخلالهم بالاتفاق الذي كان بينهم في الاستفادة من الماء وطريقة توزيعه بينهم³، ولا شك أن كل هذه الأسباب تتحكم فيها طبيعة السطح، فالتفاوت الطبوغرافي للحقول جعل الأعالي يملكون آليات التحكم في الأسافل⁴.

وقد حاول الفقهاء الحيلولة دون تفاقم هذه النزاعات، من خلال منع الأعالي احتكار الماء باعتبارهم شركاء في الماء، لأنه غير متملك، فأفتوا بكسر السدود التي تمنع وصول الماء إلى الأسافل⁵ ولكن منحتهم الأسبقية في البدء بسقي محاصيلهم وزروعهم⁶، وهو ما يحقق نوعا من التوازن بين الطرفين دون أن يحدث ضررا لطرف.

ومن الأضرار التي تحدث في عملية السقي النشم والشجر والطين المترسب في قاع الساقية، مما يعرقل جريان الماء بشكل طبيعي، ويحول دون استفادة أصحاب الجنان من حصتهم في السقي، فكانت هذه السواقي تحتاج إلى الإصلاح والترميم والتنقية⁷، لكن امتناع أحد المتفاعلين بالساقية المشتركة - بحجة أنهم لن يستفيدوا من الماء في تلك السنة، لأن ليس لديهم زروع يسقونها - أحدث نزاعا بينه وبين شركائه في الساقية⁸، كما أضرت عملية التنقية بأراضي الفلاحين التي تمر عبرها القناة أو الساقية، فقد كان يلقي بالطين المترسب في تلك الأراضي مما كان سببا في منعه من تنقية ساقيته، فأفتى ابن رشد: "أن ليس لصاحب الساقية أن يلقي الطين إذا نقاها إلا على حافتي الساقية مما لا يضر بصاحب الأرض، على ما

¹ عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، ص 121.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 383.

³ نفسه، ص 398.

⁴ بنحمادة، الماء والإنسان في الأندلس، ص ص 83، 84.

⁵ عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، ص 124؛ البياض، الكوارث الطبيعية، ص 225.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 1140؛ ابن الحاج، المصدر السابق، و 392؛ عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، ص 121.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص ص 1109، 1110.

⁸ الونشريسي، المصدر السابق، ج 10، ص 273.

جرى العادة والعرف بذلك"¹. ولا شك أن هذه الفتوى، استندت على قاعدة نفي الضرر، كما راعت العرف والعادة في ذلك، وهو ما يحفظ المصلحة العامة.

كما عرف المجتمع الريفي نزاعاً بين أصحاب الجنان وأصحاب الرحي على الأحقية باستغلال المياه فقد منع بعض أصحاب الرحي الماء عن أصحاب الجنان، مدعين أسبقيتهم في استغلال الماء، بينما رد أصحاب الجنان أنهم كانوا يسقون جناتهم قبل إنشاء الرحي²، أو يحدث أحد الجيران عينا تضر بالعين القديمة التي كان يسقي بها الجيران جناتهم وتدار بها أرحاؤهم³، أو يكون الصراع بين الرحويين أنفسهم نتيجة إحداث رحي جديدة، أضرت بالرحى القديمة⁴، أو إحداث ساقية لرحى جديدة أضرت بالرحى القديمة⁵.

وإذا كان معيار الفصل بين أصحاب الرحي قائم على الأسبقية في استغلال المياه مع الاستعانة بأهل البصر والمعرفة لتقدير الضرر الحاصل⁶، فإن الأمر يختلف إذا كان الصراع بينهم وبين أصحاب الجنان، فقد اعتمد الفقهاء على فقه المقاصد، فقدموا ما وقته مضيق على ما وقته موسع⁷، ولذلك قدموا أصحاب الجنات في سقي محصولهم على أصحاب الرحي الذين لهم بقية أيام السنة⁸، وحجتهم أن "أن الثمرات إن لم تسق في وقت سقيها هلكت، والأرحاء لا تهلك بقطع الماء عنها، وإنما تنقطع المنفعة في ذلك الوقت"⁹. ويبدو أن هذه الفتوى، قد حفظت نوعاً من التوازن في استغلال المياه بين الطرفين، وحاولت الحفاظ

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1109، 1110.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1286.

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1168.

⁴ عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء، ص 67؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1168.

⁵ ابن الحاج، المصدر السابق، و 147، 148؛ عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء، ص 67.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1167، 1168.

⁷ البياض، تدبير النزاع بين الفلاحين، ص 369؛ البياض، الكوارث الطبيعية، ص 239.

⁸ عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء، ص 250؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1088.

⁹ عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء، ص 121؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 389. لا شك في أن هذه الحجة قوية، وهو ما أكدته بعض كتب الفلاحة، فيذكر ابن بصال عن أهمية السقي في أوانه بالقول: "والثمر إذا عطشت قل ما تنجب لا سيما إن كانت صغاراً أول ما تغرس وأكثر ما يخاف عليها عند ذلك، من أجل ذلك تحتاج إلى التعاهد بالماء حتى تكون كباراً". انظر: ابن بصال، كتاب الفلاحة، تع. خوسي ماريا مياس ببيكروسا ومحمد عزيمان، د.ط، الرباط، معهد مولاي الحسن بتطوان، 1955، ص 65.

على الفعل التضامني، لكن يبدو أن صفو هذه النتيجة، قد أثرت عليها ظروف القحط والجفاف التي كانت تعرفها البلاد من حين لآخر، إذ تشير نازلة أن الشجار انقطع بين أصحاب رحي وأصحاب جنات سنين، لكن القحط الذي عرفته البلاد واستمراره مدة، جدد الصراع بينهما¹، ولا شك أن ضعف السلطة المركزية أو غيابها عن المشهد الريفي، ساهم في عدم قدرة رجال الفتوى على الحد من هذه الخصومات، أو الحيلولة دون تجددتها، لأن فتاوى الفقهاء تحمل صفة الإخبار بحكم شرعي دون الإلزام بتنفيذه²، وما يؤكد ذلك عدم تردد أحد الطرفين منع الطرف الثاني من الاستفادة من الماء كلما كانت له القدرة على ذلك.

وربما يستثنى من ذلك بعض المناطق الريفية القريبة من المدن، والتي تكون قد رفعت مشكلتها إلى الجهات القضائية في المدينة لوضع حد لها والوصول إلى حل توافقي، فقد أبرزت وثيقة مؤرخة سنة 583هـ/1187م، اتفاقا بين قريتين صادق عليه قاضي بلنسية يقضي باستغلال الماء بينهما³.

كما أحدث الماء نزاعا عند عملية بيع أو كراء الأرض، فكان بعضهم يتحايل في بيع الأراضي السقوية فلا يذكر أن لها حظها من السقي، وهو ما اعتبره الفقهاء غرر وجهالة بالمبيع، ولذلك وجب عليه الإعلام بهذا الماء قل أو كثر⁴، وذلك ربما تفاديا للنزاع الذي سيحدث بسببه، ولما كانت أراضي الأندلس غير مأمونة الري إلا ما كان على ضفاف الأنهار المنتظمة ومناطق التساقط، أو التي تسقى بماء الآبار والعيون⁵، فقد حرص الفقهاء على ضبط شروط كراء هذا النوع من الأراضي تفاديا للنزاعات التي تطرأ بسببه، فمن ذلك تقليص مدة الكراء فلا تتجاوز العام الواحد، كما أن الكراء لا يلزم المكثري إلا بعد أن تروى ريا يبلغ به الزرع أو أكثره⁶.

وما يمكن قوله في الأخير، أن الماء شكل أحد أهم العناصر التي دار حولها النزاع في المجتمع الريفي ورغم محاولات الفقهاء القضاء عليها، إلا أن الظروف المناخية الصعبة - خاصة فترات الجفاف - كثيرا ما

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1088. انظر: الملحق رقم 07 بعنوان: "صورة من نزاعات المجتمع الريفي بسبب القحط"

² بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 238؛ البياض، تدبير النزاع بين الفلاحين في بوادي المغرب والأندلس، ص 369؛ البياض، الكوارث الطبيعية، ص ص 239، 240؛ حاج كولة، المرجع السابق، ص 5.

³ Guichard, Paysans d' al- Andalus XI^e - XIV^e, p 132.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص 39.

⁵ البياض، الكوارث الطبيعية، ص ص 242، 244.

⁶ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 447.

عكرت صفو السقي التوافقي، وأدت إلى إحياء النزاعات القديمة.

ب- نزاعات الجيران:

عرف المجتمع الريفي نزاعاً بين المتجاورين في الأجنة والمزارع، وكان يحدث ذلك بسبب ما تتعرض له الجنان من أضرار أو ما يتعلق بالمحجات والطرق.

- أضرار الجنان:

نتيجة لبعض السلوكات التي يقوم بها الجار سواء كان ذلك عمداً أو نتيجة إهمال منه، تعددت مظاهر الإضرار بالجنان، فمن ذلك تجاوز بعض المزارعين حدود القرية التي زرعوا فيها إلى أرض قرية أخرى تجاوزها فحرثوها فشكا رب القرية المتجاوز إليها أولئك المزارعين¹، وتعدى أحدهم في ريف شلب على حصة رجل آخر في أرض مشتركة بينهما².

كما أحدثت تربية الحيوانات المختلفة أضراراً على جنان الجيران، إذ تشرد الأغنام والأبقار وتدخل الجنان فتحدث أضراراً مختلفة، فربما تأكل الزرع أو تحطم الأشجار³، وقد تخرج الأغنام ليلاً من الحظائر وترعى في مزارع الجيران⁴، أو يحدث ذلك نتيجة إهمال الراعي، فينام عنها مما يتسبب في شرودها وإفساد الزرع⁵، فيطلب المتضرر تعويض الخسائر التي لحقت زرعها وثمرها، فمال الفقهاء إلى تضمين صاحب الماشية أو الرعاة إذا حدث ذلك بالليل لأنه عليهم حفظها ليلاً، ولا شيء عليهم إن دخلت البهائم الزرع بالنهار، لأن على أصحاب الزرع حرز زرعهم بالنهار⁶، وعمد بعض أصحاب الزرع إلى إمساك الدواب التي دخلت مزارعهم حتى يعرض أصحابها ما أفسدت، مما أدخل الطرفان في نزاع ويزداد الأمر تعقيداً إذا حدث للدابة مكروها⁷.

¹ ابن الحاج، المصدر السابق، و 121، 122؛ زناقي، المرجع السابق، ص 245. لا شك أن هذا النزاع أحد أهم مشاكل المجتمعات الريفية، وما زال كذلك إلى اليوم، وكثيراً ما يخلف أضراراً كبيرة.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج 9، ص 541.

³ نفسه، ص 548.

⁴ نفسه، ج 8، ص 337.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص 307.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج 9، ص 548، 549، ج 8، ص 338؛ الشعبي، المصدر السابق، ص 307.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 326.

ولم تسلم الزروع والثمار من الحيوانات الأخرى، فقد يؤدي الدجاج مزرعة الجار ولهذا أمر بأن يمنعوا دجاجهم، وربما قد يقوموا صاحب الزرع بذبحها، فلم يضمه الفقهاء¹، كما أثرت تربية النحل على الزرع والثمار إبان إزهارها، فتسبب في نزاع بين الطرفين²، وقد يتعدى الضرر ليشمل الحمام والماشية وحتى الصبيان، وقد حدثت هذه النازلة في بعض بوادي قرطبة، فأفتى الفقهاء بمنعهم من تربية النحل لما في ذلك من الضرر البين على الجيران³.

كما تضرر بعض الجيران من الأشغال والإنشاءات التي يقوم بها جيرانهم، كبناء جدار لجنة في بطن الوادي، مما يؤدي إلى تغيير مجرى الوادي إلى جنة جاره، فتغرق عند فيضان الوادي⁴، أو تمنع هذه الجدران المحدثه الريح عن الجار أثناء قيامه بتصفية زرع⁵، أو تصبح بعض الجنان طريقا يمر عليها الناس للوصول إلى فرن قراميد استحدثها أحد الجيران، وهو ما تسبب في أذيتهم⁶، كما أن امتناع بعض المتجاورين من الإسهام، لصيانة بعض المنشآت المشتركة يؤدي إلى التنازع بينهم، مثل المشاركة في بناء جدار سقط بين جنتين⁷، وفي جميع هذه الحالات لم تخرج فتاوى الفقهاء، عن منع الضرر إذا ثبت ذلك.

- النزاعات المتعلقة بالطرق والمحجات:

تعتبر الطرق والمحجات مرافق هامة في القرى والمناطق الريفية الأندلسية، فمن خلالها يتمكن الفلاحون من الوصول إلى جنانهم ومزارعهم⁸، ولذلك لم يكن لأحد أن يمنع غيره من استعمالها خاصة إذا ثبت استعمالهم لها لمدة طويلة تصل العشرين سنة⁹، وأي تعد عليها من طرف أصحاب الجنان بضمها إلى الأملاك أو التوسع فيها يحدث نزاعا بينه وبين الساكنة السالكين لها، فقد اشتكى قوم تعدى أحدهم على طريق عامة للمسلمين واعتبرها من ممتلكاته ومنعهم من المرور عبرها، فأفتى الفقهاء بهدم ما بنى عليها

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 48.

² الشعبي، المصدر السابق، ص 334، 335.

³ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 821، 822.

⁴ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1220، 1221؛ عياض وولده محمد، مذاهب الحكام، ص 98، 99.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 38؛ 39.

⁶ نفسه، ص 40.

⁷ نفسه.

⁸ للمزيد عن الطرق في الريف الأندلسي، يمكن الرجوع إلى الفصل الأول.

⁹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 834؛ فتحة، المرجع السابق، ص 101.

وإرجاعها لعامة المسلمين¹، وقام قوم على رجل في منية المغيرة بريف قرطبة، اقتطع من محجة المسلمين وضمها إلى جنانه، فأمر بإرجاع ما اقتطع من محجة المسلمين²، كما قام بعضهم على رجل بنى حائطا لجنته في بطن الوادي فضيق طريق المسلمين، فأفتى ابن رشد أن يهدم ما بناه إن كان في غير حقه وأضر بالطريق³.

كما كانت بعض هذه الطرق خاصة بجماعة من الساكنين وتقع بين الفدادين والبساتين⁴، فتحصل أحيانا نزاعات بينهم، بسبب منع أصحاب هذه الفدادين والأراضي المرور عبر أراضيهم، إذ يذكر ابن سهل، أن رجلا في ريف بياسة سنة 444هـ/1053م، نازعه جيرانه ومنعوه من المرور عبر أراضيهم للوصول إلى كرمه⁵، وفي نازلة أخرى، أن قوما سدوا أرضهم شيئا فشيئا، حتى منعوا رجلا من الوصول إلى أرضه⁶.

ويظهر من خلال بعض النوازل أن دواعي المنع، كانت للضرر الذي قد يلحق الجنان من السالكين لهذه الطريق، فقد جاء في إحدى النوازل، أن رجلا له كرم محاط بالسياج والحيطان، وفي أسفل الكرم طريق عام للعامة وبجوار الطريق خندق ماء إذا زاد الماء غرق الطريق، فيتسلق الناس السياج ويسيروا في الكرم فاشتكى صاحب الكرم الضرر الذي لحقه جراء ذلك⁷، ويفهم من نازلة أن سبب المنع الضرر الذي ربما تتسبب فيه الماشية، التي تمر مع صاحب الأرض عبر جناهم⁸، ودلت العادة على أن انتفاء الضرر شرط لطرق أراضي الغير للوصول إلى الأرض، فقد جرت العادة أن يتخذ الرجل طريقا إلى أرضه في الأرض التي

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص ص 15-18

² ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 778. انظر الملحق رقم 08 بعنوان: "صورة من نزاعات المجتمع الريفي بسبب ضرر المصلحة العامة"

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص ص 1220، 121؛ عياض وولده محمد، مذاهب الحكام، ص ص 98، 99؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 18.

⁴ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 833؛ أبو المعاطي، المرجع السابق، ص 71.

⁵ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 834.

⁶ نفسه، ص ص 833، 834.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 41.

⁸ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 835.

لم تزرع في ذلك العام¹.

وفي الأخير يمكن القول، أن النزاعات في المجتمع الريفي، ارتبطت بالحياة الريفية مثل مشاكل السقي المرتبطة بالنشاط الفلاحي، والأضرار التي كانت تلحق بالجنان، أو ما ارتبط بالمرافق المشتركة خاصة الطرق والمحججات.

وفي الخلاصة يمكن القول أن الأسرة في الريف الأندلسي تشكلت عن طريق الزواج، الذي لم يختلف في مراحله عن الزواج في غيره في بلاد الأندلس، لكنه تميز عنه في بعض التفاصيل النابعة من البيئة الريفية مثل طبيعة الصداق، وجهاز العروس وهدية العرس التي أصبحت عرفاً في أرياف البلاد. وأظهرت الأسرة اهتماماً بالأولاد ولم تفرق بين الابن والبنت في التربية ولا في الصدقات والهبات، واستمرت مظاهر الرعاية حتى بعد الزواج، وهو ما يجسد روح التضامن داخل الأسرة، لكنها في الوقت ذاته لم تكن تخلو من بعض المشاكل التي ظهرت نتيجة التسلط وحب الذات عند بعض أفرادها.

وحظيت امرأة بمكانة هامة في الأسرة والمجتمع، فكانت لها كامل الحرية في التصرف في أموالها وأملاكها وشاركت الرجل في نشاطه الفلاحي وما ارتبط به من نشاط صناعي كالغزل والنسيج كنوع من أنواع التعاون بينهما لتحسين المستوى المعيشي، كما تضامنت المرأة مع زوجها فوكلته في أملاكها دون أن تمارس عليه حق الرقابة، في مشهد يعبر عن مدى حبها واحترامها له.

وعرف المجتمع الريفي تبايناً في المستوى المعيشي، في مؤشرات الأربعة الغذاء واللباس والمسكن والصحة. أما المؤشر الأول - الغذاء - فقد كان عند العائلات الميسورة دسماً ومتنووعاً، بينما لم تجد الفئات الضعيفة سوى الخبز وبعض الإدام، لتسد به رمقها، ويزداد الأمر سوءاً في الفترات الصعبة؛ وفيما يخص المؤشر الثاني المتمثل في اللباس، فإن المجتمع الريفي تنوعت ألبسته، واختصت الفئات الضعيفة باستعمال الصوف لوفرته وسهولة استعماله، وحافظ ساكنة الريف الأندلسي على لبس العمائم بينما اختلف في المدن؛ واختلفت المنازل في المجتمع الريفي بين فئاته - وهو المؤشر الثالث - فقد كانت المنازل الواسعة والمجهزة بمختلف وسائل الراحة، مأوى الملاك الكبار والأغنياء، بينما كانت الفئات المتوسطة والفقيرة؛ أما المؤشر الرابع والمتعلق بالمستوى الصحي للمجتمع الريفي، فقد تحكمت فيه عدة عوامل، فسوء التغذية بسبب رداءة الغذاء من

¹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 835.

جهة وطبيعة بعض المناطق الباردة منة جهة ثانية ، أدت إلى الكثير من المشاكل الصحية، التي حاول هذا المجتمع التخلص منها، باللجوء إلى بعض المواد الحيوانية والنباتية، وكذا بعض العيون الحارة والباردة، أما في الأوقات الصعبة فإن معاناة المجتمع الريفي تزداد.

أما علاقات ساكنة الريف الأندلسي، فقد عرفت حالات من التضامن والتعاون أظهرتها حالات الفعل التشاركي في بعض المشاريع التي تهمه، أو في الأحباس التي كانت تخصص لجهات البر المختلفة. كما عرف هذا المجتمع حالات من النزاع والتخاصم بين المتجاورين بسبب الضرر الذي يلحق بمصالحه المختلفة أو يهددها.

الفصل الرابع

أنشطة المجتمع الريفي الأندلسي:

أولا/ النشاط الاقتصادي للمجتمع الريفي

ثانيا/ الحياة الثقافية والدينية في المجتمع الريفي.

أولاً: النشاط الاقتصادي للمجتمع الريفي:

عرفت بلاد الأندلس نشاطا اقتصاديا هاما في مختلف جوانبه، فقد مثلت الزراعة والصناعة والتجارة مصادر رزق لمختلف فئاته وطبقاته، وساعدها في ذلك بيئة البلاد الطبيعية، فقد توفرت الأندلس على الأراضي الخصبة، وتنوعت مصادر المياه بها، بالإضافة إلى ذلك كثرة خاماتها الطبيعية وتنوعها.

1- النشاط الفلاحي:

ظلت الزراعة الأساس الذي تقوم عليه الحياة الاقتصادية في العصر الوسيط، ولذلك حظيت باهتمام السكان، وقد عبر ابن عبدون عن تقديره لها بقوله: "الفلاحة هي العمران، ومنها العيش كله والصالح جله، وفي الحنطة تذهب النفوس والأموال، وبها تملك المدائن والرجال وببطلاتها تفسد الأحوال، وينحل كل نظام"¹، ومن مظاهر الاهتمام بالزراعة كثرة التصنيفات في هذا العلم في القرنين 5-6هـ/11-12م، فقد اهتم علماء الأندلس بدراسة النباتات وأسمائها وخواصها، كما اهتموا بالقيام بالتجارب على النبات من حيث غراسه، وتتبع مراحل نموه وطريق معاملة ومواعيد زراعته وحصاده².

ويتركز هذا النشاط في الريف أكثر منه في المدينة، إذ يعيش أغلب سكان الريف على الزراعة وما ارتبط بها من أعمال، فكانت عماد حياتهم وأساس رزقهم وتكسبهم، وقد علل ابن خلدون ذلك بملاءمة الريف للنشاط الفلاحي بالقول: "وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والقدن والمسارح للحيوان وغير ذلك"³. وعليه يمكن التساؤل عن طرق استغلال مختلف الملكيات الزراعية؟ والتقنيات المتبعة للحصول على أحسن النتائج؟ ثم ما مدى أهمية الإنتاج الزراعي والحيواني؟

¹ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 3.

² عن تطور علم الفلاحة في الأندلس والتأليف فيه، انظر: محمد الأمين بليغيث، الحياة الفكرية في الأندلس، أطروحة دكتوراه، إيش عبد الحميد حاجيات، جامعة الجزائر، 2002-2003، ص ص 520-540؛ سعيد بنحمادة، التراث الفلاحي الإسلامي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط مقوماته ومراحل تطوره، "الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط"، إيش. حسن حافظ علوي، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011، ص ص 78-82؛ فائزة البوكيلي، التراث الفلاحي بالأندلس في عهد كل من ملوك الطوائف والمرابطين، "الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط"، إيش. حسن حافظ علوي، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011، ص ص 110-117.

Lucie Bolens, la révolution agrrricole andalouse au x^{ème} siecle, studia islamica, XL VII, Paris, 1978, pp 121-141

³ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 129.

1-1- طرق استغلال الملكيات الزراعية:

تنوعت الملكيات الزراعية في أرياف الأندلس خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م -وقد مرَّ الحديث عنه في الفصل الثاني- وتبعاً لذلك فإن أشكال وأنظمة استغلال هذه الملكيات تنوعت، بين شراكة و كراء واستغلال مباشر.

أ- نظم الشراكة:

لم يكن باستطاعة بعض أصحاب الملكيات الواسعة والمتوسطة الاستغلال المباشر لأراضيهم وهذا ما دفعهم إلى مشاركة المزارعين، وقد دل على ذلك ما ورد عن أحد الملاكين الكبار، وهو القاضي إسماعيل بن عباد اللخمي: "الذي كان أيسر من بالأندلس... وكان واسع اليد بالمشاركة"¹، ويبدو أن هذا النظام انتشر بشكل كبير بين أصحاب هذه الملكيات الواسعة، خاصة أن كثيراً من أصحابها كانوا من المتنفذين في السلطة، الذين لم تسمح لهم مسؤولياتهم الاستغلال المباشر لها، أو حتى الإشراف عليها²، أما أصحاب الملكيات المتوسطة فإن المصاريف المرتفعة الناتجة عن عملية الاستغلال، دفعتهم إلى البحث عن شركاء من أجل تقاسم المصاريف واستغلال أراضيهم³.

ويختلف نظام الشراكة التي طبقها الفلاحون باختلاف نوع الانتاج المتفق عليه، وكذا طبيعة العمل وبالتالي فالشراكة إما مزارعة، أو مغارسة، أو مساقاة.

- المزارعة:

المزارعة عقد استثمار أرض زراعية بين صاحب الأرض وآخر يعمل في استثمارها، على أن يكون المحصول مشتركاً بينهما بالحصص التي يتفقان عليها⁴، أما العناصر الضرورية لممارسة هذا النشاط من بذور وآلات وحيوان، فيختلف مصدرها باختلاف وضعية كل طرف، فبعضهم لديه القدرة على توفيرها، بينما البعض الآخر لا يوفر إلا جزءاً منها⁵، ويشترط المالكية لصحة العقد ألا يقابل البذر الأرض، أي أن يشترك

¹ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص 36؛ ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص ص 14، 15.

² يمكن الرجوع إلى الفصل الثاني لمعرفة المزيد عن الموضوع.

³ فتحة، المرجع السابق، ص 374. ربما قد يضطر بعضهم إلى بيع نصف أملاكه من أجل إعمار أرضه. انظر: ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص ص 350، 351.

⁴ وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ط6، دمشق، دار الفكر، ج5، ص 482.

⁵ بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص 80.

المزارع وصاحب الأرض في البذر، فلو كان البذر من جهة والأرض من جهة أخرى فسدت المزارعة¹.

كما يمكن اشتراط العمل مناصفة بين الشريكين، أو اشتراط العمل على المزارع وحده، فيقوم بجميع الأعمال المرتبطة بالزراعة، من حرث وبذر وحصاد ودرس²، فيساوي بذلك جهد المزارع نصف كراء الأرض، وهو ما يعرف عند الفقهاء والموثقين بـ: "مزارعة تكافئ الاعتدال"³، وقد جرت العادة في الأندلس بهذا الشرط⁴، وتفسد هذه الشركة إذا كانت الأرض لا قدر لها ولا كراء، ولا تصلح إلا بالتكافئ وهنا يجب على الطرفين أن يتكافئا في العمل والآلة والبذر والحيوان⁵.

ويختص هذا النوع من الشراكة بزراعة القمح والشعير وأنواع الحبوب والذرة والقطاني، ويتضمن العقد أحيانا نوع الحبوب والكمية التي يجب على المزارع أن يزرعها، ففي وثائق المرابطين والموحدين أن رب أرض زارع رجلا في قرية من قرى قرطبة، فقدم: "من القمح بكيل قرطبة كذا وكذا قفيزا ومن الشعير كذا وكذا ومن الإشكالية كذا وكذا، ومن الفول كذا وكذا، والجلبان كذا وكذا، ومن الحمص كذا وكذا، وأخرج المزارع مثل ذلك على صفته وقبضه المزارع وخلطهما وصارت بيده ليزرعها"⁶.

ولما اختصت المزارعة بزراعة الحبوب والقطاني والذرة والمقاني فإن هذه الشراكة في الغالب لسنة واحدة، لأن هذه المحاصيل تنضج وتنقضي في العام الواحد⁷، وربما يجمع بين الشريكين عقد مزارعة لعدة أعوام⁸، ولا تجوز المزارعة في الأصول الثابتة التي تبقى غلتها مدة طويلة تقارب العشرين سنة، مثل القطن الذي تزداد غلته بعد العام الأول⁹.

وتنتهي شراكة المزارعة بانتهاء المدة المتفق عليها، أو وفاة أحد الشريكين، ويمكن لورثة المالك مواصلة

¹ أحمد بن غنيم بن سالم بن مهنا النفراوي الأزهرى المالكي ت 1126هـ، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ت 386هـ، د. ط، بيروت، المكتبة العصرية، 2010، ج2، ص ص 199، 200.

² المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 533.

³ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 200.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 154.

⁵ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 534.

⁶ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 539.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 146.

⁸ نفسه، ص ص 158.

⁹ نفسه، ص ص 145 - 147.

هذه الشراكة، ولا يكون إلا بإقرار صاحب الاستغلالية أو ورثته وقبول المزارع أو ورثته، كما يمكن أن تنحل الشراكة إذا لم يتبدأ الشريكان الحرث والبذر¹، لكن يبدو أن بعضهم لم يف بالعقد فيأبى العمل بعد أن بدأه، وهذا ما أدى في كثير من الأحيان إلى حدوث نزاعات بينهما، فقد أشارت نازلة إلى أن أحدهم أبى إتمام العمل بعدما قلب، وأبى أن يمضي، مما اضطر صاحب الأرض إلى القيام بجميع الأعمال الزراعية² وفي نوازل الشعبي أن شريكان اشتركا في أرض وفي الجهد والزريعة، فعمراها بالقلب، فلما جاء وقت الزريعة غاب أحدهما، فحرث الشريك الباقي جميع الأرض، ثم قدم الشريك الغائب فأراد أخذ حقه³.

ويتحدد نوع هذه المزارعة على أساس ما يحصل عليه المزارع من نسبة الانتاج، والتي تتناسب طردا مع نسبة البذور التي يشارك بها، فهي مثالثة إذا قدم ثلث البذور، ومربعة برع البذور، ومخامسة إذا قدم خمسها، أما المسادسة فتكون بسدس هذه البذور⁴.

ولكن لم يكن بمقدور المزارع دائما أن يشارك بنسبة من البذر، فقد أملت الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي ميزت بعضا من هؤلاء المزارعين، وحاجة أصحاب الأراضي لهم لاستثمار أراضيهم خلال القرنين 05-06هـ/ 11-12م إلى أن يشارك المزارع بجهد فقط، فيقوم بكل الأعمال الزراعية، من حرث وسقي وحصاد ويتحصل على خمس الانتاج، بينما يكون على صاحب الأرض الأرض والزريعة والأدوات⁵، وتورد نازلة أخرى أن رجلين اشتركا في الزراعة يساهم أحدهما بالأرض والبذر والبقر، والثاني بعمله على أن يكون الربع للعامل، وثلاثة أرباع لصاحب الأرض⁶.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص ص 158، 159؛ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 199.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 159.

³ الشعبي، المصدر السابق، ص 312.

⁴ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص ص 549، 550؛ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 201. يبدو أن عقد المزارعة بهذا الشكل هو السائد في الأندلس، وامتد لعصور متأخرة، وهو ما يذكره ابن عاصم في أرجوزته بالقول:

إِنْ عَمِلَ الْعَامِلُ فِي الْمَزَارَعَةِ وَالْأَرْضُ مِنْ ثَانٍ فَلَا مَمَانَعَةَ
إِنْ أَخْرَجَا الْبَذْرَ عَلَى نِسْبَةٍ مَا قَدْ جَعَلَاهُ جُزْءَ بَيْنَهُمَا
كَالتَّصْفِيفِ أَوْ كَتَصْفِيفِهِ أَوْ السُّدُسِ وَالْعَمَلُ الْيَوْمَ بِهِ فِي الْأَنْدَلُسِ

انظر: أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الغرناطي ت829هـ، تحفة الحكام في نكت العقود والحكام، تح. محمد عبد السلام محمد، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2011، ص 83.

⁵ الشعبي، المصدر السابق، ص ص 310، 311.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1011.

وقد تعرض المزارع في بعض الأحيان إلى جشع صاحب الأرض، ففي فتاوى ابن رشد أن شريكاً اشتركاً في الزريعة والحرث فلما كمل الزرع وحان حصاده، تنكر صاحب الأرض للمزارع ومنعه من نصيبه¹ وتذكر نازلة أخرى أن مزارعاً دفع ثوراً يحرق به على وجه الشراكة، فضم له الملاك ثوراً آخر وجميع آلات الحرث ووزع جميع الزريعة، فلما فرغ من الحرث قال المزارع لشريكه رد علي نصف ما زرعت، فامتنع ولم يعطه شيئاً²، ويذكر ابن سهل أن رجلاً بقرطبة قام على رجل قال إن الزرع الذي بقرية كذا بيني وبين هذا بالسواء تشاركنا في زراعته وإقامته وكذلك البقر والدواب مشترك بيننا.³ وفي هذه النازلة إشارة واضحة إلى تسلط أصحاب الأراضي على المزارعين، وغصبهم حقوقهم في الزراعة.

ولم يخل هذا النظام من مشاكل ونزاعات بين الشريكين، بسبب تفريط أحدهما في الاتفاق المبرم بينهما، كغياب أحدهما عن المشاركة في العمل الزراعي ثم يطالب بنصيبه من المحصول بعد عودته⁴، أو يختلف الشريكان في العمل الواجب على المزارع، فيحاول العامل أن يحصر العمل في الحرث فقط، بينما يطالبه شريكه بكل العمل الزراعي، فأفتى الفقهاء أن على العامل العمل كله⁵ وقد يؤدي عدم الاتفاق المسبق على النسبة الواجبة للمزارع من المحصول إلى الاختلاف والتنازع⁶.

– المغارسة:

تعتبر المغارسة هي الأخرى من الشركات التي تعقد لاستثمار الأراضي الفلاحية واستغلالها بهدف إنتاج نوع معين من الأشجار المثمرة، إذ يدفع فيها رب الأرض أرضه أو جزءاً منها لعامل فيغرسها نوعاً معيناً من الأشجار المثمرة كالتين والزيتون والكروم والرمان وغيرها ويتعهد بها بالعناية حتى تثمر، وعندها يمكن تقاسم الأرض بشجرها حسب النسبة التي تم التعاقد عليها⁷.

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص ص 190، 191.

² عياض وولده محمد، مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، ص 192.

³ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج2، ص 836.

⁴ الشعبي، المصدر السابق، ص 312؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 162.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 176.

⁶ الشعبي، المصدر السابق، ص 321؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص ص 175، 176.

⁷ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 575؛ فتحة، المرجع السابق، ص ص 385، 386؛ الزحيلي، المرجع السابق، ص 521.

وتمتد هذه الشراكة لفترة أطول من شراكة المزارعة، لارتباطها بظهور الثمر وبلوغ الإطعام¹، وهي مدة تمتد ربما لسنوات لأنها تبدأ من غرس فسيلة الشجرة أو النوى إلى أن تصبح شجرة ويخرج ثمرها، أو تكون هذه الشراكة على مدة معلومة تبلغ الأربع أو الخمس سنين أو ربما تصل السبع أو العشر سنين، ولكن يشترط أن تنقضي المدة قبل بلوغ الإطعام (الثمر) أو في أوله²، ويمكن أن تنتهي الشراكة قبل بدو الثمر إذا ما أراد المغارس فض هذه الشركة، ويمكنه حينئذ أن يحيل مكانه مغارسا آخر. وقد أفتى الفقهاء بجواز ذلك، ولا كلام لرب الأرض عليه ولو أخذ مقابل ذلك شيئا من المال³، كما يمكن لرب الأرض إنهاء هذه الشراكة وإخراج المغارس منها مقابل تعويض عن عمله والمصاريف التي أخرجها في العملية طيلة المدة التي قضاهما فيها⁴، أو يفسخ عقد الشراكة باتفاق الطرفين ورضاها لفساد المغارسة⁵.

ويبدو أن أرباب الأراضي كانت لهم الحرية الكاملة واليد الطولى في وضع الشروط على المغارس، ولو كان ذلك مخالفا لقواعد الشرع. ففي نوازل الشعبي أن رجلا غارس رجلا في أشجار مختلفة كالتفاح والإجاص وما أشبههما وذلك ما لم يجزه الفقهاء، لأن بعضها يحمل قبل بعض بمدة، وأفتوا أن تكون المغارسة من جنس واحد⁶، وقد يؤدي بالطرفين إلى التنازع بسبب التعدي في الشروط، والتحجير على الطرف الثاني⁷، وقد يتعدى صاحب الأرض على حق المغارس فيحرمه من نصيبه بسبب الجوائح التي تتعرض لها الجنان، فقد أفتى ابن الحاج لمغارس بحقه في نصف الأرض، في مغارسة احترقت ثمارها بسبب جائحة⁸.

ويمكن لرب الأرض أن يشترط بعض المعايير والمواصفات التقنية التي يقوم عليها عمل المغارس، كأن

¹ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 575

² نفسه، ص ص 579-578؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 160؛ ج2، ص 1135؛ بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص 83.

³ وقد حدثت هذه النازلة في إحدى أرياف كورة باغة سنة 518هـ/ 1124م . انظر: ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص ص 1360، 1361؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص 202.

⁴ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 204؛ زناتي، المرجع السابق، ص 236.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1135.

⁶ الشعبي، المصدر السابق، ص 274.

⁷ انظر الملحق رقم 09 بعنوان: " نزاع بين متغارسين في مغارسة فاسدة".

⁸ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 177.

يشترط على المغارس قلب تربة الأرض المراد غراستها مرتين أو أكثر خلال السنة، وحفر عدد معين على عمق متفق عليه في السنة، وأن تكون نقول الشجر من النوع الجيد، ومن صنف متعارف في تباعد الغرس وتقاربه¹، إضافة إلى ما يقوم به من أعمال مرتبطة بالغراسة كتلقيح الغروس، وتعاهدتها بالرعاية والاهتمام وحراستها من السواث².

– المساقاة:

تحتاج العملية الزراعية إلى تعهد الثمار والزروع بالعمل المتواصل، فهي محتاجة إلى السقي في أوقاته وكذلك التنقية، وكل ما من شأنه أن ينمي المحصول ويزيده، ولذلك يقدم من يعجز القيام بهذه الأعمال جناهم وحوائطهم لمن يستطيع القيام بذلك، وهي ما تعرف عند الفقهاء بالمساقاة³، وتكون المساقاة في الغالب في الأشجار المثمرة، لكنها تصح في بعض الزروع والبصل والفجل والبادنجان والمقاثي، وفق شروط أهمها: أن يظهر رب الزرع العجز عن القيام بها، وأن لا تكون هذه الزرع في مرحلة البدو والصلاح⁴.

ويبدو أن الفلاحين من المجتمع الريفي الأندلسي قد ربطتهم علاقات انتاجية من هذا النوع مع أرباب الأراضي، خاصة في ظل عدم قدرة بعض الملاكين المتوسطين والكبار على القيام بعملية السقي بأنفسهم، وانتشار فئة من الفلاحين المتخصصين في ذلك يسمون "المساقين"⁵ الذين يستعملون آلاتهم ودوابهم الخاصة بهم، أو يمكنهم الاستفادة مما يجدونه عند صاحب الأرض من آلات ودواب⁶. ورغم ذلك فإن غياب النزاعات والمشاكل المتعلقة بهذا النظام –والتي كثيرا ما تظهر في كتب النوازل الفقهية– يدعو إلى الشك حول مدى انتشار هذا النوع من الشراكة، وهو ما يدعو إلى الحكم عليه بمحدوديته.

وفي الأخير يمكن القول أن المجتمع الريفي ربطت بينه علاقات شراكة متنوعة، لكن الغالب عليها نظامي المزارعة والمغارسة، وقد حاول فيها أرباب الأراضي استغلال الفلاحين مما أدى في بعض الأحيان إلى

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص ص 159، 160.

² نفسه، ج2، ص 1135؛ ج3، ص 1360.

³ النفراوي، المصدر السابق، ص ص 193، 194؛ الزحيلي، المرجع السابق، ص 499.

⁴ لقد وردت عند المراكشي نماذج من عقود مساقاة الزروع والمقاثي. انظر: المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص ص 560-

562. ولمعرفة بقية الشروط. انظر: النفراوي، المصدر السابق، ص 194، الزحيلي، المرجع السابق، ص ص 501، 502.

⁵ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 205.

⁶ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 553.

قيام نزاعات بين الطرفين.

ب- كراء الأراضي:

يعتبر نظام الكراء الذي يعرف بالقبالة¹ أحد الأنظمة التي استغلها المجتمع الريفي من أجل استثمار الأراضي الفلاحية، وهو نظام يدفع فيه من يعجز عن استغلال أرضه أو من لا يرغب في استغلالها لرجل آخر مقابل عوض مالي، ويحدد عقد الكراء لفترة زمنية محدودة، قد تكون لسنة واحدة أو ربما تمتد لعدة سنوات قد تصل عشر سنوات².

وشمل هذا النظام أيضا أراضي الأحباس، فقد اشارت نازلة أن رجلا اكترى أرضا محبسة على حصن من حصون طليطلة لمدة سبعة أعوام³. وفي نوازل ابن الحاج أن رجلا تقبل أرضا محبسة على رجل وابنه لأربعة أعوام⁴، وقد أفتى الفقهاء أن لا تكون مدة قبالة الأراضي المحبسة طويلة، فقد أفتى ابن سهل ببطالان قبالة أرض محبسة على نسوة ببطليوس بسبب طول مدتها التي تصل الخمسين عاما⁵، وبرر الفقهاء ذلك حتى لا تدرس الأحباس بطول مكثها عند متقيلها، وتؤول إلى ملكية خاصة لهم خاصة بالنسبة للأحباس الموجهة لجهات الخير المختلفة، وفضلوا أن لا تتجاوز الأربعة أعوام لأنها أقصى مدة تنتفع به الأرض من التزويل حسب أهل البصر⁶.

وتضمنت عقود الكراء شروطا من صاحب الأرض بما يعود بالنفع عليه وأي إخلال بها يؤدي إلى تغريم المكثري، كأن يضمن خصوبة الأرض بعد انتهاء مدة الكراء، ففي نازلة أن صاحب أرض اشترط على المكثري أن يقلب الأرض عند أيام القليب حتى تجود الأرض على صاحبها في العام المقبل، فنسي المكثري فعل ذلك مما حتم عليه دفع مبلغ زائد لصاحب الأرض⁷، أو يشترط على المكثري أن يزرع كل عام

¹ ابن الحاج، المصدر السابق، و 283.

² ابن عاصم الغزنطي، المصدر السابق، ص 78. يتم تحديد مدة الكراء بالنظر إلى مصدر سقي هذه الأرض، فالأرض ذات السقي المأمون سواء من الأنهار والآبار والعيون، تصل مدة الكراء فيها إلى عشر سنوات، بينما الأرض غير المأمونة، التي تسقى بماء الأمطار، لا تتعدى مدة كرائها العام الواحد. انظر: نكادي، الزراعة في الأندلس، ص ص 210، 211.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 477.

⁴ ابن الحاج، المصدر السابق، و 283؛ البرزلي، المصدر السابق، ج 5، ص ص 366، 367.

⁵ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 2، ص 717؛ البرزلي، المصدر السابق، ج 5، ص 364.

⁶ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 2، ص 717؛ البرزلي، المصدر السابق، ج 5، ص 364.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج 3، ص ص 1413، 1414.

نوعاً من الحبوب خلال مدة الكراء حتى لا يؤدي إلى إنهاك الأرض¹.

ويمكن أن يتشارط الطرفان على بقايا بعض المحاصيل، مثلما جرت عليه عادة زراعة قصب السكر في بلاد المنكب، فقد يشترط بعض المكريين على المكثري أن يترك بالموضع عند تمام المدة جذرة القصب، بينما يشترط بعضهم أن تكون له جذرة قصب السكر له يبيعها عند تمام مدة الكراء².

ويبدو أن المجتمع الريفي في الأندلس قد طبق هذا النظام لاستغلاله في إنتاج أنواع من المحاصيل الزراعية، ففي نوازل الشعبي: "رجلاً أكرى جنانه لرجل آخر بثلاثين ديناراً، وفي الجنان شجر تين وعنب وأرض بيضاء، والشجر أكثر من غلة البياض"³، وجرت عادة أهل المنكب أن يكرؤ أرضهم لزراعة قصب السكر لثمانية أعوام⁴، وخصصت بعض الأراضي المكترة في قرطبة لإنتاج الحناء وزروع وفول وكتان وحمص⁵.

وكثيراً ما تأثر هذا النظام في أوقات الأزمات، فقد يتأثر أصحاب الأراضي فلا يتحصلون على مقابل مناسب لأراضيهم، ويظهر ذلك في دعوى أحدهم أنه أكرى أرضه لرجل من أصحاب الجاه ليخفيه من غرم السلطان⁶، أو يتأثر المكثري، فلا يتحصل على منتج مناسب يعوض له مصاريفه ويحقق له الربح بسبب الجوائح التي كانت تعرفها البلاد من فترة إلى أخرى، فيطلب المكثري من صاحب الأرض أو يسقط عنه واجب الكراء⁷، ويبدو أن هذه الحالة كانت تتكرر باستمرار، فأفتى ابن رشد بأن الكراء يسقط على الأرض المكترة التي تصيبها جائحة كالصر والقحط⁸.

وما يمكن قوله، أن نظام الكراء كان أحد أهم الأساليب التي استغلها بعض أفراد المجتمع الريفي ممن ليس لهم أملاك، للقيام بمختلف الأنشطة الزراعية التي تعود عليهم بالنفع، رغم الصعوبات التي واجهتهم خاصة في فترات الأزمات.

¹ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 450.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج 10، ص 298، 299.

³ الشعبي، المصدر السابق، ص 317.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج 10، ص 298، 299.

⁵ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 2، 749.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 281.

⁷ ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 76 - 78.

⁸ ابن رشد، المصدر السابق، ج 3، ص 1284.

ج- الاستغلال المباشر:

احتفظ بعض أصحاب الملكيات بمختلف مستوياتهم -خاصة الملاك المتوسطين والصغار- بأراضيهم الفلاحية وفضلوا استغلالها والقيام بشؤونها بأنفسهم، خاصة أمام عجزهم المادي، فقد كان أفراد الأسرة من هذه الفئات يتعاونون فيما بينهم. ففي نازلة عند ابن رشد أن قوما بينهم قرابة يتعاونون في القيام بأعمال مشتركة بينهم¹، وربما يقوم بعضهم بأعمال إضافية لتعويض نقص الآلات أو الدواب، فقد أورد ابن عذاري وغيره، عن فلاح يعمل بيده رفقة أبنائه في جنة ويتناولون السقي بأقدامهم بسبب عجزه عن شراء دابة².

وفي كتب التراجم أمثلة لفقهاء وغيرهم عجزوا عن استئجار عمال لمساعدتهم في الأعمال الزراعية بل عجز بعضهم عن اقتناء الدواب، مما جعلهم يضاعفون الجهد لتعويض هذه الوسيلة، فكانوا يحتطبون على ظهورهم، ويتناولون السبق بأقدامهم³، من ذلك الفقيه أبا عمر معوذ بن داود بن معوذ بن دلهاب الأسدي ت 431هـ / 1039م، الذي كانت له ضيعة في جبال رية، ويصرف فضل ضيعته على من ينتاب إليه من أهل السبيل وطلبة العلم⁴. أما الفقيه أبو مروان عبيد الله بن محمد بن مالك ت 460هـ / 1067م كانت له جنة صغيرة يتعيش منها، ويقوم بخدمتها بنفسه⁵. ويذكر ابن بسام أن أحد الشعراء لما تقدم به السن عاد إلى قريته القبذاق، حيث كانت له ضيعة يستغلها بنفسه، ويعالج صنوف الشجر بمزبرة بيده⁶.

ويبدو أن هذه الاستغلاليات كانت موجهة للاستهلاك العائلي، فلم يكن مردودها كبيرا، وقد شكا

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص 206.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص ص 291، 292. ووردت عند المقرئ بعبارة يتناولون السبق بأقدامهم انظر: المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص ص 412، 413.

³ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 212.

⁴ القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 8، ص ص 42، 43.

⁵ وكذلك كان الفقيه أبو عمر أحمد بن يحيى بن سميح ت 450هـ / 1058م، كانت له غلة يتعيش منها يعمرها بالعمل. انظر: أبو القاسم بن بشكوال، الصلة، تح. إبراهيم الأبياري، ط 1، بيروت - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري، 1989، ج 2، ص ص 457، 458، ج 1، ص ص 102، 103.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج 2، ص 787.

أحد الشعراء مآله ، وتحول حاله وقلة مردود ضيعته، بالقول¹:

تركثُ المملوك الخالعين بُرودهم عليّ وسيري في المواكب والنقع
وأصبحْتُ في قبذاق أحصد شوكرها بمزبرة رعشاء نايبة القطع

هذا ويجب أن يوضع في الحسبان أن جزءاً من هذا المنتج احتفظ به الفلاح كبذور للموسم الزراعي المقبل، وجزءاً يقدم للجباة، وما بقي يوجه للاستهلاك العائلي²، ليدرك المرء ضعف المنتج الموجه للاستهلاك مما يسمح برسم صورة عن مدى إسهام هذا النوع من الاستغلاليات في الإنتاج الزراعي للبلاد.

1-2- تقنيات العمل الزراعي:

يحتاج العمل الزراعي إلى أساليب وطرق تضمن وفرة الانتاج وجودته، ونتيجة لممارسة أهل الريف الأندلسي هذا العمل تكونت لديهم خبرة بهذه التقنيات، فمنها ما يشمل نوع المحصول المراد انتاجه، ومنها ما يتعلق بطرق الاستفادة من المياه، وأخرى لها علاقة بشؤون الحيوان.

أ- استغلال الأرض بين الزراعة والغراسة:

يختلف استغلال الأرض حسب نوع المحصول الزراعي، وبالتالي تختلف تقنيات الزراعة عن الغراسة لكن تشترك في وجود أرض مهيأة بشكل جيد.

- تهيئة الأرض وتحضيرها:

تحتاج الأرض إلى مجموعة من الأعمال المتواصلة حتى تصبح صالحة للعمل الزراعي، ومهيأة لإنتاج أنواع مختلفة من المحاصيل، وتبدأ هذه الأعمال بتعهد الأرض بالتنقية وإزالة مختلف الأعشاب الطفيلية الضارة، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك بالقول: "العشب الناجم ... عشب غاصب، والبقل الناجم، الذي يُعَدُّ عند قوّة الفلاح، واضطلاعه، وقيامه على الأرض، واتصال مباشرته، وإزالة ما يشوش المزروع من العشب الغاصب، ومن الحشيش الناصب، فإذا اشتغل عنه لضعف، أو مرض، أو قلة ذات يد، أُلْفِي غالباً على الأرض، مهلكاً للفلاح، مبيداً للمال"³

وأي تقصير من الفلاح بذلك يؤدي بالضرورة إلى نقص مردود الأرض أو ربما تحولها إلى أرض غير

¹ ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص 787.

² نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 212.

³ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 241.

صالحة للزراعة، وهو ما عبرت عنه النوازل الفقهية بالأراضي الشعراء والتي آلت إلى هذه الحالة بسبب التخلي عن عمارتها¹، ولا شك أن البلاد عرفت خلال الفترة مجال الدراسة تدهورا في الأراضي نتيجة انتشار هذه الحشائش، بعد تخلي الكثير الفلاحين عن خدمة أراضيهم، بسبب سوء الأحوال السياسية في بعض الفترات.

ويعتبر القليب من أهم المراحل في تهيئة الأرض وتحضيرها للعمل الزراعي، "إذ يرد أعلاها في أسفلها مرة بعد مرة"²، ويشكل فائدة عظيمة للتربة، وكلما أكثر الفلاح من القليب زادت الفائدة المرجوة وجادت التربة بها. فعن ذلك يقول ابن بصال: "والقليب الذي على سكة واحدة أفضل من العمارة الطيبة وأصدق في الزرع، وأما الذي هو من سكتين فهو أجود وأفضل، و الذي ثلاث وأربع هو التناهي في الجودة ولا شيء يعدله لا زبل، ولا غيره"³، لأنه يساعد في فتح مسامات الأرض، فيسري الهواء الحر اليابس في داخلها ويعم جميع أجزائها، كما تساعد هذه المسامات على استقبال الأمطار المتساقطة، فتمدها بالرطوبة⁴، بالإضافة إلى ذلك فإن القليب يقضي على الحشائش الضارة التي تشارك التربة في المواد العضوية⁵، وهكذا تسهم هذه الخطوة في تنشيط التربة وزيادة مردوديتها.

ويبدو أن الفلاحين كانوا على دراية بهذه الحقيقة، ولذلك تجدهم لا يفوتون هذه العملية في أوقاتها ففي نازلة سابقة أن بعض أصحاب الأراضي اشترطوا على المكترين أن يقلبوا الأرض عند أيام القليب ويُنثُّوا عليها عند الزرع حتى تجود الأرض على أصحابها في العام المقبل⁶، وورد في نازلة أخرى عقد مغارسة تضمنت عدة شروط، منها أن يحرث المغارس جميع الأرض أربع حرثات في أوقاتها⁷، كما دلت الأمثال على إدراك الفلاحين بأهمية القليب، فقالوا: "فدين على فدين، ولا فدين جنب فدين"⁸. ونظرا لأهمية هذه

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 193.

² ابن بصال، المصدر السابق، ص 56.

³ ابن بصال، المصدر السابق، ص 57.

⁴ نفسه، ص 56.

⁵ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص ص 244، 245.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1413.

⁷ نفسه، ج2، ص 1135.

⁸ ألونس القستلي، 1530-1610، مجموع الموريسكي الغرناطي، تج. محمد بن شريفة ضمن تاريخ الأمثال والأزجال في المغرب والأندلس بحوث ونصوص، د. ط، الرباط، منشورات وزارة الثقافة، 2006، ج3، ص 324.

العملية فإن أي تقصير من المكثري يغرم الأخير لما يلحق بصاحب الرض من ضرر، واختار بعض المكثرين كراء الأرض في أيام القليب، حتى يشرف بنفسه على قلب الأرض، ليجود به زرع¹.

ورغم أهمية هذه المرحلة إلا أن بعض الفلاحين في بعض الفترات يحول بينهم وبين القيام بها مانع أو أنهم يقومون بها، لكن تبقى الأرض بحاجة إلى مزيد من العناية بسبب رداءتها²، أو بسبب استغلالها المستمر مما يحتم على الفلاحين القيام بعملية التسميد، فيتخذون فضلات الحيوانات المختلفة وزبولها ويستعملونها بشكل مباشر، أو يمزجوها ببعض المواد لصناعة أسمدة تساعد على تخصيب التربة³. وإذا كانت كتب الفلاحة قد نبهت على أهمية التخصيب وبينت أوقاته وكيفية الاستفادة، فهل يعني ذلك أن الفلاحين كانوا على علم بها؟.

يبدو من خلال نازلة وردت عند ابن سهل أن بعض سكان القرى استخدموا أنواعا من زبول الحيوانات، إذ تشير إلى أنهم اتخذوا أبرجة لتربية الحمام⁴، والتي تهدف على الأرجح إلى تجميع زبولها للاستفادة منها، مما يوحي بإدراكهم بأهمية هذا النوع، خاصة أن كتب الفلاحة جعلت زبول الحمام في مقدمة الزبول التي تقدم فائدة عظيمة للتربة و النبات⁵. وفي نازلة أخرى أبرزت أن الفلاحين كانوا يقومون بتسميد أراضيهم، بل وجد من هؤلاء من كان يميز جودة الأرض الناتجة من أصل الأرض، والأخرى الناتجة بسبب الزبول⁶.

ولكن لا يمكن الجزم بأن كل الفلاحين كانوا على علم بشؤون التسميد، وهو ما تبرزه كتب الفلاحة التي ضمت نصائح استقوها ربما من مشاهداتهم لأخطاء الفلاحين في هذا الشأن، وقد صرح بذلك الطغري، إذ يذكر أنه رأى جماعة من الجنانين استعملوا كميات من زبل الغنم لتزييل بعض أحواض الياسمين

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1413.

² أشارت كتب الفلاحة إلى أنواع الأرضين، وميزت بين جيدها ورديتها، وما يصلح زراعته لكل منها. يمكن الرجوع إلى الفصل الأول لمعرفة أنواع الأراضي في أرياف الأندلس وتوزيعها.

³ عن أنواع الزبول المستخدمة في تخصيب الأرض، انظر: ابن بصال، المصدر السابق، ص ص 49-53؛ ابن العوام، المصدر السابق، ج1، ص ص 441-457؛ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص ص 240-244؛ بوتشيش و البياض، التربة، ص ص 231، 232.

⁴ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 821.

⁵ ابن العوام، المصدر السابق، ج1، ص 443.

⁶ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج2، ص 1039؛ حاج كولة، المرجع السابق، ص 124.

في فصل الشتاء، فاحتترقت عن آخرها، ورأى جماعة أخرى من الفلاحين يقومون بتزليل بعض حقول الكتان، لكنها احتترقت بسبب عدم نشره جيدا وتركه مكدسا¹.

وقصارى القول، فإن الفلاح قد اجتهد في تهيئة أرضه بمختلف التقنيات، وقد تراوح استعمال بعضهم لها بين الإفراط والتفريط بسبب الجهل تارة، والظروف القاهرة تارة أخرى.

- تقنيات الزراعة:

تتطلب الزراعة عملا متدرجا، يبدأ بزراعة الحبوب وتعهد النبات بالعناية إلى غاية حصاده ودرسه وتخزين المحصول. فبعد تهيئة الأرض يقوم الفلاح بإلقاء الزريعة في وقتها، ولا يفوته لأنه يعطي نتيجة أفضل²، ويكون ذلك بنشر زريعة القمح أو الشعير، خلال العشرة أيام من شهر أكتوبر³، فإذا تقدم على ذلك الوقت يفسد ولا ينجح، وإذا تأخر يكون المحصول يسيرا⁴.

ويتبع ذلك تعهد النبات في مختلف مراحل نموه، فيحتاج إلى إبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر في بلوغه غاية النمو، مثل بعض الحشرات كالجراد، فتبدأ محاربه منذ بداية ديبه، فيستعمل روث الأبقار لقتله بواسطة دخانه المتولد من إشعاله⁵، ويتم طرد الطيور والحوام التي تفسد المحصول بواسطة الفزاعات التي تصنع خصيصا لذلك، كما تتم حراسته بواسطة الفلاحين ويشارك النساء في عملية الحراسة⁶.

وتنطلق عملية الحصاد في شهر ماي وفيه يتم حصد الشعير، أما القمح فيبدأ حصاده في أواخر شهر جوان ويستمر في شهر جويلية⁷، وكانت عملية الحصاد تحتاج إلى يد عاملة كثيرة، فيؤجر لذلك عمال أو يتشارك أهل القرية في الحصاد لإتمام العملية، وكذلك لتخفيف المصاريف، خاصة أن أجرة كانت تعرف ارتفاعا أيام المواسم الزراعية⁸. وشهدت بعض أرياف الأندلس عادة في الحصاد، وهي أن تقوم النسوة

¹ نقلا عن: نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 245؛ بوتشيش والبياض، المرجع السابق، ص 220.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص ص 1186، 1187.

³ ابن بصال، المصدر السابق، ص ص 56، 57.

⁴ ابن العوام، المصدر السابق، ج 4، ص 72.

⁵ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 225.

⁶ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص 166؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 200؛ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 226.

⁷ أبو الحسن عريب بن سعيد، تقويم قرطبة، د. ط. د. ن. د. ت، ص 56، ص 75.

⁸ فتحة، المرجع السابق، ص 278؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 178.

بالتقاط الحب الذي يتركه الحصادون خلفهم¹.

ثم تكون آخر الأعمال درس الزرع وتخليصه من قشره ، وتكون العملية بواسطة الدواب، مثل الثيران والأبقار²، فيتم اختيار مكان لوضع الزرع من أجل الدرس يسمى أنادر، ويشترط فيه أن يكون مرتفعا حتى يستفيد من الرياح التي تهب من أي جهة، كما يجب أن تكون تربة المكان معلقة وليس فيها حجر، حتى يكون الزرع صافيا نقيًا³، وبعد وضعه في الأنادر تقوم الدواب بدرسه، بينما يعمل العمال على ضم الزرع من أجنابه ووضعه بين أرجل البقر حتى يتم تخليص الدرس سريعًا⁴، فإذا لم يتوفر لصاحب الزرع أنادر يمكنه درس زرعه في أنادر أحد الجيران⁵.

وهكذا فإن زراعة القمح والشعير تأخذ موسما زراعيا كاملا، يبدأ فيها في فصل الخريف، وتنتهي أعمالها في فصل الصيف، بينما يمكن أن تتخلل هذا الموسم زراعة أنواع من المحاصيل التي يحتاجها الفرد في غذائه مثل الخضروات وبعض المقاثي، وقد أشارت كتب الفلاحة إلى التقنيات المستعملة في ذلك⁶.

تقنيات الغراسة:

يختلف الموسم الزراعي الخاص بغراسة الأشجار عن زراعة الحبوب، وكما هو معروف فإن الموسم الزراعي ينتهي بجني المحصول، ولذا فإن الغراسة تدوم لأعوام قد تصل إلى عشر سنوات، بينما الزراعة لا تتجاوز العام الواحد، ولذلك فإنه من الطبيعي أن تكون الأعمال المرتبطة بالغراسة أطول، والتقنيات المستخدمة فيها أكثر، خاصة إذا علم أن هذه التقنيات تختلف من محصول إلى آخر، وربما تجد في الحقل الواحد أشجارا مختلفة، مما يعرف أن بعضها يحمل قبل بعض بمدة⁷.

وقد وردت بعض النوازل الفقهية التي أبانت عن معرفة الفلاح بشؤون الغراسة، فمن ذلك استعمال

¹ البرزلي، المصدر السابق، ج2، ص 72.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 110.

³ أبو الخير الأندلسي، المصدر السابق، ص 98.

⁴ نفسه.

⁵ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 562.

⁶ تم التركيز على زراعة القمح باعتباره الغذاء الرئيسي للبلاد، ويدخل في الكثير من الأغذية، كما تمت الإشارة إليه في الفصل السابق.

ولمزيد من التوسع في تقنيات زراعة هذه الأنواع يمكن الرجوع إلى كتب الفلاحة المعتمدة في هذه الدراسة.

⁷ الشعي، المصدر السابق، ص 274.

نقول الشجر التي كان يتخير منها النقول الجيدة¹، وأبرزت كتب الفلاحة الطرق التي تستعمل لتحضير هذه النقول، فيمكن أن تؤخذ أوتاد من الأشجار المراد غراستها، أو تزرع بذرا وترعى لمدة عامين أو تزيد حتى تصبح جاهزة للغرس².

وتغرس النقول بعد تهيئة الأرض، فتوضع في حفر على عمق معروف لدى الفلاحين، ويفصل بين الغرس مسافة متعارف عليها³، وتختلف هذه المسافة حسب نوعية الأشجار، فبينما تحتاج أشجار الزيتون إلى مسافة تصل العشرين ذراعاً، يكفي السفرجل والرمون مسافة لا تزيد عن الستة أذرع⁴، وتكمن أهمية هذا التباعد في أنه يساعد الأشجار بعد نموها على تلقي الهواء وأشعة الشمس بشكل مناسب، ولا تتزاحم عروقها فتقل استفادتها من المواد العضوية مما ينعكس بالإيجاب على المحصول⁵.

ثم تتم متابعة هذا الغرس من طرف الفلاح أو المغارس، فيتعهد بها بالسقي وما يحتاجه الغرس حتى تنمو الأشجار، وقد يحاول في أثناء ذلك إنتاج نوع من الثمار بعد القيام بتركيب نوعين يصلحان لذلك ببعضهما. وقد أشارت نازلة إلى ما يفيد بانتشار هذه التقنية عند بعض الفلاحين، وعبرت عنه بالتلقيح⁶ وقد حصر بعض الباحثين انتشار هذه التقنية، بين الملاكين الكبار وبعض الملاكين المتوسطين، لأن هذه العملية لم تكن أساسية في مجال الغراسة⁷، كما أنها لم تكن في متناول كل الفلاحين فهي تحتاج إلى معرفة وعلم بها⁸.

وعند ظهور الثمار تحتاج إلى مزيد من العناية لإبعاد الآفات التي تضر بالمحصول، من ذلك ظهور الدود في ثمر الكرم، وكذلك إضرار الهوام وبعض الحيوانات به، فكان ينصح باستعمال فضلات البقر مع

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 159.

² لمزيد من الإطلاع يمكن مراجعة: ابن بصال، المصدر السابق، ص 59 وما بعدها؛ ابن العوام، المصدر السابق، ج1، ص ص 607-611؛ أبو الخير الأندلسي، المصدر السابق، ص 38.

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 160؛ ابن العوام، المصدر السابق، ج1، ص ص 649-653.

⁴ ابن بصال، المصدر السابق، ص ص 60-63.

⁵ ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص ص 22، 23.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1360؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص 202.

⁷ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص ص 230، 231.

⁸ أبو الخير الأندلسي، المصدر السابق، ص ص 125-129.

بعض المواد، ويدخن في الكرم، فلا يبقى شيء من هذه الآفات¹، وكثيرا ما كانت فضلات الحيوانات أدوية لعلاج آفات وأمراض مختلف الأشجار المثمرة².

ويمكن معالجة الأشجار دون اللجوء إلى الأزيال، فقد شاهد ابن العوام فلاحي الشرف بإشبيلية إذا اسودت أشجار الزيتون والتين وتساقط ورقهما وثمرهما، يعملون لهما مصاطب من تراب على شكل قمع مكبوب على فمه على ساق الشجر بارتفاع أربعة أشبار، ينجح ذلك وتزول عنهما هذه الآفة³، وكانت هذه التقنية أكثر ما تفيد الزيتون، لأن عروقه تنبسط مع وجه الأرض، فتكون أكثر عرضة للقطع، فتحيا الشجرة بهذه المصاطب التي تمتد لأعوام إلا أن تدممها الأمطار⁴.

أمّا عن جني المحصول فكل محصول له موسمه وطريقة جنيه، ويلاحظ أن كتب الفلاحة لم ترد فيها إشارات كثيرة عن طريقة الجني، ومن هذه الإشارات ما ورد عن محصول الزيتون، حيث يبدأ لقطه وجمعه في شهر أكتوبر⁵، أما عن طريقة لقطه فيذكر أبو الخير الأندلسي أن ذلك يكون: "... قبل شدة البرد... وذلك في يوم مصح، اجتناء رفيقا باليد لا بالعصا"⁶. بينما ترد في بعض المصادر بعض العادات المنتشرة في أرياف الأندلس، من ذلك خروج الرجال والنساء في أرياف غرناطة ومالقة إلى الحقول والمكوث أياما لجني محصول العنب والتين⁷، وهو ما يوحي ببساطة وسهولة عملية القطف والجني فيشارك فيه مختلف فئات المجتمع.

وما يمكن قوله في الأخير أن تقنيات الغرسة تحتاج إلى جهد كبير وعمل متواصل ورعاية دائمة للغرس في مختلف مراحل النمو، ولا يرتاح إلا بجني المحصول، وهو ما يفسر ربما اتخاذه موسم الجني يوما للفرح بنجاح الجهد المبذول. بينما لم تصل تقنيات الزراعة هذا الجهد، إذ بين مرحلة الزرع ومرحلة جني

¹ أبو الخير الأندلسي، المصدر السابق، ص ص 125 - 129.

² ابن العوام، المصدر السابق، ج3، ص ص 405، 409، 414، ج5، ص ص 185 - 189؛ أبو الخير الأندلسي، المصدر السابق، ص 53.

³ ابن العوام، المصدر السابق، ج3، ص 408.

⁴ نفسه، ص 408.

⁵ سعيد بن عريب، المصدر السابق، ص 100.

⁶ أبو الخير الأندلسي، المصدر السابق، ص 58.

⁷ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص ص 423، 424؛ قاسم الطويل، المرجع السابق، ص 259، حميدي، المرجع السابق، ص 362.

المحصول تتخلها فترات من الراحة.

ب- تقنيات السقي:

تحتاج المحاصيل الزراعية إلى كميات من الماء في زمن محدد، وتختلف باختلاف المحصول وأي تقصير أو خلل يصيب عملية السقي يؤثر سلباً على الإنتاج الزراعي، فكان لزاماً على الفلاحين إيجاد الطرق والتقنيات المناسبة لضمان تدفق الماء إلى حقولهم ومزارعهم.

وتشكل القنوات والسواقي أهم التقنيات التي اعتمدها سكان الأرياف والقرى لنقل الماء إلى الحقول والمزارع، هذه الوسائل التي يغلب عليها الفعل التشاركي خاصة إذا كانت تمتد على مسافات طويلة، فقد اقتطع قوم من عين طبيعية جزءاً كبيراً وأجروه في ساقية على أرض غيرهم¹، وجلب أهل قرية لأنفسهم ماء في قناة تمر عبر جنان رجل منهم². وفي جيان اشترك رجل مع قوم على حفر ساقية في أرضه³، بينما جلب سكان قرية طوس الماء لسقي جناتهم من نهر مرسية، وامتدت القناة في أملاك أهل مدينة مرسية⁴.

ومما لا شك فيه أن ارتفاع تكاليف الإنجاز خاصة مع قلة حيلة اليد لفئة واسعة من المجتمع الريفي منع امتلاك الأفراد لهذه القنوات، وقد بينت العامة ضخامة المصاريف في بعض أمثالها، فقالوا: "القطاع تطلع الماء للصُّمُع"⁵، ويذكر العذري أن عمق السواقي كانت قدر القامة، وأن بعضها يمتد لمسافات طويلة تصل الثمانية والعشرين ميلاً⁶، وهو ما يؤكد صعوبة العملية وارتفاع تكاليفها. وأكدت بعض الحفريات في مواقع عديدة من الأندلس أن إنجاز القنوات لا يحتاج إلى الحفر فقط، بل تستخدم بعض المواد مثل الحجارة المصقولة، والآجر والفخار المطبوخ وغيرها⁷، وهو ما أدى ربما إلى ارتفاع التكاليف. واستعمال هذا النوع من المواد مهم لأنه يساعد على جريان الماء خاصة في أوقات تناقص التساقط.

ولا يعني ذلك غياب المبادرات الفردية خاصة وسط الملاك الكبار، فمن ذلك ما قام به المعتصم بالله

¹ ابن الحاج، المصدر السابق، و 147.

² نفسه، و 147؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج 3، ص 1575، 1576؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج 3، ص 400.

³ ابن الحاج، المصدر السابق، و 148.

⁴ العذري، المصدر السابق، ص 01.

⁵ ويعني المثل أن رفع الماء إلى الأماكن المرتفعة، يتطلب أموالاً كثيرة، فعبروا بالقطاع عن الأموال، وعن الأماكن العالية بالصومع أي مئذنة

المسجد. انظر: الزجاجي، المصدر السابق، ج 2، ص 79.

⁶ العذري، المصدر السابق، ص 03.

⁷ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 248 - 250.

بن صمادح سنة 480هـ/1087م حين جلب الماء بواسطة قناة إلى المرية ومنها إلى خارج المدينة فاستفادت منها حقوله ومزارعه وقصوره¹، وكذلك ما قام به المأمون بن ذي النون (435-478هـ/1043-1085م) في مد القنوات إلى منيته وقصره واستفادته من المياه، فكان محل إعجاب كل من شاهدها²، ويبدو أن هذه الإنجازات كانت ضمن المشاريع الكبرى للسلط المتعاقبة خلال الفترة المدروسة والتي كانت قليلة جدا بالمقارنة مع الفترة التي سبقتها - خاصة فترة الخلافة الأموية³.

بالإضافة إلى المصادر السطحية شكلت المياه الجوفية أهمية كبيرة للمجتمع الريفي لمزاولة النشاط الفلاحي، وقد ربطت العامة تدفق الخيرات باستغلال المياه الجوفية-خاصة الآبار- بالقول: "الرزق في البئر"⁴ ويبدو أنهم كانوا على دراية بمعرفة وجود الماء، فاستدلوا على ذلك بانتشار بعض النباتات والحشائش ومن خلال كثافتها وقوة ورقها والتفافه، يمكن الحكم على كثرة الماء من عدمه، كما يمكنهم معرفة طعم ماء ذلك الموضع⁵.

ولا شك أن اهتمام ساكنة الريف بإنشاء الآبار وحفرها راجع لأهمية هذا النوع من المياه بالنسبة لأنواع من النبات "فهذا الماء يوافق من الخضر مثل الجزر والفجل واللفت، لأن هذا النبات يوافق الأرض وهو مشاكل لمياه العيون والآبار ملائم له، لا يتم صلاحه إلا به"⁶، ويبدو أن انتشار الآبار في القرى الأندلسية كان واسعاً⁷، بل تؤكد إحدى الدراسات شيوع استعماله في المجتمع الريفي، في مختلف الفترات⁸.

وإذا كانت التقنيات السالفة لاستغلال المياه التي توفرها الأنهار والوديان والآبار، فإن الفلاح في الأندلس كان يستعد لمواجهة حالات الجفاف أو تأخر سقوط الأمطار عن طريق مجموعة من التقنيات التي يُجمع فيها مياه الأمطار والعيون والأنهار، فاستخدم الصهاريج التي كانت معروفة في البلاد قبل الفتح الإسلامي للبلاد، وهي عبارة عن أحواض واسعة مربعة الشكل مصنوعة من حجارة مصقولة ومواد أخرى

¹ العذري، المصدر السابق، ص 85.

² ابن بسام، المصدر السابق، ج 4، ص ص 129-134.

³ الطاهري، المرجع السابق، ص ص 104-109؛ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 252.

⁴ الزجالي، المصدر السابق، ج 2، ص 118.

⁵ أبو الخير الأندلسي، المصدر السابق، ص ص 05-08.

⁶ ابن بصال، المصدر السابق، ص 40.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص ص 186، 187.

⁸ الطاهري، المرجع السابق، ص 105.

تمتع تسرب الماء¹، ومن هذه الصهاريج صهريج الحمة الذي كان واسعاً تستفيد منه قريتي الحمة وآبله من أرياف بجانة².

كما كانت البرك وسيلة لتخزين المياه، وهي عبارة عن خزانات أرضية يتم حفرها في باطن الأرض على عمق معين، وتختلف أحجامها باختلاف كمية المياه فيها³. وقد دلت نازلة على وجود هذا النوع فكان الفلاح يأخذ حصته من الشرب ويحبسه في برك محفورة لأجل ذلك الغرض⁴، وقد أجاز ابن رشد هذا الفعل إن كان غرضه تحقيق منفعة، أما إذا أراد أن يأخذه ويحبسه فقط فليس له ذلك⁵.

وفي فصل الصيف وفترات الجفاف لجأ الفلاحون في أعالي الأنهار والأودية والمجاري المائية إلى إقامة سدود لحجز المياه وتجميعها لسقي محاصيلهم⁶، وإذا كانت هذه التقنية ذات فائدة لهم فإنها بالمقابل أحدثت أضراراً كبيرة على الفلاحين في أسفل النهر، فقد منعت تلك الحواجز والسدود مرور المياه إليهم خاصة لمن كانت محاصيله في حاجة إليها، وفي فصل الشتاء يزداد حجم التدفق، فيتخلص أصحاب السدود من الزائد عن حاجتهم، ويرسلونها إلى الأسفل مما يتسبب لهم في فيضانات على مزارعهم وحقولهم⁷.

وقصارى القول فإن الفلاح الأندلسي حاول جاهداً استغلال ما في باطن الأرض وما عليها من ماء لسقي محاصيله الزراعية في أوانه، وهو ما جعله في صراع دائم لإنقاذ موسمه الزراعي، وهو ما يفسر النزاعات التي تسبب عنصر الماء.

1-3- المحاصيل الزراعية:

عرفت الأندلس خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م، تنوعاً في محاصيلها الزراعية، ويعود السبب إلى العوامل المناخية إذ كان يتم زراعة كل نوع مع ما يوافقه من أهواء وما يحتاجه من مياه⁸، كما أن

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 79.

² نفسه، ص 79، 80.

³ قري، المرجع السابق، ص 107.

⁴ ابن سلمون، المصدر السابق، و 1 ظهر، و 2 وجه

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج 6، ص 191.

⁶ نفسه، ج 8، ص 402؛ فتحة، المرجع السابق، ص 361.

⁷ البياض، الكوراث الطبيعية، ص 229.

⁸ ابن العوام، المصدر السابق، ج 1، ص 273.

للعادات الغذائية التي ميزت إثنيتها دور في ذلك، إذ عملت على توفير ما يشبع رغباتها التي كثيرا ما توافق معتقداتها¹، يضاف إلى ذلك كله عدم قدرة بعض الفئات على توفير أنواع جيدة فاتجعت إلى ما هو أقل منها واتخذته معاشا لها². كل هذه العوامل أسهمت في انتشار أصناف من الحبوب والبقول، بالإضافة إلى الفواكه والنباتات المختلفة.

أ- الحبوب والبقول:

شكلت الحبوب بمختلف أنواعها أهمية للمجتمع الريفي، فقد كانت مكونا هاما في غذائه خاصة في صناعة الخبز، الذي كان جزءا رئيسا في مختلف وجباته، فأضحت بذلك هذه الحبوب غذاء رئيسيا لمختلف شرائح المجتمع وطبقاته.

ويأتي في مقدمة هذه الأنواع القمح والشعير، الذي أبرز ابن عبدون أهميته بالقول: "وفي الحنطة تذهب النفوس والأموال، وبها تملك المدائن والرجال، وببطالتها تفسد الأحوال ويختل كل نظام"³، كما أن القيمة الغذائية الكبيرة لهذا النوع جعلت أهل الأندلس عموما يهتمون بتخزينه، لمواجهة الأوقات الصعبة فقد دلت المطامير المنتشرة في البيوت على انتشار ظاهرة تخزينه عند المجتمع الريفي، إذ يكاد لا يخل بيت من مطمورة على الأقل⁴.

ولا شك أن لهذه الأهمية دور في اتساع المساحات المزروعة من هذه المادة، وإن كانت المصادر لا تعبر عن حقيقة هذه المساحة، لكن يبدو أنه لم تخل منطقة ريفية ربما من زراعته مع اختلاف في كمية الإنتاج، وهو ما دلت عليه بعض المصادر خاصة الجغرافية منها، فأبرزت تفوق بعض المناطق في زراعة القمح كما ونوعا.

فأرياف طليطلة كانت تنتج قمحا جيدا لا يتأثر بمرور السنين فلا يتغير ولا يتسوس⁵. وفي جهة

¹ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 260.

² لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى الفصل السابق المتعلق بغذاء المجتمع الريفي.

³ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 5.

⁴ راجع الفصل السابق لمعرفة أهمية القمح والشعير بالنسبة للمجتمع الريفي.

⁵ الزهري، المصدر السابق، ص 83؛ البكري، المصدر السابق، ص 907؛ الحميري، المصدر السابق، ص 394؛ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 29.

الغرب مناطق ريفية بين لشبونة وشنترين، تجود بها الأرض بالحنطة، والكيل الواحد فيها يعطي مائة كيل¹. وكان أكثر إنتاج أرياف قرطبة من القمح والشعير، فقد كانت أكثر المحاصيل جباية في عصر الخلافة ويعتقد أن انتاج هذين المحصولين تواصل في الفترة مجال الدراسة، أما غرناطة فقد وصفها ابن الخطيب بأنها: "بحر من بحور الحنطة، ومعدن للحبوب المفضلة"².

وفي شرق البلاد يُعرف إقليم الفندون من أعمال مرسية بأنه: "قليلا ما يجود مثاله في طيب الأرض وجودة نمو الزرع"³، وفي أرياف جيان: "جنات ومزارع وغللات القمح والشعير"⁴، وعرفت أرياف شاطبة بيساتينها الجميلة وأراضيها الفسيحة وكثرة الزرع⁵، وفي حصن بيانة من أرياف مدينة باغة مزارع الحنطة والشعير⁶، وأرياف قرمونة جيدة الزراعات كثيرة الإصابة من الحنطة والشعير⁷.

ومنه يمكن القول أن زراعة القمح والشعير انتشرت في مختلف المناطق الريفية في الأندلس، رغم اختلاف العوامل الطبيعية والمناخية بينها، وهو ما أثر على كمية الإنتاج من منطقة إلى أخرى. أما أنواع الحبوب الأخرى فإنها كانت تشكل أهمية كبيرة لفئات عريضة من المجتمع⁸، خاصة الضعيفة منها، فقد وجدت فيها- كما تم تناوله في فصل سابق- ملاذا لها لإشباع حاجياتها الغذائية فاتخذت من هذه المحاصيل مادة لصناعة أنواع من الأخباز.

وقد وردت في المصادر الجغرافية إشارات عن انتشار أنواع من الحبوب في بعض المناطق، فعرفت أرياف جيان بزراعة البازلاء وسائر الحبوب⁹، وفي سرقسطة انتشرت حقول الفول والحمص، وساعدت طبيعة أرضها على تخزين هذه الحبوب مدة تصل العشرين سنة¹⁰، واختصت أرياف بلنسية بزراعة الأرز

¹ الإدريسي، المصدر السابق، ص ص 549، 550.

² ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، 96.

³ الإدريسي، المصدر السابق، ص 559.

⁴ نفسه، ص 568.

⁵ العذري، المصدر السابق، ص ص 18، 19.

⁶ الإدريسي، المصدر السابق، ص 571.

⁷ نفسه، ص 573.

⁸ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 263.

⁹ الإدريسي، المصدر السابق، ص 568.

¹⁰ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 197.

ومنها يحمل إلى جميع بلاد الأندلس¹، وأنتجت بعض الحقول في أرياف قرطبة الفول² وفي غرناطة تنتشر الذرة حتى غدت قوت بعض الفئات في أريافها في فصل الشتاء³.

ورغم هذه الأوصاف التي أوردها الجغرافيون والتي تظهر انتشار أنواع مختلفة من الحبوب في أرياف الأندلس، خاصة القمح والشعير، إلا أنه لا يمكن الركون إليها، للحكم على قوة الإنتاج في الفترة مجال الدراسة، وقد استطاعت بعض الدراسات توظيف بعض المعطيات الرقمية في القرنين 05-06هـ/ 11-12م، الواردة في بعض المصنفات خاصة الجغرافية منها للحكم على المردود بالضعف⁴، بينما أكد آخر ذلك أن البلاد شهدت خلال الفترة المدروسة عمليات استيراد الحبوب من بلاد المغرب⁵.

ويمكن تأييد ما ذهب إليه هذه الدراسات بالنظر إلى ما عرفته البلاد من أزمات خلال هذه الفترة وهو ما أثر سلباً على النشاط الفلاحي، وقد دلت بعض النصوص النوازلية على ضعف المردود في هذه الفترات، فقد سئل ابن رشد أن حالة اللاأمن والحروب والفتن التي شهدتها البلاد، أدت إلى نقص الغلات للطحن، كما أدت إلى نقص تحول الناس بين مناطق الأندلس، فقل المقيمون في الفنادق، فهل تحط هذه الظروف من الكراء؟ وهل تعتبر جائحة أم لا؟⁶.

لقد لخصت هذه النازلة تأثير العامل السياسي في النشاط الاقتصادي عموماً في بلاد الأندلس يضاف إليها فترات الجفاف التي عرفتها البلاد في بعض الفترات، وهو ما يدعو إلى الجزم بعدم ثبات الإنتاج وربما عدم تحقيق الاكتفاء الذاتي في كثير من الأحيان، ويفسر في الوقت ذاته سبب تدني المستوى الغذائي لكثير من فئات المجتمع الريفي.

أما فيما يخص البقول فإنها شكلت عنصراً هاماً إلى جانب الخبز في غذاء المجتمع الأندلسي عموماً

¹ العذري، المصدر السابق، ص 17.

² أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميري الإشبيلي ت 440هـ، البديع في وصف الربيع، تح. عبد الله عبد الرحيم عسيان، ط1، الرياض، دار المدني، 1987، ص 159.

³ غرناطة، الإحاطة، ج1، ص 137.

⁴ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص ص 266-274.

⁵ Vincent Lagardère, le commerce des céréales entre al-Andalus et le Maghrib aux

XI^e siècles, أعمال ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 48،

تن. محمد حمام، الرباط، طلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995، ص ص 123-150.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 1282، 1283.

ويقصد بالبقول خلال هذه الفترة الخضر والمقاثي¹، وقد وردت إشارات جغرافية إلى انتشارها في عدة مناطق، فبعض أرياف غرب الأندلس تجود بالحبوب وسائر البقول²، كما عرفت أرياف شنترين نوعا من التخصص في إنتاج الخضروات، فقد شد انتباه الإدريسي انتشار البساتين والفواكه والمباقل³، وفي شرق البلاد جادت بعض أرياف بلنسية بنوع من الخضر يسمى الكرب، فقد كان ذا حجم كبير، ذكر الزهري أن وزنه يصل خمسة عشر رطلا⁴، وأنتجت بعض المناطق في مرسية القرع الذي امتاز بكبر الحجم⁵.

ورغم هذه الأوصاف التي تعبر عن الإنتاج الوفير إلا أنه لا يمكن تعميم هذا الحكم لاعتبارين اثنين: أولهما أن بعض ما ذكره الجغرافيون عبر عن وجود نوع من التخصص في إنتاج البقول، وهو ما يحتاج إلى تخصيص مساحات واسعة لذلك، مع توفير إمكانيات وجهد كبيرين، وهذا الأمر لا يمكن أن يوفره إلا أصحاب الملكيات الواسعة، ولا شك أن من وراء ذلك أرباحا لهم، وهو الغرض الذي يصبو إليه أصحابها. أما الاعتبار الثاني فإنه قد تم الحديث سابقا على أن أصحاب الملكيات الصغيرة، وبعض أصحاب الملكيات المتوسطة كان هدفهم الإنتاجي توفير الغذاء لأسرهم وعوائلهم، مما يعني أن إنتاج هذه الملكيات لم يكن كبيرا، وقد دل على ذلك ما ذكره أحد الشعراء في حصن القبذاق غرب الأندلس الذي كان يستغل ضيعة له، فشكا قلة انتاجها من البقول⁶.

وعلى كل فإن المجتمع الريفي اهتم بزراعة الحبوب والبقول لحاجته وحاجة البلاد عامة لهما في الغذاء واختلف إنتاجهما بين المناطق بسبب اختلاف الغرض من الانتاج، كما أسهمت الظروف التي عرفتها البلاد خلال الفترة المدروسة في تذبذب الإنتاج.

ب- الفواكه:

أثنت كتب الجغرافية على فواكه الأندلس كما ونوعا، وقد عرفت بعض المناطق والأقاليم بتنوع

¹ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 276.

² الإدريسي، المصدر السابق، ص 544.

³ نفسه، ص 550.

⁴ الزهري، المصدر السابق، ص 102.

⁵ نفسه، ص 100.

⁶ يقول ابن مقانا الأشبوني:

ومن يصل نزر وشيء من القرع

أيا عامر القبذاق لا تخل من زرع

انظر: ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص 787.

فواكهها، من ذلك أن سرقسطة وأحوازها أنتجت التين والعنب والإجاص والخوخ¹، بينما في لاردة بساتين كثيرة، وفواكه غزيرة²، وجادت أرياف أركش باللوزيات والزيتون والعنب³، وفي أرياف مرسية ساعدت طبيعة الأرض على إنتاج أنواع من الفواكه مثل التفاح والكمثرى والتين والرمان⁴، وفي حصن قماريش القريب من مالقة، ينتج فيه الأعناب واللوز والتين⁵.

وإذا كان التنوع صفة لبعض المناطق الريفية، فإن مناطق أخرى عرفت نوعا من التخصص وقد دل على ذلك أوصاف الجغرافيين لها، سواء ما تعلق بجودة الإنتاج فيها وتميزه بخصائص عن غيره، أو كثرته وغلبته على باقي الأنواع.

فمن هذه الفواكه الكرم التي أحبها الأندلسيون حتى أنهم غرسوها في أفنية المنازل والدور وحول جنبات البيوت، وقد دلت نازلة على اهتمام المجتمع الريفي بغراسة هذا النوع من الفواكه، فقد أشارت نازلة، إلى أن بعض المزارعين وجدوا صعوبة في الوصول إلى ضيعاتهم لإحاطة كروم الناس بها⁶.

وقد أكدت كتب الجغرافية على تخصص بعض المناطق الريفية في الأندلس في إنتاج هذه الفاكهة التي كانت تستهلك عنباً طرياً عند نضج الثمار أو زيباً في حال تجفيفه، من ذلك قرية شاط من بلاد المنكب التي اشتهرت بإنتاج الزبيب، فقد ذكر الإدريسي أن فيها: "زبيب حسن الصفة كبير المقدار، أحمر اللون، يصحب طعمه مازة، ويتجهز به إلى كل البلاد الأندلسية، وهو منسوب إلى هذه القرية"⁷، وتشتهر أرياف يابسة بكثرة الكروم والأعناب⁸، وفي إحدى قرى قرطبة بالقرب من حصن المدور تسمى فُرْجُولْش تكثر بها الأشجار خاصة أشجار الكروم⁹، كما اشتهرت قرية فنيانة بالقرب من وادي آش بكثرة كرومها¹⁰.

¹ الزهري، المصدر السابق، ص 82.

² الحميري، المصدر السابق، ص 507.

³ حتاملة، موسوعة الأندلس والمغرب العربي، ج3، ص 50.

⁴ العذري، المصدر السابق، ص 8.

⁵ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 94؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص 583.

⁶ ابن الحاج، المصدر السابق، و 38.

⁷ الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص 564.

⁸ الحميري، المصدر السابق، ص 616.

⁹ نفسه، ص 440.

¹⁰ نفسه، ص 441.

وتشتهر ألش بجودة ما تنتجه من زبيب¹.

بينما تشتهر مناطق ريفية أخرى بتفوقها في إنتاج فاكهة التفاح، فقرية جليانة أنتجت العديد من الفواكه لكنها اشتهرت بالتفاح الذي يمتاز: "بعظم الحجم وكرم الجوهر، وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء"²، فكان مضرب المثل في الأندلس، ولذلك سميت به هذه القرية³، وفي شلب جبل عظيم: "أكثر ما ينبت فيه تفاح عجيب، يتضوع منه روائح العود إذا أرسلت فيه النار"⁴.

في حين يلاحظ تخصص بعض المناطق الريفية في إنتاج التين، فأرياف قورية "شريفة خصيبة، وضياح طيبة وأصناف من الفواكه كثيرة وأكثرها العنب والتين"⁵، كما عرفت بعض أرياف إشبيلية، المعروف بالتين السفري، فقد وصفها أحدهم قائلا: "لا تنس لإشبيلية تينها"⁶، وقد ذكر ابن سعيد تفوق تينها خاصة إذا اتخذ للتداوي والعلاج⁷، وفي أرياف دانية شجرات تين كثيرة⁸، وينتج إقليم الشنشين في شلب تينا كثيرا يحمل إلى خارج البلاد، يمتاز بعدة خصائص فهو: "طيب علك لذيد شهي"⁹، بينما أنتجت أرياف مالقة تينا فاق غيره وحمل منه إلى خارج البلاد¹⁰، وقد بقيت الريادة لهذا التين حتى في العصور اللاحقة¹¹.

وعليه يمكن القول أن الريف الأندلسي أنتج العديد من أنواع الفاكهة، كما عرفت بعض المناطق فيه تميزا في إنتاج نوع معين منها تعدت شهرتها حدود البلاد.

ولا يعني أن هذه النتيجة تنسحب على جميع المناطق الريفية، لأن بعض المناطق الأخرى لم تصلح فيها بعض الغراسات، فأنتجت أنواعا رديئة من الفواكه، مثل الرمان الحامض والحر والعنب الأبيض

¹ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 245.

² المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 149.

³ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 148؛ الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 157.

⁴ الحميري، المصدر السابق، ص 342.

⁵ نفسه، ص 485.

⁶ ويكمل قائلا: واذكر مع التين زياتينها. نقلا عن: عفانة، المرجع السابق، ص 29.

⁷ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 423.

⁸ الإدريسي، المصدر السابق، ص 557.

⁹ نفسه، ص 543.

¹⁰ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 423؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 565.

¹¹ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 682.

والأسود والتين الأسود¹، ومرد ذلك ربما إلى الجوائح التي كانت تصيب هذه الغروسات، فقد أشارت نازلة إلى تعرض بعض الجنات لتعفن وخمج وتسوس، فأدى ذلك إلى ييس الكثير من المحاصيل²، كما أن إهمال هذه الغروسات وغياب العناية اللازمة لها يؤدي كذلك إلى هذه الآفات، ولا شك أن هذا العصر شهد الكثير من حالات الفرار، والتخلي عن القرى والأراضي، وأهملت الغراسيات بسبب الخوف من غارات العدو³.

ج- محاصيل زراعية أخرى:

أنج المجتمع الريفي في الأندلس محاصيل زراعية لا تصنف مع الحبوب والبقول، وليست ضمن الفواكه، مثل الزيتون والكتان وقصب السكر و التوابل والنباتات العطرية.

ويشكل الزيتون أحد أهم المحاصيل الزراعية في الأندلس، فقد سبقت الإشارة إلى أهميته الغذائية وتعتبر أرياف إشبيلية من أهم المناطق المنتجة له، خاصة إقليم الشرف الذي يمتد على مساحة واسعة تغطيها البساتين المزروعة والأشجار المثمرة، خاصة أشجار الزيتون حتى قيل: "لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه"⁴.

كما عرفت أرياف إفراغة بكثرة أشجار الزيتون، إذ تنتشر بها بساتين لا نظير لها⁵، وينطبق الحال كذلك على أرياف قبرة التي اشتهرت بأنواع من الغراسيات، لكنها أكثر ما اختصت به الزيتون⁶، ومن قرى لقنت قرية صغيرة تسمى قريبيان بها سقي كثير وهي كثيرة الزيتون⁷، كما عرفت بعض أرياف قرطبة انتشار محصول الزيتون⁸.

أما الكتان والقطن فقد اختصت بعض المناطق بإنتاج محصول الكتان، مثل أرياف لاردة، بها بساتين

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج5، ص 204.

² ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج2، ص 695.

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 886.

⁴ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 158. انظر أيضا أوصافا لشهرة هذا الإقليم وتفوقه في هذه الفاكهة: العذري، المصدر السابق، ص

95؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 541؛ الحميري، المصدر السابق، ص 59.

⁵ الحميري، المصدر السابق، ص 48.

⁶ ابن غالب، المصدر السابق، ص 282.

⁷ الحميري، المصدر السابق، ص 455.

⁸ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 347.

"مخصصة بكثرة الكتان وطيبه، و منها يتجهز إلى نواحي الثغر"¹، ويكثر بالقرى المتصلة بجبل شلير القريب من غرناطة محصول الكتان الذي يفوق جودته كتان الفيوم بمصر². بينما يزكو القطن في أرياف إشبيلية وقد كان إنتاجا وفيرا سمح بتصديره إلى خارج البلاد³.

وفيما يخص قصب السكر فإنه يعتبر من المحاصيل التي نقلها المسلمون من المشرق إلى بلاد الغرب الإسلامي عموما، وحققوا فيه نجاحا ملحوظا⁴، فاختصت به بلاد المنكب، خاصة قرية شلوبانية شرق البلاد، حيث تجود أرضها بالموز وقصب السكر⁵، وينتشر في جنات المصلى في ريف إشبيلية محصول قصب السكر⁶، وتعتبر قرية مطريل شرق غرناطة من أهم المراكز لإنتاج قصب السكر⁷، ويمكن أن تكون زراعته منتشرة في أرياف المرية، فقد نجح المعتصم في زراعته في منيته ضمن أنواع الثمار الغريبة التي ذكرها العذري⁸. ورغم عدم ملائمة مناخ الأندلس لبعض المحاصيل الزراعية مثل التوابل، إلا أن بعض الإشارات الجغرافية تفيد بوفرة إنتاج أنواع منها خاصة الزعفران، فالبكري يشير إلى أن إنتاج طليطلة وأحوازها لهذا النوع الذي يمتاز بالجودة، وكان يعم البلاد ومنها يتجهز به إلى الآفاق⁹، كما كانت أراضي بلنسية مناسبة لزراعة الزعفران، فكان يحسن فيها وينبت في أكثر أرضها¹⁰، وبوادي الحجاره غلات كثيرة من الزعفران يتجهز بها إلى مختلف جهات البلاد¹¹.

وفي الأخير يمكن القول أن المجتمع الريفي أنتج العديد من المحاصيل الزراعية، فكان القمح والشعير يشغل حيزا هاما من نشاطه الزراعي، أما الفواكه فيلاحظ عليها التنوع من جهة، ووجود نوع من التخصص في بعض المناطق من جهة ثانية، كما أنتج هذا المجتمع أنواعا من المحاصيل الطارئة على البلاد مثل قصب

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 507.

² البكري، المصدر السابق، ص 895.

³ العذري، المصدر السابق، ص 96.

⁴ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 292.

⁵ الحميري، المصدر السابق، ص 343؛ الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص 360.

⁶ الحميري، المصدر السابق، ص 59.

⁷ حتاملة، موسوعة المغرب والأندلس، ج 4، ص 1008.

⁸ العذري، المصدر السابق، ص 85.

⁹ البكري، المصدر السابق، ص 907.

¹⁰ العذري، المصدر السابق، ص 17.

¹¹ الحميري، المصدر السابق، ص 606.

السكر والزعفران وأظهر تفوقا فيها، لكن يلاحظ أن حالة الخوف التي ميزت البلاد خلال الفترة مجال الدراسة، أثرت على الإنتاج بسبب إهمال الفلاحين لأراضيهم وجنائهم.

1-4- تربية الحيوانات:

تشكل الحيوانات في المجتمع الأندلسي عموما والمجتمع الأندلسي على وجه الخصوص أهمية كبيرة له فهي تسهم في الغذاء، بما تقدمه من لحوم وألبان وغيرها، كما توفر مادة أولية تقوم عليها العديد من الصناعات مثل الأصواف والأوبار والأشعار، إضافة إلى أهميتها في النشاط الزراعي سواء في الحرث أو التسميد أو الدرس، كما شكلت وسائل نقل رئيسية له، ولهذا اهتم المجتمع الريفي بنشاط تربية الحيوانات.

أ- مناطق الرعي:

تعتبر المناطق الريفية مجالا خصبا لتربية الحيوانات، وقد اشار إلى ذلك ابن خلدون، حيث يذكر أن الريف: "متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك"¹، وقد عرفت الأندلس بمناطقها الريفية الرعوية والتي كانت تشكل أقاليم بأكملها، واصطلح عليها الجزء²، وقد أورد العذري مجموعة منها، فذكر أربعة عشر جزءا في بلنسية، وستة وثلاثين جزءا في إلبيرة (غرناطة)، وثمانية أجزاء في الجزيرة الخضراء³.

كما أثنت المصادر الجغرافية على اتساع المناطق الرعوية في الأندلس، وعبرت عن ذلك بمختلف الأوصاف، فأرياف سرقسطة كثيرة الزرع والضرع والفواكه⁴، وحصن شيرس من أعمال تاكرنا بلد فيه زرع وضرع وفواكه⁵، وقرى مدينة قلعة رباح طيبة المرعى تحسن الماشية في مسارحها⁶، وفي دلالة مسارح مشهورة يصلح فيها تربية الأغنام⁷، وفي شلب جبل عظيم منيف كثير المسارح والمياه⁸.

بينما تفوقت بعض المناطق على غيرها خاصة أرياف إشبيلية التي عرفت بكثرة مراعيها وتفرد

¹ ابن خلدون، المصدر السابق، ص 129

² يمكن مراجعة الفصل الأول من هذه الدراسة.

³ العذري، المصدر السابق، ص 20، ص 90-93، ص 120.

⁴ الزهري، المصدر السابق، ص 82.

⁵ الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 382.

⁶ ابن غالب، المصدر السابق، ص 289.

⁷ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 99.

⁸ الحميري، المصدر السابق، ص 342.

مروجها، التي يتميز عشبها بأنه " لا ينهشم صيفا ولا ينحطم، ويتمادى كلؤه رطباً، وبذلك يصلح نتاجها وتدوم ألبان ماشيتها، ولو كان يقتصر عليها بالمسارح أهل الأندلس لاتسعت لهم"¹، وتعرف بلدة أشكر بمسارحها الكثيرة إذ يصفها ابن الخطيب بأنها: " مسرح البهائم، ومعدن الرعي الدائم"²

ومما لا شك فيه أن انتشار المناطق الرعوية بهذا الشكل في البلاد، راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة سطح الأندلس ومناخها³، إذ تشكل هضبة المسيتا نصف مساحة البلاد، كما أن كمية التساقط فيها قليلة لا تتعدى 400 ملم سنوياً، مما ساعد على انتشار العشب والكأ فيها، كما شكلت الجبال نسبة مهمة من مساحة البلاد والتي تعتبر مناطق رعوية مهمة ونشاطاً أساسياً للمجتمعات التي تنتجها⁴.

يضاف إلى ذلك أن مساحة المناطق الرعوية كانت تشهد زيادة في موسم الحصاد، حيث شكلت بقايا المحصول خاصة القمح والشعير كلاً مهماً لمختلف الحيوانات⁵، مع العلم أن هذه المساحات كانت كبيرة نظراً لما شكله القمح والشعير من أهمية للمجتمع الأندلسي.

ب- نظام الرعي:

اختلف أسلوب الرعي في بلاد الأندلس حسب طبيعة المناطق الرعوية، حيث عرف رعياً شبه صحراوي والذي يعتمد فيه الرعاة على التنقل، وانتشر خاصة في المناطق التي تصاقب الثغور ومناطق الحدود مع النصارى الإسبان، فكانوا يرتعون بحيواناتهم في هذه المناطق، وفي أوقات الضرورة وعند الخطر يحتمون بالجبال⁶.

أما المناطق الأخرى من البلاد فقد عرفت الرعي الثابت، حيث كان يتم في مناطق رعوية في المروج أو بجانب الأراضي الزراعية، وكانت هذه المسارح إما ملكاً مشاعاً أو ملكاً خاصاً، وقد أشارت نوازل العصر إلى انتشار المسارح المشتركة، وهي أراضي رعوية تكون بين عدة قرى لا فضل لأحد منهم على سائر

¹ العذري، المصدر السابق، ص 96؛ ابن غالب، المصدر السابق، ص 293.

² ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص 110.

³ يمكن الرجوع إلى الفصل الأول لمزيد من التفصيل.

⁴ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 228؛ بودالية، المرجع السابق، ص 146.

⁵ قرني، المرجع السابق، ص 124.

⁶ السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 178؛ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 198.

أرباب تلك القرى فيها وأصبحت عرفاً بينهم¹، وقد دل مفهوم العرف أن هذا الفعل لم يكن وليد هذا الزمن وإنما توارثته الأجيال وتعاقبت عليه السنين.

وقد تقول هذه المسارح المشتركة بين عدة قرى إلى مسارح خاصة، إذا تم اقتسام تلك المسارح بينهم على حسب حصصهم فيها²، ويبدو أن هذا النوع من المسارح كان منتشرًا بشكل كبير وذلك لما عرفته البلاد من انتشار الملكية الخاصة للأراضي والاستغلاليات الفلاحية، ولكن اختلفت هذه المسارح باختلاف حجم هذه الملكيات.

وتنوعت أنظمة الرعي عند المجتمع الريفي بسبب اختلاف الحالة الاجتماعية لهذا المجتمع، إذ يلاحظ انتشار روح التعاون والتآزر عند بعض المالكين الصغار والمتوسطين، فاستعملوا ما يسمى بالرعي المشترك، وهو الذي أشارت إليه بعض النوازل، وصِفَتْه أن يقوم أصحاب المواشي بحرز أغنامهم بأنفسهم لكل واحد منهم يومه الذي يحرز فيه جميع المواشي³، ويبدو أن هذا النظام كان دقيقًا حيث لم يكن لأحد أن يتغيب عن يومه الذي يحرز فيه، فإن منعه مانع باستطاعته أن يكرى شخصًا أو يستأجر رجلًا يحرز عنه المواشي⁴، كما أن غياب أو قلة المنازعات والمشاكل التي تصحب عملية الرعي في هذا النظام دليل على دقته.

بينما يلاحظ، انتشار العديد من المشاكل في النظام الآخر المنتشر في البلاد، هذا النظام الذي يعرف بنظام الإجارة، فيؤاجر رجل راعيًا لحرز غنمه مدة معلومة مقابل أجر معلومة أو جزء من الماشية كما يمكن أن يشترك أهل القرية الواحدة في استئجار راع واحد يحرز جميع غنم القرية لمدة زمنية معلومة⁵ لكن يبدو أن استئجار الراعي يكون في حال بلغت الرؤوس أعدادًا كبيرة، وهو ما يدعو إلى القول أن هذا النظام كان واسع الانتشار بين أصحاب الملكيات الكبيرة والتي تصل عند البعض إلى مئتي رأس غنم⁶.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 132.

² نفسه.

³ الشعبي، المصدر السابق، ص ص 261، 262، 296.

⁴ نفسه.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 263.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1304.

ويستطيع الراعي أن يرعى هذا العدد ويساعده غلام مع كلاب الحراسة¹، أما الأبقار فإنها تبدو أسهل من الغنم في رعيها لأنها تأوي بعضها مع بعض وتضطجع معا، ولذلك فإن راعيا واحد يمكنه رعي كثير منها².

ويبدأ الراعي عمله من طلوع الشمس بإخراج الغنم إلى المرتع ويدخلها عند الغروب، وقد يأوي بها إلى داره أو دار رب الغنم أو ربما لا يأوي بها إلى أي مكان ويبقيها في الفحص³، وعليه أن يقوم في أثناء يومه بحراستها من مختلف الأخطار التي قد تصيبها⁴، وأن يمنعها من إحداث المفاسد للغير⁵.

وأي تقصير من الراعي أو تهاونه في عمله يدخله في مشاكل متعددة، ففي حال ضياع بعضها يعرضه لمشكل مع صاحبها، إذ يظن هذا الأخير أن الراعي تصرف فيها بالبيع أو بالأكل وغيرها⁶، ويبدو أن هذا المشكل كثيرا ما كان يقع بين الطرفين بسبب انتشار ظاهرة اللصوصية في الأندلس عموما في مختلف فتراتهما، رغم محاولات السلط المتعاقبة القضاء عليها⁷، وشكلت ظاهرة سرقة الدواب في البلاد في القرنين الخامس والسادس الهجريين جزءا كبيرا من مجموع السرقات التي ورد ذكرها في كتب النوازل الفقهية⁸. وبالإضافة إلى هذا السبب، قد يتنازع الراعي ومؤجره في ملكية الغنم، فتذكر نازلة أن صاحب غنم ادعى أن كل الغنم له بينما ادعى الراعي أن له فيها عددا معلوما اكتسبه قبل الإجارة أو أثناءها⁹. كما يمكن أن يدخل طرفا ثالثا في النزاع بسبب غياب الراعي عن عمله أو تهاونه مما ينتج عنه إفساد الغنم لمزارع الغير، فيتسبب له في مشاكل مع أصحاب المزارع وتزداد معاناته حيث يكون ضامنا لما أفسدته الأغنام¹⁰.

¹ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص ص26، 27.

² نفسه، ص ص9، 10.

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1304؛ ابن سلمون، المصدر السابق، و 127 ظ

⁴ الشعبي، المصدر السابق، ص 288.

⁵ نفسه، ص 307.

⁶ نفسه، ص 288.

⁷ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 219.

⁸ رقية بن خيرة، الآفات الاجتماعية في الأندلس ما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين (ق 11-12م) - دراسة في ظاهرة الإنحراف-، مذكرة دكتوراه غير منشورة، إش.عبيد بوداود، جامعة مصطفى اسطنبولي معسكر، 2016-2017، ص ص 175، 176.

⁹ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1304؛ ابن سلمون، المصدر السابق، و 130 وجه.

¹⁰ الشعبي، المصدر السابق، ص 307.

أو يضطر الراعي للغياب عن عمله يوما فيتركها عند أحدهم يرعاها له دون إذن أهلها، وفي حال ضياع إحداها يكون الراعي متهما بالتآمر مع صاحبه الذي راعاها له¹.

ج- الثروة الحيوانية:

- الأغنام والماعز والأبقار:

تصدرت الأغنام والأبقار اهتمامات المجتمع الريفي لما توفره من مادة أولية لمختلف أغراضه وشؤونونه وقد ساعد اتساع المناطق الرعوية ووفرة الكأ والعشب على نجاح نشاط تربيتهن، كما أسهمت السلطة في وفرة الإنتاج من خلال تنظيم عملية الذبح، فقد منع المحتسبون ذبح الحوامل أو بهائم الحرث²، يضاف إلى ذلك معرفة المربين طرق علاج الأمراض التي قد تصيب الحيوانات كما كانوا على دراية بطرق التسمين³. وبسبب هذه العوامل فقد توفرت الأندلس على ثروة كبيرة من رؤوس الأغنام والأبقار وبلغ من كثرتها أن انخفضت أسعارها في بعض الفترات⁴، حتى أن ما استحوذ عليه البربر في مطلع القرن 05هـ/ 11م خلال الفتنة القرطبية، من الغنم والبربر ما عجزوا عن ضبط عددها⁵، وبقي إنتاج البلاد في الفترة مجال الدراسة كبيرا، فقد أبرزت بعض النوازل الملكية الكبيرة التي كان يحوزها بعضهم، فتذكر نازلة أن رجلا امتلك لوحده مائتا رأس غنم⁶، وامتلك شريكاً أربع مائة رأس منها⁷، بينما اشترك آخرون في أكثر من أربعين رأس بقر⁸، وما يدل على وفرة الإنتاج في هذه الفترة أن غنائم النصاري في غاراتهم على البلاد لا تكون إلا من الماشية، فيغنمون أعدادا كبيرة، بلغت إحداها خمسون ألف رأسا من الغنم وأعدادا ضخمة من البقر⁹.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 331.

² ابن عبدون، المصدر السابق، ص 44.

³ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص ص 21-23، ص ص 30، 31.

⁴ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 110.

⁵ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 106.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1304؛ ابن سلمون، المصدر السابق، و 130 وجه.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1177.

⁸ نفسه، ج2، ص ص 871، 872؛ ابن سلمون، المصدر السابق، و 145 ظهر.

⁹ يقصد بها الغارة التي قادها القومس سان منوس، المعروف بسانشو والذي تسميه المصادر العربية بالأحدب، سنة 568هـ/ 1173م، حيث استهدف إستجة وحنوي قرطبة والوادي الكبير، لكن الموحدون استطاعوا تخليص الأسرى، واسترجاع الثروة المسلوبة، وغنموا الكثير من الدروع والخيول والبغال انظر: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 429؛ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في

وإذا كانت هذه الحال العامة للبلاد، فإن بعض المناطق الريفية قد اشتهرت بنوع معين وتفوقت على غيرها من المناطق وأصبحت مضرب المثل، فقد عرف جبل الشارات بطليطلة لوحده بوفرة إنتاجه حتى بلغ بأهلها تصديره إلى سائر الأندلس، فيصفه الإدريسي قائلاً: "وفي هذا الجبل من الغنم والبقر الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد ولا يوجد شيء من أغنامه وأبقاره مهزولا، بل في نهاية من السمن، ويضرب بها في ذلكم المثل في جميع أقطار الأندلس"¹.

وفي موضع من جبال تاكرنا جنوبي الوادي الكبير يشتهر سكانه بتربية الأغنام حتى سمي بجبال الصوف، وهي دلالة تبرز تخصصه في تربية الأغنام وأهمية ما ينتجه منها²، وتعرف أرياف مرسية بإنتاج أغنام غاية في السمن خاصة فحص شنقير الذي بلغت أغنامه غاية في السمن حتى أن الخروف الراضع يزن وزن أمه على قول الزهري³، كما اشتهرت أرياف إشبيلية بتربية الأغنام⁴، وهو نفس الحال في جبل شقورة من أعمال جيان⁵، وتعتبر الأغنام في أرياف ميورقة أكثر كسب سكانها⁶.

أما الماعز فإن الجبال تشكل مراعي مناسبة لها فيصلح إنتاجها فيها⁷، ولذلك كانت المناطق الجبلية أهم المناطق لتربيتها مثل مرتفعات قادش التي تنتشر بها بعض النباتات البرية، فكانت كالأ مناسباً لها، وفي هذا الشأن يذكر الحميري: "وأكثر مواشيتها المعز، وشعراؤها صنوبر ورم، فإذا رعت معزم خروب ذلك المكان عند عقدها، أسكر لبنها، وليس يكون ذلك في ألبان الضأن"⁸، ولكثرة الماعز في جبل بالقرب من فحص البلوط أصبح يعرف بجبل المعز⁹، وفي أرياف يابسة "لا تنجب فيها الغنم، وإنما تنجب فيها المعز

أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين-، تح. محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط1، بيروت - الرباط، دار الغرب الإسلامي - دار الثقافة، 1985، ص ص 124 - 126.

¹ الإدريسي، المصدر السابق، ص 552.

² الزهري، المصدر السابق، ص 93؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص 375.

³ الزهري، المصدر السابق، ص 100.

⁴ العذري، المصدر السابق، ص 96؛ ابن غالب، المصدر السابق، ص 293؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 301.

⁵ الزهري، المصدر السابق، ص 98.

⁶ نفسه، ص 129.

⁷ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص 33.

⁸ الحميري، المصدر السابق، ص 448.

⁹ الحميري، المصدر السابق، ص 436.

وهي أكثر كسبهم"¹.

وفيما يخص الأبقار والثيران فقد احتلت مكانة مهمة في حياة المجتمع الريفي، فهو بالإضافة إلى ما يوفره من مادة أولية لمختلف شؤونهم، كان المعتمد في الأعمال الزراعية كالحرث والدرس، وإدارة النواير والأرحاء لسقي المحاصيل الزراعية وطحن الغلال²، ولذلك يرجح أن تنتشر تربيتها في الكثير من البيوت الريفية، ولم يكن هذا الأمر خاصا بالرجال، فقد ذكرت نازلة أن امرأة اشتهت تربية البقار فكانت لها بقرة كل عام تضع وتلد ولها خلال ثلاث سنوات ثلاثة رؤوس³.

ومن المناطق المعروفة بتربية الأبقار جبل الشارات الذي سبقت الإشارة إليه، فقد شد انتباه الإدريسي كثرة الأبقار فيه، إلى جانب الأغنام، وقد بلغ من كثرتها وجودتها أن أصبحت مقصد الجلابين من مختلف مناطق الأندلس⁴، وأرياف منورقة تنتج أبقارا: "ليس في معمور الأرض أطيب من لحم بقرها"⁵، وفي أرياف إستجة وقرطبة وإشبيلية، تنتشر أعداد مهمة من الأبقار، فقد تجمع للنصارى في غارتهم سنة 568هـ/1173م، على هذه المناطق ألفي رأسا من البقر حسب ما أورده ابن عذاري⁶.

– الخيل والبغال والحمير:

تشكل هذه الحيوانات وسيلة ينتقل بها الأفراد بين مختلف المناطق، وينقلون بها مختلف أغراضهم وحاجياتهم، كما يستعملها المجتمع الريفي في مختلف أعماله الزراعية خاصة البغال والحمير⁷، ولذلك كان من الضروري امتلاك إحدى هذه الدواب، ومن عديمها يمكن له أن يكتريها أو يستعيرها⁸. وربما يرجع السبب إلى استعمال المجتمع الريفي لهذا النوع من الحيوانات لقوتها وجلدها على مختلف الأعمال مع قلة مصاريفها، لأن البغال والحمير أصبر الدواب على الجوع وقلة الماء وقلة العلف، وطوال

¹ الزهري، المصدر السابق، ص 128.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص ص 109، 110؛ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 44؛ دندش، المرجع السابق، ص 305؛ قربي، المرجع السابق، ص 125.

³ ابن الحاج، المصدر السابق، و 106، 107.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 552.

⁵ الزهري، المصدر السابق، ص 129.

⁶ ابن عذاري، المصدر السابق – قسم الموحدين –، ص 125.

⁷ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص 37؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص ص 262، 263.

⁸ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص ص 262، 263، 283، 294.

الأسفار، خاصة المربيع منها¹، بالإضافة إلى ذلك، أن الأندلس يغلب على سطحها المرتفعات من هضاب وجبال فكانت هذه الحيوانات أكثر ملائمة من الخيل في السير عبر هذه الأراضي².

ويبدو أن أهل الأندلس اعتنوا كثيرا بإنتاج الأنواع الجيدة من البغال، فبغال الأندلس فارهة، أي أنها نشيطة وحادة وقوية³، وتفوقت على غيرها من أصقاع العالم المعروفة في إنتاجها، وأصبح لأهل الأندلس إنتاج كثير منها وبها يفتخرون⁴، وتعتبر أرياف ميورقة أحد أهم المناطق وأكثرها إنتاجا من البغال⁵، والتي تتميز بأنواعها الجيدة، حتى أن بعضها بلغت أسعارها الخمسمائة دينار، وكثير منها بلغ المائة والمائتان⁶، كما تميزت أرياف قرطبة بإنتاج أنواع من البغال تتميز " بحسن شكلها وألوانها وقودها وعلوها وصحة قوائمها"⁷.

ويرتبط إنتاج البغال الجيدة بوجود الحمير وأنثى الخيل، وعلى هذا فالحمير انتشرت في مناطق إنتاج البغال، كما أن سعرها المنخفض مقارنة بالبغال وصبره وجلده أكثر منها، جعل الفلاحين بمختلف طبقاتهم يعتمدون عليه في أعمالهم الزراعية⁸، وربما يقل انتشارها في المناطق الباردة لأنها أكثر إحساسا بالبرد من غيرها من الحيوانات، كما أنها تهرم فيه سريعا⁹، وتنتشر في المناطق التي تعرف انتشار حشائش تسمى بلسان الذئب أو السريس وهو عشب طعمه مر¹⁰.

أما الخيل فإنها في الغالب مخصصة للجهاد والغزو، وتعرف خيل الأندلس بخصائص متميزة يذكرها المقري بالقول: " وخيلها ضخمة الأجسام، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدو في خيل البر الجنوبي"¹¹، وقد اشتهرت أرياف ميورقة بكثرة خيولها¹، ويعرف حصن مدلين بالقرب من ماردة، بتربية

¹ ابن العوام، المصدر السابق، ج 6، ص 38.

² السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 184.

³ المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 199؛ ابن منظور، المصدر السابق، ج 13، ص 521، مادة فرة.

⁴ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 109.

⁵ الزهري، المصدر السابق، ص 129.

⁶ نفسه، ص 110.

⁷ الحموي، المصدر السابق، ج 4، ص 324.

⁸ ابن العوام، المصدر السابق، ج 6، ص 37، ص 41؛ قري، المرجع السابق، ص 127.

⁹ ابن العوام، المصدر السابق، ج 6، ص 41.

¹⁰ السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 185.

¹¹ المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 199.

الخيول المتخذة للغزو والجهاد²، كما انتشرت تربيتها في أرياف إشبيلية ولبلة³.

وتبقى الإشارة إلى أن الغنائم من الخيل التي كانت تنتج من مواجهات أهل الأندلس للنصارى في مختلف الفترات كانت ذا بال وزادت في أعداد الخيول بالبلاد، فيذكر ابن عذاري أن أيدي الموحدين امتلأت من الخيول والبغال بعد هزيمتهم للقومس الأحدب سنة 563هـ/ 1173م⁴.

أما الإبل فإن البيئة الأندلسية لا تتناسب مع هذا الحيوان⁵، ولذلك اقتصر انتشاره قبل الوجود المرابطي في المنطقة الجنوبية الشرقية في سهول جرداء⁶، لكن يبدو أنها انتشرت بشكل أوسع بعد انتقال المرابطين إلى العدو الأندلسية، حيث أدخلوا هذا الحيوان معهم، واستخدموه في حروبهم مع النصارى⁷، لكن لا يعني ذلك انتشاره بكثرة في البلاد، إذ يمكن أن يكون مقتصرًا على قبائل المرابطين، وربما بعض البربر.

- الطيور المنزلية:

اهتم المجتمع الريفي بتربية أنواع عديدة من الطيور بسبب فوائدها المتعددة، فكان يستفاد من لحومها وبيضها في النظام الغذائي لهذا المجتمع، كما شكلت أزيالها أهمية كبيرة للنشاط الفلاحي، حيث اعتبرتها كتب الفلاحة أكثر أنواع الأزيال فائدة للتربة⁸، ولذلك كثيرا ما كانت إحدى البنود التي تتضمنها العقود الفلاحية بين المزارعين والملاك⁹.

ويأتي في مقدمة هذه الطيور الدجاج الذي لا يكاد يخلو منزل ريفي منه، فقد كان إنتاجه من البيض مهما له¹⁰، كما كان هذا الدجاج رمزا ودلالة لكرم المجتمع الريفي، فكثيرا ما كان يقدم في وجبات

¹ الزهري، المصدر السابق، ص 129.

² الإدريسي، المصدر السابق، ص 550.

³ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 292؛ ابن غالب، المصدر السابق، ص 292.

⁴ ابن عذاري، المصدر السابق - قسم الموحدين-، ص 125.

⁵ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص 43.

⁶ قرني، المرجع السابق، ص 127.

⁷ ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص 116.

⁸ لقد تمت الإشارة سابقا إلى كل ذلك، يمكن العودة إلى غذاء المجتمع الريفي في الفصل الثالث، وتهيئة التربة في هذا الفصل.

⁹ قرني، المرجع السابق، ص 129.

¹⁰ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص 260.

الضيافة¹. ولذلك اعتنى به هذا المجتمع، واتخذ له بيوت مخصوصة بالقرب من المنزل تتوفر فيها عدة شروط، منها الدفء وانعدام الندى، كما يجب أن تكون فيها أماكن تفرش بالتبن حتى لا ينكسر البيض أثناء وضعه من الدجاج².

ويبدو من خلال بعض العقود أن بعض الفلاحين قد امتنهن تربية الدجاج، كما انتشرت بعض الشركات الخاصة بهذا النوع من الحيوان، فكان بعضهم يقدم البيض لتحضنه دجاجة الآخر مقابل أن تكون الفرارخ بينهما مناصفة³، ويكون التفريخ بين في أوقات معينة، فكان يفسد في فصل الصيف أكثر من الشتاء، بينما يصلح أكثر في فصل الربيع، ويكون أحسنها بين شهري أبريل وماي، ويدوم إحدى وعشرين يوما⁴.

ويحتاج الدجاج إلى علف لكي يصبح سمينا أهمها ما يكون من القمح والشعير كالنخالة وعجين الشعير والحنطة الصغيرة⁵، أو كان يترك يسرح في جنبات المنزل لكنه كثيرا ما أدى إلى إحداث أضرار لمزارع الجيران⁶، كما تعرض لأخطار عديدة خاصة بعض الحيوانات التي تفضل أكله كحيوان النم⁷، والعقبان التي أضرت كثيرا بدجاج بعض المناطق الريفية⁸.

وفيما يخص البط والإوز فإن الريف الأندلسي يتوفر على شروط تربيتها مثل العشب والماء الذي يحتاجه الإوز⁹، ولا يحتاج إلى أنواع مخصصة من العلف حتى يسمن بل يمكن أن يسمن بالقطاني وأنواع من الحبوب كالعدس والأرز والبر، وربما يرعى من خشاش الأرض¹⁰.

ولا يعني هذا الكلام أن تربية البط والإوز انتشرت في المجتمع الريفي بشكل واسع، فالإشارات

¹ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 678.

² ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص 259.

³ ابن العطار، المصدر السابق، ص 79.

⁴ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص ص 264، 265.

⁵ نفسه، ص 267.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 48.

⁷ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص 269.

⁸ الحميري، المصدر السابق، ص 280.

⁹ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص 253.

¹⁰ نفسه، ص ص 253، 254.

التاريخية الشحيحة تدعو إلى القول أن إنتاجه كان موجها للاستهلاك العائلي، أو ربما انتشرت تربيتها في مناطق محدودة جدا مثل مروج الإوز في إقليم قرطبة¹، خاصة أن ابن العوام لم يهتم كثيرا في كتابه بهذه الأنواع مقارنة بحديثه عن تربية الدجاج، وهو ما يوحي بالانتشار الواسع لهذه الأخيرة بين الفلاحين مما أدى به إلى توجيه الفلاحين إلى الطريقة الأمثل لإنتاجه².

وعلى العكس من ذلك فإن تربية الحمام عرفت انتشارا واسعا في المجتمع الريفي نظرا لإدراكه بالأهمية الكبيرة التي تقدمها لنشاطه الزراعي، إذ أن أزال هذا النوع من الطيور صالحة لكل الثمار والأرضين ويسيره يغني عن كثير من أزال غيره³، كما يمكن لبعض النبات أن يحيا بعد استعمال اليسير من زبل الحمام⁴.

ولكي تنجح عملية تربية الحمام أوصى أبو الخير الإشبيلي أن تقام أبراجها وبيوتها قرب المزرعة، ولا تكون بالقرب من المناطق التي يمكن أن تشكل خطرا لها، مثل شواطئ الأنهار وبالقرب من الأشجار⁵ كما ينصح بأن تكون في أعلى التلة لتدخلها ربح الشمال الباردة، وأن تكون أبوابها وفتحاتها متجهة نحو المشرق حتى تدخلها أشعة الشمس فتنتفع بها وأن يعتني الفلاح بكنسها ونظافتها، وكل ذلك يؤدي إلى بقائه ونمائه⁶.

ويبدو أن الفلاحين كانوا على دراية بهذه الشؤون، فانتشرت أبراج الحمام بشكل واسع في المزارع حتى أن بعض هذه الأبراج كانت قديمة الإنشاء⁷، مما يدل على خبرة الفلاحين بالاعتناء بها، وربما يدل أيضا على استحداث أبراج جديدة والتوسع في تربية الحمام، كما أن النزاعات التي كانت تحدث بين افراد المجتمع الريفي، كان من أسبابها، الأضرار التي تحدثها تربية الحمام على المزارع والجنان⁸.

ومن أهم المناطق التي اعتنت بتربية الحمام، أرياف قرطبة، حيث توسع أهلها في إنشاء الأبراج المعدة

¹ قرني، المرجع السابق، ص 168، هامش 170.

² ابن العوام، المصدر السابق، ج 6، ص 253-255، ص 254-273.

³ أبو الخير الإشبيلي، المصدر السابق، ص 77.

⁴ ابن بصال، المصدر السابق، ص 51.

⁵ أبو الخير الإشبيلي، المصدر السابق، ص 77، ابن العوام، المصدر السابق، ج 6، ص 243.

⁶ أبو الخير الإشبيلي، المصدر السابق، ص 75-77؛ ابن العوام، المصدر السابق، ج 6، ص 243.

⁷ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 2، ص 821.

⁸ نفسه، ص 822، 823؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج 9، ص 44-45.

لتربية هذه الطيور¹، كما عرفت أرياف غرناطة انتشارا كبيرا لهذه الأبراج فقد تزاوجت فيها مع البيوت والمنازل²، ولا يعني أن ورود ذكر هذه المناطق في بعض المصادر أن تربية الحمام اقتصر علىها، إذ يبدو أن الحالة كانت عامة في أرياف البلاد كما يفهم من إحدى النوازل³.

– الحشرات النافعة:

يقصد بها الحشرات التي تفرز موادا مختلفة تكون ذات نفع للفرد والمجتمع، سواء في صحته مثل العسل الذي يفرزه النحل، أو تحقق له أرباحا تجارية مثل ما يفرزه النحل ودودة القز.

أما بالنسبة للنحل فإن مقومات تربيته متوفرة في أرياف الأندلس، فقد شكلت البساتين المنتشرة به مرتعا مناسباً لها خاصة بساتين الكمثرى والرمان واللوز والرياحين، والقثاء والبقلاء⁴، أما المقوم الثاني فهو معرفة الفلاحين بشؤون تربية النحل ووقت تفريخه وتغذيته، وكيفية الاهتمام بالفراخ ونقلها من خلية إلى أخرى ونقل الخلايا من موضع إلى آخر⁵.

ومن ثم لا يمكن الاستغراب من الانتشار الواسع لتربية النحل في المجتمع الريفي الأندلسي وشيوع شركات النحل، وقد بلغت ملكية إحدى الشركات من الأجباح مائة⁶، وتختلف هذه الشركات باختلاف العقد المتفق عليه، فربما يدفع أحدهم أجباح النحل لمن يخدمها مقابل جزء من العسل⁷، أو يكون رأس المال والعمل مناصفة⁸، وإن لم يطابق بعضها أحكام الشرع فإنها تمت وفق ما تقتضيه أحكام العرف في هذا المجتمع⁹.

وقد شد انتباه الجغرافيين الانتشار الواسع لتربية النحل وتنوع إنتاجها من العسل، فمن ذلك أن

¹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 821.

² ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 124؛ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح. كامل سلمان الجبوري، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2010، ج4، ص 117.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص 44.

⁴ ابن العوام، المصدر السابق، ج6، ص 281.

⁵ نفسه، ص 290.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 194.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 192.

⁸ نفسه، ص 194.

⁹ فتحة، المرجع السابق، ص 282.

أرياف إشبيلية أنتجت عسلا كثيرا خاصة عسل الشرف الذي لا يترمل ولا يتبدل¹، وينتشر في جبال أشبونة العسل الذي يتفوق على كل عسل الأندلس²، وبسبب كثرة النوار بأرياف باجة، يصلح فيها تربية النحل ويحسن فكثر إنتاجها منه³، كما أنتجت أرياف قصر أبي دانس الكثير من العسل⁴، ونفس الحال بالنسبة لأرياف جيان⁵.

وأكثر ما عرفت به جيان تربية دودة القز المنتجة للحرير حتى عرفت بجيان الحرير⁶، ونظرا لجودته وطيبه أصبح علامة مسجلة بهذه المنطقة، فيقال له الحرير الجياني⁷، وقد سجل الإدريسي تفوق أرياف جيان في تربية هذه الدودة، وذكر أن بها أكثر من ثلاثة آلاف قرية يربى بها دود الحرير⁸.

كما انتشرت تربيتها في عدة مناطق، فمن ذلك أرياف بسطة القريبة من جيان حيث تنتشر بها أشجار التوت بشكل كبير، وهو ما ساعد على تربيتها⁹، كما انتشرت في أرياف جبل شلير أو القرية منها مثل القرى المنتشرة في هذا الجبل، وأرياف وادي آش خاصة قرية فنيانة¹⁰، وأرياف غرناطة تنتج كميات كبيرة من الحرير تنتشر في البلاد وتعم الآفاق¹¹، كما تعرف أرياف المرية بتربية هذه الحشرة وتنتج منها غلات كثيرة من الحرير، خاصة حصن شنش¹².

ويبدو أن المناطق التي تعرف بتربية دود الحرير تتوفر بها شروط زراعة أشجار التوت، التي تربى فيها هذه الحشرات، فهي تحتاج إلى سقي كثير أو أرض رطبة، كما تجود في المرتفعات¹³. وتبدأ عملية تحضين

¹ القزويني، المصدر السابق، ص 497؛ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 208.

² ابن غالب، المصدر السابق، ص 291؛ القزويني، المصدر السابق، ص 555.

³ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص 403؛ ابن غالب، المصدر السابق، ص 290.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 544.

⁵ نفسه، 568.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص 330، 331؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 2، ص 51.

⁷ ابن الحاج، المصدر السابق، و 36.

⁸ الإدريسي، المصدر السابق، ص 568.

⁹ الحميري، المصدر السابق، ص 113.

¹⁰ الزهري، المصدر السابق، ص 94؛ الحميري، المصدر السابق، ص 441، ص 604.

¹¹ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 99؛ الحميري، المصدر السابق، ص 41.

¹² ابن سعيد، المصدر السابق، ج 2، ص 225.

¹³ أبو الخير الإشبيلي، المصدر السابق، ص 49، نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 288.

بيض هذا الدود على شجر التوت من شهر فيفري،¹ ويفقص ويتولد دود الحرير منه في شهر مارس¹. ونظرا لما في تربية هذا الدود من العوائد الربحية على أفراد المجتمع الريفي²، انتشرت شركات خاصة بذلك والتي استندت في الغالب إلى عرف الناس وعاداتهم، فكان أحدهم يقدم جهده، بينما يقدم الآخر الدود والشجر مقابل جزء من الغلة³، وهي شركات لم تراخ الشرع في عقدها لأنها في الحقيقة إجارة قامت على مقابل مجهول، كما أفتى بها أصحابها.

وفي الأخير يمكن القول أن المجتمع الريفي الأندلسي أنتج العديد من المحاصيل الزراعية والحيوانية وساعدته في ذلك مجموعة من العوامل خاصة الطبيعية منها، وأظهر خلال هذه العملية معرفة بشؤون الإنتاج الفلاحي، فكيف كان حالهم مع النشاط الصناعي؟

2- النشاط الصناعي:

تشكل الصناعة في مجتمع الغرب الإسلامي الوسيط عموما، نشاطا ثانويا مقارنة بالفلاحة التي شكلت عصب الحياة⁴، ويزداد الأمر وضوحا في المجتمع الريفي، فابن خلدون يجعل الصناعة من اختصاص المدن، ويربط تطور هذه الصنائع وازدهارها بتطور وكمال العمران الحضري وكثرته⁵. ولا يعني ذلك غياب النشاط الصناعي في المجتمع الريفي، إذ أن ابن خلدون نفسه يجعل للصناعة طور بدائي تكتفي فيه بتحقيق الضروري، وهذا الذي تعرف به المجتمعات الريفية⁶، خاصة مع ما توفره البيئة الريفية من خامات نباتية وحيوانية والتي ظلت خلال الفترة الوسيطة المادة الخام، التي تقوم عليها أهم الصنائع والحرف في الغرب الإسلامي عموما⁷. وتأسيسا على ما ورد ما هي أهم الصناعات التي عرفها المجتمع الريفي الأندلسي، خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م؟

¹ عريب بن سعيد، المصدر السابق، ص 33، ص 41.

² ابن الحاج، المصدر السابق، و 36.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج 6، ص 254، 255؛ ج 8، ص 192.

⁴ بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص 85.

⁵ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 415.

⁶ نفسه.

⁷ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 207؛ بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص 89.

2-1- الصناعة الغذائية:

يقصد بها الصناعات التي يحتاجها المجتمع في معاشه، وتقوم على تحويل الخامات الزراعية إلى مواد استهلاكية معاشية، مثل الدقيق والزيت والسكر والأشربة المختلفة، وتحتاج هذه الصناعات في الغالب إلى تقنيات بسيطة ويدوية، كما أنها تدار بما توفره البيئة من مياه ورياح ودواب¹، ولهذا يمكن أن تكون من أهم الصناعات التي عرفها المجتمع الريفي الأندلسي.

أ- الأرحاء:

تستعمل الأرحاء والمطاحن لطحن الغلال والأقوات، ويرتبط انتشارها بانتشار زراعة القمح والشعير وقد عبرت العامة عن ذلك بالقول: "أبما كان القمح لعين الرجا يرجع"²، وبالتالي فإن أرياف الأندلس قد عرفت هذه الصناعة بل يمكن اعتبارها من أهم الأنشطة الصناعية، لأنها نشاط ملحق بالعمل الفلاحي ومكمل له³، كما أنها ارتبطت بالغذاء الرئيسي لهذا المجتمع.

وقد دلت نوازل العصر على انتشار الأرحاء في القرى وبين المزارع، فقد ذكرت نازلة أن قرية كان يعمها التخاصم والتشاجر بين أصحاب الرحي وأصحاب الجنات بسبب الأحقية في استغلال الماء⁴، وأقام رجل رحي في إحدى أرياف وادي آش مستغلا فدانته الذي يقع على طرف الوادي⁵، وفي قرية تسمى شبيرة اشترك رجل مع غيره في إقامة رحي على أرضه، وجعل لها سدا في أرض جاره⁶، وبعضهم أنشأ رحي وجلب إليها الماء عبر ساقية تمر عبر أراضي غيره⁷.

ويبدو من خلال النصوص السابقة أن هذا النشاط لم يكن حكرا على فئة معينة من المجتمع⁸، بل

¹ بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص 89.

² الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص69.

³ بنحمادة، الماء والإنسان في الأندلس، ص 85.

⁴ القاضي عياض وولده، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص ص 250، 251.

⁵ ابن الحاج، المصدر السابق، و 119.

⁶ ابن رشد الجد، المصدر السابق، ج1، ص ص 171، 172. انظر الملحق رقم 10 بعنوان: "إقامة رحي في إحدى القرى الأندلسية"

⁷ نفسه، ج2، ص 1109.

⁸ يعتبر هذا الأمر من مظاهر الاختلاف بين ريف الأندلس، وأرياف أوربا الإقطاعية التي احتكر فيها السادة، استغلال الأنهار والأودية، فلم يكن لهم يسمح لهم بالصيد، أو إقامة الطواحين على ضفافها، وكان للسيد الحق في حظر هذه الأعمال التي يمتلك صاحبها رخصة، ولعل هذا المظهر يبرز تحسن حالة المجتمع الريفي في الأندلس، مقارنة بنظيره في أوربا الإقطاعية. انظر: Charlotte Grimaldi, **le réglementation de l'eau sous l'ancien régime**, << <https://clio->

كان بإمكان الفلاحين والمزارعين إقامة هذه المنشآت على أراضيهم، فيتحملون مصاريفها بمفردهم أو بمشاركة غيرهم إذا كانت تفوق قدراتهم¹، خاصة إذا علم أن إنشاء هذه الأرحاء كان مكلفاً².

ولا شك أن هذا الأمر يدل على مزاجية المزارعين والفلاحين بين النشاط الزراعي والصناعي، فهم يمتلكون البساتين ويستغلون أرحاءهم لطحن الغلات وربما من يطلب ذلك، كما يمكن أن توجد فئة مستقلة تشتغل في طحن الأقوات فقط دون العمل الزراعي، وهو ما يتضح جلياً في عقود الكراء التي كانت تتم بين بعض المالكين وبين المكثرين³.

هذه العقود التي اختلفت آجالها فامتدت بعضها لعام أو العامين⁴، بينما تجاوزت عقود أخرى هذا الأجل فبلغت السبع سنوات⁵، وهو ما يوحي بأهمية هذا النشاط في المجتمع الريفي، وأهمية الأرباح التي كان يجنيها المكترون رغم علمهم بأن نشاط هذه الأرحاء يقل في فصل الشتاء ويكثر الإقبال عليها في فصل الصيف، إذا كان الموسم الزراعي ناجحاً⁶، ورغم ما تضمنته عقود الكراء من شروط قاسية على المكثرين كأن يطحن صاحب الرحى كل شهر كمية من القمح دون أجر، أو يطلب منهم ترميم بيت الرحى، أو إقامة منشأة تابعة لهذه البيت⁷.

وتحتاج الأرحاء لإنشائها أو إصلاحها عدة مواد، مثل الحجارة الغليظة التي تستخدم للطحن ودواليب الرحى التي تكون من خشب البلوط الجيد أو أعمدة من حديد، بينما تكون الحيطان من الجص والغطاء من القرميد، كما تحتاج بيت الرحى إلى منشآت ملحقة بها تتمثل خاصة في اسطبلات الدواب⁸.

texte.clionautes.org/la-reglementation-de-leau-sous-lancien-regime.html >>, 01 oct 2015, pp 1-3; Guichard, *Paysans d' al- Andalus XI^e - XIV^e*, p 139 ;

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص 171، 172.

² أنور محمود زناقي، أمثال العوام مصدراً للنشاط الزراعي في الأندلس الزجالي وابن عاصم أنموذجاً، "مجلة الدراسات التاريخية والإجتماعية"، العدد 22، نواشيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2017، ص 13. يقول المثل العامي: "حظ في فقي أخير من حظ في رحي" انظر: الزجالي، المصدر السابق، ج 2، ص 189.

³ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 1، ص 439، 440؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 1203، 1204.

⁴ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 1، ص 440؛ البرزلي، المصدر السابق، ج 3، ص 641.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 1204.

⁶ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 1، ص 440، البرزلي، المصدر السابق، ج 3، ص 641.

⁷ انظر الملحق رقم 11 بعنوان: "عقد استئجار بيت رحي"

⁸ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 1203، 1204؛ الشعي، المصدر السابق، ص 73.

أما إدارة وتحريك هذه المطاحن فهي تحتاج إلى قوة الماء، ولذلك كانت تقام على ضفاف الأنهار والأودية¹، ومن بعد عليه الماء يمكنه أن ينقل الماء إليها عبر ساقية، والتي ربما تمتد لمسافات وتمر عبر أراضي الغير²، كما أن هذا النوع من السواقي يحتاج إلى توسيع وتعميق أكثر من تلك السواقي المعدة للسقي³، ومن لم تسعفه إمكانياته وقدراته عن إيصال الماء لرحاه، يمكنه أن يستعمل جهد الدواب كطاقة بديلة لتحريكها⁴.

ويبدو أن الأرحاء التي تدار بقوة الماء كانت الأكثر انتشارا في أرياف الأندلس، فقد أفرز هذا النوع من النشاط خصومات بين أصحاب الأرحاء وأصحاب الجنات، بسبب الحاجة إلى الماء خاصة أيام تناقص التساقط والتي غالبا ما تكون في فصل الصيف، وهو الموسم الذي يعرف نشاطا كبيرا لهذه الأرحاء ولذلك تضررت بسبب انتصار الفقهاء لأصحاب الجنات، وقد برر ابن الحاج بالقول: "أن الثمرات إن لم تسق في وقت سقيها هلكت، والأرحى لا تهلك بقطع الماء عنها، وإنما تنقطع المنفعة في ذلك الوقت"⁵.

بالإضافة إلى ذلك فإن نشاط الأرحاء يتأثر في فصل الشتاء، إذ يعتبر موسم ركود له بسبب قلة الواردين إليها لطحن غلاتهم⁶، كما يتأثر بالعوامل السياسية التي عرفت البلاد خلال الفترة مجال الدراسة فقد ذكرت نازلة أن حالة الخوف التي تعرفها البلاد، أدت إلى نقص الغلات للطحن، وهو ما تسبب في خسائر لأصحابها، خاصة المكترين منهم، فاعتبرها ابن رشد جائحة تحط عنهم الكراء⁷.

أما عملية الطحن فقد كان يشرف عليها أصحاب الأرحاء، فيتولون عمل كل شيء بأنفسهم أو يؤجرون أجيرا يقوم بذلك، أو ربما يتولى صاحب الرحى قبض الطعام من الناس واستلام النقد منهم، بينما يتولى الأجير الطحن فقط⁸، وربما كان يساعدهم الصبيان ويتعلمون منهم هذه الحرفة، وقد أطلقت عليهم

¹ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 119.

² ابن رشد الجد، المصدر السابق، ج1، ص 171، 172؛ ج2، ص 1109.

³ بنحمادة، الماء والإنسان في الأندلس، ص 86.

⁴ الشعبي، المصدر السابق، ص 312.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 389.

⁶ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص 440.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1282، 1283.

⁸ البرزلي، المصدر السابق، ج3، ص 564.

كتب الحسبة المتعلمون¹.

هؤلاء المتعلمون الذين يبدو أنهم كانوا يتعلمون إلى جانب هذه الصنعة ضروريا من الغش، أشارت إليها كتب الحسبة²، فقد كان هم هؤلاء الطحانون أن يأخذوا إضافة إلى أجرتهم، شيئا من الدقيق المطحون عندهم في غفلة من صاحبه³، أو يخلطوا الرديء مع الطيب ليأخذوا من الطيب⁴، وفي جهات مالقة كانوا يضيفون التراب الأبيض إلى الدقيق ويحتفظوا بما فضل من الوزن الزائد لهم، ويبدو أن هذا دأبهم رغم محاولة المحتسبين منعهم⁵.

ب- صناعة الخبز:

يعتبر الخبز غذاء قارا في مائدة المجتمع الأندلسي عموما، وقد أشارت كتب الحسبة إلى انتشار صناعته في المدن، والشروط والتدابير الواجب اتباعها من طرف الخبازين⁶، بينما لا يعلم إن عرف المجتمع الريفي هذه الصناعة بسبب غياب النصوص الدالة على ذلك.

لكن ما أورده بعض الجغرافيين يدل على وجود الخبز كسلعة للمتاجرة بها في بعض المناطق الريفية فالزهري يذكر عن الأندلس: " أنه لا يمشي الإنسان فيها فرسخين دون ماء، ولا يمشي ثلاثة فراسخ إلا وجد فيها الخبز والزيت والخوانيت"⁷، ويؤكد الإدريسي هذه الحقيقة فيذكر عن قرية بني عبدوس التابعة لمدينة بجانة، بقوله: " ويباع للمسافرين بها الخبز والسمك والفواكه كل شيء منها في إبانة"⁸.

ولا يعني ذلك انتشار الأفران، فقد تصنع هذه الأخباز في البيوت والمنازل، وتوجه إلى الخوانيت لتسويقها، خاصة في القرى التي تقع على الطرق.

¹ السقطي، المصدر السابق، ص 24.

² نفسه، ص 24.

³ نفسه، ص ص 24، 25.

⁴ السقطي، المصدر السابق، ص 21.

⁵ نفسه، ص 22.

⁶ حاج كولة، المرجع السابق، ص 141.

⁷ الزهري، المصدر السابق، ص 80.

⁸ الإدريسي، المصدر السابق، ص 566.

ج- صناعة الزيت:

يعتبر الزيت من المواد الاستهلاكية المعاشية الواسعة في الأندلس¹، كما أن مادته الخام منتشرة في كثير من مناطقها- مثلما تم ذكره-، ولذلك انتشرت صناعته في بشكل واسع في البلاد، وحقت فيه نجاحا واضحا، تمثل خاصة في تلبية حاجة السوق المحلية وزيادة الطلب عليه من خارج البلاد².

ويبدو أن نصيب الريف الأندلسي من هذا الإنتاج كان مهما، فقد انتشرت أهم معاصر البلاد في المناطق الريفية التي تشتهر بزراعة الزيتون مثل أرياف إشبيلية خاصة إقليم الشرف الذي حاز الريادة في إنتاج الزيت كما ونوعا، فيذكر الإدريسي أن جل تجارة أهل إشبيلية من الزيت الذي يجتمع عندهم من الشرف، ويتجهز به إلى مشارق الأرض ومغاربها برا وبحرا³.

ويحدد الزهري المناطق التي بلغها زيت الشرف فيذكر أنه: "يجلب إلى بلاد الأندلس وبلاد الروم والمغرب وإفريقية ومصر والإسكندرية، وربما يبلغ منها إلى اليمن قليل"⁴، ويعود السبب في هذه الشهرة إلى نوعية هذا الزيت الذي يوصف بأنه: "أطيب زيت المعمور كلها وأودكها"⁵ كما أنه يبقى على عذوبته ورقته وطيبه مهما بلغ به طول الاختزان⁶.

وإذا كان لإقليم الشرف السبق والريادة، فإن مناطق أخرى من أرياف الأندلس قد اشتهرت بكثرة إنتاجها، مثل قرية شوذر من أعمال جيان التي تنتشر بها معاصر الزيتون، وبسبب كثرة زيتونها كان إنتاجها من الزيت كبيرا حتى سميت بغدير الزيت⁷.

ولا شك أن انتشار هذه الصناعة، ارتبط أساسا بإنتاج المنطقة من محصول الزيتون، وهو ما يدعو إلى القول بانتشار المعاصر في عدة مناطق من أرياف البلاد مثل حصن بيانة من أعمال جيان، وحصن بلشانة من أعمال إستجة، وفي أرياف شريش⁸، وأرياف بلنسية¹، وفي كثير من حصون لبله².

¹ بوتشيش، إضاءات في تاريخ الغرب الإسلامي، ص 94.

² حاج كولة، المرجع السابق، ص 142.

³ الإدريسي، المصدر السابق، ص 541.

⁴ الزهري، المصدر السابق، ص 89.

⁵ نفسه.

⁶ ابن غالب، المصدر السابق، ص 292.

⁷ الحميري، المصدر السابق، ص 351.

⁸ الإدريسي، المصدر السابق، ص ص 571 - 573.

أما عن إنتاج الزيت فإن صاحب تقويم قرطبة يشير إلى أن صناعة الزيت الجديد يبدأ في شهر سبتمبر، وهو الوقت الذي فيه يسود بعض الزيتون³، وهو ما يتناسب مع ما ذكره أبو الخير الإشبيلي الذي نصح أن يلتقط قبل شدة البرد وأن يلتقط ما يعمل منه لكي ينتج زيتا جيدا، وحذر من وضعه فوق بعضه لكي لا يفسد بل يجب أن ييسط ويوضع عليه ملح ويطحن في اليوم الموالي⁴.

ويمكن إنتاج الزيت بإحدى الطرق الثلاث فيستخلص بواسطة العصر أو الطحن أو الغلي حسب ما ذكر الطغري⁵، بينما يشير أبو الخير الإشبيلي أن الزيت يستخرج بواسطة الطحن ثم العصر، فيطحن الزيتون طحنا خفيفا دون أن يكسر النوى ثم يجمع فيعصر ويخرج زيتا نقيا، ثم يطحن ثانية طحنا أشد ويعصر فيخرج زيتا أغلظ من الأول، بينما في المرة الثالثة يطحن ويضاف إليه الماء الحار وينقل في إناء ويترك ثلاثين يوما، فيصير زيتا جيدا⁶.

وهكذا يتضح أن الزيت يتفاضل في قيمته وجودته ونقاوته، فما يخرج في العصرة الأولى ليس كما يخرج في الثالثة، بالإضافة إلى ذلك قد يعصر في المعصرة أنواع أخرى من المحاصيل مثل زريعة الكتان، فتعلق بالزيت رائحته، وهو ما يؤثر على جودة المنتج، ولذلك أمر السقطي بمنع أصحاب المعاصر من هذا الفعل⁷ كما يؤثر الدود المتولد في الزيتون على كمية الإنتاج فيقل الزيت بهذا السبب أو ربما نتيجة دناءة أصل محصول الزيتون⁸.

د- صناعة السكر:

تم الحديث سابقا إلى أن محصول قصب السكر، دخل إلى البلاد بفضل المسلمين وقد حققوا فيه

¹ ابن غالب، المصدر السابق، ص 285.

² نفسه، ص 292.

³ عريب بن سعد، المصدر السابق، ص 91.

⁴ أبو الخير الإشبيلي، المصدر السابق، ص 58، 59.

⁵ نقلا عن: أحمد موسى، المرجع السابق، ص 239؛ بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص 93. بينما تذكر مصادر

أخرى ثلاثة أنواع من الزيوت حسب طريقة استخلاصها: زيت الماء، وزيت المعصرة، والزيت المطبوخ. انظر: ابن العطار، المصدر

السابق، ص 47؛ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 105.

⁶ أبو الخير الإشبيلي، المصدر السابق، ص 59.

⁷ السقطي، المصدر السابق، ص 68.

⁸ البرزلي، المصدر السابق، ج3، ص 395.

نجاحا كبيرا، فانتشر في المناطق التي تتوفر فيها زراعته، وقد كان لقرى وأرياف الأندلس حظ وافر من هذا النجاح في الفترة مجال الدراسة أو بعدها، لكن هل تم تحويل هذا المحصول إلى سكر في مناطق زراعته؟ في الحقيقة لا توجد نصوص تؤكد أو تنفي ذلك، فالمصادر الجغرافية تكتفي بذكر مناطق زراعته، على عكس محصولي القمح والزيتون، بينما يشير السقطي إلى شروط بيعه¹، لكن الأبحاث الأثرية والحفريات التي مست بعض المناطق في إسبانيا منها قرية شلوبانية المشهورة بإنتاج قصب السكر، كشفت عن وجود مصفاة لاستخلاص السكر تعود لفترات متأخرة عن فترة الدراسة².

وهي نتيجة مهمة تعزز ما ذكره العمري عن تخصص هذه القرية بصناعة السكر، حيث أشار إلى أن السكر يحمل منها إلى مختلف أنحاء البلاد ولم يذكر المحصول الزراعي قصب السكر³. وعليه يمكن القول أن صناعة السكر ارتبطت أحيانا بمناطق زراعته، وهو ما يدعو إلى القول بأهمية إسهام المناطق الريفية في إنتاج هذه المادة.

خاصة أن تحويل القصب إلى سكر قابل للاستهلاك لا يحتاج إلى تقنية كبيرة، إذ يبدأ إنتاجه في شهر يناير حيث يقطع قصب السكر إلى قطع صغيرة فيطحن ثم يعصر، ويؤخذ العصير فيصفى ويغلى، ثم يعاد غليه ويوضع في قوالب في الظل حتى ينعقد ليخرج منها بعد ذلك ويجفف⁴.

هـ - صناعات غذائية أخرى:

أنتج المجتمع الريفي في الأندلس أنواعا أخرى من الأغذية والأشربة، ولا يعلم في الحقيقة إن كان قد اتخذ لها أماكن مخصوصة أم أنتجتها العائلات في البيوت، وذلك لصمت النصوص عن الإفصاح عن ذلك. ومن هذه الصناعات صناعة الألبان خاصة الأجبان منها، فقد توفرت المادة الأولية لصناعتها، إذ تتخذ من ألبان الغنم والماعز والأبقار ولم يكن استخراجها بالعملية الصعبة، فقد كان باستطاعة الراعي أن يفعل ذلك أثناء حرزه للأغنام، إذ تشير نازلة أن عادة بعض المناطق الريفية، التي تعتمد على راع واحد يرعى أغنامها وينتجع الأماكن البعيدة، أن يقوم هذا الراعي بخلط لبن الأغنام، ثم يقوم بمعالجتها

¹ السقطي، المصدر السابق، ص 65.

² نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 293.

³ العمري، المصدر السابق، ص 124.

⁴ ابن العوام، المصدر السابق، ج2، ص 438.

ويستخرج منها جبنا يتقاسمه أرباب هذه الأغنام¹، وقد أجاز الفقهاء هذا الفعل للضرورة، إذ لم يكن بمقدور الراعي أن يعالج لبن كل واحد على حدى، كما أجازوا الشركة في هذ الصناعة، لكن بشرط أن يكيل كل طرف لبنه قبل خلطه ثم يتم اقتسام الجبن الناتج تبعا لذلك².

ويختلف الجبن حسب اللبن المستخرج منه، فمنه الجبن البقري والغنمي، ويختلف كذلك حسب طبيعته، إذ فيه الرطب واليابس³، وقد أنتجت الكثير من المناطق الريفية هذه الأنواع، مثل أرياف قرطبة وإشبيلية وشريش⁴، لكن يبدو أن إنتاج النصارى من الجبن في هذه المناطق ظل الأحسن قبل القرن 05هـ/ 11م⁵، وبقي الأمر على هذا الحال في الفترة مجال الدراسة، إذ يلاحظ انتشار منتوجهم في البلاد، ولذلك أفتى ابن عبد الرؤوف، بجواز تناول أجبانهم⁶.

كما اشتهر النصارى في المجتمع الريفي بصناعة الخمر، إذ لم تمنعهم عقيدتهم من ممارسة هذا النشاط، ولم يقل أحد من فقهاء البلاد بذلك بل إن ابن عبد الرؤوف أمر بمعاينة من يكسر خمر النصراني⁷ حتى أن من باعهم من المسلمين كرما ليعصروه خمرًا لم تتجاوز معاملته معهم حد الكراهة⁸.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن تحريم شرب الخمر معلوم من الدين بالضرورة، وتبعا لهذا فإن صنعها والمتاجرة بها محرمة⁹، لكن ذلك لم يمنع من انتشار ظاهرة شرب الخمر في الفترة مجال الدراسة- وقد تمت الإشارة إليه سابقا-، أما عن صناعته عند الفلاحين، فإنها كانت تتم سرا في البيوت حسب ما خلص إليه بعض الباحثين¹⁰ خاصة أن المجتمع الريفي اهتم بشكل كبير بأشجار الكرم، كما أن طريقة تحضير خل

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص 462.

² نفسه، ج5، ص 239.

³ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 101.

⁴ مؤلف مجهول، كتاب الطبخ، ص 200.

⁵ خالد بن عبد الكريم بن حمود البكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة 138- 316هـ / 755- 928م، ط1، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1993، ص ص 202، 203.

⁶ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 101.

⁷ نفسه، ص 95.

⁸ ابن رشد، المصدر السابق، ج3، ص 1282.

⁹ نفسه، ص 711.

¹⁰ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 242؛ فتيحة تريكي وعبد القادر بوباوية، قراء تاريخية في الصناعات النباتية ببلاد الأندلس في العصر الوسيط، "عصور جديدة"، العدد 03، 2019، ص 98.

العنب ورب العنب لا تختلف عن طريقة صنع الخمر¹.

وعليه فإن المجتمع الريفي يكون قد عرف صناعة الخمر، التي ارتبطت أصلاً بإنتاج محصول العنب ولكن تفاضل بعضها على بعض، فخمر أرياف مالقة مشهورة في سائر البلاد ومفضلة على غيرها² وعرفت خمور بعض أرياف غرناطة الشهرة والصيت أيضاً³، وهي نفس الحال لخمر أرياف لقنت التي وصفها ابن سعيد بأنها "مشهورة بالقوة"⁴.

ومن الصناعات التي ارتبطت بالمحصول الزراعي، وربما عرفها المجتمع الريفي لسهولة إنتاجها صناعة تخفيف الفاكهة، فقد كانت هذه العملية مهمة لهذا المجتمع، إذ ترتبط بحفظ الطعام لأوقات الحاجة وفي الأيام الصعبة، وقد شمل حفظ وتخفيف الفاكهة أنواعاً عديدة مثل التفاح والكمثرى والسفرجل والتين والعنب وأنواع أخرى من الفواكه⁵.

لكن يلاحظ أن بعض المناطق الريفية تفوقت في بعض المنتجات، ويكتفي التمثيل بمنتوج الزبيب، الذي تفوقت فيه قرية شاط على غيرها من المناطق وفاق غيره في الجودة، حتى صار يتجهز به إلى كل البلاد الأندلسية⁶، كما عرفت أرياف ألش بجودة ما تنتجه من زبيب⁷، ومن أرياف يابسة كان يحمل الزبيب إلى ميورقة⁸.

وفي الأخير يمكن القول، أن ممارسة المجتمع الريفي للصناعة الغذائية ارتبطت أساساً بتلبية حاجياته الغذائية مثل طحن الغلال وصناعة الزيت، ثم بوفرة المحصول الزراعي في مناطقه مثل صناعة السكر وتخفيف بعض الفواكه، فأوجد نوعاً من التخصص في هذه الصناعات.

¹ تريكي وبوباية، المرجع السابق، ص 98. وردت إشارة في فتاوى ابن رشد، إلى جواز تحليل الخمر لإزالة مفعول الإسكار، من أجل إباحة شربه، وربما هذا الفعل كان منتشرًا بين الفلاحين وغيرهم. انظر: ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 715.

² ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص 424.

³ نفسه، ج 2، ص 154.

⁴ نفسه، ص 274.

⁵ أورد ابن العوام الطرق الصحيحة لحفظ وتخفيف هذه الفواكه، وخصص لها باباً بعنوانه باختزان الثمار. انظر: ابن العوام، المصدر السابق، ج 2، ص 483 وما بعدها.

⁶ الإدريسي، المصدر السابق، ص 564.

⁷ الحموي، المصدر السابق، ج 1، ص 245.

⁸ الزهري، المصدر السابق، ص 128، 129.

2-2- الصناعة النسيجية:

بلغت الصناعة النسيجية في الأندلس شأوا كبيرا، وقد أبدت المصادر إعجابها بمختلف السلع التي كانت تنتجها مختلف الورشات والمصانع، فعدها ابن سعيد من أهم الصناعات التي تفضل البلاد بها عن غيرها من المناطق¹، وأكدت بعض الدراسات الأثرية نبوغ الأندلسيين في الصناعة النسيجية².

وقد انتشرت هذه الصناعة في كثير من المدن الأندلسية، وتخصصت كل مدينة في نوع معين من المنسوجات³، ويرجع الفضل بالدجة الأولى إلى ما توفر لها من خامات زراعية هذه الخامات التي تم التعرف سابقا على وفرتها وتنوعها في أرياف البلاد. فهل اكتفى المجتمع الريفي بدور الممون لمختلف الورشات والمصانع؟ أم أنه أنتج هو الآخر أنواعا من المنسوجات؟

ينقل ابن بسام نصا غاية في الأهمية عما شاهده أحدهم في منزل ريفي من وسائل وأدوات وفرش وغيرها فكان منها حصر بلدية وبسط بدوية⁴، وهي إشارة مهمة تدل على الطابع الريفي الذي يميز هذه المنسوجات والتي تنفرد ربما بأشكالها وألوانها عما تعرف به منسوجات المدن، بالإضافة إلى ذلك يشير بروفنسال إلى تفرد سكان المناطق الريفية بارتداء نوع معين من الألبسة القطنية، تعرف بالدراريع، وهو ما يوحي أن انتاجها تركز في هذه المناطق بالذات.

ويبدو أن انتاج هذه الأنواع من المنسوجات كانت تقوم به النسوة في المنازل بواسطة المناسج اليدوية وربما يساعدن الرجال⁵، وقد تتم عملية الإنتاج كذلك في ورشات النسيج المعروفة بالطراز، والمنتشرة في بعض المناطق الريفية⁶.

¹ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 201.

² امانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا- من الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر النرابطين- وفنون المستعربين، تر. السيد عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع، مر. جمال محمد محرز، د. ط، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، د. ت، ص ص 415-419؛ ليوبولدو توريس بلباس، الفن المرابطي والموحدي، تر. سيد غازي، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1971، ص ص 63، 64. يذكر امانويل جوميث مورينو، وجود عدة قطع من أقمشة وألبسة مختلفة، في متاحف غربية في إسبانيا وفرنسا وبريطانيا وغيرها، تعود للفترة مجال الدراسة، وتظهر فيها حصافة الأندلسيين في هذه الصناعة.

³ عن أهم هذه المدن، وأسباب تطور النسيج بها انظر: البكر، المرجع السابق، ص ص 183-188؛ السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص ص 229-239؛ أحمد موسى، المرجع السابق، ص ص 218-222.

⁴ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 677.

⁵ الحشني، المصدر السابق، ص 69.

⁶ العذري، المصدر السابق، ص 9؛ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 178؛ الحميري، المصدر السابق، ص 441.

وقد أنتجت دور الطراز أنواعا من المنسوجات شهدت لها كتب الجغرافية، مثل الأوطية والبسط التي تصنع في أرياف تدمير¹، وقرية فنيانة بالقرب من مدينة آش التي كان بها طرز للدبياج²، واشتهر حصن فرقصة من أعمال دانية بصناعة الأكسية حتى نسبت إليه³.

واشتهرت بعض المناطق الريفية بجودة ما تنتجه من منسوجات، فحصن بكيران بين شاطبة ودانية، " تصنع به ثياب بيض تباع بالأثمان الغالية، ويعمر منها سنين كثيرة، وهي من أبدع الثياب عتاقة ورقة، حتى لا يفرق بينها وبينه الكاغد في الرقة والبياض "⁴، بينما تشتهر قرية تنالة من قرى مرسية، "بصناعة البسط التي يغالى في ثمنها بالمشرق "⁵

وهكذا يتضح أن بعض المناطق الريفية كان لها نصيب من المنسوجات الأندلسية بل إن بعضها قد تفوقت على منسوجات المدن.

تبقى الإشارة في الأخير أن المادة الخام من الحرير والقطن والصوف والكتان يتم تحويلها إلى خيوط عن طريق الغزل⁶، وتتم هذه الصناعة بطريقة يدوية بسيطة فكانت مصدر رزق لكثير من العائلات الفقيرة والضعيفة⁷ وهو ما يرجح إمكانية انتشارها في المناطق الريفية.

2-3- صناعة الأدوات والمستلزمات:

تقوم هذه الصناعة على مختلف الخامات التي توفرها البيئة سواء كانت نباتية أو حيوانية أو معدنية فتتنوع بذلك المنتجات من أدوات ومستلزمات والتي ارتبطت أساسا باستعمالات الحياة اليومية لسكان

¹ العذري، المصدر السابق، ص 9.

² الحميري، المصدر السابق، ص 441.

³ الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 255.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 557.

⁵ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 201.

⁶ البرزلي، المصدر السابق، ج3، ص 545، 546. قبل الوصول إلى مرحلة الغزل، تحتاج المواد الخام إلى تحضير وتجهيز، تختلف حسب طبيعة المادة المستعملة، وتستغرق العملية زمنا معينا وجهدا متواصلا حتى يكون المنتج من النوعية الجيدة. عن هذه المراحل والخطوات يمكن الرجوع إلى: محمود هدية، إقتصاد النسيج في بلاد الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، د. ط، لندن، مؤسسة هنداي سي آي سي، 2017، ص 123 وما بعدها.

⁷ المقرئ، نفح الطيب، ج3، ص 339. كان الغزل في الأندلس عموما من اختصاص النساء، بينما كان الرجال يقومون بالحياكة. انظر: الزهري، المصدر السابق، ص 102؛ البرزلي، المصدر السابق، ج3، ص 545، 546؛ المقرئ، نفح الطيب، ج3، ص 339؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 422؛ هدية، المرجع السابق، ص 100.

المناطق الريفية.

فقد توفرت بعض المناطق على عدة أنواع من المواد الخام منها الأخشاب، فقامت صناعات خشبية بسيطة، كصناعة أدوات الطعام منها: القصاع والمخابيء والأطباق والمهارس والملاعق وغيرها¹، وقد اشتهر حصن قيشاطة بين بسطة وجيان بهذه الصناعة خاصة المخابيء والقصاع والأطباق، التي تعدت شهرتها حدود البلاد، فعم بلاد الأندلس وأكثر بلاد المغرب، كما عبر عنه الإدريسي²، وهي إشارة مهمة تدل على أهمية إنتاج هذه المنطقة، ويعود هذا التفوق بالدرجة الأولى إلى وفرة الخشب الجيد الذي ينتشر في جباله³.

كما يمكن أن تنتشر عند المجتمع الريفي صناعة بعض الأدوات المتعلقة بالنشاط الزراعي، وذلك لارتباطها بنشاطه الرئيسي من جهة، ومن جهة ثانية وفرة الأخشاب بمناطقه، لذلك يحتمل أن يكون قد أنتج أنواعا من الأدوات والمستلزمات المتعلقة بذلك، مثل المجرد المعد لتنعيم التربة بعد الحرث، والمرجقل المخصص لتسوية الأرض، وبعض أدوات السقي كالدولاب والناعورة والقواديس، كما يمكن أن يكون قد أنتج أجباح النحل وخلاياه⁴.

بينما يلاحظ غياب بعض الصناعات الثقيلة عند المجتمع الريفي، كإنشاء المراكب وبناء المنازل والديار، رغم وفرة الأخشاب الجيدة المخصصة لهذا النوع من الصناعات، لذلك اشتغل الأهالي على قطع الأشجار ونقلها لمختلف الورشات المنتشرة في المدن، من ذلك حصن قلصة الذي تنتشر بجباله كميات كبيرة من أشجار الصنوبر والذي تستفيد منه الورشات والمصانع في دانية وبلنسية⁵.

واستغل ساكنة الريف ما توفره الطبيعة من تربة وطين لإقامة صناعة فخارية، تنتج أنواعا من السلع والأدوات والمستلزمات، فقد استغل بعضهم وفرة هذه المادة الأولية، واستحدث فرنا في جنته لإنتاج القرميد الذي يستعمل في البناء⁶، وبعضهم أنتج بعض الأواني المنزلية مثل القدور والجرار والقصاع والأطباق

¹ السيد الناقة، المرجع السابق، ص 255، قرني، المرجع السابق، ص 139.

² الإدريسي، المصدر السابق، ص 569؛ الحميري، المصدر السابق، ص 488.

³ نفسه.

⁴ قرني، المرجع السابق، ص 138، 139.

⁵ الإدريسي، المصدر السابق، ص 560.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج 9، ص 40.

والصحنون والقوارير والأباريق والكؤوس والخوابي المستخدمة لتخزين الزيت، والأقداح المعدة للوضوء¹. والملفت للانتباه أن المصادر المختلفة خاصة الجغرافية منها لم تذكر منطقة ريفية واحدة خلال الفترة مجال الدراسة تفوقت في الصناعة الفخارية، عكس بعض المدن مثل المرية ومالقة ومرسية ومجريط وقلعة أيوب²، وهو ما يدعو إلى القول أن هذه الصناعة لم تعرف رواجاً كبيراً، بسبب ضعف هذا المنتج، أو أنه كان مخصصاً للاستهلاك المحلي فقط ولم يكن موجهاً للتجارة. في حين أن الفترات المتأخرة شهدت تفوق بعض المناطق الريفية في هذه الصناعة، فقد أثبتت الحفريات التي أجريت في بعض المناطق الريفية لبلنسية، على وجود أواني تعود إلى القرن 07هـ/13م تميزت بتطورها من حيث الشكل، فقد أظهرت الألوان والزخارف المتنوعة المستخدمة درجة هذا التطور³.

2-4- الصناعة الاستخراجية:

توفرت البيئة الريفية على الكثير من المواد الأولية التي تدخل في الكثير من الصناعات، فقامت في المناطق التي تتوفر فيها هذه المواد صناعة استخراجية، والتي يلاحظ اكتفاء المصادر الجغرافية بذكر مناطق استخراجها، دون الإشارة إلى طريقة ذلك أو مدى استفادة المجتمع الريفي من هذه المواد لإنتاج سلع مختلفة، مما يجعلها صناعة استخراجية فقط.

وتبقى الإشارة الوحيدة التي تشد عن القاعدة، ما تذكره بعض المصادر عن مادة الزئبق التي تنتشر في حصن أبال شمالي قرطبة بكميات كبيرة، فهو يمتد على مائتي قامة، ويشغل فيه أكثر من ألف عامل موزعين بين الاستخراج، وإعداد الوسائل للسبك، وصهر الزئبق وتنقيته من الشوائب، ليصبح جاهزاً⁴. وعرفت بعض المناطق بانتشار بعض مواد البناء، ففي حصن الحمة بالقرب من بجانة تنتشر كميات كبيرة من الجص الذي يستخرج من جبال هذا الحصن، فيحفر ويحرق ثم ينقل إلى مدينة المرية، وقد

¹ السيد الناقة، المرجع السابق، ص 206.

² الإدريسي، المصدر السابق، ص 554؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص 424؛ الحميري، المصدر السابق، ص 523؛ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 201، 202.

³ م.س. ديمان، الفنون الإسلامية، تر. أحمد عيسى، م. ر. أحمد فكري، د. ط، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص 227، 228. يذكر ديمان عن المناطق التي أجريت بها الحفريات بطرنة ومتشينة بالمدينتين، بينما في الفترة مجال الدراسة كانتا قرطبان تقعان بين بلنسية وشاطبة. انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص 564؛ الحموي، المصدر السابق، ج 5، ص 208.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 581؛ الحمير، المصدر السابق، ص 06.

اعتمدت عليه المدينة في تزيين منازلها، وبلغ به من الكثرة أن انخفض ثمنه مما كان له الأثر الواضح في ازدهار صناعة البناء فيها¹، وفي حصن فريش يكثر الرخام² ويشتهر به وإليه ينسب كما أنه معروف بجودته، إذ يذكر الإدريسي أن بها "مقطع للرخام الرفيع الجليل الخطير المنسوب إليهن والرخام الفريشي من أجل الرخام بياضاً، وأحسنه ديباجاً، وأشدّه صلاباً"³، وفي قرية أركش على وادي لكّة تنتشر أيضاً محاجر الرخام⁴.

كما توفرت المناطق الريفية على بعض المعادن، التي تدخل في كثير من الصناعات من ذلك المعادن النفيسة، ففي موضع يعرف بالمرج في ريف فرنجولش بالقرب من حصن المدور، تنتشر معادن الذهب والفضة⁵، وفي قرية طوطالقة من إقليم باجة يوجد بها معدن الفضة الخالصة⁶، وفي أرياف مرسية، الفضة غزيرة متصلة المادة⁷، ويوجد كثير من معدن الفضة في جبال حمة بجانة، وإقليم كرتش من عمل قرطبة⁸، كما توفرت بعض الأحجار الكريمة مثل البلور في جبل شجيران من حصن منتيون من عمل قرطبة إلى الشرق من مدينة قبره، وفي حصن لورقة من عمل قرطبة⁹، وفي قرية ناشرة في ناحية بجانة، ينتشر حجر يشبه الياقوت الأحمر حسن اللون يأخذ أشكالاً مختلفة¹⁰.

ومن المعادن غير النفيسة انتشر البعض منها في أرياف الأندلس، ففي قرية قسطنطينة التي تبعد عن قرطبة 40 ميلاً/ حوالي 64 كم، ينتشر بجبالها معدن الحديد المعروف بطيبه وكثرته حتى عم جميع أقطار الأندلس¹¹، وفي جبال أندة من عمل بلنسية تنتشر معادن الحديد¹²، وفي جبال طليطلة معادن الحديد

¹ الإدريسي، المصدر السابق، ص 566.

² الحميري، المصدر السابق، ص 440؛ الحموي، المصدر السابق، ج 4، ص 259.

³ الإدريسي، المصدر السابق، ص 574.

⁴ حاملة، موسوعة الأندلس والمغرب العربي، ج 3، ص 51.

⁵ الإدريسي، المصدر السابق، ص 574؛ الحميري، المصدر السابق، ص 440.

⁶ الحموي، المصدر السابق، ج 4، ص 50.

⁷ الحميري، المصدر السابق، ص 539.

⁸ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 143؛ البكري، المصدر السابق، ص 898.

⁹ نفسه، ص 142؛ البكري، المصدر السابق، ص 897.

¹⁰ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 142؛ البكري، المصدر السابق، ص 897.

¹¹ الإدريسي، المصدر السابق، ص 574، حاملة، موسوعة الأندلس والمغرب العربي، ج 4، ص 839.

¹² المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 182.

والنحاس¹، وفي قرية بطرنة من قرى بلنسية يكثُر فيها معدن التوتيا الطيبة التي تعد أذكى توتيا وأقواها في صِبع النحاس²

ولم يكن الاستخراج قاصرا على المواد التي تدخل في الصناعات المختلفة، بل شمل بعض المواد التي لها أغراض متعددة، مثل النظافة، ففي قرية مغام بطليطلة بها نوع من الطين محصورة جبالها ويتخذ للأكل ولتنظيف الشعر غسله، وقد تعدت شهرته حدود البلاد فكان يصدر إلى مصر والشام والعراق وبلاد الترك كما يذكر الإدريسي³، واستعملت بعض المواد للتطبيب مثل حجر اليهودي الذي يستخرج من قرية ألبونت شمال غربي بلنسية، والذي كان أنفع شيء للحصاة⁴.

قصارى القول فإن المجتمع الريفي قد نشط في الصناعة الاستخراجية، حيث كان يقوم ببيعها والمتاجرة فيها مع ورشات المدن، وهو ما يعتبر إسهاما في مختلف الصناعات التي تقوم عليها.

3- النشاط التجاري:

يمثل النشاط التجاري عند المجتمع الريفي شكلا مهما من أشكال الكسب ومصدرا من مصادر الرزق، إذ من خلالها يمكن تصريف المنتجات المتنوعة - خاصة ما تعلق بالمحاصيل الزراعية-، أو يوفر ما يحتاجه من حاجيات ومستلزمات، مستغلا ما أمكن من فضاءات.

خاصة أن الأندلس ظلت سوقا مهما في نظر التجار في بلاد الغرب الإسلامي، فإليها تجلب مختلف السلع والتجارات وفيها تصرف وتنفق⁵، كما أنها كانت ممونا لكثير من البلدان والمناطق في كثير من المنتجات الزراعية والصناعية⁶، وهو ما دلت عليه شهادة الجغرافيين⁷، وعليه يمكن التساؤل، عن إسهام المجتمع الريفي في هذه الحركة التجارية التي شهدتها البلاد.

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 440؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 552.

² المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 143.

³ الإدريسي، المصدر السابق، ص 552.

⁴ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 142.

⁵ ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص 133.

⁶ أوليفيا ريمي كونستبل، التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية " الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، تر. عبد الواحد لؤلؤة،

تحر. سلمى خضراء الجيوسي، ط 1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998، ج 2، ص 1063.

⁷ سيأتي في ثنايا المذكرة بعض هذه الشهادات.

3-1- فضاءات النشاط التجاري عند المجتمع الريفي:

يحتاج النشاط التجاري إلى أماكن تعرض فيها المنتجات، ويلتقي فيها بالتاجر بالمستهلك وتبرم فيها عقود البيع، وهي في الغالب إما الحوانيت و القيساريات أو الأسواق.

أ- الحوانيت:

تتعدم النصوص المصدريّة التي تدل على وجود القيساريات في أرياف الأندلس، بينما ترد بعض الإشارات التي تخص الحوانيت والدكاكين، فالزهري يذكر أن المسافر في بلاد الأندلس لا يحتاج إلى كثرة في تنقلاته بين مناطقها بسبب كثرة انتشار الحوانيت¹، بينما يفهم من نص للإدريسي أن بعض القرى انتشرت بها الحوانيت التي تختص أنواع من السلع الغذائية².

ودلت على ذلك أيضا، احتواء بعض القرى على الفنادق التي كان يتوقف فيها التجار للراحة والمبيت، والأكد أن هؤلاء التجار احتاجوا إلى التزود بالغذاء وهو ما توفره لهم الحوانيت، وقد أشار الإدريسي إلى الكثير من القرى التي شكلت محطات راحة بالنسبة للتجار، فمن ذلك مثلا أن الطريق بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية تحتوي على ثلاث محطات، أشار إليها بعبارة المنزل، وهي كل من فيسانة وعسلوكة و ذيرد الحباله³، والسائر في الطريق بين بجانة والمرية يمكنه النزول للراحة في حصن مندوجر⁴، وقرية عذرة وقرية بزيانة ساحليتان تقعان على البحر الشامي تحتويان على فنادق⁵.

وإذا كان يفهم من النصوص السابقة أن هذه الحوانيت توجد في القرى التي تقع في طرق المواصلات، فإن المقرئ يذكر نصا يدل على انتشار الحوانيت في كل المناطق الريفية، إذ يذكر أن المسافر: "حيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والشعاري والأودية ورؤوس الجبال، كلها لبيع الخبز والفواكه والخبز واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة"⁶.

وعلى كل فإن ما تقدمه هذه الحوانيت من عروض تشمل أنواعا من الطعام مما يسد رمق المسافرين

¹ الزهري، المصدر السابق، ص 80.

² الإدريسي، المصدر السابق، ص 566.

³ نفسه، ص 541.

⁴ نفسه، ص 566.

⁵ نفسه، ص 564، 565.

⁶ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 226.

والغرباء عن هذه المناطق، ولم يتعداه إلى أنواع أخرى من العروض، مما يوحي ربما بمحدودية النشاط التجاري من خلال هذا الفضاء.

ب- الأسواق:

تدل كلمة السوق على المكان الذي تجتمع فيه المتاجر والمحلات الدائمة أو المؤقتة، ويستقر في شارع أو عدة شوارع في المدينة أو في رحبة أو خارج المدينة أو بالقرب من أحد الأبواب¹، وقد عرفت بعض المناطق الريفية هذا النوع من الأسواق، عُرف بعضها بنشاطه اليومي، بينما عقدت أخرى مرة في الأسبوع وهي ما تعرف بالأسواق الأسبوعية.

ويدل على ذلك ما استخدمه الإدريسي في وصفه من عبارات دالة على التفريق بينها، فيذكر قرية فيسانة بأنها " قرية كبيرة بها سوق عامرة"²، وصفة عامرة تدل على انعقادها يوميا وتشهد إقبالا كبيرا من الناس، كما يصف حصن قيشاطة بأنه: " حصن كالمدينة له أسواق وريض عامر وحمام وفنادق"³، ولا شك أن من أوجه الشبه بينه وبين المدينة وجود الأسواق الخاصة بكل تجارة، وهي أسواق دائمة تقام يوميا. في حين عندما ذكر حصن بكيران قال: " حصن منيع عامر كالمدينة، وله سوق مشهودة وحوله عمارات متصلة"⁴، كما يوجد في كل من حصن آشر، وحصن القبذاق "سوق مشهودة"⁵ ومصطلح مشهودة تحمل دلالة الحضور والاجتماع في وقت مخصوص من الأوقات⁶، بينما سَمَّت بعض المصادر الأخرى الأيام التي كانت تنعقد فيها، مثل قرية شوذر من أعمال جيان التي بها " سوق حافلة يوم الثلاثاء"⁷، وسوق أندرش من أعمال المرية كان يعقد كل خميس من كل أسبوع⁸.

¹ السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 296؛ السيد الناقة، المرجع السابق، ص 258.

² الإدريسي، المصدر السابق، ص 557.

³ نفسه، ص 569. بالإضافة إلى ذلك فإن المقرئ يذكر أن إقليم الشرف يحتوي " قرى كثيرة، كل قرية عامرة بالأسواق ". انظر: المقرئ،

نفع الطيب، ج 1، ص 159.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 541.

⁵ نفسه، ص ص 570، 571.

⁶ ابن منظور، المصدر السابق، ج 3، ص 240، مادة شهد.

⁷ الحميري، المصدر السابق، ص 351.

⁸ قرني، المرجع السابق، ص 144؛ Sayyid muhammad Imamuddin, som aspects of the socio-economic and cultural history of muslim spain 711- 1492, A.D. Leiden- E.J. Brill , p 125

وما زالت إسبانيا النصرانية تحتفظ بمواقع تحمل أسماء بعض أيام الأسبوع، ففي وشقة منطقة تعرف باسم سوق الثلاثاء، وفي بطليوس مكان يعرف بسوق الأحد¹، كما تشير أسماء بعض القرى إلى الأسواق الأسبوعية، مثل قرية Larbe (الأربعاء) في جيان، وقرية Cuart في بلنسية تعني اليوم الرابع².

وهكذا يمكن القول، أن أرياف الأندلس عرفت انتشارا واسعا للأسواق الأسبوعية، وهو ما يوحي بأهميتها بالنسبة للمجتمع الريفي، فقد شكلت فرصة لسكان القرى المجاورة وفلاحها لقضاء حوائجهم وتصريف منتوجاتهم الزراعية، وشكلت لهم بديلا عن أسواق المدن خاصة المناطق البعيدة عنها، فشهدت بذلك الأسواق الريفية حركة تجارية نشيطة³، خاصة أن الفلاحين كانوا بحاجة ماسة لتصريف منتوجاتهم لتسديد ما عليهم من التزامات ضريبية⁴.

كما أسهم التجار المتجولون في هذه الحركة، حيث قاموا بدور الوسيط، فكانوا يحملون إلى هذه الأسواق ما تنتجه المدن أو ما تستورده من سلع الحرفيين والصناع، ثم يعودون معهم ببعض السلع التي تحتاجها المدينة من تلك القرى⁵، أو ربما شارك بعض اليهود من الضعفة في هذه الحركة ولو على نطاق ضيق، إذ كان منهم باعة متجولون في المداشر، وهذا استغلالا منهم لحالة أهل الريف الذين لا يدخلون الأسواق⁶.

¹ السيد مصطفى، المرجع السابق، ص 303؛ السيد النافعة، المرجع السابق، ص ص 268، 269؛ Pedro Chalmeta Gendron, *El Senor del Zoco en Espana*, Instituto hispano- arabe de cultura, Madrid, 1973, pp 96, 97.

² Thomas F Glick, *islamic and Christian Spain in the early middle ages*, Princeton university press, Newgersy, 1965, p 119; Imamuddin, *op. cit*, p 125 .

³ يذكر بعض المستشرقين أن الأسواق الريفية، لم تكن تعرف حركة كبيرة وإقبالا من الفلاحين، مستندين إلى أن أصحاب الضياع كانوا يقضون حوائجهم مما تدره عليهم ضياعهم، لكنهم لم يضعوا في حسابهم أن الفلاح كان يحتاج تصريف على الأقل جزءا من المحصول لقضاء حوائجه المختلفة من مختلف السلع التي لا ينتجها، بالإضافة إلى دفع الضرائب المفروضة عليه، وهو ما دفعه إلى الإقبال على هذه الأسواق. انظر: Glick, *op. cit*, p 119؛ قرني، المرجع السابق، ص ص 144، 145.

⁴ قرني، المرجع السابق، ص 145.

⁵ رابح رمضان، النشاط التجاري في الأندلس خلال القرنين الرابع والخامس هجريين العشر والحادي عشر ميلاديين، مذكرة ماجستير غير منشورة، إيش. محمد بن معمر، جامعة السانية وهران، 2007-2008، ص 59.

⁶ كواقي، المرجع السابق، ص 130؛ رمضان، المرجع السابق، ص 61.

ورغم نشاط الحركة التجارية في أسواق المجتمع الريفي إلا أنها تبقى أقل من أسواق المدن¹، التي كانت هي الأخرى قبلة قاطنة الريف الأندلسي لقضاء حوائجهم منها بيعا وشراء، فقد أظهرت بعض النوازل مسائل تخص تجارة أهل الريف الذين اتخذوا من رحاب المساجد أماكن لعرض سلعهم، مما أحدث أضرارا بالمساجد وبالمصلين².

كما دلت على ذلك بعض الأمثال الشعبية التي صور بعضها طريقة نقل بعض السلع وعرضها فقالوا: "بجل وز في قفّ، كل شيء داخل إلا الرأس"³، وقولهم: "بجل صنّاج بداويا يهبط بيض، يطلع باسقرّنيا"⁴، وهي إشارة مهمة تفيد بأن أسواق المدن لم تكن مقصد سكان الريف من الرجال فقط، بل حتى النساء قصدن هذه الأسواق لتصريف المنتجات وقضاء حوائجهن منها.

وهكذا يمكن القول، أن الأسواق شكلت فضاء مهما، بالنسبة للمجتمع الريفي للقيام بشؤون التجارة، فكان يقضي ما يحتاجه منها ويصرف فيها سلعه ومنتجاته المختلفة، فما هي أهم السلع المتبادلة؟

2-2- العروض والأسعار:

أ- العروض:

تمت الإشارة في العنصر السابق أن الحوانيت في الأرياف قدمت خدمات تجارية محدودة انحصرت في بيع الأطعمة للمسافرين، في حين أن الأسواق شكلت فضاء واسعا لعرض الكثير من المنتجات وتداولها، خاصة المحاصيل الزراعية، فشكّلت بذلك ثنائية اقتصادية - الفلاحة والتجارة - كما عبر عنه أحد الباحثين، إذ أن كثيرا من المواد الفلاحية أصبحت بضائع أساسية في قائمة التبادل التجاري⁵.

- السلع الموجهة للتجارة الداخلية:

أظهرت النوازل الفقهاء بعض المنتجات التي جاء بها ساكنة الريف والفلاحون إلى مختلف الأسواق

¹ بلغ من نشاط التجارة في أسواق المدن، أن كثرت أعدادها، فلا تكاد تجد مدينة تخلو من سوق أو أكثر، كما دلت على ذلك أوصاف الجغرافيين، بالإضافة إلى ذلك، عرفت الأسواق فيها وجود نوع من التخصص في تجارة أو سلعة معينة، وهو ما يغيب ربما في الأسواق الريفية. لمزيد من التفصيل انظر: السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 297، 298؛ السيد الناقة، المرجع السابق، ص 259-266.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج 11، ص 97؛ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج 2، ص 1165.

³ الزجالي، المصدر السابق، ج 2، ص 151.

⁴ يقصد بالصنّاج القفّة، وبداويا ريفية، واسقرّنيا الجزر. انظر: القستلي، المصدر السابق، ص 251.

⁵ رمضان، المرجع السابق، ص 82.

لتصريفها، من ذلك الحطب والبقول والخضر والحلفاء والملح والتبن والزريعة¹، أما ابن حزم فيذكر قائمة واسعة من المنتجات الفلاحية، أضاف إلى المعروضات السابقة، سلعا ومنتجات أخرى، يبتاعها الرعية من عمار الأرض وفلاحيها، وتمثلت في: "الدقيق والقمح والشعير، والفلول والحمص والعدس واللوبياء، والزيت والزيتون، والملح، والتين والزبيب، والخل، وأنواع الفواكه، والكتان والقطن والصوف، والغنم والألبان والجن والسمن، والعشب والحطب"².

ويلاحظ من خلال هذه القائمة تصدر الدقيق والقمح والشعير هذه العروض، وهو أمر طبيعي باعتبار أن هذه المحاصيل تشكل غذاء رئيسيا للمجتمع الأندلسي، فكان من المعروضات التي يكثر عليها الطلب، واستجابة لذلك فإن أرياف البلاد كانت الممون الرئيسي للمدن.

وقد قدر أحد الباحثين أن تجمعاً سكانياً من ثلاثة آلاف نسمة، يحتاج في غذائه ابتداء من القرن 11م/ 1105هـ، إلى حوالي عشرة مناطق ريفية خصبة أي ثمانية كيلومترات مربع ونصف، نظراً لضعف إنتاجية الفلاحة³، وهو ما ينهض دليلاً على أهمية ما كانت تعرضه الأرياف من القمح والشعير والدقيق.

وإضافة إلى هذه السلع ضمت القائمة أيضاً أنواعاً أخرى من المواد الغذائية سواء كانت نباتية أو حيوانية، فشكلت بذلك النسبة الأكبر من السلع الريفية التي عرضت في مختلف الأسواق، وقد شهدت على ذلك مختلف النصوص، فالإدريسي يصف زيب قرية شاط من بلاد المنكب ويذكر أنه يتجهز به إلى كل البلاد الأندلسية⁴، ومن أرياف يابسة كان يحمل الزبيب إلى ميورقة⁵.

كما أشارت أمثال العوام إلى دخول بعض الفواكه إلى الأسواق، مثل: الخوخ والرمان والتين وكان دخولها عندهم إيذاناً بدخول فصل الخريف⁶، أما الزيتون وزيته فقد انتشر في أسواق البلاد من مختلف

¹ النونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص 97؛ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج2، ص 1165؛ ابن الحاج، المصدر السابق، و 128؛ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 985.

² ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج3، ص 175.

³ رمضان، المرجع السابق، ص 82.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 564، 565.

⁵ الزهري، المصدر السابق، ص 128، 129.

⁶ يتضح ذلك من هذين المثلين: "إذا ريت التين أبشر بالطين"، و "إذا ريت الخوخ والرمان، فكر في ثيابك أيها العريان". انظر: الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص 04، ص 07.

المناطق الريفية التي تنتجه، خاصة من إقليم الشرف الذي يمتاز بالكثرة والجودة¹، كما انتشرت في أسواق البلاد أنواع أخرى من المواد الغذائية التي أنتجها المجتمع الريفي، مثل الزعفران الذي تنتجه طليطلة وأريافها وأرياف وادي الحجار وأرياف إشبيلية، فقد غزا هذا النوع من التوابل أسواق الأندلس، وهو ما يفهم من أوصاف بعض الجغرافيين².

وبالرغم من أن نصيب المجتمع الريفي في التجارة الداخلية غلب عليه المواد الغذائية إلا أنه كان له إسهام في المواد الصناعية، سواء بالمشاركة في تموين الصناعات بالمواد الخام، أو ما كان ينتجه من سلع مختلفة.

فالنسبة للمواد الخام، فإن قرى جيان تشتهر بإنتاج الحرير، فكان من أهم المعروضات في سوق المدينة، ولذلك كانت مقصد التجار³، وربما كان هذا الحرير يعرض في أسواق أخرى مثل أسواق قرطبة⁴ كما كانت أرياف مرسية تزود المدينة وغيرها من المدن كغرناطة بالحرير الخام⁵.

أما الصوف فقد كانت أرياف البلاد تزود السوق بما تحتاجه منه، لانتشار تربية الأغنام عند المجتمع الريفي، واتساع مراعي البلاد، وللتدليل على ذلك فإن أرياف جبال تاكرنا جنوبي الوادي الكبير اشتهرت بكثرة الأصواف فيها ومنها كان يجلب إلى مختلف المناطق⁶.

وفيما يخص الكتان فقد استطاعت أرياف البلاد، أن تزود أسواق المدن بما تحتاجه من هذه الخام، فمثلا أرياف لاردة كان يتجهز منها بالكتان إلى نواحي الثغر⁷، ولكثرة الكتان في القرى المتصلة بجبل شلير وجودته فإنه يعتقد أن تكون هذه السلعة في كثير من أسواق غرناطة وجنوب البلاد عموما⁸.

وإضافة إلى هذه الخامات المتعلقة بالصناعة النسيجية، يلاحظ انتشار خامات أخرى في مختلف

¹ المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص 158؛ العذري، المصدر السابق، ص 95؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 541؛ الحميري، المصدر السابق، ص 59؛ الزهري، المصدر السابق، ص 89.

² البكري، المصدر السابق، ص 907؛ الحميري، المصدر السابق، ص 606؛ العذري، المصدر السابق، ص 96.

³ ابن الحاج، المصدر السابق، و 36.

⁴ هياجنة، المرجع السابق، ص 209.

⁵ نفسه.

⁶ الزهري، المصدر السابق، ص 93؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص 375.

⁷ الحميري، المصدر السابق، ص 507.

⁸ البكري، المصدر السابق، ص 895.

الأسواق، مثل معدن الحديد، المستخرج من قرية قسطنطينية، التي تبعد عن قرطبة حوالي 64 كم، والذي عم جميع أقطار الأندلس بسبب كثرته وطيبه¹، أما الأخشاب فإن جبال طرطوشة احتوت على ثروة غابية تمتاز بالجودة تصلح لإنشاء المراكب وبناء المنازل، فكانت تنقل منها إلى مختلف مناطق الأندلس²، وحصن قلصة تكثر بجباله أشجار الصنوبر، فكان يقطع بهذا الحصن، وينقل إلى دانية فيصنع منه المراكب والسفن، وينقل منه أيضا إلى بلنسية، فيستخدم بناء المنازل والدور³.

وبالنسبة للسلع والمنتجات الصناعية فإنه قد تم الحديث سابقا عن وجود بعض الصناعات في المناطق الريفية، ولذلك فلا غرابة من دخولها إلى الأسواق، وقد دلت على ذلك أوصاف الجغرافيين، مثل القصاع والخواوي والأطباق المصنوعة في حصن قيشاطة بين جيان وبسطة، والتي كانت تعم البلاد⁴، وثياب حصن بكيران التي تباع بالأثمان الغالية⁵، وبسط قرية تتالة من قرى مرسية التي يغالى بثمانها في المشرق⁶.

وبالإضافة إلى كل هذه المعروضات فإن المناطق الريفية ظلت الممون الرئيسي لأسواق الدواب في البلاد، فقد كانت هذه الأسواق رائجة وناققة، لأنها ارتبطت بما يحتاجه المجتمع الأندلسي عموما من حيوانات للنقل والتنقل وحيوانات أخرى بما يشبع حاجياته الغذائية.

أما بالنسبة للأولى فإن أهل الأندلس كانوا يجذبون اقتناء البغال على سائر أنواع الحيوانات الأخرى بسبب قوة تحملها وحسن شكلها، ولذلك كثر الطلب عليها فارتفعت أسعارها حتى بلغت بين المائتين والخمسمائة دينار خاصة بغال ميورقة⁷، ويبدو أن عملية البيع في بعض الأحيان كانت تتم بحضور أهل الاختصاص من البيطرة، لتفادي أي مشكل يكون سببا في رد البيع⁸.

وفيما يخص الدواب الموجهة للغذاء فقد ارتبطت أسواقها بأسواق القصابين، الذين يشترون ما

¹ الإدريسي، المصدر السابق، ص 574، حاملة، موسوعة الأندلس والمغرب العربي، ج 4، ص 839.

² الإدريسي، المصدر السابق، ص 575.

³ نفسه، ص 560.

⁴ نفسه، ص 569، الحميري، المصدر السابق، ص 488.

⁵ الإدريسي، المصدر السابق، ص 557.

⁶ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 201.

⁷ ابن حوقل، المصدر السابق، ص 110.

⁸ ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ج 2، ص 245.

يحتاجونه من غنم وبقر وماعز، ثم يذبحونها خارج أسوار المدن لتتنقل بعدها إلى الحوانيت والأسواق¹، ولذلك كانوا يجذبون البهائم الخالية من العيوب ويتجنبون ذبح الحوامل والمدررة للحليب، حتى لا يتعرضوا لعقوبة المحتسب².

ويزداد الطلب على هذه الحيوانات في بعض المناسبات والمواسم، كعيد الأضحى الذي تنتعش فيه تجارة الماشية³، وكان يختار منها السمين، فراجت سلعة بعض المناطق أهمها أرياف طليطلة في جبل الشارات، الذي كانت أبقاره وأغنامه مضرب المثل في السمن، فقصدته الجلابون من مختلف مناطق الأندلس⁴، والحال ذاته يقال على فحص شنقير من أعمال مرسية الذي بلغت أغنامه غاية في السمن⁵. وما يمكن قوله في الأخير أن السلع الريفية غزت أسواق البلاد، خاصة المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية، وهو أمر طبيعي باعتبار أن النشاط الفلاحي شكل حجر الزاوية في مصادر رزق المجتمع الريفي ولذلك وجه فائضه أو جزءا منه لمختلف أسواق البلاد، فهل راجت سلعته خارج حدود البلاد؟

– المشاركة في التجارة الخارجية:

كان إسهام الأندلس في التجارة الخارجية خلال العصر الوسيط واضحا، فقد ظلت في نظر التجار في بلاد الغرب الإسلامي سوقا مهما إليها تجلب مختلف السلع والتجارات، وفيها تصرف وتنفق⁶، ومنها تنقل الكثير من البضائع والمنتجات إلى بلاد المغرب ومختلف مناطق المعمورة⁷.

وقد شارك المجتمع الريفي في هذا النشاط من خلال بضائعه التي كان يقصدها مختلف التجار، الذين كانوا يتنقلون بين مختلف الأسواق ومناطق البلاد، من أجل شراء السلع المطلوبة، ثم يقومون بنقلها إلى

¹ السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 300.

² السقطي، المصدر السابق، ص 34.

³ يذكر ابن جليل، أن أحد أطباء الناصر والمستنصر الأمويين، وهو أبو عبد الملك الثقفي كان يجتمع عنده في كل عيد عشرين كبشا، ربما هدية. انظر: ابن جليل، المصدر السابق، ص 111.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 552.

⁵ الزهري، المصدر السابق، ص 100.

⁶ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 133.

⁷ أوليفيا ريمي كونستبل، التجارة والتجار في الأندلس، تر. فيصل عبد الله، د.ط، الرياض، مكتبة العبيكان، 2002، ص ص 34-35؛ كونستبل، التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، ص1063؛ أحمد موسى، المرجع السابق، ص 325؛ حاج كولة، المرجع السابق، ص 172.

المناطق البعيدة، وهو ما اصطلحت عليه إحدى الدراسات بـ: "التجار الدوليون"، هؤلاء الذين كان بمقدورهم القيام بهذه التجارة من خلال شبكتهم الواسعة التي أقاموها في مختلف البلدان والمناطق¹.

وقد نقلت المصادر الجغرافية وغيرها نصوصا عن السلع والبضائع التي كانت تنقل من المناطق الريفية إلى المناطق البعيدة، فمن ذلك المواد الغذائية وعلى رأس هذه المواد الزيت الإشبيلي الذي تنتجه أريافها خاصة إقليم الشرف، والذي بلغ من الكثرة أن وصفه أحد الجغرافيين، بأنه إذا لم يصدر "فسيكون هناك فائض يستحيل تخزينه وبالتالي سيتلف"².

وتجمع النصوص على هذا الأمر، فالعذري يقول أن شهرة هذا الزيت بلغت الآفاق وأنه يركب به البحر إلى المشرق³، ويذكر الإدريسي مجالا أوسع من ذلك، بأنه يتجهز به إلى مشارق الأرض ومغاربها برا وبحرا⁴، بينما يحدد الزهري المناطق التي بلغها زيت الشرف فيذكر أنه يجلب إلى: "بلاد الروم والمغرب وإفريقية ومصر والإسكندرية، وربما يبلغ منها إلى اليمن قليل"⁵.

كما عرفت بعض أنواع الفواكه حضورا في صادرات الأندلس، واحتل التين صدارة الفواكه المصدرة، فتين إقليم الشنشين في شلب كان يصدر إلى خارج البلاد بسبب وفرة وكثرة إنتاجه وكذلك بسبب خصائصه العديدة فهو: "طيب علك لذيد شهي"⁶، بينما أنتجت أرياف مالقة تينا فاق غيره وحمل منه إلى خارج البلاد⁷، ويذكر ابن بطوطة أنه يحمل منها إلى بلاد المشرق والمغرب⁸، وروى بعضهم أنه "كان يباع بعيدا في بغداد كأى شيء ثمين ونادر"⁹، وربما وصلت شهرته إلى بلاد الهند والصين حسب المقرئ¹⁰.

واستطاعت الأندلس أن تنافس في تجارة بعض الأنواع من التوابل في حوض البحر المتوسط مثل

¹ كونسيتل، التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، ص 1066. ولمزيد من التفصيل والتوسع عن المشتغلين في التجارة الخارجية في الأندلس وأصنافهم، يمكن الرجوع إلى: كونسيتل، التجارة والتجار في الأندلس، ص 101 وما بعدها.

² الناقة، المرجع السابق، ص 109.

³ العذري، المصدر السابق، ص 95.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ص 541.

⁵ الزهري، المصدر السابق، ص 89.

⁶ الإدريسي، المصدر السابق، ص 543.

⁷ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص 423؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 565.

⁸ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 768.

⁹ كونسيتل، التجارة والتجار في الأندلس، ص 277.

¹⁰ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 151.

الزعفران، الذي أنتجته أرياف طليطلة والذي كان يعم البلاد ومنها يتجهز به إلى الآفاق¹، وكذلك الحال بالنسبة لزعفران إشبيلية الذي يعم الأندلس ويتجهز به إلى كل قطر حسب العذري²، ويؤكد ذلك بعض الوثائق التي تظهر اهتمام الجنويين بزعفران الأندلس للإتجار به في الإسكندرية وغيرها من مناطق حوض المتوسط³.

أما بالنسبة للنوع الثاني من صادرات الأندلس، فقد تمثل في بعض الخامات والمواد الصناعية، كالحرير الأندلسي كان مطلوباً في أسواق مصر وحوض المتوسط، وهو ما تظهره رسائل التجار اليهود المؤرخة في القرنين الخامس والسادس الهجريين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين⁴، وأي تأخر في وصول الشحنات المطلوبة منه يؤثر في أسعار هذه الخامة⁵.

وفيما يخص القطن فإنه يزكو في أرياف إشبيلية وقد كان إنتاجه وفيراً، مما سمح بتصديره إلى خارج البلاد خاصة بلاد المغرب في القيروان وسجلماسة⁶، والكتان يكثر بالقرى المتصلة بجبل شلير القريب من غرناطة والذي تفوق جودته كتان الفيوم بمصر⁷، وهو ما جعله ربما مطلب ومقصد أصحاب هذه التجارة. أما المواد المصنعة فيلاحظ أن المنتجات الريفية لم تكن لها مشاركة كبيرة في التجارة الخارجية، بسبب قلة هذا النشاط في الأرياف واختصاص المدن به أكثر، إذ تقل النصوص التي تدل على ذلك، فباستثناء ما تم ذكره عن الزيت، يلاحظ ورود منتوجين ريفيين تعدت شهرتهما حدود البلاد، الأولى تخص البُسْط، التي تشتهر بها قرية تنتالة من قرى مرسية، والتي وصلت إلى بلاد المشرق فكان يغالى في ثمنها هنالك⁸، والثانية تخص القصاع والحوالي والأطباق، المشهورة في حصن قيشاطة بين بسطة وجيان والذي كان يصدر بشكل

¹ البكري، المصدر السابق، ص 907.

² العذري، المصدر السابق، ص 96.

³ كونستبل، التجارة والتجار في الأندلس، ص 262.

⁴ نفسه، ص ص 264، 265.

⁵ الطيبي، المرجع السابق، ص ص 151، 152. انظر: الملحق رقم 12 بعنوان: "تأثير حرير الأندلس في سوق مصر من خلال إحدى رسائل جنينة القاهرة مؤرخة في 513هـ / 1119م".

⁶ العذري، المصدر السابق، ص 96؛ الحميري، المصدر السابق، ص 59؛ ابن غالب، المصدر السابق، ص 292.

⁷ البكري، المصدر السابق، ص 895.

⁸ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 201.

خاص إلى بلاد المغرب حسب الإدريسي¹.

قصارى القول فإن مشاركة البضائع الريفية في التجارة الدولية، لم يكن كبيرا واعتمد أساسا على الحاصلات الزراعية، سواء كانت بشكلها الخام أو مواد غذائية، وهو ما يؤكد مرة أخرى أهمية النشاط الفلاحي في حياة هذا المجتمع.

ب- الأسعار:

لم تكن أسعار المعروضات ثابتة فقد عرفت في بعض الفترات انخفاضا، بينما سجلت في فترات أخرى ارتفاعا كبيرا، وهو ما سجلته النصوص المصدرية بمختلف أنواعها.

إذ تشير بعض النصوص إلى انخفاض الأسعار، فالزهري يذكر تين بلنسية بأنه رخيص السعر لدرجة أن المرء يستطيع شراء ستين نوعا غير متشابه بربع درهم فقط²، والإدريسي يصف الحالة ذاتها في بعض المدن فيتحدث عن جيان وقلعة أيوب وقلعة دروكة بأن كلا منها "رخيصة الأسعار"³، و مدينة أوريولة فيها رخاء شامل⁴، كما تحدثت بعض أمثال العوام عن رخص الأسعار وتأثيرها على بعض المعروضات⁵.

وبالمقابل فإن نصوصا أخرى في نفس الفترة تتحدث عن الغلاء الذي عرفته بعض السلع خاصة الزراعية منها، ففي نهاية القرن الخامس الهجري ومطلع القرن السادس الهجري تشير فتاوى ابن رشد إلى ارتفاع سعر القمح، الذي عبرت عنه بالطعام، حيث اشترى رجل مدي قمح بمثقالين إلا ربع مثقال⁶، وعبر ابن صاحب الصلاة عن سخطه من الغلاء الفاحش حيث اشترى حبة تين واحدة بدرهم كامل⁷، بينما عبرت العامة عما يصحب غلاء القمح في الأسواق من مظاهر اقتصادية واجتماعية⁸.

¹ الإدريسي، المصدر السابق، ص 569؛ الحميري، المصدر السابق، ص 488.

² الزهري، المصدر السابق، ص 102.

³ الإدريسي، المصدر السابق، ص 554، ص 568.

⁴ نفسه، ص 558.

⁵ يقول المثل: "إذا رخص الشعير غلت الحمير" انظر: الزجالي، المصدر السابق، ج 2، ص 20.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 924؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج 6، ص 194.

⁷ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 422.

⁸ تقول العامة: "إذا غلا القمح مالو حُصَال"، وحصال هي حصالة وتعني بقية الشيء ونفايته، أي أن الناس تحرص على عدم ترك بقايا القمح عند المتاجرة به أو استعماله، بسبب غلاته وربما نقصه. انظر: الزجالي، المصدر السابق، ج 2، ص 09.

كما تحدثت بعض الدراسات عن تذبذب الأسعار خلال الفترة¹ وهو أمر طبيعي أملت الظروف الاقتصادية والسياسية والطبيعية التي شهدتها البلاد في مختلف الفترات، فأسعار السلع والبضائع كانت تنخفض في وقت الكثرة بينما ترتفع عند قلتها في الأسواق، وما ينهض دليلا على هذا أن الإدريسي ربط حديثه عن رخص الأسعار بكثرة المنتوجات، فعندما يذكر قلعة أيوب يقول أنها: "كثيرة الأشجار والثمار... كثيرة الخصب رخيصة الأسعار"²، أما قلعة دروكة فيقول عنها: "غزيرة البساتين والكروم، كل شيء بها كثير رخيص"³، وأوريولة" بها من الفواكه ما لا تحصيل له"⁴ مما كان له انعكاس واضح على الأسعار فيها.

كما يظهر تأثير الوفرة وعدمها على الأسعار في التباين الذي تعرفه مناطق البلاد، فتجد بضاعة بسعر في منطقة معينة بينما تجده بسعر مرتفع في أخرى، فقد جاء في فتاوى ابن رشد أن رجلا استأجر أجيرا بطعام في مجريط فلما وصل إلى قرطبة، رفض أن يعطيه الطعام، لأن ثمنه مضاعف في قرطبة⁵، وبينما بلغ 12 مدا و 15 مدا من القمح في قرطبة وشتتين بدرهم كان ثمنه أكثر في شرق الأندلس، حيث أن الدرهم لم يكن يشري إلا نصف مد أو 05 أمداد على الأكثر⁶.

ولا شك أن القلة والوفرة في المنتج الزراعي لها ما يفسرها، إذ أن البلاد عرفت فترات من الحروب والصراعات وهو ما أدى إلى إهمال الأرض وفرار الفلاحين من قراهم خوفا على أنفسهم⁷، وفي فتاوى ابن رشد ما يكشف عن هذه الحالة، إذ عبرت نازلة عن نقص الغلات للطحن بسبب حالة الخوف التي شهدتها البلاد⁸، كما ذكرت نازلة أخرى ما كان يصيب الثمار من فساد نتيجة غارات النصارى على المناطق الريفية⁹، وهو ما يسهم في نقص الحاصلات الزراعية، مما يؤدي بالضرورة إلى ارتفاع أسعارها في الأسواق.

¹ أحمد موسى، المرجع السابق، ص ص 402-404.

² الإدريسي، المصدر السابق، ص 554.

³ نفسه.

⁴ نفسه، ص 558.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص 936؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج 6، ص ص 197، 198.

⁶ أحمد موسى، المرجع السابق، 402.

⁷ وردت في المذكرة أمثلة عن ذلك، يمكن الرجوع إليها.

⁸ ابن رشد، المصدر السابق، ج 2، ص ص 1282، 1283.

⁹ نفسه، ج 3، ص 1614.

وتؤكد دراسة نكادي ما تم الوقوف عليه، إذ يعتقد أن ارتفاع الأسعار، كان السمة البارزة خلال القرن 05هـ/ 11م، ودليله أن أوصاف الجغرافيين في القرن 04هـ/ 10م تحدثت عن رخص الأسعار وكذلك الحال بالنسبة لجغرافي القرن 06هـ/ 12م، بينما تغيب هذه الأوصاف خلال القرن 05هـ/ 11م¹ وهذا الكلام يحتمل الكثير من الصحة، لأن البلاد عرفت خلال هذه الفترة صراعات وحروباً كثيرة، نتج عنها إهمال النشاط الفلاحي، مما كان له الأثر الواضح على الإنتاج الزراعي.

وزادت الظروف الطبيعية في سوء الأوضاع، وقلة الغلات مما أسهم في ارتفاع الأسعار، ويكفي للدلالة على ذلك أن مطلع القرن 05هـ/ 11م، عرفت فيه البلاد عدداً من الكوارث الطبيعية، أثرت على الانتاج وعم الغلاء وانتشر الوباء فسقطت الكثير من الأرواح²، وفي الربع الأول من القرن 06هـ/ 12م أشار ابن القطان ضمن حوادث سنة 526هـ/ 1131م، إلى اشتداد المجاعة في قرطبة، حيث بلغ سعر المد من القمح خمسة عشر ديناراً³.

وإضافة إلى عامل الوفرة المتحكم في الأسعار فإن السلطة حاولت ضبط الأسعار في الظروف العادية من أجل ضمان وصول السلع والبضائع لمختلف الشرائح، وهذا ما سيساعدها على تفادي -الاضطرابات الاجتماعية- حسب تعبير أحدهم⁴، وأوكلت هذه المهمة إلى صاحب السوق (المحتسب)، الذي كان يعمل جاهداً بالنزول إلى السوق، وتحديد أسعار بعض السلع وحصر شطط الباعة في ذلك⁵، ويراعى في التسعير المصلحة العامة، فيحدد سعراً يناسب التاجر والمستهلك وكله قائم على التراضي⁶.

وشمل التسعير سلعا مثل: "الزيت والعسل والسمن واللحم والبقل والفاكهة وشبه ذلك مما يشتريه أهل السوق من الجلاب للبيع على أيديهم"⁷، أي أن طبيعة هذه السلع الخاضعة لنظام الاحتكار التجاري¹

¹ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 335.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 105؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 118؛ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 336، 337.

³ ابن القطان، المصدر السابق، ص 226.

⁴ نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 334.

⁵ رمضان، المرجع السابق، ص 65.

⁶ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 89.

⁷ نفسه.

هو الباعث وراء تسعيرها.

أما السلع واسعة الاستهلاك أو السلع الأساسية مثل: القمح والشعير فلم يوافق صاحب السوق أن على احتكار هذا النوع من السلع لما فيه من المضرة على المستهلكين، ولذلك منعوا الجلابين لها من إعادة بيعها لتاجر أو مجموعة تجار حتى لا يتسبب ذلك في ارتفاع سعره²، كما منعوا من إنزاله في الدور والفنادق ولا يبيعه فيها، بل يجب أن يخرجوه إلى السوق مخافة أن لا يصل هذا الطعام إلى الضعاف من المجتمع³.

ولم يجز الفقهاء تسعير هذا النوع من المواد، وتركوا للجلاب على ما يظهر الحرية في بيعه، في الأسواق ويكون الاتصال مباشرة بينه وبين المستهلك⁴، لكن يبدو أن الجلابين من أهل المجتمع الريفي لم يكونوا ملتزمين بهذه القواعد المنظمة للتجارة في أسواق المدينة، فكانوا على عجلة للعودة إلى ديارهم وقراهم فحاولوا التخلص من هذه السلعة بسرعة ببيعها للتجار⁵، ويدل على ذلك اتخاذهم فضاءات في المدينة لبيع مختلف منتجاتهم غير الأسواق المخصصة لذلك، مثل رحاب المساجد غير آبهين بجرمة المساجد وأحكام السوق التي هيكلت الأنشطة الاقتصادية⁶.

وهذا ما يجعلهم ربما عرضة للانتهازيين من التجار، الذين يخسونهم حقهم، وينتقصون من أسعار تلك السلع، غير مقدرين الجهد الذي قام به هؤلاء الفلاحون، وغير مباليين بأهمية الأعمال الفلاحية، التي قاموا بها حتى صارت سلعة قابلة للاستهلاك⁷.

وهكذا يتضح أن الفلاحين نقلوا سلعهم إلى مختلف الأسواق، دون أن يكون بمقدورهم فرض أسعار

¹ محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة الإسلامية في القرن 11/105م الحياة الاقتصادية والاجتماعية، د.ط، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984، ص 123.

² ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 88، 89.

³ أحمد سعيد المجليدي، التيسير في أحكام التسعير، تق وت.ح. موسى لقبال، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 53، 53.

⁴ ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 88، 89. لا يمكن للجلاب أن يبيع بالثمن الذي يريد، لأن قاعدة العرض والطلب هي التي تتحكم في السعر، فلم يكن بمقدوره طلب سعر مرتفع، إذا كان الطلب على هذه السلعة ضعيفا، كما لا يمكن البيع بسعر منخفض، إذا رأى الطلب على سلعته كبيرا. انظر: نكادي، الزراعة في الأندلس، ص 334.

⁵ المجليدي، المصدر السابق، ص 54؛ دندش، المرجع السابق، ص 206؛ خلاف، المرجع السابق، ص 123.

⁶ فتحة، المرجع السابق، ص 272، 273.

⁷ عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، د. ط، الجزائر، وزارة الثقافة، 2007، ص 355.

لها، نظير الجهد الذي بذلوه من أجل إنتاجها، فقد كان قانون العرض والطلب العامل الأول، المتحكم في ارتفاعها وانخفاضها، كما كان للسلطة أحيانا دور في ضبطه.

ثانيا/ الحياة الثقافية والدينية في المجتمع الريفي:

1- الحياة الثقافية:

عرفت الحياة الثقافية في الأندلس، خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م، ازدهارا ملحوظا عبرت عنه الكثير من الدراسات التي تناولت هذا النشاط، غير أنها ركزت على الحركة الثقافية التي شهدتها المدن، وهذا ما جعل بعضها يحكم بضالة دور المجتمع الريفي في النشاط الثقافي، معللا ذلك ببعده عن المراكز الثقافية هناك¹، وبالرغم من راحة هذا التبرير إلا أن الحكم يبدو مبالغيا فيه، ومن أجل استجلاء الأمر يجب التنقيب في مختلف المصادر خاصة كتب التراجم، للكشف عن دور هذا المجتمع في الحياة الثقافية، بإبراز واقع الحياة التعليمية في المناطق الريفية، ثم إسهامات ساكنة الريف في النشاط الثقافي الذي عرفته البلاد خلال الفترة مجال الدراسة.

أ- واقع التعليم عند المجتمع الريفي:

لا شك أن التعليم عند المجتمع الريفي في الأندلس لم يكن يسيرا لكل فئاته وطبقاته، ففي ظل الظروف التي عرفها الفلاحون وأبناءؤهم، وبسبب النشاط الفلاحي الذي كان يأخذ جل وقتهم، وضعف مستواهم المعيشي - مما جعلهم يبذلون جهودا إضافية لتحسينه - فقد أسهم هذا الوضع كله في عدم استفادة أبناء هذه الفئات من فرص التعليم المتاحة خاصة في المدن².

أما أبناء الطبقات الميسورة من الملاكين الكبار، فإن ظروفهم ساعدتهم على نيل حظهم من التعليم خاصة أنهم كانوا يقيمون في المدن - كما تمت الإشارة إليه سابقا³، مما أتاح لهم فرصة التدرج في مختلف مراحل التعليم، كما يمكن لبعض أبناء الوجوه العلمية المقيمة في أرياف البلاد، الاستفادة من علوم آبائهم فتلقوا أنواعا من العلوم على أيديهم، خاصة العلم الشرعي مثل علم الحديث والفقه⁴.

¹ خالص، المرجع السابق، ص 49.

² العمودي، المرجع السابق، ص 41.

³ يمكن مراجعة الفصل الثاني من هذه الدراسة.

⁴ من أمثلة ذلك ما ذكره ابن الفريسي أن عيشون بن إسحاق ت 351هـ / 964م، الذي سكن أحد أرياف إستجة، تلقى العلم عنه ابنه أبو ثابت الفرج وروى عنه، كما تلقى العلم محمد بن قاسم بن هيكل من أبيه أول ما سمع، و هو من أهل فريش. وإن كانت هذه

أما عن أماكن التعليم، فيرجح انعدام المدارس في الأرياف خلال هذه الفترة، لأن انتشار هذه المدارس جاء متأخراً عن الفترة مجال الدراسة، وإن كانت بدايات ظهوره خلال الفترة، لكنه كان ضعيفاً واقتصر على بعض المدن، مثل مدرسة مرسية التي كانت موجودة في أواخر القرن 05هـ / 11م- إن صحت هذه المسألة¹، أو بعض المدارس التي أسسها الموحدون في بلاد الأندلس خلال القرن 06هـ / 12م حسب ما أورده ابن أبي زرع².

كما أن التعليم في الأندلس خلال الفترة مجال الدراسة اعتمد كثيراً على المساجد، فيذكر ابن اسعيد أن " ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة"³ فكان المعلم أو المؤدب يتخذ جزءاً أو ركناً من المسجد، يلقي من يجتمع حوله من الصبيان وطلبة العلم العلوم والآداب⁴، في حين أوصى بعض الفقهاء أن تتخذ سقائف حول المساجد للتعليم حفاظاً على قدسيته⁵.

وفي بعض الأحيان اتخذت بعض الوجوه العلمية دورها ومنياتها، أماكن لتقديم دروس في مختلف العلوم، إذ فضل بعضهم الإقامة في الأرياف⁶، فكان الفقيه أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري من أهل طليطلة ت 403هـ / 1012م يفتح داره لطلبة العلم مدة تزيد على الثلاثة أشهر يقصدونه من مختلف المناطق ويأخذون عنه الفقه⁷، وربما تكون هذه المدة اللازمة لأخذ هذا العلم عنه. واتخذ الفقيه أبو محمد

الأمثلة متقدمة عن الإطار الزمني لهذه الدراسة، إلا أنه يمكن توظيفها، لأن هذه الظاهرة قابلة للتكرار في مختلف الأزمنة، مع غياب النصوص الدالة عليها في الفترة المدروسة. انظر: عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدقي القرطبي المكنى أبا الوليد بن الفرضي ت 351-403 / 962-1013م، تاريخ علماء الأندلس، تح. إبراهيم الأبياري، ط2، القاهرة- بيروت، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، 1989، ج2، ص 568، ص 721.

¹ يعتمد أصحاب هذا الرأي على إشارة واحدة فقط وردت في مصدر متأخر عن الفترة لابن فرحون ت 799هـ / 1397م في ديباجه بينما لا توجد القرائن التي تعضده في تراجم القرن 05هـ / 11م، مما يدل على ضعف هذا الحكم. انظر: نانسي حسين الرواشدة، الحياة العلمية في مرسية الإسلامية من القرن الخامس الهجري إلى القرن السابع الهجري، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد عبدة حتمالة، الجامعة الأردنية، 2001، ص ص 75-77.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 217.

³ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 220.

⁴ الخشني، المصدر السابق، ص ص 149، 150.

⁵ ابن عبدون، المصدر السابق، ص 22.

⁶ ابن ورد، المصدر السابق، ص ص 109، 110.

⁷ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص ص 72، 73.

علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (384-456هـ / 994-1063م) بيته في قريته مكانا للتدريس بعد أن ضيق عليه ملوك الطوائف فقد كان: "يث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده، من عامة المقتبسين من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون الملامة، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم"¹. وكان علي بن محمد بن علي بن هذيل البنسي (471-564هـ / 1078-1168م) الذي انتهت إليه رئاسة القراء بشرق الأندلس، يمتلك ضيعة في مليلة في جزء الرصافة غربي بلنسية، وكلما توجه إليها قصده طلبه العلم للقراءة عليه والسماع منه².

ومن أسعفته الظروف من أبناء المجتمع الريفي، وكان ممن شغل نفسه بالعلم، ينتقل إلى المدينة ليواصل تعليمه فيها، مثل عيسى بن صالح بن مروان ت 420هـ / 1029م، الذي أخذ العلم بإشبيلية قادما من إحدى أرياف شرق المدينة³، ومن قرية بشكلار بجيان رحل محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد ت 462هـ / 1070م فأخذ العلم عن مجموعة من علماء سرقسطة⁴، وغالب بن عبد الله بن أبي اليمني القطيني ت 465هـ / 1072م الذي حدث عن نفسه أنه خرج من قرية قطين من عمل ميورقة، إلى الحاضرة ميورقة لطلب العلم وهو في الرابعة عشر من عمره⁵، أما الشاعر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري (422-479هـ / 1031-1086م)، فقد نشأ في أسرة متواضعة بقرية شنبوس إحدى قرى شلب، ثم انتقل إلى مدينة شلب فأخذ العلم بها، ومنها رحل إلى قرطبة ليأخذ العلم عن علمائها⁶ وخرج علي بن يحيى بن عيسى القرشي ت 552هـ / 1157م من قرية أطرية من بلاد المنكب، وأخذ علم القراءة عن محمد بن عبد الله الجذامي في مدينة شاطبة⁷.

ولم تقتصر الرحلة في طلب العلم عند البعض على مدن الأندلس، بل قام عدد من أبناء المجتمع

¹ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ / 1374م، سير أعلام النبلاء، تق. بشار عواد معروف، ط11، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1996، ج18، ص201.

² ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج5، ص370.

³ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص631.

⁴ ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص340، 341؛ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص428.

⁵ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج5، ص517، 518؛ الذهبي، المصدر السابق، ج18، ص326-328.

⁶ المراكشي، المعجب، ص88؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص389؛ جمعة شيخه، شلب الإسلامية عبر التاريخ من خلال المصادر العربية "دراسات أندلسية" العدد17، تونس، المطبعة المغاربية للنشر والإشهار والطباعة، 1998، ص62.

⁷ ابن الأبار، التكملة، ج3، ص195، ج1، ص346.

الريفي بالرحلة إلى خارج الأندلس، مثل أبو العباس أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج بن عيسى اللخمي المقرئ ت410هـ/1019م من أقليم في ريف طليطلة، الذي كانت له رحلة إلى مصر وبغداد وأخذ عن العلماء هناك¹، وحجاج بن محمد بن عبد الله المراكشي ت429هـ/1037م - نسبة إلى حصن مركيش من أعمال إشبيلية- الذي اهتم بالحديث وعلومه، فقصد بلاد المشرق من أجله²، وعلي بن سليمان بن أحمد بن سليمان الذي خرج من قرية فرغلط بشقورة، فسكن قرطبة ثم رحل إلى المشرق ودخل خراسان سنة525هـ/1131م، وتعلم وتفقه بها حتى أصبح فقيها على المذهب الشافعي، وتوفي هناك بحلب سنة544هـ/1149م³.

ومما لا شك فيه أن خروج هؤلاء من قراهم لطلب العلم، ربما يكون نتيجة لمحدودية ما يقدم من علوم في المناطق الريفية، والتي لا تتجاوز في كثير من هذه المناطق المرحلة الأولى، التي يتعلم فيها المتعلم القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية والخط، ويخلطون معها شيئا من رواية الشعر، كما يمكن أن يأخذ شيئا من مبادئ الحساب⁴.

ويشرف على العملية التعليمية في هذه المرحلة المؤدب، الذي يستعمل لوحا من خشب يكتب عليه حروف الهجاء حتى يتعلمها الصبي، ثم ينتقل إلى كتابة سور القرآن فيها، كما يقوم المؤدب بالنظر في ألواح الصبية فيشكلها لهم ويصلح أخطاءهم⁵، ويتحصل مقابل ذلك على أجرة معينة⁶، قد تكون مبلغا من المال متفق عليه مسبقا، أو مواد عينية مثل القمح أو الزيت، وربما يتحكم عرف القرية في تحديد أجرة المؤدب إن لم يشترطها⁷، كما تحكم العرف في تحديد ما يقدمه والد الصبي للمؤدب عندما يختم ابنه حفظ القرآن، إذا

¹ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص ص 65، 66.

² الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 109.

³ الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 193.

⁴ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 602؛ ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، ج4، ص ص 65-67، ص 69؛ دندش المرجع السابق، ص 310.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 906؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 244؛ خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس وأصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، تر. الطاهر أحمد مكي، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1994، ص 37. يجب التنويه إلى أن هذه الطريقة ما زالت هي السائدة في كتاتيب الجزائر وغيرها من مناطق المغرب الإسلامي، خاصة في المناطق الريفية.

⁶ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 211.

⁷ ريبيرا، المرجع السابق، ص 38، ص 140.

لم يكن موضحاً في عقد الإجارة¹، وأحياناً يتكرم الآباء على المؤدبين بهدايا مختلفة في المناسبات والأعياد الدينية كعيدي الفطر والأضحى².

ومنه يمكن القول في الأخير أن التعليم عند المجتمع الريفي لم يكن ذا بال، إذ لم يتعدى في أغلب المناطق المرحلة الابتدائية، مما أسهم في تعلم الفلاحين وأبنائهم مبادئ القراءة والكتابة فقط³، ومن أراد إكمال تعليمه كان لزاماً عليه أن يقوم برحلة إلى مراكز التعليم في مختلف مدن البلاد وحتى خارجها، هؤلاء الذين سوف ينالون حظاً أوفر من العلوم ويرتقون في مراتب العلم، وربما يكون لهم إسهام في النشاط الثقافي في البلاد.

ب- إسهامات المجتمع الريفي في النشاط الثقافي:

أوردت كتب التراجم وغيرها من المصادر العديد من الشخصيات الريفية، التي كان لها نصيب وحظ وافر في الحياة الثقافية والعلمية التي عرفتها البلاد خلال القرنين 05 و 06 هـ / 11 و 12م، وكثيراً ما نسبت هذه الشخصيات إلى قراها ومناطقها الريفية المختلفة، وقد برزت بشكل خاص في الأدب والشعر وكذا العلوم الشرعية.

- الأدب والشعر:

ظلت اللغة العربية سواء الفصحى أو العامية لغة التخاطب والعلم والشعر في الأندلس، فالمقري ينقل عن ابن سعيد قوله عن أهل الأندلس أنهم " يحافظون على قوام اللسان العربي لأنهم إما عرب أو متعربون"⁴ وقد كان تأثيرها واضحاً على مختلف الإثنيات، فأهل الذمة كانوا على دراية كبيرة بها، إذ أطلق على النصارى المتشبهين بالعرب في لغتهم وثقافتهم مصطلح المستعربين⁵، أما اليهود فقد كان بعضهم ينظم الشعر باللغة العربية⁶.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 247.

² نفسه، ص 254.

³ اعتبر أحدهم هذا الأمر تطوراً علمياً مقارنة بما كانت تشهده أوروبا خلال فترة الوجود الإسلامي. انظر: سامي مكّي العاني، دراسات في الأدب الأندلسي، د. ط، بغداد، الجامعة المستنصرية، 1978، ص 96.

⁴ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 125.

⁵ للمزيد حول هذا المصطلح يراجع الفصل الثاني.

⁶ حاج كولة، المرجع السابق، ص 64.

ولم تكن المناطق الريفية بمنأى عن هذا التأثير، فقد وصف ابن بسام نزهة أحدهم في منطقة ريفية ونقل حواراً دار بينه وبين شاب نصراني من تلك المنطقة، أظهرت مدى استعراجه وحسن استخدامه للغة العربية، وتوظيفه لمختلف الصور البيانية والمحسنات البديعية¹، وفي بعض المناطق اتخذ بعض النصارى أسماء عربية². ومما لا شك فيه أن هذا التأثير كان نتيجة انتشار العنصر العربي في مختلف المناطق الريفية، وانفتاحه على العناصر الأخرى، والاستخدام الواسع للغة العربية بها.

وقد أشار ابن بسام ما يفيد إلى حسن استخدام بعض الريفيين للغة العربية وقرضهم الشعر³، بينما اشتهرت مناطق بأكملها بالفصاحة وقرض الشعر، مثل ساكنة أرياف شلب الذين "لو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته الشعر لقرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبت منه"⁴، ولئن كان السبب في ذلك واضح، لأنهم عرب يمنيون، فإن المناطق الأخرى شهدت مثل هذه الظاهرة، مما أدى بالمستشرق هنري بيريس في دراسته المعنونة بـ "الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف ملاحمه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمتها التوثيقية"، إلى القول أن: "إضافة الفلاحين إلى الحياة الأدبية هي الأكثر أهمية دون شك فالشعراء الريفيون هم الذين أضفوا على الشعر الأندلسي هذه الظلال الريفية أو الرعوية ويضارع ما كتبوه أروع ما كان يكتب في اليونان أو روما من أدب صادق"⁵.

ويبدو أن هذا الحكم يحمل نسبة كبيرة من الحقيقة، فكتب التراجم وغيرها من المصادر أوردت تراجم الشعراء الريفيين وأثبتت على قصائدهم وأشعارهم، منهم أبو عمرو أحمد بن محمد بن دراج القسطلبي (347-421هـ/ 958-1030م) الذي ينسب إلى قرية قسطلة دراج غرب الأندلس، والذي يعتبر من أشهر شعراء عصره رغم أصوله البربرية⁶، وقد عُدد من فحول الشعراء، وأنه لم يكن في الأندلس أشعر منه حتى أن شعره يضاهي ما كان ينظمه كبار الشعراء المعروفين في بلاد المشرق⁷، وقد عرض ابن بسام نماذج

¹ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، صص 684، 685.

² ابن سهل، وثائق في أحكام أهل الذمة، ص 57.

³ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 678.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص 543؛ الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 406.

⁵ نقلاً عن: قرني، المرجع السابق، ص 423.

⁶ أحمد الطاهري، قسطلة وشاعرها ابن دراج في تاريخ الأندلس وآدابها، د. ط، الرباط، مؤسسة الإدريسي المغربية الإسبانية للبحث التاريخي والأثري والمعماري، 2009، ص 28.

⁷ الحميدي، المصدر السابق، صص 113، 114. وعن ما قيل فيه انظر: العاني، المرجع السابق، صص 259، 260.

من نثره وشعره واصفا إياها بقوله: "وقد أتيت أنا من شعره بما يبهه نيرات الألباب ويظهر خفيات الأسباب، ومن نثره ما يبهر العقول ويباهي الغرر والحجول، ويسامي التيجان والأكاليل ويسهل التقليد والتأويل"¹.

وخلال عصر بني عباد في إشبيلية برز الشاعر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري (422-479هـ / 1031-1086م)، الذي بدأ في نظم الشعر وهو فتى شاب واتخذ وسيلة للتكسب، فأوصله شعره إلى إشبيلية وأصبح صديقا للمعتمد بن عباد وملازما له، وتولى في عهده عدة مناصب سياسية كالولاية والوزارة والسفارة، وطمح إلى الاستقلال عن إشبيلية بعد استيلائه على مرسية سنة 471هـ / 1078م، لكنه فشل وظفر به المعتمد بن عباد وقتله بنفسه². أما عن شعره فيقول المراكشي أن له مجموع مقبول عند أهل الأندلس، أما أهل الأدب فإنهم يقدمونه ويؤثرونه على غيره³، ويصفه ابن خاقان بأنه "شاعر مطبوع"⁴، بينما يذكر ابن بسام ألوان الشعر التي نظم فيها ابن عمار شعره واصفا بالقول إنه: "كان شاعرا لا يجارى، وساحرا لا يبارى، إذا مدح استنزل العُصم، وإن هجا أسمع الأصم، وإن تغزل ولا سيما في المعذرين من الغلمان، أسمع سحرا لا يعرفه البيان"⁵.

وفي القرن 06هـ / 12م برز من حصن المدور بريف قرطبة الشاعر الهجاء أبوبكر محمد الأعمى المخزومي الذي وصفه ابن سعيد بأنه: "بشار الأندلس انطبعا ولسانا وأداة، وهو الذي أحيا سيرة الخطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد... ويقع فيمن أطاعه أو عصاه"⁶، ومن كثرة نظمه لهذا الفن من الشعر كان لا يحسن غيره، فإذا ما أراد أن يمدح ضعف شعره على قول ابن الخطيب⁷، وقد جال هذا الشاعر في البلاد الأندلسية واستقر مدة في غرناطة، فحدث هجاء بينه وبين شاعرتها زهون بنت

¹ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص62، أما عن هذه النماذج: ص ص 62-96.

² المراكشي، المعجب، ص ص 88-96؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص ص 389، 391؛ شيخة، المرجع السابق، ص ص 62، 63.

³ المراكشي، المعجب، ص 85.

⁴ ابن خاقان، قلائد العقيان، ص 254.

⁵ ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص 369.

⁶ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 228.

⁷ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 424.

القلاعي¹.

كما برز في هذا الفن أبو بكر يحيى بن سهل اليكّي ت 560هـ / 1165م - نسبة إلى حصن يكة من عمل مرسية-، هذا الشاعر لا تجيد قريحته إلا في الهجاء، وعُدَّ بالإضافة إلى أبي بكر محمد الأعمى المخزومي وأبي بكر محمد بن أحمد الأنصاري المشهور بالأبيض بأنهم هجّأوا الأندلس²، ويعتبر الأخير منهم هو الآخر شاعرا ريفيا، إذ ينتسب إلى قرية همدان من قرى غرناطة، وقد كان شاعرا ووشاحا وولع بالهجاء، فهجا والي المرابطين على قرطبة آنذاك بقوله³:

عكف الزبير على الضلالة جاهدا ووزيره المشهور كلب النـار
مازال يأخذ سجدة في سجدة بين الكؤوس ونغمة الأوتار
فإذا اعتراه السهو سبح خلفه صوت القيان ورنه المزمـار

وفي المدح اختار الشعراء هذا الفن طلبا في أعطيات الأمراء أو سعيًا للحصول على جاه، يمكنهم من تحسين مستواهم المعيشي والارتقاء في المرتبة الاجتماعية، وقد برز العديد من شعراء الريف الأندلسي من اختاروا هذا السبيل، خاصة في عصر ملوك الطوائف أمثال الشاعرين المذكورين سابقا أحمد بن محمد بن دراج القسطلبي، وابن عمار صاحب المعتمد بن عباد، كما كان الشاعر أبو علي إدريس بن اليماني العبدري ت 470هـ / 1077م من قرية قسطة دراج، يتردد على ملوك الطوائف مادحا لهم وطامعا في أعطياتهم، وقد اشتهر شعره في الأندلس حتى " ماجت الأرض ببحره، وصار شعره سمر النادي، وتعلّاه الحادين وتمثل الحاضر والبادي"⁴، ولم يتردد أبو الطاهر يوسف بن محمد الأشكركي من قرية أشكره بسرقسطة، في مدح بني هود ملوك سرقسطة حتى كان له جاه ومكان عندهم، كما لم يتردد في التجول بين ملوك الطوائف ومدحهم خاصة المعتصم بن صمادح صاحب المرية⁵. وانتهى المطاف بالشاعر أبي زيد عبد الرحمان بن مقانا الأشبوني ق 06هـ / 12م في قريته القبذاق - من أعمال أشبونة غرب الأندلس - يمارس

¹ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص 228؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ص ص 425-427؛ المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص ص 192، 193.

² ابن سعيد، المصدر السابق، ج 2، ص 266؛ ج 1، ص 266.

³ نفسه، ج 2، ص 127.

⁴ ابن بسام، المصدر السابق، ج 3، ص 336. انظر أيضا: الحميدي، المصدر السابق، ص 170؛ الضبي، المصدر السابق، ص ص 289، 290.

⁵ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 2، ص 447.

النشاط الفلاحي بعد أن كان ينتقل بين ممالك الطوائف يمدح رؤساءهم¹.

كما كان لشعراء الريف الأندلسي أو من ينتسبون إليه مشاركة في شعر الزهد، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود ت 460هـ / 1068م من حصن العقاب، والذي فضل البقاء به زهدا في الدنيا وملذاتها التي توفرها المدينة وعقابا لنفسه من العصيان، وهو الذي عظم قدره في غرناطة، وكان سببا في تهييج صنهاجة على الوزير اليهودي ابن النغيلة سنة 459هـ / 1066م، وقتله ونهب دور اليهود والثورة عليهم²، وقد صنف هذا الشاعر ديوانا كله في الحكم والمواعظ والزهد، فلقي قبولا عند أهل الأندلس وأقبلوا على حفظه³.

وفي الأخير ومن خلال هذه الأمثلة والنماذج يتضح أن إسهام الشعراء الريفي في الحركة الأدبية كان كبيرا خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م، فقد كانت لهم مشاركات في كل فنون الشعر، ونال بعضهم شهرة واسعة في كل الأندلس.

- علوم الشريعة:

حظي العلماء والفقهاء بمكانة متميزة في المجتمع الأندلسي، حيث تمتعوا باحترام الدولة في مختلف الفترات فتولوا المناصب العليا، ولأنهم حفظوا الدين وحملوا الشريعة أجلهم المجتمع⁴، ولهذا أوصى أبو الوليد الباجي (403-474هـ / 1012-1081م) ولديه بالاعتناء بعلوم الشريعة بقوله: "هل تريان أحدا أرفع حالا من العلماء، وأفضل منزلة من الفقهاء، يحتاج إليهم الرؤوس والمرؤوس، ويقتدي بهم الوضع

¹ ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص 787؛ أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي 610-685هـ، رايات المبرزين وغايات المميزين، تح وت. محمد رضوان الداية، ط1، دمشق، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1987، ص 102.

² نظم لهذا الغرض قصيدة ومما جاء فيها :

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور الزمان وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة	أقر بما أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا	ولو شاء كان من المسلمين
فعر اليهود به وانتخوا	وكانوا من العترة الأذليين

انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص ص 132، 133.

³ نفسه، ص 133؛ ابن البار، المصدر السابق، ج1، ص ص 118، 119؛ الضبي، المصدر السابق، ج1، ص 274.

⁴ حاج كولة، المرجع السابق، ص 41.

والنفيس" ¹.

واحتل الفقه الصدارة في اهتمامات المجتمع الأندلسي بين سائر العلوم، فللفقه "عندهم رونق ووجاهة ولا مذهب لهم إلا مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به محاضر ملوكهم ذوي الهمم في العموم، وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى أن المثلثين كانوا يسمون الأمير المعظم منهم الذين يريدون تنويهه بالفقيه" ²، وقد لعبت السلطة في مختلف الفترات التي عرفت بها البلاد دورها في هذا التوجه، فالكثير من الخطط الدينية كالقضاء والحسبة وإمامة الصلاة تحتاج إلى علم بالفقه، فكان تعيينهم يتم على هذا الأساس، إضافة إلى المكانة التي بلغها الفقهاء في مختلف العصور، حتى أطلق على بعضها بعصر الفقهاء ³.

وقد برز العديد من الفقهاء الذين ينتسبون إلى المناطق الريفية، وأسهموا في الحركة الفقهية التي شهدتها البلاد خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م تصنيفا وتدرسا، منهم الفقيه أبو القاسم خلف مولى يوسف بن بهلول البريلي ت 443هـ / 1051م - نسبة إلى بريل من عمل بلنسية - الذي شرح مدونة سحنون واختصرها في كتاب سماه التقريب والذي قيل عنه: "من أراد أن يكون فقيها من ليلته فعليه بكتاب البريلي" ⁴، ومن قرية البونت من عمل بلنسية اختصر عبد الله بن فتوح بن موسى بن عبد الواحد الفهري ت 462هـ / 1069م، كتاب المستخرجة وغيرها من كتب الفقه المالكي ⁵، أما الفقيه أبو وهب عبد الأعلى فقد فضل الإقامة بجنته بقرب مقبرة قريش، التي كان يعتمرها بيده وبها يلقي الدروس على طلبة العلم ⁶.

في حين برز بعضهم خارج المذهب المالكي، مثل عبد الله بن محمد بن سعيد الأموي البشكالري ت

¹ جودة عبد الرحمن هلال، وصية الشيخ أبي الوليد الباجي "مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية"، العدد 01، مدريد 1955، ص 34.

² المقرئ، نفح الطيب، ج 1، ص 221.

³ يقصد به عصر المرابطين، حيث بلغ من اهتمام المرابطين بالفقه المالكي مبلغا جعل بعض الشعراء يعبر عن امتعاضه من كساد بضاعتهم ونفاق سوق الفقه. انظر: القاضي عياض وولدم محمد، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص 13؛ بلغيث، الحياة الفكرية، ص 210.

⁴ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 269.

⁵ نفسه، ج 2، ص 428.

⁶ عصمت عبد اللطيف دندش، من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس طقوس الجنائز "دراسات أندلسية" العدد 13، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1995، ص 22.

461هـ/ 1068م من قرية بشكلار في جيان، والذي برز في المذهب الشافعي رغم أن بداية دراسته انصبت على المذهب المالكي¹.

أما أبرز فقهاء غير المالكية في الأندلس، فهو الفقيه ابن حزم الظاهري ت 456هـ/ 1063م الذي ينتمي إلى أصول ريفية، فهو من أسرة استوطنت قرية منت ليشم من كورة لبله غرب الأندلس، وأنهى حياته بهذه القرية في عصر ملوك الطوائف²، ويعتبر ابن حزم من أكثر الشخصيات العلمية شهرة في الأندلس، فقد درس الفقه المالكي ثم انتقل إلى الشافعي، ثم استقر على الظاهري فكان أبرز أعلامه، كما كان كثير التأليف والتصنيف، فيذكر أنه ألف نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة³ حتى عدّه أحدهم أنه من أكثر خلق الله كتابة وتأليفاً، فألف في كل صنف من أصناف العلوم عدا الرياضة⁴.

وقد خص ابن حزم المذهب الظاهري بالعناية، ويظهر ذلك بشكل جلي في المصنفات التي ألفها والتي يذكر عنها في رسائله: "ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى...ولنا فيما تحققنا به تأليف جملة منها ما قد تم، ومنها ما شارف التمام، ومنها ما قد مضى منها صدر، ويعين الله على باقيه"⁵، واستطاع بعد أن استقر به المقام في قريته أن يتم ما قرر، ومن هذه المصنفات كتاب "المحلى"، الذي عرض فيه الفقه الإسلامي من منظور ظاهري مع عرض للمذاهب الأخرى والتعقيب على آراء أصحابها، بينما كتابه "الإحكام في أصول الأحكام" عرض فيه مصادر وأصول المذهب الظاهري، مع نقد لأصول المذاهب الأخرى المخالفة لمذهبه⁶، وبفضل هذه الجهود استطاع ابن حزم الظاهري أن يعيد إحياء المذهب الظاهري الذي كان قد أوشك على الزوال⁷، وأصبح لقب الظاهري أكثر التصاقاً به باعتباره علماً له.

¹ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص427؛ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص428.

² ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص329، 330.

³ نفسه، ص ص325، 326.

⁴ أنجل جونثاليت بالثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر. حسين مؤنس، د. ط، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت، ص217.

⁵ ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، ج2، ص186.

⁶ عبد الباقي السيد عبد الهادي، ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2014، ص ص117، 118.

⁷ نفسه، ص ص118، 121.

بالإضافة إلى تدريس الفقه والتأليف فيه، فإن تولي بعض الفقهاء الذين ينتسبون إلى المناطق الريفية لبعض الخطط والمناصب، هو إقرار من السلطة القائمة بعلو كعبهم في الفقه، فمنصب مثل القضاء الذي يعتبر أعظم الخطط، يشترط في صاحبه مجموعة من الخصال يأتي في مقدمتها علم الفقه¹، وقد تولي منصب القضاء مجموعة من هؤلاء، مثل الفقيه أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن الحسن بن المسعود الجذامي البزلياني ت 461هـ / 1068م - نسبة إلى قرية بزليانة القريبة من مالقة - الذي تولي قضاء إلبيرة ويوصف بأنه من أهل العلم والفضل²، وينسب إلى حصن شمنتان من أعمال جيان، القاضي أبو بكر عبد الرحمان بن عبد الرحمان بن عيسى بن رجاء الحجري الشمنتاني ت 486هـ / 1093م، الذي كان خيرا فاضلا وولي قضاء المرية قبل دخول المرابطين³، وتولى قضاء طلبيرة من أعمال طليطلة أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكتاني الوقشي - نسبة إلى قرية وقّش في طلبيرة - وقد كان رجلا عالما بالفقه⁴، في حين تولي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن شيرين الجذامي ت 503هـ / 1109م أحكام حصن مرجيق، ثم انتقل إلى قضاء شلب فإشبيلية، ويعتبر هذا الفقيه من شيوخ القاضي عياض، وكان من أهل العلم والمعرفة عالما بالأصول والفروع⁵.

ولم يقتصر بروز أبناء الريف الأندلسي على علم الفقه فقط، بل كان لهم حضور في علوم الشريعة الأخرى، ففي علم الحديث برز حجاج بن محمد المراكشي ت 429هـ / 1037م، الذي كانت له عناية خاصة بالحديث وعلومه⁶، وينسب إلى حصن لماية من أعمال مالقة أبو إسحاق إبراهيم بن شاكر بن خاطر اللمائي، الذي وصف بالصلاح والفضل وحفظه للحديث ورجاله⁷، أما أبو محمد عبد الله بن عيسى الشيباني من حصن لقنة في بطليوس، فقد كان محدثا حافظا متقنا، كان يحفظ صحيح البخاري وسنن أبي

¹ للاطلاع أكثر على هذه الشروط انظر: محمد عبد الوهاب خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ط1، المؤسسة العربية للطبع والنشر والتوزيع، 1992، ص ص 193 - 196.

² الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 410.

³ نفسه، ج3، 364؛ أبو محمد الرشاطي ت 542هـ / 1147م، اقتباس الأنوار، تق وت. إميليو مولينا وخاينيتو بوسك بيلار، د.ط، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العالم العربي، 1990، ص 86.

⁴ نفسه، ص 92.

⁵ المقرئ، أزهار الرياض، ج3، ص 155؛ شيحة، المرجع السابق، ص 64.

⁶ الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 109.

⁷ نفسه، ص ص 22، 23.

داوود عن ظهر قلب، وأخذ عن نفسه استظهار صحيح مسلم، ويبدو أن له في هذا العلم عدة تأليف¹. أما في علوم القرآن فقد برز منهم أبو العباس أحمد بن قاسم الأقليشي ت 410هـ / 1019م، فقد ألف كتاب في معاني القراءات، والتزم الإقراء بمسجد الغازي بقرطبة، وأقرأ في طليطلة حتى وفاته²، كما تصدر خلف بن موسى بن فتوح المقرئ - من قرية أشبرة في سرقسطة - الإقراء في الأندلس وأخذ عنه الكثيرون³، ومن قرية قبتور من أعمال إشبيلية برز سعيد بن محمد بن شعيب الأنصاري ت 420هـ / 1029م " الذي كان من أئمة أهل القرآن، عالماً بمعانيه وقراءاته"⁴، وعلي بن يحيى بن عيسى القرشي ت 552هـ / 1157م من قرية أطرية من بلاد المنكب، عاد إلى بلده وأقرأ القرآن وولي الصلاة بها، بعد أخذ بحظ وافر من علم القراءة⁵، ومن حصن مرجيف غرب الأندلس برز أبو عمر مرجى بن يونس بن سليمان بن عمر بن عبد الغافقي ت 600هـ / 1203م، الذي جمع بين إقراء القرآن والعربية والأدب⁶.

وفي الأخير بعد استعراض هذه النماذج والأمثلة خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م يمكن القول أن ضعف المستوى التعليمي المحدود الذي يقدم في المناطق الريفية، لم يمنع هذا المجتمع من الإسهام في الحياة الثقافية ويعود السبب بالدرجة الأولى إلى المبادرات الفردية عند بعض الآباء والأبناء للحصول على أعلى المراتب العلمية، التي سوف تمكنهم من تحسين مستواهم المعيشي.

2- الحياة الدينية:

أصبح المسلمون خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م يشكلون أغلبية السكان في الأندلس فطغت المظاهر الإسلامية على الحياة الدينية في البلاد، سواء في العبادات أو في الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية.

¹ لم تذكر المصادر التي ترجمت له عناوين هذه التصانيف. انظر: ابن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص 447؛ الحموي، المصدر السابق، ج4، ص392.

² ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص ص 65، 299.66

³ ابن الأبار، التكملة، ج1، ص 241.

⁴ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص 338.

⁵ ابن الأبار، التكملة، ج3، ص 195.

⁶ شيحة، المرجع السابق، ص 68.

أ- دور العبادة في الريف الأندلسي:

- المساجد:

اهتم المجتمع الريفي ببناء المساجد، إذ يعتبر أهم المرافق التي ضمتها المناطق الريفية كما -تم الإشارة إليه سابقاً-، فقلما تجد قرية ليس فيها مسجداً صغيراً لأداء الصلوات الخمس، وقد دلت النصوص على هذا النوع من المساجد، مثل قرية بلش التي حبست على مسجدها أرض زراعية كثيرة¹، بينما أوصى فلاح بزيت لمسجد سماه ليس في القرية غيره²، وربما تحتوي القرية الواحدة على أكثر من مسجد³، إذ الحاجة إلى بناء مساجد أخرى يكون بسبب قدم المسجد القديم وخرابه، أو ربما بسبب اتساع القرية وزيادة عدد سكانها⁴.

بالإضافة إلى ذلك انتشرت المساجد الجامعة في بعض المناطق الريفية، وهذا النوع من المساجد يجتمع فيه سكان القرى المتجاورة لأداء صلاة الجمعة، كما تؤدي فيها الصلوات الخمس؛ ويشترط في اختيار موضع المسجد الجامع تحقيق المنفعة العامة لجميع القرى المشتركة فيه، كأن يبنى في القرية التي تتوسط التجمع القروي⁵، في حين تتوفر بعض الحصون على مساجد جامعة تجمع القرى القريبة منها⁶، وقد تضطر الفتن والاضطرابات الداخلية التي عرفت بها البلاد خلال القرنين 05-06هـ/ 11-12م أصحاب القرى إلى تغيير المسجد الجامع إلى جامع الحصن، بسبب تحصن سكان القرى به ومغادرة قراهم، وبعد هدوء الأوضاع وعودة السكان إلى قراهم، يختلف أصحاب القرى بين من يرغب في العودة إلى الجامع القديم ومن يرفض ذلك⁷، كما ظهر خلاف بين سكان قرية وحصن على أداء صلاة الجمعة، إذ كانت الصلاة تقام في

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص ص 147، 148.

² نفسه، ج9، ص 399.

³ نفسه.

⁴ يفهم ذلك من أقوال الفقهاء عمن أراد بناء مسجد ثان في قرية. انظر: الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 483.

⁵ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 784.

⁶ العذري، المصدر السابق، ص 55؛ ابن الحاج، المصدر السابق، و 318.

⁷ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 784. حدثت هذه النازلة في شرق الأندلس، وأفتى فيها ابن رشد بأن لا تنقل الجمعة عن جامع الحصن، ولا عبدة بقدم الجامع القديم لأن الجمعة فيه لم تتصل بسبب انقطاع الناس عنه بسبب الفتنة. للإشارة فإن من شروط صحة الجمعة على مذهب مالك أن تجب في الجماعة الذين تتقرب بهم القرية، أما العبدة بالقدم فإنها في حال تعدد المساجد في القرية أو المصر. عن بقية شروط صحة ووجوب الجمعة انظر: النفراوي، المصدر السابق، ج1، ص 382.

حصن يبعد عن القرية ميلان أو دون ذلك، فجمع ساكنة القرية الجمعة عندهم وتركوها في الحصن، فأفتى ابن الحاج بأن ذلك خطأ عظيم منهم وواجب عليهم إعادة الجمعة¹.

وتختلف المساجد في القرى والمناطق الريفية عن مساجد المدن، إذ تتميز بالبساطة فقد أشارت دراسة أثرية أن مئذنة ريفية شرق إشبيلية مبنية بالطوب الأحمر، ورغم أنها تقليد لمئذنة المسجد الأكبر الموحد في القرن 12هـ/ 12م، إلا أن مظهرها أكثر تواضعا لطابعها الريفي²، كما حاول ساكنة بعض المناطق الريفية التكلفة في بناء المساجد، فقرية شوذر من كورة جيان المعروفة بكثرة زيتتها بها جامع من ثلاث بلاطات على أعمدة الرخام³، بينما في إقليم بيرة من كورة تدمير مسجد جامع استخدمت فيه أيضا أعمدة الرخام حتى وصفه العذري بأنه: "لم يُر مسجد أتقن منه على صغره"⁴. ويعلل بعضهم على ظاهرة التأنيق في بناء المساجد الجامعة في القرى والأرياف بأنها كانت تعبر على أهمية المكان وتحضره وكثرة سكانه، فكان مدعاة للتفاخر والتباهي عند الفلاحين، لأن المصادر كثيرا ما تشير إلى المسجد الجامع كأبرز المعالم في المناطق الريفية⁵.

ويبدو أن هذا التعليل مقبول خاصة أن إنجاز المساجد كان من اشتراكات الفلاحين أنفسهم، فقد أظهرت النصوص المختلفة أهمية الفعل التشاركي في بناء المساجد وصيانتها، إذ تشير نازلة أن رجلا أخرج أرضا لبناء مسجد، وبالقرب منه أخرج رجل آخر بقعة ثانية لنفس الغرض، فباع الأول أرضه وبنى المسجد في الثانية⁶، ويذكر ابن سعيد أن أهل حصن العقين في كورة جيان: "اتفقوا مرة على أن يجمعوا فريضة يبنون بها ما هوى من جامعهم، فبقي منهم فاضلا رأى أكثرهم أن يشتري بها منبر للجامع، لأن المنبر العتيق قد تكسر"⁷.

كما كان يتم العناية بالمساجد بفضل الأحباس التي خصصها أفراد المجتمع الريفي لهذا الغرض

¹ ابن الحاج، المصدر السابق، و 318.

² بلباس، الأبنية الإسبانية الإسلامية، ص 106.

³ الحميري، المصدر السابق، ص 351.

⁴ العذري، المصدر السابق، ص 10.

⁵ قرني، المرجع السابق، ص 304.

⁶ ابن الحاج، المصدر السابق، و 141.

⁷ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 186.

وشملت في الغالب الأراضي الزراعية والأشجار المثمرة من زيتون وكرم وغيرها، وفي بعض الأحيان تشمل الحوانيت¹، وكانت تصرف مداخيلها في البناء والصيانة والوقيد وأجرة الإمام، وكان إصلاح المسجد مقدم عند الفقهاء على أجرة الإمام، إن لم تكن تغطي كل هذه النفقات، إلا من يقوم بالخدمة الضرورية من سدنة المسجد كفتحه وغلقه وكنسه فإنه أولى إن لم يجد من يتطوع².

وتختلف أحباس المساجد الريفية من قرية إلى أخرى، فبينما كانت غلات بعض الأحباس تكفي نفقات المسجد من إصلاح وترميم ووقيد وحصر وأجرة الأئمة والخدمة وربما تفضل، لم تكن غلات مساجد أخرى تكفي إلا نفقات الإصلاح فقط، ولذلك أفتى الفقهاء بجواز تغطية النفقات من غلات أحباس المساجد التي تفضل عن حاجتها³، كما كان يستعان بمواد المساجد الخربة في القرى المجاورة لإصلاح ما تهدم من بناء في مساجد القرى العامة⁴.

وقد تتضرر المساجد من سلوكيات ساكنة الريف، فربما يستغلها الفلاحون لشؤونهم الخاصة فينزلون بأفنيتهما الحطب والزروع، أو يتركون ماشيتهم ودوابهم تسرح فتلوث الأفنية وربما ينتقل شيء من الغبار إلى داخل المسجد فيؤثر في طهارتها⁵، وربما تستغل أحباس المسجد دون وجه حق، ففي نازلة أن فلاحا استغل فدان مسجد وغرس به كرما مدة طويلة تصل العشرين سنة⁶، وفي بعض الأحيان لم يكن ساكنة بعض المناطق يأبهون بما تهدم من مسجدهم، بل إن أحد الأئمة اتهم سكان المنطقة التي كان فيها بفرحهم بتهدم أجزاء من المسجد⁷. ومما لا شك فيه أن هذه السلوكيات ناتجة عن جهل ساكنة هذه المناطق، وضعف

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 118-119، 148-153.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 311-313، ج3، ص 1267، 1268.

³ ابن رشد، المصدر السابق، ج1، ص 311، 312، الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 112.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 153، 154.

⁵ أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسي، وثائق في شؤون العمران في الأندلس - المساجد والدور - مستخرجة من مخطوطة الأحكام الكبرى، تح. محمد عبد الوهاب خلاف، مر. محمود علي مكي ومصطفى كامل إسماعيل، ط1، القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، 1983، ص 66، 67.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 150، 151.

⁷ يقول في بيت من قصيدته التي أظهر فيها استياءه من المعاملة التي لقيها في إحدى القرى بالقول:

مساجدهم لم يَغْمُرُوا بصلاتهم ويعجبهم منها الذي يتهدم

انظر: بنشريف، البسطي آخر شعراء الأندلس، ص 161.

ثقافتها الدينية¹

لكن يبدو أن هذه التصرفات والسلوكيات اتجاه المساجد لم تكن هي الأصل، فقد دلت الأحباس الكثيرة الموقوفة لصالح المساجد الريفية على تعلق هذا المجتمع بدينه، ولإدراكه بأهمية وجود المسجد في القرية إذ لم يكن مكانا للعبادة وحسب، بل كان مكانا للتعليم ولو النزر اليسير منه - كما تمت الإشارة إليه سابقا-، بالإضافة إلى ذلك كان مكانا يدرس فيه أهل القرية شؤونهم وتحل فيه نزاعاتهم وخلافاتهم²، ومن خلال المسجد يتعرف الفلاح على الأخبار من حوله، إذ تقرأ فيه الكتب الواردة من الحاضرة وما فيها من تعليمات ومعلومات تخص واجباتهم اتجاه سلطتهم³.

وما يمكن قوله في الأخير أن المجتمع الريفي المسلم أبدى اهتماما كبيرا بالمسجد، رغم ما عرفته بعض المناطق من سلوكيات، فكيف هو حال العناصر غير المسلمة في هذا المجتمع مع دور عبادتها.

- الكنائس والبيع:

أثبتت الدراسة في فصل سابق وجود أهل الذمة من اليهود والنصارى، ضمن عناصر المجتمع الريفي مع أقلية يهودية مقارنة بالنصارى، ورغم غياب النصوص الدالة عن وجود بيع اليهود، فإن ذلك لا ينفي وجود أماكن خاصة بهم لإقامة شعائهم الدينية كما لا يمكن تأكيده، أو ربما يقيمون طقوسهم الدينية وشعائهم في بيوتهم، أو يجتمعون في بيوت أثريائهم على عاداتهم⁴.

أما بالنسبة للنصارى فإنه يمكن الخروج ببعض الاستنتاجات من خلال الإشارات التاريخية القليلة فمن ذلك أن الكنائس انتشرت في القرى التي اختصت بالعنصر النصراني، فقد ورد عند ابن بسام ما يفيد بوجود كنيسة في قرية آنة، فوصفها بأنها "دار البطاريق"⁵، كما عرفت انتشارا في بعض القرى المختلطة مثل قرية أوبنة التي يقطنها المسلمون والنصارى فيها كنيسة يعظمها النصارى⁶، وكنيسة الماء لا تبعد عن

¹ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 186؛ فتحة، المرجع السابق، ص338.

² أورد ابن سهل في نوازل أن قاضيا ولى ناظرا للتحقيق في تجاوزات وكيل يتيم، فلما حل الوكيل جمع الناس في مسجد القرية وسمع منهم تجاوزات الوكيل في أملاك اليتيم بالقرية. انظر: ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج1، ص ص 130، 131.

³ قرني، المرجع السابق، ص 304.

⁴ الخالدي، المرجع السابق، ص 287.

⁵ ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 681.

⁶ الحميري، المصدر السابق، ص 63.

قرية من قرى إشبيلية إلا فرسخين (حوالي 10 كم)¹، كما كانت تسمع نواقيس الكنائس في بعض القرى الريفية²، في حين كان يمارس الأساقفة نشاطهم في الكنائس المنتشرة في جبال قرطبة ومالقة وغرناطة خلال القرن 12م/ 106هـ³.

ويبدو أن انتشار الكنائس في المناطق الريفية للأندلس أمر طبيعي، فالبلاد قبل فتحها كانت نصرانية لكن خلال الفترة الإسلامية عرفت أعداد النصارى تراجعاً بسبب اعتناق أعداد منهم الدين الإسلامي، ولا يعلم خلال فترة الوجود الإسلامي أي محاولة من السلطة لغلق كنائس النصارى وإجبارهم على اعتناق الإسلام.

كما أن هذه الكنائس شكلت أهمية قصوى لهذا العنصر، فقد شكلت حصونا لمقاومة الثقافة الإسلامية، وبقاء هذا العنصر على دينه، وربما إضافة عناصر جديدة⁴، كما أدت هذه الكنائس أدواراً اجتماعية وتعليمية وحتى ترفيهية، ففيها كانت تعقد الزيجات ويتم تعميد المواليد، وكان تقدم خدمات طبية لمن يقصدها من النصارى وغيرهم، كما شكلت مراكز مهمة لتعليم النصارى في المناطق الريفية، وربما يقصدها لمن يبحث عن مجالس الشرب واللهو⁵.

وكانت الكنائس في المناطق الريفية تقوم بهذا النشاط تحت إشراف رجال دين، هؤلاء الذين ينوبون عن قومس المدينة، فيشرفون على هذه الكنائس، ويتولون أمور رجال الدين المسيحيين، وينظرون في أحباسها ويصرفونها في مصالحها ومصالحهم، كما يقومون بجمع الجزية المفروضة على النصارى هناك، وتقديمها لقومس المدينة التابعين له⁶.

وفي الأخير يمكن القول أن أهل الذمة في المناطق الريفية، قد توفرت لهم دور العبادة الخاصة بهم، مما يظهر الحرية التي عاشوا فيها خلال هذه الفترة، فقد تمكنوا في هذه الدور من القيام بطقوسهم وإقامة الشعائر الدينية.

¹ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 89.

² بنشريف، البسطي آخر شعراء الأندلس، ص 161.

³ دي إيبالزا، المرجع السابق، ص 244.

⁴ نفسه، ص 243.

⁵ قرني، المرجع السابق، ص 306.

⁶ عباض وولده محمد، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص 203؛ صفي الدين، المرجع السابق، ص 82.

ب- إقامة الشعائر الدينية:

تكشف بعض النصوص المصدرية على عدد من الشعائر الدينية التي حرص المجتمع الريفي على أدائها سواء اليومية مثل الصلاة، أو الموسمية والمتمثلة في الأعياد والمناسبات الدينية.

- الصلاة:

اهتم المجتمع الريفي ببناء المساجد والعناية بها والقيام شؤونها، وقد كانت الغاية الأولى من إنشائها إقامة الصلاة جماعة بها، وكان يؤم الصلاة بسكان القرية إمام يعرف في بعض المصادر بصاحب الصلاة¹ والذي كان يتم تعيينه من المدينة، فقد ذكر أحد الأئمة²:

بدوت وقد كنت أعرف حاضرا وسكنى البوادي لا يحل ويجرم
تكلفت سكنها وكان ضرورة وفي باطني أمر به الله يعلم

لكن لا يعني هذا أن للسلطة دور في هذا التعيين، بل يبدو أن ليس لها أي دور في ذلك، إذ وردت العديد من النصوص النوازلية التي تدل على اتفاق ساكنة القرى مع إمام ليؤم الصلاة بهم، فقد استأجر أهل قرية إماما للصلاة بالطعام³، وانتدب آخرون إماما على أجرة من أحباس القرية⁴، في حين أتى آخرون بإمام دائم يعوض الإمام الذي غادرهم⁵.

ويتضح من خلال هذه الأمثلة على ما يبدو النقص الكبير الذي كان يعاني منه المجتمع الريفي من ناحية التأطير الديني، فقلة المتفقهين القادرين على تعليم الناس شؤون دينهم بهذا المجتمع جعلهم في سعي مستمر من أجل إيجاد إمام للتعاقد معه⁶، مقابل أجرة اختلفت من قرية إلى أخرى، فبعضهم اتفق مع إمام

¹ ابن ورد، المصدر السابق، ص 111.

² بنشريعة، البسطي آخر شعراء الأندلس، ص 161؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص 299، هامش 02

³ ابن سلمون، المصدر السابق، و 127 ظ.

⁴ ابن الحاج، المصدر السابق، و 121.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 119، ص 139.

⁶ فتحة، المرجع السابق، 113. ينقل المقرئ قصة عن ثلاثة أدباء خرجوا للنزهة فصلوا في مسجد قرية من قرى مرسية، فأخطأ الإمام في

القراءة وسها في صلاته، فلما خرج الأول كتب على حائط المسجد بيتا من الشعر قائلا:

يا خجلتي لصلاة صليتها خلف خلف

فلما خرج الثاني كتب تحته: أغض عنها حياء من المهيمن طـرفي

على طعام مثل الفواكه والزيتون والعصير وغيرها، وبعضهم التزم بأداء مبلغ من المال معلوم¹. وتختلف ظروف ساكنة القرى فلا يلتزم بعضهم بأداء ما عليه من اشتراكات، فقد طرحت مجموعة من النوازل المشاكل التي تظهر بين الساكنة حول دفع مبلغ الاشتراك، بسبب أشغالهم الكثيرة خارج القرية فبعضهم ينتجع بمواشيه بعيدا عن القرية أياما، وبعضهم لا يمكنه إلا يوما واحدا بسبب معاشه الذي يكون خارج القرية²، وقد أفتى الفقهاء أنها تجب عليهم، لأنها من إقامة شرائع الإسلام، بينما أوصى آخرون بضرورة الاعتناء بحملة القرآن والإحسان، واعتبروا معاملتهم معاملة الأجراء من مساوئ الأخلاق³. لا شك أن هذه الدعوة توضح سوء أوضاع أئمة المساجد الذين لم يكن لهم راتب قار، بل ربما لم يكونوا يتقاضوا أجورهم التي اتفقوا عليها مع ساكنة القرية، وربما تعرضوا للظلم من طرف ساكنة القرية، وقد عبر أحد الأئمة عن ذلك بقوله:

شيوخ القرى لا ينصفون إمامهم وعن أجره الشراط يعموا ويصمموا⁴

وهذه الحقيقة تحمل الكثير من الصدق، خاصة إذا ما علم أن فئات كثيرة من المجتمع الريفي كانت ضعيفة الحال، وقد أبرزت فتوى لابن رشد هذا الضعف، فقد رأى أنه من الضرورة انتقال سكان القرية التي انعدمت فيها امكانية توفير أجره إمامها إلى مسجد آخر⁵، كما أن بعض الأقباس لم تكن تكفي شؤون المسجد من صيانة ووقيد وحصر، وأنها كانت تقدم على أجره الإمام، وقد أدت هذه الحالة المادية إلى مغادرة بعض الأئمة مناصبهم⁶.

أما عن أداء الصلاة جماعة فيلاحظ أن ساكنة القرية لم يكونوا كلهم منضبطين بأدائها، ذلك أن أشغالهم كانت تمنعهم في كثير من الأحيان من ذلك، وفي النوازل ما يثبت هذا الأمر فقد كان الرعاة

فلما خرج الثالث كتب تحته: فليس تقبل منا ولو أنها ألف ألف

انظر: المقرئ: نفع الطيب، ج 4، ص 18.

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 113، 114؛ ابن سلمون، المصدر السابق، و 127 ظ.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 70، 71.

³ نفسه، ص 114.

⁴ بنشريف، البسطي آخر شعراء الأندلس، ص 161.

⁵ نقلا عن: بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 185.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 119.

يخرجون بالمواشي إلى المسارح طيلة اليوم، كما أن بعضهم كان ينتجع في أماكن بعيدة لأيام عديدة¹ وبعضهم لا يحضرها بسبب معاشه الذي يخرج من أجله خارج القرية²، بل ربما كانت المساجد تخلو من المصلين في بعض الأوقات من السنة، خاصة في المواسم الزراعية مثل أيام العصور التي يخرج فيها السكان وتصبح القرية خالية مدة من الزمن³.

وفيما يخص صلاة الجمعة فإنها تختلف عن الجماعة كونها فرضاً يأثم من لم يحضرها بغير عذر شرعي فيرجح حرص المجتمع الريفي على أدائها، ويظهر ذلك خاصة في تنافس بعض القرى على إقامة الجمعة في مساجد قراهم، وربما بلغ بعضهم إلى ترك الصلاة في المسجد الجامع وإقامتها في قراهم، وهو ما اعتبر عظيماً خطيراً عند بعض الفقهاء⁴.

وفي أيام القحط والجفاف كان الفلاحون يهرعون إلى المساجد لإقامة صلاة الاستسقاء، وربما كانوا يقصدون مساجد بعينها اعتقاداً في قداستها وبركتها مثل المسجد المعروف بموضع قرطاجنة شرق مدينة الجزيرة الخضراء "إذا قحط أهل الجزيرة أتوا إليه فاستسقوا سقوا"⁵، ولا شك أن القرى المجاورة والقريبة منه كانوا يفعلون ذلك، أو ربما يلجأون بأحد الأولياء والصالحين فيجعلونه واسطتهم في الدعاء والاستسقاء⁶.

أما في شهر رمضان فإن المجتمع الريفي أدى كمجتمع المدينة صلاة التراويح، إذ يتفق سكان القرية مع إمام الصلاة على قراءة الإشفاع في رمضان مقابل أجر معلومة من النقود غير الأجرة الخاصة بأداء الصلاة المفروضة، وإن تعذر عليه الإشفاع لهم يمكنهم الاتفاق مع إمام آخر⁷، وهذا ما يوضح اهتمام ساكنة الريف بهذه الصلاة وعدم تفويت أجر قيام ليالي رمضان، بل إن بعض الأماكن لا يصلى فيها إلا في شهر رمضان⁸.

ويمكن القول في الأخير أن المبادرات الفردية للمجتمع الريفي من أجل التعاقد مع إمام، دليل على

¹ نفسه، ص 70.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 71.

³ نفسه، ص ص 114، 115.

⁴ ابن الحاج، المصدر السابق، و 318.

⁵ العذري، المصدر السابق، ص 119.

⁶ قرني، المرجع السابق، ص 239.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 113.

⁸ نفسه، ص 145.

حرصهم واهتمامهم بشأن الصلاة، بالرغم من تفريطهم بعضهم أحياناً.

– الأعياد والمناسبات الدينية:

أحيا المجتمع الريفي الأعياد والمناسبات الدينية المختلفة، والتي اختلفت بين القرى حسب العنصر المستوطن لتلك القرية، وربما كان تأثير التجاور واضحاً فاشترك ساكنة القرية مسلمين ونصارى في إحياء بعض المناسبات.

فبالنسبة لمناسبات المسلمين فإن النصوص الدالة على خصوصية إحياء هذا المجتمع لمختلف المناسبات والأعياد تكاد تنعدم، إذ تقل الإشارات الواردة في المصادر حول ذلك، منها أن سكان القرى كانوا يترصدون رؤية هلال رمضان، فإذا ثبتت رؤيته عند بعضهم يتم إعلام القرى المجاورة بواسطة إيقاد النار¹، وربما كان يحدث اختلاف في تحديد اليوم الأول من رمضان بين مختلف المناطق، إذ تذكر نازلة أن الناس بقرطبة صاموا رمضان سنة 510هـ / 1116م يوم الأحد، بينما صام أهل المرية يوم السبت بإعلان من قاضيها².

ويبدأ المسلمون يومهم بالسحور ويمسكون طوال اليوم عن المفطرات إلى غاية الغروب، فتجتمع الأسرة على مائدة الإفطار، الذي يختلف حسب حالة الأسرة المادية و طبقتها الاجتماعية³، أما ليليته فكان يحييها الرجال بالإشفاق في مسجد القرية، وربما ميز أهل الريف الأندلسي ليلة السابع والعشرين عن باقي ليالي الشهر فيختمون فيه القرآن، ويتوسعون على الأهل بالفاكهة والحلوى⁴.

وبعد اختتام هذا الشهر يحتفل المسلمون بعيد الفطر، ورغم عدم ورود إشارات خاصة بطريقة احتفال ساكنة الأرياف في الأندلس بهذا العيد، إلا أنه يعتقد أن كان مثل باقي المناطق، إذ يتزين فيه المسلمون بلبس الجديد كل حسب مقدرته، ويتوجهون إلى المساجد لأداء صلاة العيد، ثم يمرون على الأهل

¹ الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص 149. لا تخص هذه النازلة بلاد الأندلس ولم يتم تحديد زمانها ومكانها لصعوبة ترجمة الفقيه الذي أفنى في النازلة لكن الأكيد أنها تخص بلاد الغرب الإسلامي، وربما تعرف هذه العادة انتشاراً في كل مناطقه، كما أن بعض الباحثين أخذوا بها. انظر: دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص 308؛ لعناني، المرجع السابق، ص 142.

² ابن الحاج، المصدر السابق، و 318.

³ يمكن مراجعة الفصل الثالث من الأطروحة.

⁴ حاج كولة، المرجع السابق، ص 81؛ لعناني، المرجع السابق، ص 143. مازال إلى اليوم في العديد من مناطق العالم الإسلامي يميزون هذه الليلة بالاحتفال في الأرياف والمدن على السواء، معتقدين أنها ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن.

والأصحاب للتهنئة بهذا العيد، وربما تزين مواعدهم بأنواع من الحلوى التي تصنعها العائلات تعبيراً عن فرحهم به¹.

أما في عيد الأضحى، فيبدو أن أرياف البلاد تشهد حركة كبيرة خلال الأيام التي تسبقه، إذ يقصده الجلابون والأفراد لاقتناء كبش العيد، وفي يوم العيد يضحي من كان مقتدراً على التضحية بعد رجوعه من الصلاة، ويحرص أهل القرى والمدن على السواء على أن يذبحوا بعد ذبح إمام الصلاة أضحيتهم، كما أفق بذلك ابن رشد²، وربما تختلف عادة مناطق الأندلس في التضحية، فبينما يخرج أئمة بعض المناطق مثل: بلنسية ومرسية أضحياتهم إلى المصلى لذبحها، ويذبح بعدهم المصلون بعد أن ينصرفوا إلى بيوتهم، لا يفعل ذلك أئمة قرطبة وما جاورها من مناطق، بل يقومون بذبح الأضحيات في بيوتهم³.

ويقضي المسلمون يومهم في الاشتغال بالأضحية وطهي الطعام، كما يتبادلون التهاني بهذا العيد وربما يكون فرصة يتهادى فيه المجتمع اللحم واللوانا من الأطباق، أو يتصدقوا على العائلات الفقيرة التي تجد فيه فرصة لتناول وجبات دسمة، خاصة إذا علم أنه كان بسيطاً في معظم الأوقات⁴.

أما فيما يخص أعياد أهل الذمة فإن النصراني قد أحيوا عيد العنصرة⁵ الذي جرت فيه العادة عندهم أن يتبارى فيه الرجال بالخيول، بينما النساء يتركن العمل في هذا اليوم ويزين بيوتهن ويخرجن ثيابهن بالليل إلى النداء⁶، وقد كان ساكنة الريف يحتفلون به، فقد ورد في النازلة أن أهله كانوا ينشرون الثياب في هذا اليوم

¹ السيد عبد الهادي، الظاهرية والمالكية وأثرهما في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، ص 242.

² ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص 1131.

³ نفسه؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص ص 32، 33.

⁴ يراجع الفصل الثالث عنصر الغذاء. انظر أيضاً: دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ص 325، 326؛ لعناني، المرجع السابق، ص 144؛ السيد عبد الهادي، الظاهرية والمالكية وأثرهما في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، ص 242.

⁵ عيد العنصرة: يسمى أيضاً سان خوان من أعياد النصراني في الأندلس، يحتفل به في الرابع والعشرين من جوان، الذي يمثل ذكرى نزول روح القدس على حواري عيسى عليه السلام، ويذكر ابن خلكان أنه يوم ميلاد يحيى بن زكريا عليهما السلام. انظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص 227؛ حسبلأوي، المرجع السابق، ص 542.

⁶ الونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص 151.

ويصمون الخيل قبل الصلاة¹، ويبدو من النازلة أن المسلمين في الأرياف قد شاركوا جيرانهم النصارى في هذا الاحتفال، بل تعدى تأثيره إلى ساكنة المدينة، فاعتبر بعض الفقهاء ذلك جنونا وهو من فساد الدين عندهم².

ولا يمكن أن يتخلف النصارى القاطنين في الأرياف عن الاحتفال بعيد المسيح عليه السلام، والذي يعرف بعدة أسماء: ينيير والميلاد ورأس السنة، لأنه يوم معظم عندهم، فكانوا يتركون العمل فيه ويجتهدون في الاستعداد له بأنواع من الأطعمة والحلويات ويتهادون بها بينهم³.

أما اليهود فقد احتفلوا بعيد الفصح الذي يكون في الخامس عشر من أبريل، ويستمر سبعة أيام يأكلون خلالها الفطير، وينظفون بيوتهم من خبز الخمير، احتفالاً بذكرى خلاصهم من فرعون وغرقه⁴، وقد ورد في نازلة متأخرة عن فترة الدراسة، أن هذا العيد يسمى بعيد الفطير، حيث يقومون بصنع رغائف الفطير، ويهدونه لبعض المسلمين⁵، وفي أرياف البلاد كان الفلاحون من اليهود ينقطعون طول هذه المدة عن العمل في كرومهم، إذا وجدوا من يقوم بالعناية بهذه الكروم، وأجاز لهم أحبارهم أن لا يتركوا عملهم إذا لم يجدوا من يعوضهم⁶.

وهكذا يتضح أن المجتمع الريفي احتفل بمختلف الأعياد والمناسبات الدينية التي عرفتها البلاد، وقد أحيت جميع العناصر الدينية أعيادها في جو من التسامح والتعايش بين أفرادها، وقد كان تأثير أعياد النصارى واضحا على المسلمين، وهو ما أظهرته دعاوى الفقهاء بالتحذير من خطورة ذلك على دين المرء. وفي الخلاصة يمكن القول أن النشاط الاقتصادي للمجتمع الريفي ارتكز أساسا على النشاط الفلاحي الذي تميز بالحيوية، فقد حاول فيه الفلاح الأندلسي استغلال الطرق الممكنة لاستثمار مختلف

¹ نفسه، ص 92. لم تفهم كلمة "صم الخيل" هذه الكلمة فقد وردت هكذا، ونقلها بعضهم بتصويم الخيل، وبعضهم بضم الخيل، وكلا النقلين لم يفهما. والأرجح أن تكون لها علاقة بالسباق لاختصاص هذا اليوم بذلك. انظر: زناقي، المرجع السابق، ص 294؛ حسبلاوي، المرجع السابق، ص 541.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج 11، ص 92.

³ نفسه، ص 150؛ ورد في النازلة تحذير الفقهاء المسلمين من مشاركة النصارى في هذا العيد، ويبدو أن هذا الأمر أصبح مألوفاً في الأندلس.

⁴ الخالدي، المرجع السابق، ص 288.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج 11، ص 111.

⁶ الخالدي، المرجع السابق، ص 375.

الملكيات والاستغاليات الفلاحية، مستعملا مختلف المعارف والخبرات الفلاحية لتحسين مردودية الانتاج الزراعي. وقد أخذت بعض المحاصيل نصيبا كبيرا من المساحة المزروعة مثل القمح والشعير، لكنها لم تصل على الحد المأمول الذي يكفي حاجة البلاد منها، بينما عرفت محاصيل أخرى تفوقا حتى أصبحت مضرب المثل مثل زيتون الشرف في إشبيلية، وتين أرياف شلب ومالقة، وغيرها، مما يبدو منه نوعا من التخصص في الانتاج الزراعي، كما استطاع هذا المجتمع إنتاج أنواع طارئة مثل قصب السكر في شلوبانية، والزعفران في أرياف طليطلة.

أما بالنسبة للإنتاج الحيواني فقد اهتم المجتمع الريفي بأنواع عديدة من الحيوانات كالبغال والخيول والحمير وأنواع من الطيور والحشرات النافعة، لأنها شكلت أهمية كبيرة في غذائه وفي نشاطه الزراعي، وقد ساعدته عدة عوامل كانتشار المسارح في أرياف الأندلس وهي ركن رئيس ليقام هذا النشاط، كما اشتهر أفراد المجتمع الريفي بمعرفتهم بشؤون الحيوان، بالإضافة إلى ذلك تطبيق أنظمة رعوية عديدة، كل ذلك أثر إيجابا على الإنتاج الحيواني في الريف الأندلسي.

ولا شك أن وفرة الإنتاج الزراعي والحيواني، قد انعكس على النشاطين الصناعي والتجاري، ففي المجال الصناعي، مارس المجتمع الريفي هذا النشاط، لارتباطه بتلبية حاجياته الغذائية الأساسية، فانتشرت المطاحن في المناطق الريفية بشكل واسع، كما مارس هذا المجتمع صناعات أخرى، ارتبطت بتخصص المنطقة في نوع من المحاصيل الزراعية، فظهر نوع من التخصص في هذه الصناعات مثل صناعة الزيت في أرياف الشرف وقرية شوذر، وصناعة السكر في قرية شلوبانية في بلاد المنكب.

ورغم وفرة المواد الأولية كالأخشاب والطين، لصناعة ما يحتاجه من وسائل وأدوات، تدخل ضمن استخداماته اليومية، إلا أنه لم يستطع أن يظهر قوة صناعته فيها، دل على ذلك صمت الجغرافيين عن ذكرها، هؤلاء الذين لا يمكن لهم إخفاء ملاحظاتهم بما يشاهدونه من مختلف المظاهر، مع وجود بعض الاستثناءات مثل حصن قيشاطة، الذي تفوق في صناعة المخابي والقصاع الخشبية. في حين كانت الصناعة الاستخراجية، نشيطة في المجتمع الريفي، حيث استفادت منها ورشات المصانع في المدن، فشكلت هذه المواد عنصرا للمتاجرة عند المجتمع الريفي.

وفيما يخص النشاط التجاري، فإنه قد كان نشاطا أساسيا للمجتمع الريفي، استطاع من خلاله تصريف جزء من الإنتاج، ليقضي بالمقابل مختلف حاجياته اليومية من الضروريات، من الأسواق التي كان

يقصدها، سواء كانت في الريف أو المدينة، وقد غزت السلع والمحاصيل الزراعية والحيوانية أو المرتبطة بها والتي أنتجها المجتمع الريفي مختلف هذه الأسواق، كما ظهرت بعض المحاصيل الزراعية التي أنتجها في التجارة الخارجية.

وفيما يخص النشاط الثقافي، فبالرغم من محدودية التعليم الذي يقدم في أرياف الأندلس، إذ لم يتعدى المرحلة الابتدائية، فإن بعض أفرادهم كان لهم إسهام بارز في مختلف الميادين العلمية، ففي ميدان الشعر والأدب شارك الشعراء الريفيون في المدح والمهجاء والزهد، وبلغ بعضهم شهرة واسعة مثل ابن دراج وابن عمار؛ وفي ميدان الشريعة بلغ بعض أفراد المجتمع الريفي منزلة كبيرة فيها، وكانت لهم مشاركات في التدريس والتأليف في الفقه والحديث والقراءة، ويعتبر ابن حزم الظاهري أبرز الشخصيات الريفية بروزا في الفقه.

أما الحياة الدينية عند هذا المجتمع، فقد أظهرت الأطروحة تمسك هذا المجتمع بدينه من خلال حرصه على إقامة المساجد وصيانتها بجهد الخاص دون تدخل من السلطة القائمة، كما أن عمليات التعاقد مع إمام لإقامة الصلاة لهم أبرزت ضعف التأطير الديني عند هذا المجتمع، وقد كان يؤدي معظم الصلوات في المساجد، مثل صلاة الفريضة وصلاة التراويح والاستسقاء والأعياد، أما بالنسبة للنصارى فقد كانت لهم كنائسهم التي يؤدون فيها شعائرهم الدينية، وأحيوا أعيادهم ومناسباتهم الدينية بحرية كاملة.

الخاتمة

شكل الريف مجالا واسعا وحيويا في الأندلس وقد عبرت عنه عدة وحدات وأقسام متدرجة، فيعتبر الإقليم والجزء أكبرها، فهو يضم مجموعة من القرى والحصون التي كانت موطن ساكنة الريف، في حين كانت الضياع والمنيات أصغر الوحدات والتي كانت منازل المترفين من المجتمع الأندلسي، وإن اختصت القرى بمأوى المزارعين والفلاحين، فإن الحصون والأبراج شكلت مناطق دفاعية يأوي إليها هؤلاء خلال الفتن والحروب.

وقد اتسعت القرى في الأندلس خلال العصر الإسلامي، وهو أمر طبيعي ناتج عن تزايد عدد السكان، فكان شرق البلاد وحوض الوادي الكبير في جنوبها أكثر المناطق جذبا للسكان بسبب خصوبة التربة وطبيعتها السهلية، لكن لا يعني ذلك انعدامهم في باقي المناطق، فقد انتشرت القرى والحصون في جبال البلاد أيضا، لكنها أقل حجما من الأولى، ولئن اختلفت القرى في حجمها، فإنها تشابهت في بعض تنظيماتها، فضمت الكثير من القرى مساجد وفنادق وحمامات، وميزها لونها الأبيض الذي اختلفت فيه عن كثير من مناطق العالم الإسلامي، كما كانت القرية مقسمة إلى حارات كل حارة خاصة بقوم تربط بينهم قرابة الدم، وهو نظام يظهر فيه التأثير القبلي.

وقد استوطن هذه القرى إثنيات وأعراق متعددة، فكان منهم العرب والبربر وأهل الذمة، وشكلت فيها قبائل العرب والبربر النسبة الأكبر خلال القرنين 05-06هـ / 11-12م وهو أمر طبيعي أملتته العديد من الظروف، فغالبية اليهود فضلوا الاستقرار في المدن لحصانتها، أما النصارى فقد قل عددهم كثيرا مقارنة باليهود السابقة بسبب ازدياد نشاط حركة الاسترداد في القرن 05هـ / 11م وما تبعه من رد فعل خلال عصري المرابطين والموحدين في القرن 06هـ / 12م

واستقرت هذه الإثنيات في مناطق توارثوها منذ العهود التي سبقت الفترة مجال الدراسة في مناطق سهلية وجبلية على حد سواء رغبة منهم دون أية ضغوط، وقد أسهمت رابطة الدم والنسب في هذا التمرکز، كما كان لوحدة الدين دور فيها، وهذا من أجل الشعور بالأمان حسب التعبير الخلدوني، ففضل العرب والبربر رابطة الدم، ولذلك ظهرت مناطق تحمل أسماء لقبائل وأسر عربية وبربرية، بينما فضل النصارى الإنتاج في مناطق خاصة بهم منذ العهود الأولى للوجود الإسلامي، من أجل الحفاظ على

هويتهم، أمام المد الإسلامي في البلاد، وفيما يخص اليهود على قتلهم فضلوا الإستقرار في الحصون لشعورهم بالأمان فيها.

كما عرف المجتمع الريفي الطبقة بين أفرادها، والتي ارتكزت على أساس ملكية الأراضي الفلاحية فظهرت طبقة الملاك والتي اختلفت حسب حجم المساحة التي تملكها، وبالتالي أثرت على مستواها الاجتماعي فكان منهم الملاك الكبار، وأغلبهم من الطبقة الحاكمة وحاشيتها ممن رضيت عنهم من الوجوه العلمية، والبيوتات الكبرى وبعض الأغنياء والموسرين، ولم يكن يربط هؤلاء بأملأكهم إلا الربح والمداخيل التي زادت في ثرائهم أو استغلالها للنزهة والراحة النفسية.

وشكل الملاك الصغار والمتوسطون جزءا مهما من الطبقة المالكة، لكنها لم تستطع أن ترتقي في السلم الاجتماعي، بسبب ضعف إنتاجها، كما كان للظروف الصعبة التي عرفت البلاد إسهام في ذلك ففقدت أملاكها لذوي النفوذ والسلطان أو تركت أراضيها مرغمة فرارا بأنفسها.

أما الطبقة التي كانت أكثر حضورا في هذا المجتمع فهم الذين عدموا الأملاك، لكنهم قاموا بجهود كبيرة في الأعمال الزراعية، بل إن هذا النشاط قام على أكتافهم وكواهلهم، فكان منهم الزارع والفلاحون والرعاة والعمال الأجراء وبنسبة أقل العبيد، ولذلك وصفوا في هذه الدراسة بالطبقة العاملة، وقد عبرت بعض السلوكيات التي قاموا بها أثناء تأديتهم لمهامهم عن محاولتهم رفع الظلم المسلط عليهم، والذي كان سببا في بقاء حالتهم دون تحسن فجعلهم يتذيلون التقسيم الطبقي.

وفيما يخص المظاهر الاجتماعية التي سادت في المجتمع الريفي فإن ظاهرة التسري لم تكن منتشرة في هذا المجتمع الذي ظل الزواج عنده الركيزة الأساسية لبناء الأسرة، هذا الزواج الذي تميز بخصوصيته الريفية وهو ما شهدت عليه طبيعة الصداق المقدم والذي كان عند البعض أرضا فلاحية أو عددا من الماشية، كما عبر عنه الجهاز الذي تميز بالبساطة التي تميز سكان الأرياف، ومثلت الهدية عرفا منتشرا في أرياف البلاد فأصبحت حقا للأبناء على الآباء وهي أيضا من حق الزوجة على زوجها.

وقد تكونت الأسرة الريفية من الزوجين والأولاد وتعرف بالأسرة النووية، ويمكن أن تكون أكبر من ذلك، إذا فضلت هذه الأسرة الاستقرار مع الوالدين والأعمام، وعلى العموم فقد اهتمت الأسرة الريفية بتربية الأبناء على أخلاق وخصال المجتمع الريفي مثل العفاف والتعود على خشونة العيش، كما مثلت

الصدقات والأعطيات والأحباس والهدايا التي يقدمها الآباء للأبناء إحدى مظاهر الرعاية، وفي الوقت ذاته مظهرًا من مظاهر التراحم داخل الأسرة ولم تكن تستثنى منها البنت إلا في بعض الحالات التي شذت عن القاعدة.

كما تجسد التراحم والتعاطف داخل الأسرة بما كان يلتزم به الأب من نفقة على الأولاد حتى بعد زواجهم، أو ما قامت به بعض النسوة من خلال التنازل على حقهم من أملاك أبيهم لإخوتهم، أو السكوت على استغلال الإخوة لهذه الأملاك طول حياتهم، وكل ذلك إحسانًا لهم وعطفًا ورحمة بهم.

ولم تخل الأسرة الريفية من بعض المشاكل والخصومات التي كانت تنغص عليهم العيش، فبالنسبة للخصومات بين الأبناء والآباء، فإنها كانت منعقدة أو محدودة جدًا، وهو ما يعني أن الوالد ظل يحظى بالاحترام داخل الأسرة، أما الخصومات بين الأبناء فإنها تنشأ في الغالب بعد وفاة الوالد بسبب الميراث فأظهرت الدراسة أن شيوع ظاهرة سلطة السن (الأخ الأكبر) التي كانت السبب الرئيسي في تلك الخصومات، وأما بالنسبة للزوجين فكان مردها الضرر الذي يلحق بأحد الطرفين أو عدم الالتزام بشروط عقد الزواج أو الاستهتار في مسألة الأيمان اللازمة فكانت النهاية الطلاق، أو نشوز الزوجة، بينما لم يعرف هذا المجتمع وسيلة الخلع التي كانت تستعملها المرأة في المدينة.

وقد كان حضور المرأة في الأسرة الريفية واضحًا، فهي المرضعة لأولادها والمرية لهم والمديرة لشؤون المنزل، وإلى جانب ذلك شاركت الرجل في بعض الأعمال الخارجية، سواء المرتبطة بالنشاط الزراعي مثل الزرع والحصاد، أو ما ارتبط بالنشاط الصناعي مثل الغزل والنسيج وصناعة الألبان بحثًا عن توفير متطلبات الحياة لأفراد الأسرة، ومشاركة زوجها في تجاوز مصاعب الحياة، فكانت العلاقة بينهما قائمة على التعاون والتضامن الذي يظهر في سياقات الزوج لزوجته سواء قبل البناء أو بعده، كما حرصت بعض الزوجات على هذه العلاقة فنظرت إلى أزواجهن بعين الرحمة فتهبه من أملاكها أو تضع عنه ما يجب عليه من الصداق بل وكلت بعضهن أزواجهن في التصرف في الأملاك دون أن تمارس عليه حق الرقابة والمحاسبة.

وفيما يخص المستوى المعيشي لأفراد المجتمع الريفي، فإنه كان متباينًا في المأكل والملبس والمأوى، فبينما كانت الأسر الميسورة تتمتع بمستوى لا بأس به، كانت الأسر الفقيرة تتميز ببساطة عيشها، وفي الأيام الصعبة كان أفرادها الأكثر عرضة لمختلف الأزمات الغذائية والصحية، هذا رغم ما كانت توفره البيئة الريفية

من عناصر طبيعية كانت معينهم وملجأهم في تلك الفترات مثل النباتات البرية، التي استعملها في غذائه وعلاجه، كما استخدمت العيون الحارة والباردة في التداوي والتطبيب لمختلف الأمراض والأسقام.

كما تميز المستوى المعيشي عند الغالبية بالبساطة وكله نابع من الطبيعة والبيئة الريفية، فالغذاء يكون أساسا من الخبز واللبن وربما البيض، ولم يكن معظم أفراد المجتمع الريفي يتناولون اللحم إلا في المناسبات والمواسم، بينما اللباس كان مصدره الصوف خاصة في فصل الشتاء، كما حافظ أهل الريف على ارتداء العمام وقد تميز هؤلاء بلباسهم الذي كانوا يعرفون من خلاله.

أما العلاقات الاجتماعية فإن الجوار والقربة التي ميزت ساكنة الريف من جهة، ومن جهة ثانية المصالح المشتركة فرضت التضامن والتوافق بينهم، فأوجدت الفعل التشاركي، وهو ما أظهرته عمليات إنشاء قنوات السقي المشتركة وظاهرة تداول استعمال مياه السقي أو تسليفه أو هبته لمن يحتاجه، كما ظهر هذا الفعل في المواسم التي تحتاج إلى اليد العاملة مثل موسم الحصاد وجني الثمار خاصة بالنسبة للفئات التي تعجز عن استئجار عمال لذلك الغرض، كما تُبرز الأعباس والصدقات روح التضامن وفعل الخير في هذا المجتمع، فقد خصص بعضهم أملاكاً وعقارات لفائدة الفقراء والمساكين والمرضى وتعدى النفع إلى فئات من مجتمع المدينة.

وإذا كانت المصلحة المشتركة سببا في التوافق والتضامن فإن أي ضرر بها يؤدي إلى الخصومات والنزاعات، وكان الماء أحد أهم العناصر التي دار حولها النزاع، فتنزع المتجاورون في المزارع وأصحاب الأرحاء مع أصحاب المزارع ومرد هذا النزاع بالأساس إلى العوامل المناخية والطبوغرافية، حيث يزداد عندما يقل التساقط، فيحرم الأسفلون من السقي، ورغم تدخل الفقهاء مستعنين بالأعراف وأهل البصر إلا أن هذه النزاعات كانت كثيرا ما تتجدد، وهو ما يظهر بشكل واضح غياب السلطة القانونية والردعية في هذا المجتمع.

وتؤكد أسباب النزاعات الأخرى ما تم استنتاجه من أن الضرر الذي يلحق بالمصلحة يؤدي إلى الخصومة، فالنزاعات تظهر إذا أُلغيت الحيوانات مزارع الجيران أو انشاء بعضهم لمشاريع أضرت بجنان الجيران، أو منع الفلاحين من الوصول إلى مزارعهم بحجة الإضرار بجنته، أو التعرض إلى الطرق المحجاة التي يسلكها أصحاب المزارع، وفي هذه الخصومات كلها تدخل الفقهاء، وحاولوا حلها بتحكيم العرف أحيانا،

وفي أحيان أخرى وصلوا إلى حل توافقي يرضي الجميع تحت قاعدة لا ضرر ولا ضرار، وقد كان لهذه الفتاوى دور في التخفيف من هذه النزاعات.

وبالنسبة لمصادر رزق المجتمع الريفي فإنه ارتكز على النشاط الفلاحي، فطرق استغلال الملكيات الزراعية والأراضي الفلاحية عبرت عن حيوية هذا النشاط ورواجه في هذا المجتمع، فمن لم يكن يملك كان بإمكانه مزاوله هذا النشاط من خلال عقود الشراكة التي كان يعقدها أو كراء الأراضي التي لم يستغلها أصحابها، وقد كان يهدف إلى تحقيق الأرباح، بينما المالكين الصغار وبعض المتوسطين كان هدفهم تحقيق الاكتفاء الذاتي لأسرهم.

ولم يكن هذا النشاط سهلاً إطلاقاً، فقد كان يحتاج إلى متابعة وسهر واستعمال العديد من التقنيات حتى يصل المنتج الزراعي إلى منتهاه وغاية نضجه وأي تفريط أو إفراط يؤثر على المنتج، ويظهر ذلك جلياً في أيام الجفاف، وفي فترات الحروب وغياب الأمن، مما كان له ضرر بين على المستثمرين في هذا النشاط، مما يظهر العمل الدؤوب والمضني الذي كان يقوم به الفلاحون والمزارعون في المجتمع الريفي.

ورغم ذلك فقد نتج عن هذا النشاط تنوعاً واضحاً في المحاصيل الزراعية، فاحتل القمح والشعير صدارة الاهتمام لأنه الغذاء الرئيسي للمجتمع الأندلسي عموماً، ورغم تفوق بعض المناطق إلا أنها لم تبلغ الحد الذي يسمح لها بالتصدير، وهو ما يعني أن ما كان ينتج منه لم يكن يوازي ما خصص له من مساحة وجهد، بسبب العوامل المناخية والظروف السياسية، وعلى العكس من ذلك فقد أظهرت المحاصيل تفوقاً واضحاً مثل زيتون الشرف وتين مالقة وأرياف شلب وكروم قرية شاط وزعفران طليطلة وبلنسية وقصب سكر شلوبانية في بلاد المنكب وجنات المصلى في ريف إشبيلية.

كما مارس المجتمع الريفي نشاط تربية الحيوانات الذي يعتبر مكملاً للنشاط الزراعي فقد كانت بعض الحيوانات تعينه في هذا النشاط، مثل الأبقار والحُمير والبغال التي استخدمت في النقل والحرق والدرس واستغل زبولها في التسميد، كما احتاج إلى الطيور خاصة الحمام في الشأن ذاته، أما الماشية فاحتاج إلى ألبانها وأصوافها وأشعارها، والنحل لانتاج العسل، ودود الحرير لانتاج الحرير، وقد ساعدته البيئة الريفية التي تتسع فيها المساح.

وكان تأثير النشاط الفلاحي واضحا على النشاط الصناعي، فقد ارتبط إنتاجه بالحصارات الزراعية، فالمطاحن والأرحاء منتشرة في كل المناطق الريفية بسبب سعة زراعة القمح والشعير، أما الصناعات الأخرى فلم تظهر إلى في المناطق التي اشتهرت بزراعة محصول معين مثل صناعة الزيت في الشرف بإشبيلية، وفي قرية شوذر التي تسمى بغدير الزيت، وصناعة الزبيب في قرية شاط، وصناعة السكر في شلوبانية من بلاد المنكب، وصناعة القصاع الخشبية والمخابي والأطباق في حصن قيشاطة لوفرة الثروة الغابية، وبعض أنواع الصناعة النسيجية، مثل صناعة الثياب في حصن بكيران، وصناعة البسط في قرية تنالة.

أما النشاط التجاري، فقد ارتبط بالنشطين السابقين، لكنه كان أكثر ارتباطا بالفلاحة لأنها عماد النشاط عند المجتمع الريفي، فقد استغل هذا المجتمع مختلف الفضاءات خاصة الأسواق سواء كانت في الريف أو في المدينة من أجل تصريف منتوجاته الزراعية و الصناعية، فكانت الأرياف الممونة الرئيسي للمدن بمختلف المحاصيل الزراعية وغزت منتوجات القمح والشعير والبقول والفواكه الأسواق الداخلية وتعدت شهرة بعض المنتوجات حدود البلاد، فكان لها حضور في بعض البلدان مثل الزيت والتين والزعفران وبعض الخامات الزراعية، مثل القطن والحريز والكتان، كما كان لبعض المنتوجات الصناعية الريفية شهرة خارج البلاد، مثل قصاع حصن قيشاطة التي وصلت إلى بلاد المغرب، وبسط تنالة التي شهدت حضورا في أسواق المشرق.

ولم ينل المجتمع الريفي حظه من التعليم، إذ لم يتعدى المرحلة الابتدائية في أغلب مناطقه، مما أسفر عنه مجتمعا يعرف مبادئ القراءة والحساب فقط، ومن أراد أن يتدرج في مراتب العلم كان عليه أن يقوم بالرحلة إلى المراكز العلمية في المدن أو خارج البلاد، هذه الرحلة التي لم تتح لكل فئات المجتمع، لكنها مكنت صاحبها في ميادين العلم المختلفة، وكان الشعر والعلم الشرعي أكثر الميادين التي برز فيها المجتمع الريفي وهذان الميدانان أكثر الميادين التي تحقق لصاحبها الثراء، بفضل الأعطيات التي تمنح لهم أو المناصب التي تمنح لهم، وهو ما يفسر بروز طائفة من المجتمع الريفي فيهما.

وفيما يخص الحياة الدينية فإن غياب السلطة ملاحظ في المجتمع الريفي، فقد كان بناء المساجد وصيانتها، والتعاقد مع الأئمة في أغلب المناطق من الجهد الخاص لسكانتها سواء عن طريق الاشتراكات أو عن طريق الأحباس الموجهة لهذا الغرض، ولذلك فإن بعض المساجد قد عرفت تدهورا في حالتها بسبب قلة

الأحباس وعدم قدرة المجتمع على القيام بشؤون الصيانة، كما عجزت بعض المناطق عن الوفاء بالتزاماتها المالية اتجاه الإمام وهذا ما جعل هذا المنصب في حالة فراغ في بعض المناطق.

وقد أظهر المجتمع الريفي تدينه من خلال حرصه على إقامة الشعائر الدينية المختلفة، وإحيائه لمختلف الأعياد والمناسبات الدينية التي لم تختلف عن مثيلتها في المدن، سواء بالنسبة لأعياد أهل الذمة أو أعياد المسلمين.

وختاماً يجب التنويه إلى أن المجتمع الريفي في الأندلس لم ينل حظه الكافي من الدراسة والتحليل في الجامعة الجزائرية ولم يزل حقلاً بكرًا، فالكثير من جوانبه في مختلف الفترات لم يكشف عنها إلا النزر اليسير ويمكن للباحثين سد ثلماته وثغراته، ربما إذا ما تم اكتشاف نصوص مصدريّة جديدة أو الاعتماد على الأبحاث الأثرية التي تستهدف المناطق الريفية، والتي تبقى السبيل الوحيد لسد الثغرات التي تعترى جوانب هذا الموضوع.

الملاحق

الطريق مرفق عام بالريف الأندلسي¹

"وسئل ابن رشد رحمه الله كتب إليه القاضي أبو الفضل عياض من سبته بعد نسخة عقد نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، يشهد من يتسمى اسفل هذا العقد من الشهود أنهم يعرفون الزنقة الضيقة الحاجزة بين جنة فلان وفلان بقرية كذا من بلد كذا، ويعلمون هذه الزنقة مملوكة من البحر إلى أعلاها مملوكة لعامة المسلمين تحاز بها الطرقات وتحترم بحرماتها، وأول هذه الزنقة كذا وآخرها كذا إلى الطريق العظمى، وكذلك السالكون بهذه الزنقة المذكورة تفضي بهم إلى الطريق المذكورة على هذه الحالة، عرفوا الزنقة المذكورة وخبروها على هذه الصفة عهدوها وعلموها. شهد بذلك من علمه حسب نصه وعينه بالوقوف إليه وأوقع ذلك شهادته في كذا. ونص السؤال: يتأمل افيقه الأجل أدام الله توفيقه هذا العقد وقد شهد فيه عدة من العدول بنصه وحازوا الطريقة المذكورة وحذوها بمحضر البينة، هل هو عامل تام يجب الحكم به وإخراج ما اقتطع بعض الجيران من هذه الطريق وأدخله جنته حتى قطع المرور بها وبقي أسفلها لا ينفذ إلى أعلاها؟ وهل يضطر في العقد أن يقال منذ عقلوا حسبما نصه الموثقون؟ أم لا يقدم إسقاطه بالعقد، إذ شهادتهم فيه تامة حسبما نصها في العقد عاقدة؟ وهل تحتاج شهادتهم إلى ذكر المدة التي عرفوها وطولها أم لا تحتاج هنا لأنهم اجتزوا عن أول علمهم بهذه الطريق أنها بهذه السبيل ولم يشهد غيرهم بخلافه فصارت كمن شهد لمن يصح الحوز عليه من صغير أو سفيه أو غائب يتقدم ملكه لشيء يدعيه غيره ويحتج بكونه في يده فلا يحتاج هنا إلى أكثر من أن يقولوا نعلمها ملكا لفلان أو في حوزة قبل أن تصير في يد هذا. فكانت الشهادة لمتقدم الملك أعمل إلا أن يطلها حوزا وتنقل ملكا وكذلك الشهادة بهذه الطريق شهدوا أنهم يعلمونها أولا في حوز جماعة المسلمين قبل أن يتعدى عليها مقتطعها فلا يحتاجون إلى أكثر، وطول حوز هوائها باقتطاعهم بعد معرفتهم غير ضائر، إذ لا يحاز على الطرق. والمسألة التي شرط فيها في كتبنا طول أمد المعرفة قامت هناك للمطلوب بينة أنها طريق محدثة بلا حق حسبما وقع في الرواية، فهنا الشهادة للمالك الأقدم وهو ملك المدعى عليه لإثبات شهوده ملكه قبل إحداثه فكانت أعمل إلا أن يأتي من طول المدة ما يحاز به على الطريق ضد مسألتنا، فجاوب بما تراه مأجورا بإذن الله.

¹ النشريسي، المصدر السابق، ج9، ص ص 15، 16.

فأجاب بما نصه: تصفحت أعزك الله بطاعته وأمدك بمعونته سؤالك هذا والعقد المستنسخ فوقه ووقفت على ذلك كله، والعقد صحيح لا يقدر فيه ولا يوهنه خلوه من معرفة الشهود بما تضمنه منذ عقلوا، إذ ليس ذلك بشرط في صحة شهادة الشاهد في هذه المسألة للمعاني التي ذكرتها أو لا سوى ذلك، فالحكم به واجب والقضاء بصرف الطريق على ما كانت عليه وهدم ما أحدث من البناء فيها الذي قطع المرور عليها لازم فأنفذه من حكمك وأمضه من قضائك هذا إن شاء الله تعالى والسلام عليكم."

وثيقة وكالة تفويض تسيير ضياع¹

" وكُل فلان بن فلان فلان بن فلان على النظر في تسمير ضياعه بمزارعة ما يصلح مزارعته منها وتقبيل ما رأى تقبيله ومساقاة ما وجب مساقاته وعلى الإكراء على خدمة ما يجري خدمته على بدنه من مرمة دور الضياع المذكورة وتسييخ أرضها وزبر كرماتها وحفرها وعلى قبض مستغل جميع أملاكه وقبالات دوره وفنادقه وحماماته وحوانيته وعلى تدبير جميع ماله من ضياع وأملاك ودواب وحيوان وغير ذلك فيما تعود المصلحة من نظره على ذلك وعلى البيع بالنقد والدين والابتياح له والأخذ له والإعطاء عنه وعلى المصالحة عنه والقسمة عليه وعلى قبض ديونه وأدائها عنه لمن ثبت عليه وعلى إجراء النفقة مما يستدق بيده من مستغله على داره وعلى جميع أعوانه وعبيده ووكلائه وعلى دوابه وعلى المخاصمة دونه له وعنه وعلى الإقرار عليه والإنكار عنه جعله في جميع ذلك عن نفسه وفوض ذلك إليه وأباح له توكيل من رأى توكيله على جميع ما وكله عليه أو بعضه إذا رأى ذلك وقبل فلان ما جعل إليه من ذلك ما التزمه... شهد ثم تكمل الإشهاد".

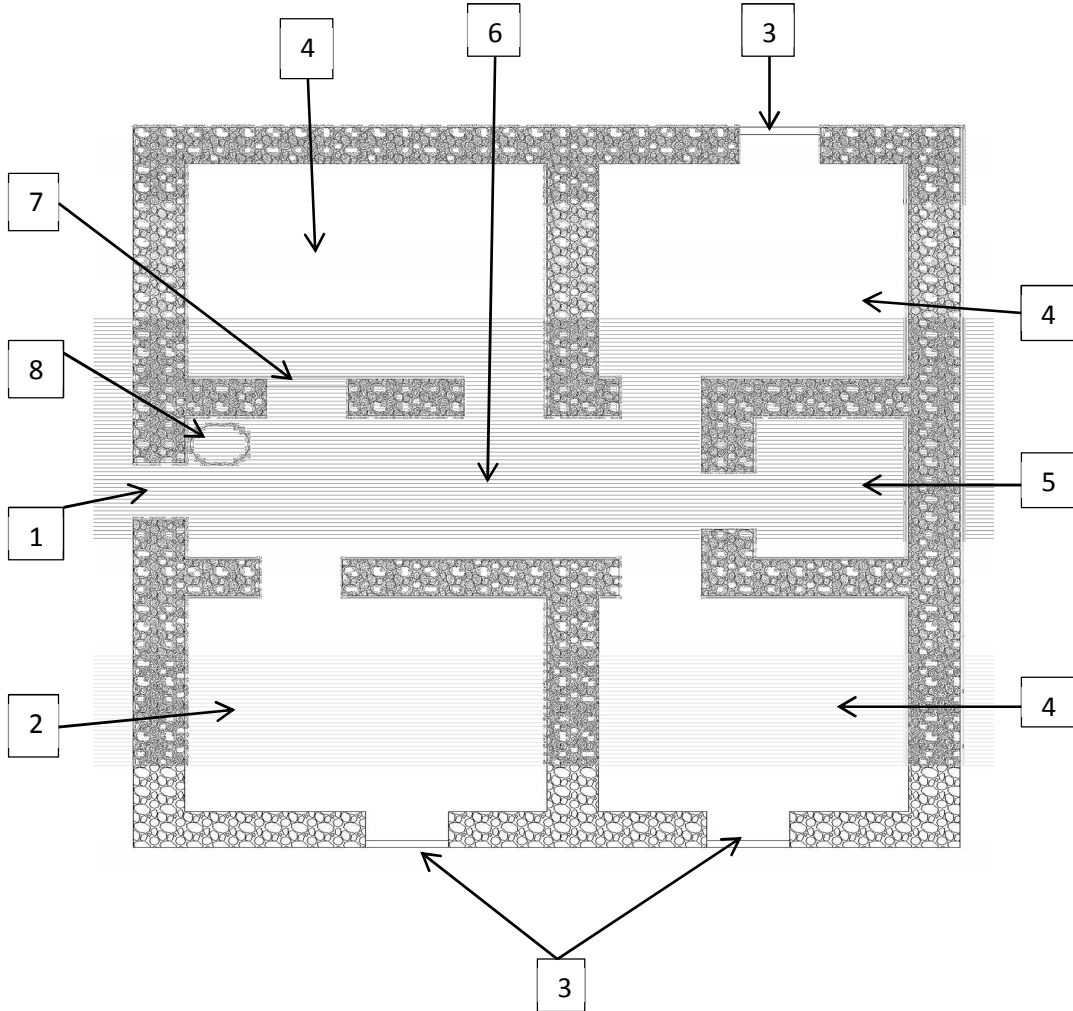
¹ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص 527.

عقد بيع بين امرأتين¹

" بسم الله الرحمن الرحيم. اشترت إدلال أم ولد فلان من عائشة بنت فلان جميع الدار التي بحاضرة بلنسية وداخل سورها المحدث وبحومة كذا ومنعت حدها كذا وجميع الجنة التي بخارج مدينة بلنسية بموضع كذا ومنتهى حدها كذا بعامة جميع حقوق الدار والجنة المبيعتين المحدودتين فوق هذا ومنافعهما ومرافقهما الداخلة فيها والخارجة عنهما وبقاعة ذلك كله وبنائه وأنقاضه علو ذلك كله وسفله وبما في الجنة من ضروب الشجرات وأنواع الغروسات المثمرة وغير المثمرة اشتراء تاما صحيحا تاما مبتولا دون شرط ولا ثنيا ولا خيار عرفنا قدر ذلك ومبلغه بثمان مبلغه كذا. برئت المبتاعة إدلال المذكورة بجميعه إلى البائعة عائشة المذكورة طيبا جيدا مقلبا وقد ياعته البائعة المذكورة منها على الصفة المذكورة وأبرأتها منه براءة تامة، وخلص للمبتاعة المذكورة إدلال ملك جميع ذلك، وحلت فيه محل البائعة المذكورة ونزلت منزلتها ومحل ذي الملك في ملكة على سنة المسلمين في بيوعهم ومراجع إدراكهم بينهم. شهد على إشهاد المتبايعتين إدلال وعائشة المذكورتين على أنفسهما بالمذكور في هذا الكتاب عنهما من سمعه منهما وعرفهما وإدلال منهما بحال صحة وجواز أمر وعائشة المذكورة عليلة الجسم ثابتة العقل والذهن وعائشة البائعة عائشة للثمان الموصوف من المبتاعة إدلال، وذلك في شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة".

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 1071، 1072.

تصور منزل ريفي لطبقة متوسطة¹

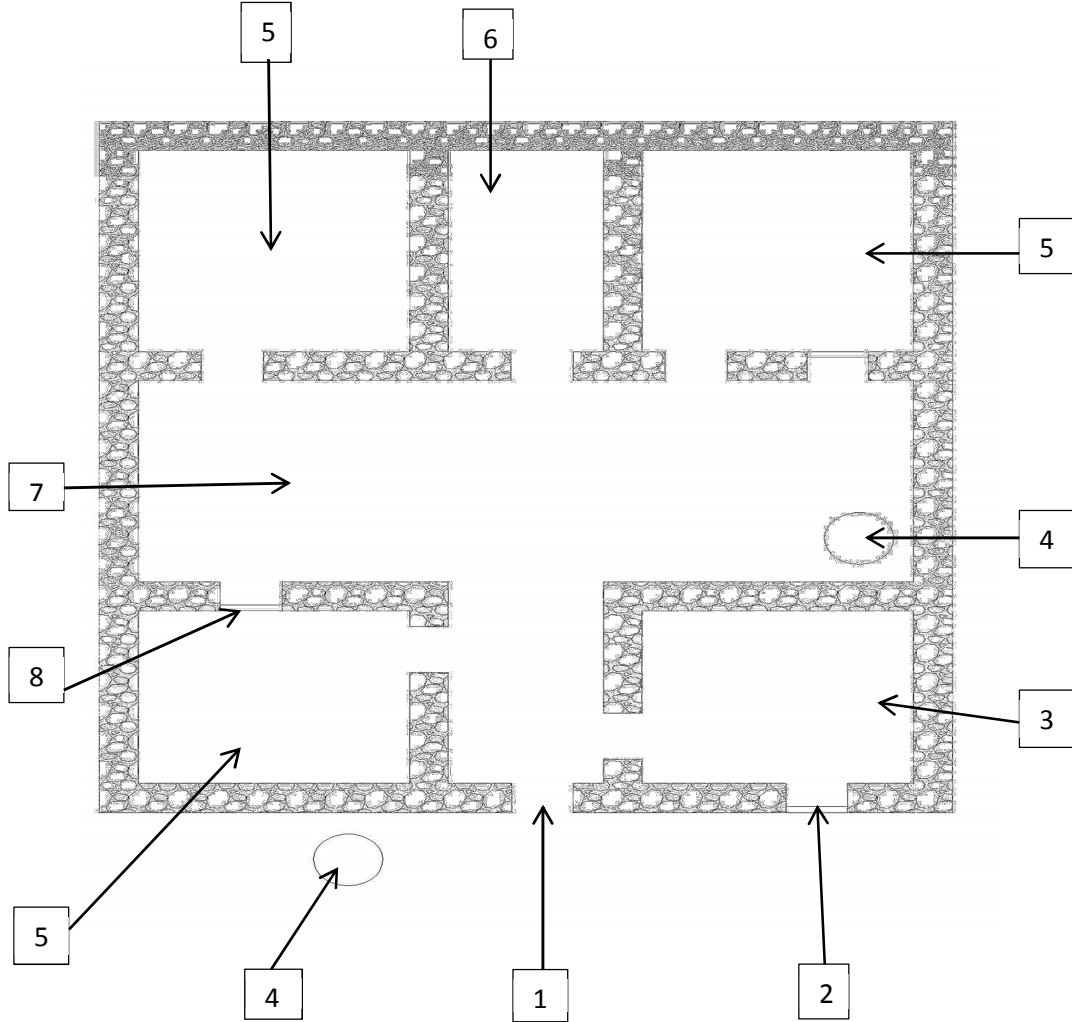


المفتاح:

1- مدخل	2- غرفة الضيوف	3- نوافذ خارجية	4- غرف النوم
5- مطبخ	6- فناء المنزل	7- نافذة داخلية	8- مطمورة

¹ المخطط من إنجاز المهندس سويدي فيصل من خلال أوصاف: ابن بسم، المصدر السابق، ج 1، ص 677؛ نكادي، الأسرة في البداية الأندلسية، ص 23؛ دندش، الأندلس في بداية المرابطين ومستهل الموحدون، ص 298؛ بلباس، الأبنية الإسبانية الإسلامية، 127؛ رابع فيسة، الأقسام المعمارية للمنزل الريفي البربري، ص 153.

تصور لمخطط منزل طبقة غنية¹



المفتاح:

1- مدخل	2- نافذة خارجية	3- غرفة الضيوف	4- مطمورة
5- غرف النوم	6- مطبخ	7- فناء	8- نافذة داخلية

¹ المخطط من إنجاز المهندس سويدي فيصل من خلال أوصاف: المقري، نفح الطيب، ج3، ص 214؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 153؛ أحمد مكّي، المرجع السابق، ص 41، 44؛ دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص 298؛ قربي، المرجع السابق، ص 263، 264.

صورة من التضامن مع المرضى في المجتمع الريفي¹

" ثبت عندي - رحمكم الله - وصية رجل من أهل البادية كان يسمى: سليم بن سعيد، وموته، وعدة ورثته، وأوعيت جميع ما وجب إنفاذه في وصيته، ووكلت لتنفيذها من وثقت به، فلما وقفت على التنفيذ أشكل علي لفظ في الوصية، أردت معرفة رأيكم فيه، قال في وصيته: يعطى (المرضى) والقطع بحاضرة قرطبة أربعة أمداد، فهل يجب - أكرمكم الله - أن تفرق على الجذمي الذين بعدوة نهر قرطبة، أم تفرق بحاضرة قرطبة، كما قال: فاكتبوا إلي في ذلك إن شاء الله عز وجل؟ قال محمد بن غالب: تفرق الوصية على المرضى الذين بعدوة نهر قرطبة، وهذا وجه ما أراد الموصي، والله أسأل التوفيق والتسديد، وقاله ابن لبابة، وأيوب، وابن وليد".

¹ ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، ج 1، ص 170.

صورة من نزاعات المجتمع الريفي بسبب القحط¹

" وأما الخامسة فهي ماء عليه جنات وأرجاء لم تزل الأرحاء تطحن به والجنات تسقى منه إلى أن وقع بين أصحاب الجنات والأرجاء تشاح منذ نحو عشرين سنة، فتصالحوا على أيام معلومة تكون لأصحاب الجنات أيام شهور السقي المعلومة، وحدوها، وسائر ذلك لأصحاب الأرحاء وعقدوا عقدا بينهم بذلك تضمن قطع الحقوق بعضهم عن بعض في غير ما تصالحوا عليه، ثم إنه تحدث في بعض السنين إذا كان جدد وقحط حاجة بالجنات إلى السقي في غير الشهور المعروفة وحاجة لترطيب أرضها وتثريته للحفير عند عدم الأمطار فقام أصحاب الجنات بذلك، وادعوا أن الصلح إنما كان على العادة. وكيف حكم من لم يحضر هذا الصلح ولا انعقد عليه من أصحاب الجنات؟ فلما قام له أصحاب الأرحاء قد جريت على عادة المصالح هذه المدة فهو رضى منه بما صالح به أشراكك وجيرانك؟ وكيف إن شهد هؤلاء أن الجنات إن لم تسقى في مثل هذه الضرورات هلكت؟ بين لنا ذلك بفضللك.

الجواب عليها: تصفحت سؤالك - أعزك الله بطاعته - سؤالك هذا ووقفت عليه. وإن كان الماء غير متملك من حق أصحاب الجنات أن يبدؤوا بالسقي به على أصحاب الأرحاء على ما يدل عليه ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قضى في سيل مهزور ومذنب. فالصلح الواقع بينهم إنما هو رضى من أصحاب الجنات بترك بعض حقوقهم من السقي فيلزمهم اليمين أنهم إنما رضوا بما أشهدوا به على أنفسهم من ذلكما لم ينتقص الماء عما هو عليه انتقاصا يضر بهم فيما يحتاجون إليه من سقي جناتهم. فإن حلفوا على ذلك بقوا على حقهم في التبديع بالسقي على أصحاب الأرحاء، وإن نكلوا عن اليمين لزمهم ما أشهدوا به على أنفسهم في عقد الصلح، ومن لم يحضره منهم فهو على حقه في السقي دون يمين تلزمهم وبالله التوفيق".

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 1088، 1089.

صورة من نزاعات المجتمع الريفي بسبب ضرر الملح العامة¹

" فهمنا - وفقك الله - الشهادات الواقعة على سعيد بن محمد بن السليم فيما اقتطعه من محجة المسلمين وضمه ذلك إلى جناحه اللاصقة بمحجة قرطبة بمنية المغيرة، فأينا شهادات تامة منعقدة توجب خراب ذلك ورد المقتطع من المحجة إليها على حسب ما كانت عليه بعد مضي البينة التي شهدت في ذلك إلى الموضع وحيازتها بما يقطع في ذلك بالشهادة أنه أخذه من المحجة، وبعد أن يعذر إليه في مدفع إن كان عندهن فيمن قبلت شهادته في ذلك. قال بذلك يحيى بن أبي عيسى وقال: هذا قضاء قضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد روى ابن كنانة عن مالك بن أنس قال هدم عمر بن الخطاب على أبي سفيان أسسا تزيدته كان من طريق المسلمين فسارع أبو سفيان إلى هدمه وقال: من أين أهدم يا أمير المؤمنين وحسر عن يديه؟ فقال له عمر: من هنا إلى هنا يا أبا سفيان، فهدم أبو سفيان بيده فرفع عمر يديه إلى السماء وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيت أبا سفيان يطوع لنا هذا الطوع..."

¹ ابن سهل، المصدر السابق، الإعلام بنوازل الأحكام، ج2، ص 778.

نزاع بين متغارسين في مغارسة فاسدة¹

وكتب إليه - رضي الله عنه - من مدينة شلطيّش بنخعة عقد انعقد بين رجلين في بيع فاسد، وتحتة سؤال سئل فيه عمن عقد في العقد وأحدهما قد ذهب إلى نقض الصفقة وأخذ الأجرة في عمله. وهذا نصا العقد/ أشهد محمد بن خلف وعلي بن محمد على أنفسهما شهداء هذا الكتاب في صحتهما وجواز أمرهما أنهما وقفا عندا أوجبته الحق من نقض صفقة المغارسة التي كانت وقعت بينهما فاسدة في الجنان الذي بقرية كذا من إقليم كذا من عمل كذا حده كذا ففسخاها لفسادها، وعادت اللجنة المذكورة بأجمعها لربها محمد المذكور، وانقطعت علاقة علي بن محمد عنها، وبرئ كل واحد منهما من صاحبه، وتساقطا التباعة في جميع معاني المغارسة، ثم إن من رغب الثواب سأل من محمد المذكور أن يتخلى لعلي بن محمد عن نصف الجنان المحدود المذكور بقيمة يوجبها علي المذكور على نفسه وفي ماله لمحمد المذكور على وجه البيع لنصف الجنان المذكور مشاعا، وذلك ستة مثاقيل من الذهب العبادية الضرب ترتبت عليه حالة في ذمته، يتولى له فيها خدمة النصف المشاع الثاني على مالكة محمد المذكور مدة من سبعة أعوام أولها تاريخ هذا الكتاب يصل ذلك بخدمة منابه هذا المبيع منه مشاعا غير مقسوم، ويحرث الجميع أربع حرثات يقصد بها أوقات طيب الحرث، ويتحراها، ويتعاهد الجميع، ويحرسه من السوائب، ويذكر الكل المدة المذكورة كلما انقضى عام انقضى بخدمته، فإذا طلع عام غيره تولى الخدمة متصلا حسبما فسر حتى تنفذ الأعوام، وتفرغ ذمة علي من الذهب، إذ كان محمد قد رأى أن يتأدى المثلث على ما ذكر وفيما فسر، وصارت اللجنة المذكورة بينهما على السواء والتناصف بجميع منافعها وأشجارها، والتزم علي بن محمد على الطوع منه، ومن غير شرط أنه متى طلب المقاسمة في هذه اللجنة وإبراز نصيبه في المدة المذكورة فنصيبه منها صدقة على المساكين لا حق له معهم فيها عند ذلك وعرف قدر ذلك ومبلغه كما عرفا معا قدر الإنفاق المذكور من أوله إلى آخره.

وصار هذا الكتاب بينهما حجزا قاطعا عن الاختلاف. ونسخا بهذا الاتفاق جميع ما تقدمه من الأعمال الصحيحة والفسادة شهد على الإشهاد فلان وفلان. السؤال: تصفح - رضي الله عنك العقد المنصوص أعلى هذا الكتاب، وتأمل مأجورا أقوال العاقد فيه. في الفصل الأول منه أن الشاهدين تفاسخا المغارسة لفسادها، وأن اللجنة عادت بأجمعها إلى ربها، وانقطعت علاقة المغارس علي عنها، وبرئ كل واحد من

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، ص ص 1135 - 1137.

صاحبه، وتساقطا التباعة في جميع معاني المغارسة المذكورة إلى سائر ذلك من فصول العقد المذكور إلى قوله: ونسخا من هذا الاتفاق جميع ما تقدمه من الأعمال الصحيحة والفاصلة، فإن العامل ذهب إلى الرجوع على رب الأرض يطلب العمل من أول نزوله في الجنة المذكورة، ورب الأرض يقول له: لا رجوع لك علي، فإنك قد أشهدت على نفسك بإسقاط التباعة والعلق فيما سلف من عملك إلى تاريخ العقد المقيد فوق هذا، وقد برئ كل واحد منهما من صاحبه. فهل ترى - وفقك الله - للعامل رجوعا على رب الأرض فيما سلف من عمله أم لا؟

فأجاب- رضي الله عنه:- تصفحت - رحمنا الله وإياك- سؤالك هذا ووقفت عليه، وعلى نسخة العقد الواقعة فوقه. وما تضمنه من تخلي محمد بن خلف عن نصف الجنة لعلي بن محمد على أن يخدم له نصيبه المدة الموصوفة مشاعا غير مقسوم لا يجوز لما في ذلك من التحجير على المبتاع فيما ابتاع.

والواجب في هذا أن يخير البائع محمد بن خلف بين أن يسقط الشرط ويمضي البيع على أن يقسم المبتاع متى شاء، ويفعل في نصيبه ما شاء من بيع أو غيره أو يفسخ. والقول قوله مع يمينه فيما ادعاه المبتاع عليه من قيمة عمله في الجنة من أول نزوله فيها، يحلف في مقطع الحق بالله الذي لا إله إلا هو ما اتفق معه الاتفاق المذكور في نصف الجنة المذكورة إلا بعد أن وصل إلى حقه في عمله في المغارسة الفاسدة التي تساقطها لفسادها، ولم يبق له بسببها قبله حق، إذ ليس ذلك بيمين في العقد. وبالله تعالى التوفيق لا شريك له.

الملحق رقم 10:

إقامة رحي في إحدى القرى الأندلسية¹

وسئل رضي الله عنه في رجل أقام رحي في أرضه. وأخرج/ طرف السد في أرض جاره دون أن يأذن له جاره في ذلك فقام عليه، وأراد أن يهدم السد فوقعت بينهما محاصمة ومنازعة في الأرض، وقال إنه ليس أرضك وإنما هو حرف الوادي، فعقد صاحب الأرض عقدا تضمن ما تقف عليه: بسم الله الرحمن الرحيم يشهد من تسمى في هذا الكتاب من الشهداء أنهم يعرفون الرحي المحدث التي هي على وادي شبيبة ويعرفون المحدث لها محمد بن يحيى ومن شركه فيها قد أحدثوا سدا في أرض محمد بن خلف دون أن يأذن لهم في ذلك وفي الأرض الجوفية من السد المذكور من السد المذكور ولا يعرفون محمدا رضي بها ولا أباحها لهم في علمهم. شهد بذلك كله من علمه حسبما ذكر فيه، ويجوزون الأرض المذكورة المحدث فيها السد بالوقوف عليها والنظر لها، وأوقع شهادته بذلك في ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين وأربعمائة. وثبت العقد على نصه بشهادة من جوزت شهادته. ثم إن المقوم عليهم عقدوا عقدا تقف عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم يشهد من تسمى في هذا الكتاب من الشهداء أنهم يعرفون محمد بن يحيى بعينه واسمه، وأن الذي أحدث في الوادي بقرية شبيبة من عرفه على مجراه الآن هو مجراه القديم الذي كان عليه قد عرف وأن الذي أحدث فيه منذ ثلاثة أعوام إنما أحدثه الوادي لقوته، وأنه لم يكن ممره منذ علم إلا بالوجه المذكور فيه. شهد بذلك من علمه حسب نصه، وأوقع شهادته على معرفة ما اجتلب فيه ممن يحوز الوادي المذكور، ويعلم مجراه القديم بالنظر إليه والتعيين له. وكان إيقاعهم لشهادتهم إذ سئلت منهم وذلك في منسلخ شهر ربيع الأول الذي من سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

تأمل رضي الله عنك ما تضمنه العقدان، وأفتنا بالواجب في ذلك. ومن الشهود وفقك الله الذين يشهدون في الأرض لصاحبه، يشهدون على مجرى الوادي في العقد الذي انعقد فيه. بين لنا ذلك بيانا موضحا شافيا ترفع به الإشكال إن شاء الله.

فأجاب أيده الله: تصفحت - رحمنا الله وإياك - سؤالك هذا، ووقفت عليهن وعلى العقدين المنتسخين فوفقه، والعقد الأول منهما هو الذي يجب الحكم والقضاء به إذ حاز شهوده ما شهدوا فيه بعد أن يزيدوا في

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج 1، ص ص 171-173.

شهادتهم أن الموضع الذي ابتنى فيه السد مال القائم وملكه، إذ لم يتضمن ذلك العقد بنص عليه، وبعد أن يعذر في شهادتهم إلى المقوم عليه فيعجز عن المدفع فيها. والله ولي التوفيق بعزته.

الملحق رقم 11:

عقد استئجار بيت رحي¹

" بسم الله الرحمن الرحيم، أكتري محمد بن عبد الرحمن بن طارق الأنصاري وعبد الصمد بم علي الأموي، ومحمد وعلي بنا عبد الله بن حرب اللخمي، بينهم على السواء والاعتدال، من أحمد بن جزي التحيبي ومن عبد الله بن دلول الناظرين للقريش بقربطبة جميع بيت الرحي الدائرة المعروفة ببيت السانية بقرب الخرب على ضفة وادي بلون من جيان لمدة سبعة أعوام متصلة، أولها منتصف ذي الحجة الأدنى إلى تاريخ هذا الكتاب بمائة مثقال واحدة وأربعين مثقالاً من الذهب المرباطية الوازنة، يدفع منها محمد بن عبد الرحمن وعبد الصمد وعلي ابنا عبد الله المذكورين، لأحمد وعبد الله المذكورين، أو إلى ما يجب ذلك بسبب القريش المذكور أرباب القرية وبيت الرحي المذكورين عند انقضاء كل شهر من أول الأمد المذكور مثقالاً واحداً وثلاثي مثقال أداء متوالياً إلى إتمام العدد وانصرام الأمد، وعلى أن يطلق محمد بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن وعبد الصمد والأخوان محمد وعلي المذكورين، في البيت المذكور أربعة أحجار طاحنة تكون رصحنات وأحجارها ثمانية من مقطع أرنبطة غلظ كل حجر شبر وثلاث وسعته أربعة أشبار ونصف بالشبر الوسط، وتكون ذواليها من البلوط بأعمدة الحديد وقطب وحلق وصنوج وقنوات ومصب البيت أربع من الألواح ويرفعون سد الرحي المذكورة بالحجارة والسل والأوتاد، ويخرج مأؤه في ساقية الرحي، وعلى أن يقيموا في جوفي بيت الرحي اصطبلاً للدواب سعته مثل بيت الرحي يتصل بالبيت طوله أربعة ألواح وارتفاعه ثلاثة ألواح للطايبية غلظ الحائط شبران بالشبر الوسط وأسه بالحجر والطين وعدته بالجوز وغطاؤه وغطاء بيت الرحي بالقراميد، ويشركون البيت المتصل ببيت الرحي المذكورة من ناحية الغرب بالحصص، وتواصفوا ذلك كله صفة أقاموها مقام العيان، فإذا انقضت المدة المذكورة، ترك محمد بن عبد الرحمن وعبد الصمد، والأخوان محمد وعلي المذكورون الأربعة الأحجار المذكورة طاحنة بآلاتها كلها مستقيمة في جريتها في البيت المذكور للقريش المذكورين أرباب القرية المذكورة، وطاع محمد وعبد الصمد والأخوان محمد وعلي المذكورون بعد تمام الكراء المذكور طوعاً صحيحاً دون شرط، أن يطحن عبد الله وأحمد بن جزي المذكوران في الرحي المذكورة في كل شهر من أشهر الأعوام المذكورة قفيزين من القمح بكيل جيان دون أجر، وعرفوا قدر ذلك، شهد عليهم بذلك من أشهدوه به في صحتهم وجواز أمورهم في شعبان من سنة تسع وخمسمائة."

¹ ابن رشد، المصدر السابق، ج2، 1203 - 1205.

المصادر والمراجع

أولا/ المصادر:

أ- المصادر المخطوطة:

* ابن الحاج التجيبي، محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم ت 529هـ / 1135:

1- نوازل ابن الحاج، رصيد الخزانة العامة بالرباط، رقم ج 55.

* ابن سلمون، أبو القاسم سلمون بن علي الكناني الغرناطي:

2- العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، رصيد المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، رقم 1366.

ب- المصادر المطبوعة:

* ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (595-658هـ/1199-1260م):

3- الحلة السيرة، تحقيق. حسين مؤنس، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، 1985، الجزء الثاني.

4- التكملة لكتاب الصلة، تح. عبد السلام الهراس، دون طبعة، بيروت، دار الفكر، 1995، الجزء الأول، الجزء الثاني، الجزء الرابع.

* ابن الأثير الجزري، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الملقب بعزالدين ت 630هـ:

5- الكامل في التاريخ، مراجعة. محمد يوسف الدقاق، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987، الجزء السادس والجزء الثامن والجزء التاسع.

* ابن الأحمر، إسماعيل:

6- بيوتات فاس الكبرى، دون طبعة، الرباط، دار المنصورة للطباعة والنشر، 1972.

* الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني ق 06هـ:

7- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، دون طبعة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ، الجزء الثاني.

* الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي ت 346هـ:

8 - المسالك الممالك، بيروت، دار صادر، 2004.

- * ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي:
9- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق. نزار رضا، دون طبعة، بيروت، دار مكتبة الحياة، دون تاريخ.
- * ابن أبي الخصال، أبو عبد الله الغافقي الأندلسي:
10- رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق. محمد رضوان الداية، الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر، 1988.
- * ابن أبي زرع الفاسي:
11- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دون طبعة، الرباط، صور للطباعة والوراقة، 1972.
- * البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي ت 841هـ / 1438م:
12- فتاوى البرزلي المسماة جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق. محمد الحبيب الهيلة، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002، الجزء الثالث.
- * ابن بسام، الشنتريني أبو الحسن علي ت 542هـ:
13- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق. إحسان عباس، دون طبعة، بيروت، دار الثقافة، دون تاريخ، الجزء الثاني، الجزء الرابع
- * ابن بشتغير، أحمد بن سعيد اللورقي المالقي ت 516هـ:
14- نوازل أحمد بن سعيد بن بشتغير، تحقيق وتعليق. قطب الريسوني، الطبعة الأولى، بيروت، دار ابن حزم، 2008.
- * ابن بشكوال، أبو القاسم:
15- الصلة، تحقيق. إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، بيروت- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، 1989، الجزء الأول والجزء الثاني.
- * ابن بصال:
16- كتاب الفلاحة، تعليق. خوسي ماريا مياس ببيكروسا ومحمد عزيما، دون طبعة، الرباط، معهد مولاي الحسن بتطوان، 1955.
- * ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي:
17- رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تق وتحر. محمد عبد المنعم العريان، مر. مصطفى القصاص، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء العلوم، 1987، الجزء الثاني.

- * البكري، ابو عبيد (ت487هـ/1094م):
- 18- المسالك والممالك ، تحقيق وتقديم. أندريا فان ليوفن وأندري فيري، دون طبعة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992.
- * ابن بلقين، الأمير عبد الله بن باديس بن حبوس:
- 19- كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحرير. علي عمر، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2006.
- * البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي:
- 20- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دون طبعة، الرباط، دار المنصورة للطباعة والوراقة، 1971.
- * الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى ت279هـ:
- 21- سنن الترمذي، تحقيق. أحمد زهوة، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب العربي، 2005.
- * الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:
- 22- الحنين إلى الأوطان، تعليق وتصحيح الشيخ طاهر الجزائري، الطبعة الثانية، القاهرة، المطبعة السلفية ومكبتها، 1351هـ.
- * ابن جلجل الأندلسي، أبو داود سليمان بن حسان:
- 23- طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق. فؤاد السيد، دون طبعة، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.
- * ابن حبيب الحميري الإشبيلي، أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر ت440هـ:
- 24- البديع في وصف الربيع، تحقيق. عبد الله عبد الرحيم عسيان، الطبعة الأولى، الرياض، دار المدني، 1987.
- * ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد 384-456هـ:
- 25- رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق. إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987، الجزء الثالث، الجزء الرابع.
- 26- جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق. عبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة، القاهرة، دار المعارف، 1982.

- * الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي:
27- معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977، الأجزاء.
- * الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي ت488هـ:
28- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.
- * الحميري، محمد بن عبد المنعم:
29- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق. إحسان عباس، الطبعة الثانية بيروت، مكتبة لبنان، 1984.
- * ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي:
30- صورة الأرض، دون طبعة، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1996.
- * ابن حيان، أبو مروان القرطبي 377-469هـ:
31- المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شرح واعتنى به صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى، بيروت، المكتبة العصرية، 2006.
- 32- المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تح. عبد الرحمن علي حجي، دون طبعة، بيروت، دار الثقافة، دون تاريخ.
- 33- المقتبس، تحقيق. ب. شالميتا وآخرون، الرباط- مدريد، كلية الآداب- المعهد العربي الإسباني للثقافة، الجزء الخامس، 1979.
- * ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي ت529هـ/ 1135م:
34- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق. محمد علي شوابكة، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1983.
- 35- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق. حسين يوسف خريوش، الطبعة الأولى، عمان، مكتبة المنار، 1989.
- * ابن الخراط، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي ت581هـ:
36- اختصار اقتباس الأنوار، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 1999.
- * الخشني القروي 661هـ/ 971م:
37- قضاة قرطبة، تح. إبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، القاهرة- بيروت، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، 1989.

- * ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد لسان الدين 713-776هـ:
- 38- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق. محمد كمال شبانة، دون طبعة، القاهرة، مكتبة الثقافة الديني، 2002.
- 39- اللوحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق. محمد مسعود جبران، الطبعة الأولى، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2009.
- 40- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق. محمد عبد الله عنان، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1974، الجزء الأول والثاني.
- 41- تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، بيروت، دار المكشوف، 1956.
- * ابن خلدون، عبد الرحمن (732-808هـ / 1332-1406م):
- 42- تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط خليل شحادة، مراجعة. سهيل زكار، دون طبعة، بيروت، دار الفكر، 2000، الجزء الرابع، الجزء السادس
- 43- مقدمة ابن خلدون، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة ناشرون، 2005.
- * ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين بن أحمد بن محمد بن أبي بكر 608-681هـ: 44- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق. إحسان عباس، دون طبعة، بيروت، دار صادر، دون تاريخ، الجزء الثالث، الجزء السابع.
- * أبو الخير، الإشيلي ق6هـ / 12م:
- 45- كتاب في الفلاحة، الطبعة الأولى، الرباط، المطبعة الجديدة، 1357هـ
- 46- عمدة الطبيب في معرفة النبات، تقديم وتحقيق. محمد العربي الخطابي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995.
- * الداودي، أبو جعفر أحمد بن نصر المالكي 402هـ / 1011م:
- 47- كتاب الأموال، تحقيق ودراسة ومقارنة. رضا محمد سالم شحاته، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 2008.

* أبو داوود، سليمان بن الأشعث 275هـ:

48- سنن أبي داوود، تعليق. محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 2007.

* الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت 748هـ / 1374م:

49- سير أعلام النبلاء، تقديم. بشار عواد معروف، الطبعة 11، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1996، الجزء 18

* ابن رزين التجيبي:

50- فضالة الخوان في طبياات الطعام والألوان، تحقيق محمد بن شقرون، إشراف إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1984.

* الرشاطي، أبو محمد ت 542هـ / 1147م:

51- اقتباس الأنوار، تقديم وتحقيق. إميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلار، دون طبعة، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العالم العربي، 1990.

* ابن رشد القرطبي المالكي ، أبو الوليد بن محمد بن أحمد بن أحمد ت 520هـ / 1126م:

52- فتاوى ابن رشد، تحقيق وتعليق وتقديم. المختار بن الطاهر التليلي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987، الأجزاء.

* الزجالي، أبو يحيى عبيد الله بن أحمد القرطبي (617-694هـ):

53- أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، تح. محمد بن شريفة، دون طبع، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، دون تاريخ، الجزء الثاني.

* ابن زهر الأندلسي، أبو مروان عبد الملك ت 557هـ:

54- النشاط والقوة والشفاء في الأغذية وهو كتاب الأغذية، تعليق. محمد أمين الضناوي، بيروت، دار الكتب العلمية، دون تاريخ.

* الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ت 06هـ / 12م:

55- كتاب الجغرافية، تح. محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ.

* ابن سعيد المغربي:

- 56- المغرب في حلى المغرب، تح. شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، 1993، الأجزاء.
- 57- رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق وتعليق. محمد رضوان الداية، الطبعة الأولى، دمشق، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1987.

* السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي:

- 58- كتاب في آداب الحسبة، نشر. ليفي بروفنسال و ج. س. كولان، باريس، إرنست لورو، 1931.
- * السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري:

- 59- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى -الدولتان المرابطية والمرحدية-، تح. جعفر الناصري ومحمد الناصري، الرباط، دار الكتاب، 1954، الجزء الثاني.

* ابن سهل الإشبيلي الأندلسي، إبراهيم ت 649هـ/ 1251م:

- 60- ديوان ابن سهل، تحقيق. يسرى عبد الغني عبد الله، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003.

* ابن سهل، عيسى أبو الأصغ بن عبد الله الأسدي ت 486هـ/ 1093م:

- 61- وثائق في أحكام أهل الذمة في الأندلس مستخرجة من ديوان الأحكام الكبرى، تحقيق. محمد عبد الوهاب خلاف، مراجعة. محمود علي مكي ومصطفى كامل إسماعيل، دون طبعة، القاهرة، المطبعة العربية الحديثة، 1980.

- 62- وثيقة في اغتصاب ابن السقاء قيم دولة ابن جمهور لأموال بيت مال المسلمين في قرطبة مستخرجة من مخطوطة الأحكام الكبرى، تح. محمد عبد الوهاب خلاف، " مجلة أوراق"، العدد 05 و 06، المعهد العربي الإسباني للثقافة، 1982- 1983.

- 63- ديوان الأحكام الكبرى، تح. المحامي رشيد النعيمي، دون طبعة، دون ناشر، 1997، ج 2

- 64- الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تح. نورة محمد عبد العزيز التويجري، ط 1، دون ناشر، 1995، الجزء أ.

- 65- وثائق في شؤون العمران في الأندلس -المساجد والدور- مستخرجة من مخطوطة الأحكام الكبرى تحقيق. محمد عبد الوهاب خلاف، مراجعة. محمود علي مكي ومصطفى كامل إسماعيل، الطبعة الأولى القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، 1983.

- * الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الأندلسي ت 790هـ / 1388م:
- 66- فتاوى الإمام الشاطبي، تح. محمد أبو الأجناف، ط2، تونس، مطبعة الكواكب، 1985،
- * ابن الشباط، محمد بن علي التوزري:
- 67- وصف الأندلس - قطعة من كتاب صلة السمط وسمه المرط لابن الشباط-، نشر. أحمد مختار العبادي، مدريد، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1967-1968، الجزء الرابع عشر.
- * الشعبي المالقي، أبو مطرف عبد الرحمان بن القاسم ت 497هـ / 1104م:
- 68- الأحكام، تحقيق. محمد صادق الحلوي، دون طبعة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992
- * ابن صاحب الصلاة، عبد الملك ت 594هـ / 1198م:
- 69- المن بالإمامة- تاريخ المغرب والأندلس في عصر الموحدين-، تحقيق. عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987.
- * الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ت 599هـ:
- 70- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دون طبعة، دار الكاتب العربي، 1967.
- * ابن عاصم الغرناطي، أبو بكر محمد بن محمد بن محمد ت 829هـ:
- 71- تحفة الحكام في نكت العقود والحكام، تحقيق. محمد عبد السلام محمد، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2011.
- * ابن عاصم:
- 72- مجموع ابن عاصم، تحقيق محمد بن شريفة ضمن تاريخ الأمثال والأزجال في المغرب والأندلس بحوث ونصوص، دون طبعة، الرباط، منشورات وزارة الثقافة، 2006
- * ابن عبدون التجيبي، محمد بن أحمد:
- 73- رسالة ابن عبدون ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح. ليفي بوفنسال، دون طبعة، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.
- * ابن عبد الرؤوف، أحمد بن عبد الله:
- 74- رسالة ابن عبد الرؤوف ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق. ليفي بوفنسال، دون طبعة، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.

- * ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد: 75- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح. وتق. وت. محمد بن شريفة، دون طبع، 1984، الجزء الخامس والجزء الثامن.
- * ابن عذاري، المراكشي: 76- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق. ج. س. كولان وليفي برزفانسال، الطبعة الثانية، بيروت، دار الثقافة، 1980، الجزء الثاني، الجزء الثالث.
- 77- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. إحسان عباس، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الثقافة، 1983، الجزء الرابع.
- 78- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين-، تحقيق. محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، الطبعة الأولى، بيروت- الرباط، دار الغرب الإسلامي - دار الثقافة، 1985.
- * العذري، أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائلي: 79- نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق. عبد العزيز الأهواني، مدريد، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، دون تاريخ.
- * عريب بن سعيد، أبو الحسن: 80- تقويم قرطبة، دون طبع، دون ناشر، دون تاريخ.
- * ابن عسكر، أبو عبد الله و ابن خميس، أبو بكر: 81- أعلام مالقة، الطبعة الأولى، بيروت- الرباط، دار الغرب الإسلامي - دار الأمان، 1999.
- * ابن العطار، محمد بن أحمد الأموي المعروف ت 330-399هـ: 82- كتاب الوثائق والسجلات، تحقيق. ب. شلميتا و ف. كورينطي، مدريد، مجمع الموثقين الجريطي و المعهد الإسباني العربي للثقافة، 1983.
- * العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله: 83- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق. كامل سلمان الجبوري، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 2010، الجزء الرابع.

- * ابن العوام الإشبيلي، أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد ت 580هـ/1184:
- 84- الفلاحة الأندلسية، تحقيق. أنور أبو سويلم و سمير الدروبي وآخرون، الطبعة الأولى، عمان، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 2012، الأجزاء.
- * عياض القاضي، بن موسى بن عياض السبتي ت 544هـ:
- 85- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مالِك، تح. محمد سعيد أعراب، الطبعة الثانية، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1983، الجزء الثامن.
- * عياض القاضي، وولده محمد:
- 86- مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، الطبعة الثانية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.
- * ابن غالب الأندلسي، محمد بن أيوب:
- 87- قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، نشر لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، ماي 1955.
- * الغساني، محمد الأندلسي:
- 88- رحلة الوزير في افتكاك الأسير 1690-1691م، تقديم وتحرير. نوري الجراح، الطبعة الأولى، أبوظبي- بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002.
- * الفراهيدي، أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد:
- 89- كتاب العين، تحقيق. مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دون طبعة، دون تاريخ.
- * ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي القرطبي ت 351-403/962-1013م:
- 90- تاريخ علماء الأندلس، تحقيق. إبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، القاهرة- بيروت، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، 1989، الجزء الثاني.
- * الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب ت 817هـ:
- 91- القاموس المحيط، تح. محمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الثامنة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2005.
- * القزويني، زكريا بن محمد بن محمود:
- 92- آثار البلاد وأخبار العباد، دون طبعة، بيروت، دار صادر، دون تاريخ.

* القستلي، ألهنس 1530-1610:

93- مجموع الموريسكي الغرناطي ، تحقيق محمد بن شريفة ضمن تاريخ الأمثال والأزجال في المغرب والأندلس بحوث ونصوص، دون طبعة، الرباط، منشورات وزارة الثقافة، 2006، الجزء الثالث.

* ابن القطان المراكشي، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي ق7هـ:

94- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق. محمود علي مكّي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

* ابن القوطية، أبو بكر 367هـ/977م:

95- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق. إبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، القاهرة- بيروت، دار الكتاب، 1989.

* ابن الكردبوس،

96- الاكتفا بتاريخ الخلفاء، تح. صالح بن عبد الله الغامدي، الطبعة الأولى، الرياض، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 2008، الجزء الثاني.

* ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت272هـ:

97- سنن ابن ماجه، تعليق. محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى؛ الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، دون تاريخ.

* الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ت450هـ:

98- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق. أحمد مبارك البغدادي، الطبعة الأولى، الكويت، مكتبة دار ابن قتيبة، 1989.

* مؤلف مجهول:

99- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق. إبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية، بيروت- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، 1989.

* مؤلف مجهول ق8هـ:

100- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار و عبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، الرباط، دار الرشاد الحديثة، 1979.

* مؤلف مجهول:

101- وصف جديد لقرطبة، تح. حسين مؤنس، مدريد، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1965-1966، المجلد الثالث عشر.

* مؤلف مجهول:

102- فتح الأندلس، تحقيق. لويس مولينا، دون طبعة، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية والوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، دون تاريخ.

* مؤلف مجهول:

103- ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة. لويس مولينا، دون طبعة، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد ميغيل أسين، 1983، الجزء الأول.

* مؤلف مجهول:

104- تاريخ الأندلس، تحقيق. عبد القادر بوباية، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 2007.

* مؤلف مجهول:

105- كتاب الطبخ في المغرب والأندلس، تحقيق. أومبروزيو أويثي ميراندا، مدريد، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، 1961-1962، المجلد التاسع والعاشر.

106- مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمونية، نشر. ليفي بروفنسال، دون طبعة، الرباط، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، 1941.

* المجليدي، أحمد سعيد:

107- التيسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق. موسى لقبال، الطبعة الثانية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دون تاريخ.

* المراكشي، أبو محمد عبد الواحد بن علي:

108- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شر. صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى، بيروت، المكتبة العصرية، 2006.

109- وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق. حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1997.

- * المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني:
- 110- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1988.
- 111- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق وتعليق. مصطفى السقا وآخرون، دون طبعة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1940، الجزء الثاني.
- * ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري:
- 112- لسان العرب، بيروت، دار صادر، دون تاريخ. الجزء الثالث، الجزء السادس، الجزء التاسع، الجزء الثاني عشر، الجزء الثالث عشر، الجزء الرابع عشر.
- * النباهي، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي:
- 113- تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، الطبعة الخامسة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1983.
- * النفراوي الأزهري المالكي، أحمد بن غنيم بن سالم بن مهنا ت 1126هـ:
- 114- الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ت 386هـ، دون طبعة، بيروت، المكتبة العصرية، 2010، الجزءان.
- * النويري، أحمد بن عبد الوهاب ت 733هـ / 1321م:
- 115- تاريخ المغرب الإسلامي من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق. مصطفى أبو ضيف أحمد، دون طبعة، الرباط، دار النشر المغربية، دون تاريخ.
- * ابن وافد الأندلسي، الوزير أبو مطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكريم ت 460هـ:
- 116- كتاب الأدوية المفردة، ضبط. أحمد حسن بسج، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000.
- * ابن ورد، أبو القاسم أحمد بن محمد بن عمر التميمي ت 540هـ:
- 117- الأجوبة، تحقيق. محمد بوخبزة و بدر العمراني، الطبعة الأولى، الرباط، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، 2009.
- * الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى ت 914هـ:
- 118- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق. محمد بن شريفة وآخرون، دون طبعة، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981، الأجزاء.

* اليقوي، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح ت 284هـ:

119- البلدان، وضع حواشيه. محمد أمين ضناوي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002.

ثانيا/ المراجع العربية والمعرية:

* أحمد مكى، الطاهر:

120- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة وهبة، 1977.

* أحمد موسى، عزالدين:

121- النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس هجري، الطبعة الأولى، القاهرة-

بيروت، دار الشروق، 1983.

* أربوح، زهور:

122- أوضاع المرأة بالغرب الإسلامي من خلال نوازل المعيار للونشريسي دراسة فقهية اجتماعية، الطبعة

الأولى، الرباط، دار الأمان، 2013.

* أرسلان، الأمير شكيب:

123- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الطبعة الأولى، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1936،

الجزء الأول.

* إسماعيل، محمود:

124- سوسيولوجية الفكر الإسلامي - طور الإنخيال-، الطبعة الأولى، بيروت- القاهرة، الانتشار العربي-

سينا للنشر، 2000، الجزء السادس.

* بالنشيا، آنجل جونثاليث:

125- تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة. حسين مؤنس، دون طبعة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ

* بروفنسال، ليفي:

126- تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية 711-1031م، ترجمة. علي عبد

الرؤوف البمبي وآخرون، مراجعة. صلاح فضل، الطبعة الأولى، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002.

* بنشريفقة، محمد:

127- تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب بحوث ونصوص، دون طبعة، الرباط، منشورات وزارة الثقافة، 2006.

128- البسطي آخر شعراء الأندلس، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985.

* بلباس، ليوبولدو توريس:

129- الأبنية الإسبانية الإسلامية، ترجمة عليّة إبراهيم العناني "مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية"، العدد الأول، مدريد، مطبعة المعهد المصري، 1953.

130- الفن المرابطي والموحدي، ترجمة. سيد غازي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، 1971.

* البكر، خالد بن عبد الكريم بن حمود:

131- النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة 138- 316هـ / 755- 928م، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1993.

* بنحمادة، سعيد:

132- الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 7 و 8هـ / 13 و 14م إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، الطبعة الأولى، بيروت، دار الطليعة، 2007.

* بنمليح، عبد الإله:

133- الرق في بلاد المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 2004.

* بن بية، عبد الله:

134- الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، الطبعة الأولى، بيروت- الرياض، دار ابن حزم- دار الأندلس الخضراء، 2000.

* بوتشيش إبراهيم القدري:

135- أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث حتى ظهور الخلافة (250- 316هـ)، دون طبع، الرباط، مطابع منشورات عكاظ، دون تاريخ.

136- إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الطليعة، 2002.

- 137- مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة، دون تاريخ.
- 138- المغرب والأندلس في عصر المرابطين- المجتمع الذهنيات والأولياء-، الطبعة الأولى، بيروت، دار الطليعة، 1993.
- * البياض، عبد الهادي:
- 139- الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوم وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس ق6- 8هـ/ 12- 14م، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2008.
- * جوميث، امانويل مورينو:
- 140- الفن الإسلامي في إسبانيا- من الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر النرابطين- وفنون المستعربين، ترجمة. السيد عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع، مراجعة. جمال محمد محرز، دون طبعة، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، دون تاريخ.
- * حتمالة، محمد عبده:
- 141- موسوعة الأندلس والمغرب - الديار الأندلسية - ، الطبعة الأولى، الجزائر، دار المدار الثقافية، 2009، الجزء الثالث.
- 142- إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمون، دون طبعة، عمان، وزارة الثقافة، 1996
- * الحجاج، توفيق محمد علي:
- 143- صفحات من تاريخ المدن الأندلسية، الطبعة الأولى، عمان، دار الضياء، 2005.
- * حقي، محمد:
- 144- البربر في الأندلس دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (92هـ/ 711م- 422هـ/ 1031م)، الطبعة الأولى، الرباط، شركة النشر والتوزيع المدارس، 2001.
- * الخالدي، خالد يونس عبد العزيز:
- 145- اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس 92-897هـ/ 711-1492م، دون طبعة، غزة، مطبعة ومكتبة دار الأرقم، 2011.

* خالص، صلاح:

146- إشبيلية في القرن الخامس الهجري - دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها 414-461هـ-، دون طبعة، بيروت، دار الثقافة، 1965.

* خلاف، محمد عبد الوهاب:

147- قرطبة الإسلامية في القرن 05هـ/11م الحياة الاقتصادية والاجتماعية، دون طبعة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984.

148- تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، 1992.

* دحماني، شريفة محمد:

149- العلاقات السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية في عصر ملوك الطوائف 5هـ/11م، دون طبعة، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2006

* دندش، عصمت عبد اللطيف:

150- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني 510-546هـ/1116-1151م، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.

* دوزي، رينهارت:

151- المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة. أكرم فاضل، الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2012.

* ذنون طه، عبد الواحد:

152- الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، الطبعة الأولى، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2004.

* ربييرا، خوليان:

153- التربية الإسلامية في الأندلس وأصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة. الطاهر أحمد مكي، الطبعة الثانية القاهرة، دار المعارف، 1994.

* الزحيلي، وهبة:

154- الفقه الإسلامي وأدلته، الطبعة السادسة، دمشق، دار الفكر، الجزء الخامس.

- * الزركلي، خير الدين:
155- الأعلام، الطبعة الخامسة عشر، بيروت، دار العلم للملايين، 2002، الجزء الثاني، الجزء الثالث، الجزء الثامن.
- * زرهوني، نور الدين:
156- الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2006.
- * زناتي، أنور محمود:
157- دور الفقهاء في الأندلس علميا - سياسيا- إقتصاديا- اجتماعيا- ثقافيا (448- 541هـ/ 1056- 1147م)، دون طبعة، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2016.
- * السامرائي، خليل ابراهيم و آخرون:
158- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، الطبعة الأولى، طرابلس، دار الكتب الوطنية، 2000.
- * السمان، سيف الإسلام أحمد:
159- الأوضاع البيئية في الأندلس- المظاهر العمرانية والبيئة الإقتصادية منذ الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية عصر ملوك الطوائف (92-484هـ/ 711-1091م)، دون طبعة، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2018.
- * السيد عبد الهادي، عبد الباقي:
159- الظاهرية والمالكية وأثرهما في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، الطبعة الأولى القاهرة، دار الآفاق العربية، 2014.
- 160- ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2014.
- * السيد أبو مصطفى، كمال:
161- تاريخ الأندلس الاقتصادي، دون طبعة، القاهرة، مركز الاسكندرية للكتاب، دون تاريخ.
- * السيد الناقة، إبراهيم:
162- دراسات في تاريخ الأندلس الاقتصادي- الأسواق التجارية والصناعية في عصري الخلافة الأموية والخلافة الموحدية، دون طبعة، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 2010.

* السيد عبد العزيز سالم، سحر:

163- تاريخ بطليوس وغرب الأندلس في العصر الإسلامي، دون طبعة، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، دون تاريخ.

* شافع، راوية عبد الحميد:

164- المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط قرطبة، الطبعة الأولى، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2006.

* شاكِر، مصطفى:

165- الأندلس في التاريخ، دون طبعة، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1990.

* الصوفي، خالد:

166- تاريخ العرب في إسبانيا- نهاية الخلافة الأموية في الأندلس-، الطبعة الأولى، دمشق، مكتبة دار الشرق، 1963.

* الطاهري، أحمد:

167- عامة قرطبة دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، الطبعة الثانية، الرباط، مطبعة الخليج العربي، 2018.

168- قسطلة وشاعرها ابن دراج في تاريخ الأندلس وآدابها، دون طبعة، الرباط، مؤسسة الإدريسي المغربية الإسبانية للبحث التاريخي والأثري والمعماري، 2009.

* الطيبي، أمين توفيق:

169- دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، دون طبعة، تونس، الدار العربية للكتاب، 1997، الجزء الثاني.

* العاني، سامي مكي:

170- دراسات في الأدب الأندلسي، دون طبعة، بغداد، الجامعة المستنصرية، 1978.

* العبادي، أحمد مختار:

171- في تاريخ المغرب والأندلس، دون طبعة، بيروت، دار النهضة العربية، دون تاريخ.

- * عباس نصر الله، سعدون:
172- دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، الطبعة الأولى، بيروت، دار النهضة العربية، 1985.
- * عبد الرحمن هلال، جودة:
173- وصية الشيخ أبي الوليد الباجي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، العدد الأول، مدريد، 1955.
- * عبد المنعم محمد حسين، حمدي:
174- ثورات البربر في عصر الإمارة الأموية (138-316هـ / 756-928م)، دون طبعة، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، 1993.
- * عبد العزيز السيد، سالم:
175- صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال الصور المنقوشة في علب العاج، مدريد، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1976-1978، المجلد 19.
- 176- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دون طبعة، بيروت، دار المعارف، دون تاريخ.
- * علي إسماعيل، أحمد:
177- دراسات في جغرافية المدن، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1988.
- * عيسى، فوزي:
178- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2007.
- * عنان، محمد عبد الله :
179- دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثاني الخلافة الأموية والدولة العامرية-، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1997.
- 180- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، الطبعة الثالثة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1966.

* فتحة، محمد:

181- النوازل الفقهية والمجتمع- أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 06 إلى القرن 09هـ / 12-15م، دون طبعة، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999.

* فيلاي، عبد العزيز:

182- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الفجر لنشر والتوزيع، 1999.

* قاسم الطويل، مريم:

183- مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر 403- 483هـ / 1012- 1090م، الطبعة الأولى، بيروت- الرباط: دار الكتب العلمية- مكتب الوحدة العربية، 1994.

* قرني، حسن:

184- المجتمع الريفي في الأندلس في عصر بني أمية 138- 422هـ / 756- 1031م، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، دون تاريخ.

* كعواس، ميلود:

185- نوازل الأسرة بالمغرب الأقصى والأندلس خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، الطبعة الأولى، الرباط، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، 2017، الجزءان.

* كواتي، مسعود:

186- اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، الطبعة الثانية، الجزائر، دار هومة، 2009.

* كولان، ج. س.:

187- الأندلس، " كتب دائرة المعارف الإسلامية"، الطبعة الأولى، بيروت- القاهرة، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، 1980.

* كونستيل، أوليفيا ريمي:

188- التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة. فيصل عبد الله، دون طبعة، الرياض، مكتبة العبيكان، 2002.

* لومبار، موريس:

189- الإسلام في مجده الأول من القرن 02 إلى القرن 05هـ (8-11م)، ترجمة وتعليق. إسماعيل العربي، الطبعة الثالثة، الرباط، منشورات دار الآفاق الجديدة، 1990.

* مؤنس، حسين:

190- فجر الأندلس - دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح إلى قيام الدولة الأموية 711-756م-، الطبعة الأولى، بيروت، العصر الحديث- دار المنهل، 2002.

191- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986.

192- الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة 512هـ/ 1118 مع أربع وثائق جديدة، دون طبعة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1991.

193- نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين " مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية" العدد الثالث، مدريد، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1955.

194- شيوخ العصر في الأندلس، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الرشاد، 1997.

* محمد أرزقي، فراد:

195- القوى المغربية في الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف القرن الخامس الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي، دون طبعة، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991.

* مزبان، عبد المجيد:

196- النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، دون طبعة، الجزائر، وزارة الثقافة، 2007.

* مصطفى سعد، سامية:

197- صور من المجتمع الأندلسي رؤية من خلال أشعار الأندلسيين وأمثالهم الشعبية، الطبعة الأولى، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998.

* مكى، محمود علي:

198- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين " صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1959-1960، المجلد السابع والثامن.

* المنوني ، محمد وآخرون:

199- التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، الطبعة الأولى، الرباط، شركة النشر والتوزيع الدارس، 1991.

* نكادي، يوسف:

200- الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، الطبعة الأولى، الرباط، مطبعة جسر، 2000.

* هدية، محمود:

201- إقتصاد النسيج في بلاد الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، دون طبعة، لندن، مؤسسة هنداي سي

آي سي، 2017.

* وات، مونتغمري:

202- في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة. محمد رضا المصري، الطبعة الثانية، بيروت، شركة المطبوعات

للتوزيع والنشر، 1998

ثالثا/ الرسائل الجامعية:

* اشتوي، أشرف يعقوب أحمد:

203- الأندلس في عصر الولاة 91-138هـ / 711-756م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف هشام

أبو رميلة، نابلس، جامعة النجاح الوطنية، 2004.

* بن خيرة، رقية:

204- الآفات الاجتماعية في الأندلس ما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين (ق 11- 12م) -

دراسة في ظاهرة الانحراف-، مذكرة دكتوراه غير منشورة، إشراف.عبيد بوداود، جامعة مصطفى اسطنبولي

معسكر، 2016-2017.

* بلغيث، محمد الأمين:

205- الحياة الفكرية في الأندلس، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد الحميد حاجيات، جامعة الجزائر، 2002-

2003.

206- الربط في المغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، مذكرة ماجستير ، إشراف. عبد

الحميد حاجيات، جامعة الجزائر، 1986- 1987.

* بلمداني، نوال:

207- نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 04-05 هـ / 10-11 م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف. فاطمة بلهوارى، جامعة وهران، 2013-2014.

* بوخاري، عمر:

208- البربر في الأندلس في عهد الطوائف خلال القرن 05 هـ / 11 م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف نصر الدين بن داود، جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان، 2014-2015.

* بودالية، تواتية:

209- البيئة في بلاد الأندلس عصري الخلافة وملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف فاطمة بلهوارى، جامعة وهران، 2013-2014.

* بولعراس، خميسي:

210- الحياة الاجتماعية والثقافية في عصر ملوك الطوائف 400-479 هـ / 1009-1086 م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف مسعود مزهودي، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2006-2007.

* حاج كولة، عبد العزيز:

211- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس من خلال النوازل الفقهية في القرنين 05-06 هـ / 11-12 م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر 02 بوزريعة، 2009-2010.

* حسبالوي، نسيم:

212- المجتمع في الأندلس من خلال كتب النوازل بين القرنين 04 و 07 هـ / 10 و 13 م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، 2015-2016.

* حميدي، مليكة:

213- الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة 92-897 هـ / 711-1492 م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر، 2013-2014.

* ربوح، عبد القادر:

214- الأحباس ودورها في المجتمع الأندلسي ما بين القرنين 4-9هـ / 10-15م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد الأمين بلغيث، جامعة الجزائر، 2005-2006.

* رمضان، رابح:

215- النشاط التجاري في الأندلس خلال القرنين الرابع والخامس هجريين العشر والحادي عشر ميلاديين، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد بن معمر، جامعة السانية وهران، 2007-2008.

* الرواشدة حسين ، نانسي:

216- الحياة العلمية في مرسية الإسلامية من القرن الخامس الهجري إلى القرن السابع الهجري، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد عبدة حتمالة، الجامعة الأردنية، 2001.

* صفى الدين، محي الدين:

217- المستعربون ودورهم في تاريخ الأندلس 138-483هـ / 755-1090م،(مذكرة ماجستير غير منشورة)، إشراف. عبد القادر بوباية، جامعة وهران السانية، 2007-2008.

* العابد، وردة:

218- القيادة العسكرية في الثغرين الأدنى والأعلى بالأندلس في القرن الخامس هجري حتى الربع الأول من القرن السادس هجري ق 11-12م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف. إبراهيم بكير بحاز، جامعة محمود منتوري قسنطينة، 2007-2008م.

* عفانة، فلنتينا سليمان:

219- مملكة إشبيلية زمن بني عباد وعلاقاتهم الداخلية والخارجية (414-484هـ / 1023-1069م)، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف هشام أبو رميلة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2002.

* عيوني، محمد:

220- دور الرقيق في الحياة السياسية والثقافية ببلاد المغرب والأندلس خلال القرنين 04-05 الهجريين، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف توفيق مزارى عبد الصمد، جامعة الجزائر 01، 2012-2013.

* العمودي، عدنان صالح عبد الله:

221- التعليم في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف السعيد محمود السعيد عثمان، جامعة أم القرى، 1430-1431هـ.

* عميور، سكيئة:

222- ريف المغرب الأوسط في القرنين 05-06هـ / 11-12م، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف إبراهيم بكير بحاز، جامعة قسنطينة 02، 2012-2013.

* لعناني، مريامة:

223- الأسرة الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف عبد العزيز فيلاي، جامعة منتوري قسنطينة، دون تاريخ

* أبو المعاطي، زكريا محمد العباسي:

224- الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (238-488هـ / 852-1095م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف. طاهر راغب حسين، جامعة القاهرة، 2000.

* هياجنة، محمود حسين شبيب:

225- الوضع الزراعي في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط دولة المرابطين، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف. محمد عبده حتملة، الجامعة الأردنية، 1989.

* اليحيان، سعاد بنت عبد الله بن عبد العزيز:

226- المرأة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين (453-541هـ / 1061-1116م)، مذكرة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد بن صالح السحيباني، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1435-1436هـ.

* يخلف، حاج عبد القادر:

227- الدور السياسي والإسهام الفكري لصنهاجة في الأندلس من القرن 04هـ إلى غاية نهاية القرن 06هـ / 10-12م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، إشراف عبد القادر بويابة، جامعة وهران 01، 2016-2017.

رابعاً/ المقالات العربية والمعرية:

* بنحمادة، سعيد:

228- الملكية العقارية وقانون الماء ببلاد المغرب والأندلس بين التشريع النظري والتنزيل التاريخي دراسة لأثر الجغرافيا التاريخية في تبيئة القانون، "التاريخ والقانون التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة"، سلسلة الندوات رقم 22، جامعة مولاي إسماعيل مكناس، 2009.

229- التراث الفلاحي الإسلامي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط مقوماته ومراحل تطوره، "الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط"، إشراف. حسن حافظ علوي، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011.

* بن خيرة، رقية:

230- الجسد الأنثوي والمجتمع الأندلسي (ق5- 6هـ / 11- 12م) قراءة في صوره وتمثالاته " عصور جديدة" العدد 19- 20، 2015.

* بنميرة، عمر:

231- جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية، "دراسات أندلسية" العدد 14، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1995.

* بوتشيش، إبراهيم القدري:

232- ظاهرة الزواج في لأندلس إبان الحقبة المرابطية من خلال نصوص ووثائق جديدة "مجلة دراسات أندلسية"، العدد التاسع، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1993.

233- المرابطون وسياسة التسامح مع النصارى "دراسات أندلسية" العدد الحادي عشر، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر، 1994.

234- مخطوطة نوازل ابن الحاج مصدر جديد في تاريخ المجال القروي بالمغرب والأندلس في عصر المرابطين، "البداية المغربية عبر التاريخ"، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 77، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1999.

235- أثر قيام الدولة وسقوطها في التطور الديمغرافي في العصر الوسيط - دراسة حالة- "مجلة كنانيش"، العدد الأول، جامعة محمد الأول وجدة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999.

* بوتشيش، إبراهيم القادري والبياض عبد الهادي:

236- التربة آفاتا تقنيات معالجتها وتدمير استغلالها في ضوء الأدبيات الفلاحية الأندلسية (القرن

05هـ/ 11م) "الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط" ندوة علمية لمؤسسة الملك

عبد العزيز بالدار البيضاء وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، إشراف. حسن حافظ علوي، الرباط،

منشورات عكاظ، 2011

* البوكيلي، فائزة:

237- التراث الفلاحي بالأندلس في عهد كل من ملوك الطوائف والمرابطين، "الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط"، إشراف. حسن حافظ علوي، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011.

* البياض، عبد الهادي:

238- تدبير النزاع بين الفلاحين في بوادي المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، "أعمال ندوة لتاريخ والقانون- التقاسمات المعرفية والاهتمامات المشتركة"، جامعة مولاي إسماعيل مكناس، 2009.

* تريكي، فتيحة وبوباية عبد القادر:

239- قراء تاريخية في الصناعات النباتية ببلاد الأندلس في العصر الوسيط، "عصور جديدة"، العدد الثالث، 2019.

* جاد الرب، عبد القادر عثمان محمد:

240- المستعربون في عصر ملوك الطوائف بالأندلس 403- 486هـ/ 1012- 1093م "مجلة التاريخ العربي" العدد 25، الرباط، جمعية المؤرخين المغاربة، 2003.

* الحماد، محمد عبد الله:

241- التخطيط العمراني لمدينة الأندلس الإسلامية، "ندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات"، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة عبد العزيز العامة، 1996.

* الدبابي، سهام الميساوي:

242- الخبز طعاما في الأندلس في القرون الخامس والسادس والسابع الهجري (11- 12- 13م) "دراسات أندلسية" العدد 07، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1992.

* دندش، عصمت عبد اللطيف:

243- من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس طقوس الجنائز "دراسات أندلسية" العدد 13، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1995.

* دي إيبالزا، ميكيل:

244- المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس المسلمة، "الحضارة العربية في الأندلس"، تحرير. سلمى خضراء الجيوسي، الطبعة الثانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999.

* ديمانند، م.س:

245- الفنون الإسلامية، ترجمة. أحمد عيسى، مراجعة وتقديم. أحمد فكري، دون طبعة، القاهرة، دار المعارف، دون تاريخ.

* رابح فيسة، محمد:

246- معايير العمران الريفي وتحليلاتها الميدانية في ريف تلمسان- قرى بني سوس نموذجاً-، " الإنسان والمجتمع" العدد 07، ديسمبر 2013،- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة أوبكر بلقايد تلمسان

247- إحصاء جملة من قرى بلاد الأندلس من خلال مصادر وكتب التاريخ الإسلامي " مجلة الإنسان والمجتمع" العدد 09، ديسمبر 2014، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

248- الأقسام المعمارية للمنزل الريفي البربري من خلال دراسة بعض النماذج من قرى بني سوس في تلمسان، " مجلة كان التاريخية"، العدد 28، جوان 2015، www.kanhistorique.org.

* زناتي، أنور محمود:

249- أمثال العوام مصدرا للنشاط الزراعي في الأندلس الزجالي وابن عاصم أنموذجاً، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد 22، نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2017.

* السيد عبد العزيز سالم ، سحر:

250- ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي، " مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد"، مدريد، 1995، المجلد السابع والعشرون.

* شايندلين، ريموند:

251- اليهود في إسبانيا المسلمة، " الحضارة العربية في الأندلس " ، تحرير. سلمى خضراء الجيوسي، الطبعة الثانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، الجزء الأول.

* شيخة، جمعة:

252- شلب الإسلامية عبر التاريخ من خلال المصادر العربية " دراسات أندلسية"، العدد 17، تونس، المطبعة المغاربية للنشر والإشهار والطباعة، 1998.

* العبادي، أحمد مختار:

253- الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية- الصناعة والأصناف-، " عالم الفكر"، العدد 01، أبريل- جوان 1980، الكويت، وزارة الإعلام.

* عبد الله، ناجية:

254- المعايير المميزة للريف والحضر، "مجلة المجمع العلمي العراقي" المجلد 39- الجزء الثاني، بغداد، 1988.

* عبد العزيز هشام، فوزي:

255- يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي 92- 897هـ / 711- 1492م، "دراسات أندلسية"، العدد الخامس عشر، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1996.

* عمارة، علاوة:

256- مدريد الإسلامية من هن خلال دراسة غربية جديدة "مجلة الآداب والعلوم الإنسانية"، العدد الثاني عشر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2011.

* غيثار، بيار:

257- التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين من بداية القرن 8 م إلى بداية القرن 13م، <<الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس>>، ترجمة. مصطفى الرقي، تحرير. سلمى خضراء الجيوسي، الطبعة الثانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1996، الجزء الثاني.

* كونستبل، أوليفيا ريمي:

258- التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، ترجمة. عبد الواحد لؤلؤة، تحرير. سلمى خضراء الجيوسي، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998، الجزء الثاني.

* لوبيز غوميز، مارغريتا:

259- المستعربون نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس "الحضارة العربية في الأندلس" تحرير. سلمى خضراء الجيوسي، الطبعة الثانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، الجزء الأول.

* محمود عبد الحسن، ثريا:

260- أزياء المجتمع الأندلسي 92- 625هـ، "مجلة كلية الآداب"، العدد 102، بغداد، جامعة بغداد، 2012.

* نكادي، يوسف:

- 261- إسهامات البحث الأثري في الكشف عن جوانب من واقع البادية الأندلسي، " أعمال الورشة الأولى لأيام تاريخ المغرب"، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية إفران، 22-24 نوفمبر 2004.
- 262- الأسرة في البادية الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري، " الأسرة البدوية في تاريخ المغرب"، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، القنيطرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، الرباط، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2006.

* هواري، موسى:

- 263- تخزين الحبوب ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، " مجلة الحكمة التاريخية"، العدد الثامن، الجزائر، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، 2016.

* وينز ، دايفد:

- 264- فنون الطبخ في الأندلس، تر. عبد الواحد لؤلؤة " الحضارة العربية في إسبانيا"، تح. سلمى خضراء الجيوسي، الطبعة الثانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، الجزء الثاني.
- * اليعقوبي، حسين:

- 265- قصائد غير منشورة في الاستصراخ والإصراخ، "دراسات أندلسية"، العدد الخامس، تونس، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1990.

خامسا/ الكتب والمقالات الأجنبية:

***Bolens, Lucie :**

- 266- la révolution agricole andalouse au x ème siecle, studia islamica, XL VII, Paris, 1978

*** Chalmeta, Gendron Pedro:**

- 267- El Senor del Zoco en Espana, Instituto hispano- arabe de cultura, Madrid, 1973.

*** Cavanah Murphy, James:**

- 268- The Arabian Antiquities of spain, London.

*** Glick, Thomas F:**

269- islamic and Christian Spain in the early middle ages, Princeton university press, Newgersy, 1965.

*** GUICHARD, Pierre:**

270- Structures Sociales<< Orientales>> et -<<Occidentales >> Dans l'Espagne Musulmane ,Mouton, Paris, 1977.

271- Paysans d' al- Andalus X^e - XIV^e , histoire des Espagnols, Paris, Armand Colin, 1985.

Grimaldi, Charlotte :

272- le réglementation de l'eau sous l'ancien régime,<< <https://clio-texte.clionautes.org/la-reglementation-de-leau-sous-lancien-regime.html> >>, 01 oct 2015.

*** Imamuddin, Sayyid Muhammad:**

273- som aspects of the socio- economic and cultural history of muslim spain 711- 1492, A.D. Leiden- E.J. Brill , 1965

*** Lagardère, Vincent :**

274- le commerce des céréales entre al-Andalus et le Maghrib aux XI e siècles, " أعمال ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى"، سلسلة " ندوات ومناظرات رقم 48، تنسيق. محمد حمام، الرباط، طلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995.

*** provençal, Lévi:**

275- histoire du l' Espagne musulmane, Paris, 1953, t1, t3

الفهارس العامة

- فهرس الأعلام:

البرزلي: 10.	* أ *
باديس بن حبوس الصنهاجي: 48 - 111 - 112.	ابن الأبار: 125.
ابن بسام الشنتريني: 12 - 65 - 109 - 125 - 126 - 140 - 155 - 174 - 178 - 225 - 267 - 292 - 293 - 303.	ابن الأثير: 75.
ابن بشتغير: 10.	ابن أبي الخصال: 133.
ابن بشكوال: 14 - 68.	ابن أبي زرع: 75 - 76 - 92 - 139 - 197.
بلغيث: 04.	أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري: 288.
أبو بكر بن حازم القاضي: 123.	أحمد بن عبد الملك بن شهيد: 40.
أبو بكر عبد الرحمان بن عبد الرحمان بن عيسى بن رجاء الحجري الشمنتاني: 298.	أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن الحسن بن مسعود الجذامي: 298.
البكري: 11 - 116 - 140 - 243.	إدريس بن مدرك: 125.
أبو بكر بن عبد العزيز الوزير: 47.	الإدريسي: 11 - 36 - 57 - 58 - 68 - 97 - 113 - 114 - 117 - 190 - 199 - 239 - 240 - 249 - 250 - 256 - 261 - 262 - 269 - 271 - 272 - 273 - 274 - 277 - 281 - 283 - 284.
أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري: 294.	أرسلان شكيب: 116.
أبو بكر محمد الأعمى المخزومي: 66 - 293 - 294.	أرطباس: 46.
أبو بكر يحيى بن سهل اليكي: 294.	أبو إسحاق إبراهيم بن شاعر بن خاطر: 298.
بلج بن بشير القشيري: 32 - 73 - 80 - 87.	أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود: 295.
ابن بلقين عبد الله: 107 - 109 - 111 - 118 - 121 - 145.	إسماعيل بن عباد: 217.
بنحمادة سعيد: 05.	الإصطخري: 32 - 100.
بنشريفة محمد: 13.	ألفونسو السادس: 105 - 178.
بوتشيش إبراهيم القدري: 02 - 04 - 74 - 90.	ألفونسو المحارب: 105 - 107 - 109.
* ت *	أيوب بن حبيب اللخمي: 86.
تاشفين بن علي: 75 - 112.	* ب *
	بروفنسال ليفي: 03 - 267.

- التليلى المخطار بن الطاهر: 10.
- * ج *
- الجاحظ: 03
- أبو جعفر أحمد بن عباس الوزير: 48.
- جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي: 88.
- جرندة الجليقي: 100.
- * ح *
- ابن الحاج الشهيد: 10-58-122-125
- 130-132-156-162-166-221
- 223-260-301
- ابن حجاج الإشبيلي: 53.
- حجاج بن محمد بن عبد الله المراكشي: 290-
- 298
- الحر بن عبد الرحمن الثقفي الوالي: 73.
- ابن حزم الأندلسي: 13-14-40-65
- 74-77-79-80-81-82-84
- 100-120-124-277-289-297
- 312
- أبو الحسن بن أضحى القاضي: 126.
- أبو حفص عمر بن الشهيد الوزير: 191-194.
- حقي محمد: 15.
- الحكم الثاني المستنصر بالله الأموي: 88.
- الحموي: 12-36-37-39.
- الحميدي: 14-185-187.
- الحميري: 12-37-45-49-52-57
- 63-177-199-249.
- ابن حوقل: 12-24-31-41-107.
- ابن حيان: 29-87-108.
- * خ *
- ابن خاقان: 47-89-123-293.
- الخشني: 40.
- أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي: 32-73-
- 78.
- ابن الخطيب: 14-37-48-51-54-
- 69-78-95-107-109-110
- 172-185-226-237-245-293.
- ابن خلدون عبد الرحمان: 20-23-28-62-
- 64-65-88-100-122-124
- 201-216-244-257.
- خلف بن موسى بن فتوح المقرئ: 299.
- أبو الخير الأندلسي: 232-254-263.
- * د *
- دندش عصمت عبد اللطيف: 05.
- * ذ *
- ذو النون عبد الواحد طه: 15.
- * ر *
- الرازي أحمد بن محمد: 29-50-52.
- أبو رافع الفضل بن علي بن أحمد بن حزم الوزير:
- 124.
- ابن رشد الجد: 10-46-59-62-102-
- 114-135-149-156-161-166
- 212-220-224-225-235-238
- 260-283-284-306.

الشعبي: 10-136-145-153-160-219-221-224.

* ص *

ابن صاحب الصلاة: 76-108-125-283.

* ط *

طارق بن زياد: 46-72-85-86-93-111.

الطاهري أحمد: 05.

أبو الطاهر يوسف بن محمد الأشكري: 294.

الطغنري: 228-263.

* ع *

أبو عامر بن شهيد: 121.

عباس إحسان: 12.

أبو العباس أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج بن

عيسى اللخمي المقرئ: 290-299.

ابن عبد الرؤوف: 11-265.

عبد الرحمن الداخل: 73-87.

عبد الرحمن بن الحكم: 33.

عبد الرحمن الغافقي: 81.

عبد الرحمن الناصر: 33-40-74-87-108.

عبد العزيز سالم: 04.

عبد العزيز بن موسى بن نصير: 72-86.

أبو عبد الله بن أبي إبراهيم إسماعيل بن أبي يعقوب

يوسف: 108.

عبد الله بن أدهم القاضي: 75.

أبو عبد الله بن الحسن الجذامي القاضي: 121.

* ز *

الزحالي: 13.

ابن زهر محمد بن مروان: 12-119-124.

الزهري: 11-239-249-261-262-273-281-283.

زهير الفتى الصقلبي: 48.

أبو زيد عبد الرحمان بن مقانا الأشبوبي: 294.

* س *

سعد بن عبادة الصامت الصحابي: 82.

سعد بن عوف الصحابي: 79.

سعيد بن أحمد بن زيفل: 122.

ابن سعيد المغربي: 13-24-27-42-54-56-57-59-66-67-69-80-117-151-154-155-184-190-241-266-267-291-293-301.

سعيد بن هشام بن دحون: 184.

ابن السقاء الوزير: 121.

السقطي: 11-263-264.

السلأوي: 22-92.

سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمان الناصر

الملقب بالمستعين بالله: 94-95-121.

ابن سهل الأندلسي: 10-61-115-126-153-186-205-220-223-228.

سير بن أبي بكر اللمتوني: 91.

* ش *

ابن الشباط: 40.

- عبد الله بن محمد: 49.
- أبو عبد الله محمد بن أصبغ بن المناصف القاضي: 123.
- أبو عبد الله محمد بن الحسن الجذامي النباهي: 123-124-127.
- بو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن شيرين الجذامي: 298.
- أبو عبد الله محمد بن سعيد الأموي البشكلازي: 294.
- عبد المؤمن بن علي: 76-84-91.
- عبد الملك بن قطن الوالي: 86-87.
- عبد المنعم حمدي: 04.
- ابن عبدون: 11-117-133-138.
- 145-151-152-158-183-185-216-236.
- ابن عذارى المراكشي: 14-58-72-87.
- 91-108-112-119-129-134.
- 164-179-225-250-252.
- العذري: 11-36-37-39-47-48.
- 53-80-82-100-233-243.
- 244-281-282-301.
- ابن العربي أبو بكر الفقيه: 148.
- عريب بن سعيد: 12.
- ابن العطار: 184.
- عقبة بن أبي معيط: 74.
- أبو علي إدريس بن اليماني العبدري: 294.
- علي بن سليمان بن أحمد بن سليمان: 290.
- علي بن مجاهد: 119.
- علي بن محمد بن هذيان البلنسي: 289.
- علي بن يحيى بن عيسى القرشي: 289-299.
- علي بن يوسف بن تاشفين: 75-91-112.
- أبو عمرو أحمد بن محمد بن دراج القسطلبي: 292-294.
- أبو عمر مرجى بن يونس بن سليمان بن عمر بن عبد الغافقي: 299.
- أبو عمر معوذ بن داوود بن معوذ بن دلهاب الأسدي: 130-225.
- ابن العوام: 12-53-196-232-254.
- عياض القاضي: 10-14-123-131-298.
- عيسى بن صالح بن مروان: 289.
- * غ *
- ابن غالب: 11-27-37-42-79-80-83.
- غيطشة: 46.
- * ف *
- فرناندو الأول: 178.
- الفيروز أبادي: 19.
- * ق *
- أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي: 191.
- أبو القاسم خلف مولى يوسف بن بملول: 296.
- قرني حسن: 05-15.
- ابن القوطية: 72-86-102.

* ك *

كعواس ميلود: 15.

* م *

المأمون بن ذي النون أبو الحسن يحيى: 74 - 183 - 234.

مؤنس حسين: 15 - 73 - 74 - 75.

مبارك الفتى العامري: 118 - 119.

محمد بن عبد الله الجذامي: 289.

محمد بن عبد الله بن سعيد: 289.

أبو محمد عبد الله بن عيسى الشيباني: 298.

محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري: 289 - 293 - 294.

محمد بن القاضي عياض: 10.

محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملق بالمهدي: 94.

المراكشي عبد الواحد: 85 - 90 - 91 - 293.

أبو مروان عبد الله بن محمد بن مالك: 130 - 225.

أبو مروان الطنبلي: 123.

مزارى عبد الصمد توفيق: 04.

مزدلي الأمير المرباطي: 91.

مظفر الفتى العامري: 118 - 119.

أبو المعاطي زكريا: 15 - 16.

المعتصم بن صمادح: 47 - 119 - 233 - 243 - 294.

المعتضد بن عباد: 119 - 120.

المعتمد بن عباد: 56 - 64 - 124 - 126 - 293.

المقري التلمساني: 14 - 40 - 48 - 52 - 56 - 60 - 63 - 64 - 65 - 77 - 82 - 86 - 94.

122 - 163 - 177 - 183 - 186 - 251 - 273 - 281 - 291.

المنصور بن أبي عامر: 65 - 74 - 88 - 94.

المنصور أبو يوسف يعقوب الموحدى: 48 - 77 - 127 - 139 - 161.

ابن منظور: 19 - 22.

موسى بن نضير: 72 - 86 - 93 - 96.

مونتغمري واط: 03.

* ن *

نزهون القلاعية الشاعرة: 66 - 293.

النعمان بن بشير الصحابي: 79.

نكادي يوسف: 05 - 16 - 285.

* ه *

هياجنة محمود حسين: 06.

* و *

ابن وافد: 12 - 200.

ابن ورد الفقيه: 106.

أبو الوليد الباجي: 295.

أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكناني الوقشي: 298.

الونشريسي: 10 - 152 - 156 - 198.

أبو وهب عبد الأعلى: 296.

* ي *

يخلف عبد القادر: 15.

اليعقوبي: 32 - 41.

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن: 92 - 95.

اليوسفي أحمد شعيب: 10.

يوسف بن تاشفين: 24 - 64 - 75 - 90.

91 - 112 - 121 - 123.

يوسف بن النغريلة: 111 - 295.

- فهرس الأماكن

190 - 197 - 232 - 241 - 242 - 243	* أ *
244 - 249 - 250 - 252 - 256 - 262	أبال (حصن): 270
265 - 273 - 278 - 282 - 289 - 290	إبرة (نهر): 34 - 51
293 - 298 - 299 - 301 - 303 - 311	أبيلا: 101
318 - 319	أبي مريم (إقليم): 170
أشتريش (حصن): 44	أجدانية: 100
أشكر (قرية): 245	إختانية (قرية): 81
أشكركه (قرية): 294	الأردن: 06 - 78
أشونة (حصن): 97	أرش اليمن (قرية): 81 - 82
أطراة (قرية): 160	أرغون: 98
أطرية (قرية): 289 - 299	الأرك: 77 - 92
إفراغة: 31 - 242	أركش (قرية): 240 - 271
إفريقية: 10 - 73 - 75 - 76 - 77 - 87	إسبانيا: 03 - 16 - 29 - 30 - 264 - 275
262 - 281	إستجة: 34 - 250 - 262
إقليمش: 75 - 39 - 290	الإسكندرية: 262 - 281 - 282
أقيانش (قرية): 169	الأسناد (جزء): 39
أكشونة: 35 - 37	آش (قرية): 79
ألبونت: 98 - 116 - 272 - 296	أشبرة (قرية): 299
إلبيرة: 33 - 34 - 37 - 43 - 44 - 78 - 80	أشبرغرة (قرية): 99
84 - 94 - 99 - 107 - 110 - 244	أشبونة: 35 - 158 - 237 - 256 - 294
298	إشبيلية: 24 - 30 - 31 - 33 - 37 - 38
إلش (إقليم): 38 - 81 - 266	39 - 41 - 42 - 46 - 48 - 52 - 54 - 56
أليسانة: 113 - 114	59 - 60 - 63 - 65 - 74 - 78 - 79 - 80
آنة (قرية): 109 - 303	81 - 84 - 85 - 91 - 99 - 104 - 106
آنة (نهر): 34 - 100	110 - 119 - 123 - 124 - 125 - 127
أندة (إقليم): 38 - 271	156 - 176 - 180 - 181 - 182 - 184

- أندرش: 54-274.
الأنجرون (قرية): 199.
أورش (إقليم): 37.
أوريولة: 284-283.
أونبة (قرية): 83-110-303.
إيبيريا: 29.
- * ب *
- باجة: 33-37-73-256-271.
باغة: 52-132-166-168-199-237.
بالش (إقليم): 38.
بيشتر (حصن): 108.
بيلكونة (قرية): 99.
البحريين (قرية): 79.
بحر الإنقليشيين: 49.
البحر الرومي: 51.
البحر الشامى: 49-273.
البحر المظلم: 49.
بجانة: 78-81-82-113-199-235-261-270-271-273.
البراجلة (قرية): 80.
براقرة: 30.
بريطانية: 34-44.
البرتات (جبال): 49-50.
برشانة (حصن): 44-67-68-69-95.
برشلونة: 78-98.
- بركانية (جزء): 39.
بزليانة (قرية): 27-42-57-62-175-273-298.
بسطة: 256-269-279-282.
البشرة (قرية): 80.
بشكالار (قرية): 289-297.
البصل (إقليم): 38.
بطرانة (قرية): 272.
بطروش (قرية): 68-181.
بطليوس: 34-78-100-159-168-223-275-298.
بقرذيرة (قرية): 99.
بقيرة: 31.
بكيران (حصن): 58-268-274-279-319.
بلاي (حصن): 97.
بلش (حصن): 199-300.
بلشانة (حصن): 262.
بلغير: 31.
بلنسية: 32-37-38-39-44-47-50-78-81-95-98-119-121-160-201-237-239-243-244-262-269-270-271-272-275-279-283-289-296-309-318.
بمارش (حصن): 108.
بنتيج (قرية): 109.

جطرون (قرية): 106-109.
جئات المصلى (إقليم): 243-318.
جيان: 33-34-40-41-42-44-66-78-82-84-85-94-99-116-122-162-203-233-237-249-256-262-269-274-275-278-279-282-283-289-297-298-301.

* ح *

الحمة (حصن): 56-177-199-235-270.

* خ *

الخزرج (قرية): 82.

* د *

دانية: 53-98-119-241-268-279-269.

دجلة (نهر): 56.

دروقة: 84-283-284.

دمشق: 41-73-78.

* ذ *

ذكوآن (قرية): 99.

ذيرد الحباله (قرية): 273.

* ر *

ربع اليمن (إقليم): 80.

ربينة (قرية): 106-109.

بنشكلة (حصن): 44.

بني عبدوس (قرية): 261.

بني غتيل (جزء): 39.

بياسة: 123-127-129-212.

بيانة (حصن): 34-117-237-262.

بيران (قرية): 98.

بيرة (إقليم): 301.

البيضاء (جزء): 39.

* ت *

تاجة (نهر): 34-52-78-79.

تارة (قرية): 63.

تاكرنا: 244-249-278.

تدمير: 32-33-37-38-64-78-81-84-85-121-199-268-301.

ترجيلة (قرية): 100.

تطيلة: 31-35.

تلمسان: 76.

تنالة (قرية): 268-279-282-319.

تبيل بني أوس (إقليم): 80.

تبيل بني هود (إقليم): 80.

* ج *

الجزائر الشرقية: 119.

الجزيرة (جزء): 39.

الجزيرة الخضراء: 37-39-78-80-94-95-100-244-273-307.

شذونة: 33-34-38-78-84-94-131.	رنبة (حصن): 44.
الشرف (إقليم): 41-52-53-54-56-59-62-65-79-80-120-127-159-232-242-256-262-278-281-311-318-319.	رية: 27-33-37-41-78-83-100-108-130-225.
شريش: 34-55-84-176-262-265.	* ز *
شقر: 79.	الزبارقة (قرية): 82.
شقنلة (قرية): 97.	زناتة (إقليم): 38.
شقورة: 41-44-79-81-122-249-290.	* س *
شلب: 68-77-83-100-149-210-241-244-281-289-292-298-311-318.	الساحل (جزء): 39.
شلطيش: 83.	سجلماصة: 282.
شلوبانية (قرية): 54-243-264-311-318.	سرقسطة: 31-35-37-50-78-82-84-85-94-98-108-119-180-181-237-240-244-289-294-299.
شلون (إقليم): 38.	السقائين (قرية): 63-206.
شليز (جبل): 41-50-243-256-278-282.	سكيان (حصن): 100.
شلينة (إقليم): 38.	سلا: 106.
شمنتان (حصن): 298.	سهلة بنو رزين (قرية): 97.
شنبوس: 289.	* ش *
شنترية: 35-44.	الشارات (جبل): 50-249-250-280.
شنتجiale (إقليم): 38.	شاط (قرية): 182-216-240-277-318-319.
شنترين: 35-52-237-239-284.	شاطبة: 39-95-98-237-268-289.
	الشام: 20-77-78-272.
	شبالش (حصن): 67.
	شبيرة (قرية): 258.
	شتيمة البربر (قرية): 170.

272-278-280-282-288-290	شنتقنيرة (فحص): 43-280.
298-299-311-318.	شنت بيطر (حصن): 108.
طوس (قرية): 233.	شندلية (حصن): 108.
طوطالقة: 271.	الشنشين (إقليم): 241-281.
طيبالية (إقليم): 38.	شنقير: 249-280.
* ع *	شنوس (قرية): 289.
عذرة (قرية): 57-58-62-273.	شنيل (واد): 78.
العراق: 20-272.	شوذر (قرية): 45-66-82-116-262.
عسلوكة (قرية): 273.	274-301-311-319.
العقبين (حصن): 66-301.	شوش الأنصار (قرية): 79.
عين الديك (قرية): 109.	شيرس (حصن): 244.
* غ *	* ص *
غافق (حصن): 67.	صالحة (قرية): 65-80.
العافقيين (قرية): 83.	* ط *
الغال: 49.	طالقة (إقليم): 62-63.
غرناطة: 14-37-41-42-48-80	طرطوشة: 35-37-44-97-98-279.
81-85-91-95-105-107-108	طركونة: 30-31-35-44-99-113.
109-110-111-112-113-116	طغمر (قرية): 81.
118-121-123-126-162-177	طلبيرة: 33-82-298.
178-180-199-203-232-237	الطلح (واد): 54-56.
238-243-244-255-256-266	طلياطة (قرية): 42-58-62.
278-282-293-294-295-304	طليطلة: 30-31-35-42-44-47.
غلنار (جزء): 39.	50-58-63-75-78-82-83-85
* ف *	90-91-93-100-101-106
فحص البلوط: 43-68-96-249.	108-109-110-116-178-180
فحص شاطبة (جزء): 39.	184-223-236-243-249-271

84 - 85 - 89 - 91 - 94 - 95 - 96	الفرات (نهر): 56.
97 - 100 - 110 - 112 - 113 - 114	فراطة (حصن): 44.
117 - 120 - 123 - 126 - 127 - 128	فرغليط (قرية): 290.
160 - 170 - 173 - 176 - 178 - 179	فرقصة (حصن): 268.
181 - 185 - 187 - 197 - 198 - 205	فرنخولش (قرية): 240 - 271.
206 - 211 - 212 - 218 - 220 - 224	فريش: 35 - 37 - 271.
237 - 238 - 240 - 242 - 250 - 251	فقيرة (جزء): 39.
254 - 263 - 265 - 270 - 271 - 278	فلسطين: 78.
279 - 284 - 285 - 289 - 290 - 293	الفندون (إقليم): 36 - 52 - 237.
294 - 299 - 304 - 308 - 309	فنيانة (قرية): 51 - 109 - 240 - 256 - 268.
قرطمة: 27 - 42.	فيسانة (قرية): 273 - 274.
قرمونة: 80 - 237.	الفيوم: 243 - 282.
قسطانية (جزء): 39.	* ق *
قسطلة دراج (قرية): 99.	قادس: 100.
قسطنطينة (قرية): 271.	قبتور (قرية): 299.
قسطيلية: 34.	القبذاق (حصن): 239 - 274 - 294.
قشتالة: 105 - 178.	قبرة: 34 - 81 - 242 - 271.
القصر (إقليم): 37 - 184.	قتندة (إقليم): 38.
قصر أبي دانس: 256.	قربلان (قرية): 82.
قصر مضى: 101.	قربليان (قرية): 242.
قطانية (إقليم): 38.	قرشانة (قرية): 79.
قطرشانة (إقليم): 38.	قرطاجنة: 307.
قطرون (حصن): 44.	قرطبة: 12 - 31 - 32 - 36 - 37 - 38 - 40 - 41 - 42 - 43 - 46 - 49 - 52 - 56 - 62 - 63 - 66 - 67 - 75 - 76 - 81 - 83.
قطين (قرية): 289.	
قلب: 34.	
قلبيرة (جزء): 39.	

* ل * لاردة: 31 - 35 - 44 - 45 - 58 - 99 240 - 242 - 278. لبسنة (حصن): 108. لبص (قرية): 79. لبلة: 33 - 37 - 38 - 83 - 124 - 252 262 - 297. لقنت: 78 - 95 - 98 - 242 - 266. لقنة (حصن): 298. لقنيانة (قرية): 128. لكة (واد): 55 - 271. لماية (إقليم): 100 - 298. لورقة: 63 - 95. لورقة (حصن): 271.	قلصة (حصن): 279. قلعة أيوب: 39 - 45 - 52 - 84 - 270 283 - 284. قلعة جابر: 56. قلعة حولان: 80. قلعة رباح: 35 - 41 - 45 - 52 - 83 - 184 244. قلعة شنت فيلة: 97. قلعة كنزولة: 100. قلمرية: 35. قلهرة: 31. قمارش (حصن): 240. القمح (جزء): 38. قنبرشة (قرية): 63. قنب قيس (إقليم): 80. قنتش (إقليم): 38. القواسم (إقليم): 38. قورية: 35 - 100 - 241. القيروان: 282. قيشاطة (حصن): 45 - 269 - 274 - 279 282 - 311 - 319.
* م * ماردة: 30 - 34 - 37 - 42 - 78 95 - 100 - 251. ماشيجكان: 58. مالقة: 34 - 42 - 57 - 65 - 78 - 80 - 99 110 - 123 - 124 - 162 - 182 - 203 232 - 240 - 241 - 261 - 266 - 270 281 - 298 - 304 - 311 - 318. مجريط: 44 - 270 - 284. مدلين (حصن): 100 - 251. المدور (حصن): 66 - 67 - 68 - 97 - 240 271 - 293.	* ك * كرتش (إقليم): 271. كركي (حصن): 45. كنانة (إقليم): 38. كنتابرية (جبل): 50.

121 - 138 - 182 - 238 - 262 - 269	مدينة التراب: 39.
280 - 281 - 282 - 283 - 319	مدينة سالم: 35 - 38 - 44.
مكادة: 101.	مراد (حصن): 81.
مكناسة: 106.	مراكش: 84.
مكناسة (حصن): 100.	مريبطر (جزء): 39.
ملاحة (قرية): 81.	مرتش (قرية): 116.
منتك (حصن): 97.	مرجيف (حصن): 298 - 299.
منت ليشم (قرية): 124 - 297.	مرسية: 33 - 42 - 43 - 50 - 52 - 78.
ومنتيون (حصن): 271.	85 - 95 - 98 - 118 - 199 - 233.
مندوجر (حصن): 273.	237 - 239 - 240 - 249 - 268 - 270.
منزل رزين: 101.	271 - 278 - 279 - 280 - 282 - 288.
منشتال (قرية): 110.	293 - 294 - 309.
المنكب: 54 - 175 - 182 - 224 - 240.	مركيش (حصن): 290.
243 - 277 - 289 - 299 - 311 - 318.	مريانة الغافقي (قرية): 59 - 65 - 79 - 159.
319.	المرية: 47 - 48 - 50 - 53 - 56 - 57 - 58.
منية المغيرة: 62 - 212.	67 - 78 - 95 - 113 - 119 - 177.
منورقة: 250.	180 - 234 - 243 - 256 - 270 - 273.
مورور: 33 - 34 - 94.	274 - 298 - 308.
موره (إقليم): 38.	مسيل (جزء): 39.
ميورقة: 125 - 184 - 249 - 251 - 266.	مصر: 19 - 52 - 78 - 87 - 190 - 243.
277 - 279 - 289.	262 - 272 - 281 - 282 - 290.
* ن *	مصمودة (جزء): 39.
نارحة (قرية): 42 - 57 - 177.	مغام (قرية): 272.
ناشرة (قرية): 271.	مغيلة (قرية): 99.
نربونة: 30.	المغرب: 03 - 05 - 10 - 13 - 14 - 15.
نفزة (حصن): 100.	16 - 19 - 66 - 87 - 88 - 90 - 91 - 95.

نيسابور: 126.

النيل (نهر): 19 - 52 - 56.

* ه *

هضبة الميسيتا: 49 - 50 - 51.

همدان (قرية): 42 - 80 - 294.

هواره (حصن): 100.

* و *

وادي آش: 80 - 99 - 108 - 109 - 118 -

125 - 240 - 256 - 258.

وادي المستعربين (قرية): 109.

وبذة: 109.

ورشة (حصن): 98.

وشقة: 35 - 44 - 275.

وضاح (حصن): 83.

وقش (قرية): 298.

* ي *

يشرب (إقليم): 38.

يكه (حصن): 294.

اليمن: 261 - 281.

- فهرس المحتويات:

الصفحة	المحتويات
	شكر وعرفان
	الإهداء
2	مقدمة -----
16	الفصل الأول: الريف الأندلسي - المجال والخصائص -
19	أولا/ الريف - المصطلح والدلالة - -----
19	1- مفهوم الريف -----
19	أ- الريف في اللغة -----
20	ب- الريف في الاصطلاح -----
21	2- الفرق بين الريف والبادية -----
25	3 معايير تميز الريف -----
29	ثانيا/ الريف الأندلسي في التقسيم الإداري للبلاد -----
29	1- التنظيم الإداري للأندلس -----
36	2- مواطن الريف الأندلسي وأقسامه -----
36	أ- الأقاليم والأجزاء -----
40	ب- القرى والحصون -----
46	ج- الضياع والمنيات -----
49	ثالثا/ خصائص الريف الأندلسي -----
49	1- الخصائص الطبيعية -----
49	أ- تداخل عناصر الطبيعة وتأثيراتها -----
52	ب- نوعية التربة -----
54	ج- جمال الطبيعة -----
57	2- الخصائص العمرانية والبشرية -----
57	أ- الخصائص العمرانية -----
57	- تنظيم العمران الريفي الأندلسي -----
60	- مرافق الريف الأندلسي -----

64	ب- الخصائص البشرية -----
64	العصبية القبلية -----
66	أوصاف السكان -----
71	الفصل الثاني: مكونات المجتمع الريفي الأندلسي
72	أولاً/ عناصر المجتمع الريفي وإثنياته -----
72	1- العرب -----
72	أ- هجرات العرب إلى الأندلس -----
74	ب- مناطق الاستقرار العربي في الريف الأندلسي -----
85	2- البربر -----
85	أ- الهجرات البربرية إلى الأندلس -----
92	ب- مواطن البربر في الريف الأندلسي -----
101	3- أهل الذمة -----
102	أ- النصارى -----
111	ب- اليهود -----
118	ثانياً/ طبقات المجتمع الريفي -----
118	1- طبقة الملاك -----
118	أ- فئة الملاك الكبار -----
127	ب- فئة صغار الملاك والمتوسطين -----
131	2- الطبقة العاملة (غير المالكة) -----
132	أ- الفلاحون والمزارعون -----
134	ب- الرعاة -----
136	ج- العمال الأجراء -----
139	د- العبيد -----
143	الفصل الثالث: المظاهر الاجتماعية في المجتمع الريفي
144	أولاً/ الأسرة الريفية -----
144	1- تكوين الأسرة -----
145	أ- الخطبة -----
146	ب- عقد النكاح -----

ج-	الزفاف وترتيباته	148
2-	مكونات الأسرة وأوضاعها	152
أ-	الأطفال ورعايتهم	154
-	أوضاع البنات	156
-	أوضاع البنين	157
ب-	المرأة الريفية ومكانتها	159
3-	العلاقات الأسرية	165
أ-	العلاقة بين الزوجين	165
ب-	العلاقة بين الآباء والأولاد	167
ج-	العلاقة بين الإخوة وبقية أفراد الأسرة	168
ثانيا/	المستوى المعيشي للمجتمع الريفي	171
1-	الغذاء في المجتمع الريفي	171
أ-	ألوان الطعام وخصائصه	171
ب-	الفواكه والأشربة	182
2-	ألبسة المجتمع الريفي	184
أ-	أغطية الرأس	185
ب-	ألبسة البدن	187
ج-	ألبسة القدمين	189
3-	المساكن والبيوت	189
أ-	المظهر الخارجي للمسكن الريفي	190
ب-	تخطيط المنزل وأجزأؤه	191
ج-	تجهيزات المنزل وأثاثه	194
4-	الوضعية الصحية للمجتمع الريفي	195
أ-	الأمراض والأوبئة المنتشرة في الريف الأندلسي	195
ب-	العلاج وطرق التداوي عند المجتمع الريفي	198
ثالثا/	العلاقات الاجتماعية بين ساكنة الريف الأندلسي	200
1-	مظاهر التعاون والتضامن	201
أ-	التعاون في الأعمال الزراعية	201
ب-	المجتمع الريفي وسبل الخير	204

206	2-	النزاعات والخصومات بين أفراد المجتمع الريفي
206	أ-	نزاعات السقي
210	ب-	نزاعات الجيران
210	-	أضرار الجنان
211	-	النزاعات المتعلقة بالطرق والمحجات
215		الفصل الرابع: أنشطة المجتمع الريفي الأندلسي
216	أولا/	النشاط الاقتصادي للمجتمع الريفي
216	1-	النشاط الفلاحي
217	1-1-	طرق استغلال الملكيات الزراعية
217	أ-	نظم الشراكة
217	-	المزراعة
220	-	المغارسة
222	-	المساقاة
223	ب-	كراء الأراضي
225	ج-	الاستغلال المباشر
226	1-2-	تقنيات العمل الزراعي
226	أ-	استغلال الأرض بين الزراعة والمغارسة
226	-	تهيئة الأرض وتحضيرها
229	-	تقنيات الزراعة
230	-	تقنيات الغرسة
233	ب-	تقنيات السقي
235	1-3-	المحاصيل الزراعية
236	أ-	الحبوب والبقول
239	ب-	الفواكه
242	ج-	محاصيل زراعية أخرى
244	1-4-	تربية الحيوانات
244	أ-	مناطق الرعي
245	ب-	نظام الرعي
248	ج-	الثروة الحيوانية

248	-----	- الأغنام والماعز والأبقار
250	-----	- الخيل والبغال والحمير
252	-----	- الطيور المنزلية
255	-----	- الحشرات النافعة
257	-----	-2- النشاط الصناعي
258	-----	-1-2- الصناعة الغذائية
258	-----	أ- الأرحاء
261	-----	ب- صناعة الخبز
262	-----	ج- صناعة الزيت
263	-----	د- صناعة السكر
264	-----	هـ- صناعات غذائية أخرى
267	-----	-2-2- الصناعة النسيجية
268	-----	-3-2- صناعة الأدوات والمستلزمات
270	-----	-4-2- الصناعة الاستخراجية
272	-----	-3- النشاط التجاري
273	-----	-1-3- فضاءات النشاط التجاري عند المجتمع الريفي
273	-----	أ- الحوانيت
274	-----	ب- الأسواق
276	-----	-2-3- العروض والأسعار
276	-----	أ- العروض
276	-----	- السلع الموجهة للتجارة الداخلية
280	-----	- المشاركة في التجارة الخارجية
283	-----	ب- الأسعار
287	-----	ثانيا/ الحياة الثقافية والدينية في المجتمع الريفي
287	-----	-1- الحياة الثقافية
287	-----	أ- واقع التعليم عند المجتمع الريفي
291	-----	ب- إسهامات المجتمع الريفي في النشاط الثقافي
291	-----	- الأدب والشعر
295	-----	- علوم الشريعة

299	-----	الحياة الدينية - 2
300	-----	أ- دور العبادة في الريف الأندلسي
300	-----	- المساجد
303	-----	- الكنائس والبيع
305	-----	ب- إقامة الشعائر
305	-----	- الصلاة
308	-----	- الأعياد والمناسبات الدينية
313	-----	الخاتمة
320	-----	الملاحق
336	-----	قائمة المصادر والمراجع
369	-----	الفهارس العامة
370	-----	- فهرس الأعلام
376	-----	- فهرس الأماكن
385	-----	- فهرس المحتويات